جامعة الأزهر
كلية أصول الدين القاهرة
قسم التفسير وعلوم القرآن

دفع شبهات المفترين حول القرآن الكريم

دكتور
جمعة على عبد القادر
أستاذ ورئيس قسم التفسير وعلوم القرآن
عضو اللجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة

الطبعة الأولى
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م





****

تقديم للأستاذ الدكتور /القصبي محمود زلط
نائب رئيس جامعة الأزهر السابق
مقرر اللجنه العلميه الدائمه لترقية أساتذة قسم التفسير

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله محمد ﷺ سيد الخلق أجمعين ... وبعد

فالصراع بين الحق والباطل قديم يمتد ظهوره مع ظهور الإنسان على وجه الأرض ، وسوف يظل هذا الصراع ما دام هناك بشر يعيش في هذا العالم .

ومن العجب أن الإسلام هو الدين الوحيد من بين الأديان السماوية الذي يحظى بالنصيب الأوفر من السهام والطعون وحملات التشكيك والتضليل ، فما أكثر خصوم هذا الدين الذي جعله الله خاتم الأنبياء، وما أكثر السهام التي توجه إلى نبيه محمد ﷺ وإلى القرآن الكريم الذي نزل به ، وإلى المبادئ التي نادى بها.

ومن العجب أيضاً أن الشبهات المثاره قديماً تظهر الأن في ثوب جديد فكأن الخصوم والأعداء يدورون في حلقة واحدة ، وكأنهم تواصوا بهذا

الأعداء، يحمله الخلف عن السلف جيلاً بعد جيل ، وكل جيل يحاول أن يلبس الحق بالباطل ، لكن في صورة قد تبدو جديده.

مع أن الأسلام جعل الأنبياء جميعاً وحدة واحدة فمن كفر برسول أو كتابه ، فقد كفر بكل الرسل وكل الكتب ، وجعل ذلك عقيدة لكل مسلم كما قال سبحانه ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾ (١)

وفوق هذا فالقرآن يفتح باب الجدل والحوار مع كل طوائف الكفرة والملحدين ، ويطالب من يكفر بالبرهان والدليل ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيَ عن بينة ، وتامل قول الله سبحانه ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢) هاتوا برهانكم ودليلكم وحجتكم على زعمكم ، وإن الجنة لكم وحدكم ، ثم يناقش ويرد فيبين أن إسلام الوجه والذات والانقياد لله هو طريق الجنة ، فيقول ﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٣)

واستمع إلى قوله سبحانه ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٤)

---

(١) البقره : ٢٨٥

(٢) البقره : ١١١

(٣) البقره : ١١٢

(٤) يونس : ٦٨

فالله لا يحتاج إلى ولد لأنه الغني وكل ما في الكون في قبضته بدءاً ونهاية فأين الدليل على مدعاكم ؟ إنكم تطلقون دعوى في حق الله تهوي بكم إلى حضيض الجهل والتقول على الله سبحانه بلا علم ، واقرأ قوله ﷻ ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [1] هل رأيت حجاجاً أرق والين من هذا الحِجاج ؟ فرسول الله ﷺ لم يحكم لنفسه وللمؤمنين معه بالهدي رغم وضوحه في جانبهم ، ولم يحكم على الكفار بالضلال رغم وضوحه في جانبهم .

والقرآن الكرَيم يحوي كثيراً من الجدل والحوار في قضايا كثيرة متعددة بأسلوب واضح يفهمه العامة والخاصة ، فالذي يميل إلى دقيق المحاجة هو العاجز عن إقامة الحجة بالجلي من الكلام فإن استطاع أن يفهم بالأوضح الذي يفهمه الأكثرون ، لم يلجأ إلى الغامض الذي لا يعرفه إلا الأقلون ، فأخرج سبحانه مخاطباته في محاجة خلقه في أجلى صورة ليفهم العامة من جلِّيها ما ينفعهم ويفهم الخواص منها ما يزيد على ما أدركه العامة.

ورغم هذا كله يظهر الكفر والإلحاد ، وتظهر حملات التضليل والتشكيك في الإسلام ونبي الإسلام وكتاب الإسلام ويقيض الله ﷻ من يدافع عن الإسلام ورسول الإسلام وكتاب الإسلام ، ويرد حملات التضليل والتشكيك والشبهات المثارة ، وفي كل عصر نرى هذا ، نرى الهجوم ونرى الدفاع.

---

[1] سبأ : ٢٤

والكتاب الذي نقدمه إلى القارئ الكريم وهو بعنوان (**دفع شبهات المفترين حول القرآن الكريم**) سيف من سيوف الحق المرفوع في وجه الباطل في عصرنا ، وسهم كبير يعترض السهام المتناثرة من شبه الملحدين والطاعنين على رسول الإسلام ﷺ وكتابه ومبادئه.

وقد حوى الكتاب ثلاثاً وثلاثينَ مبحثاً يسلم بعضها إلى بعض في تناسق وترابط ، ومن أراد أن يعرف الحق في القضايا المطروحة والشبه المثارة حول القرآن ، فهذا الكتاب يأخذ بيده إلى معرفة الحق.

ومن أراد أن يتعلم كيف يناقش وكيف يعرض حُجج الخِصم وكيف يرد عليها بموضوعية وحياد فهذا الكتاب يأخذ بيده ، ومن أراد حصر الشبه المثارة ، وكيف أنها ليست ثوباً جديداً مع أنها قديمة ومتكررة ، فهذا الكتاب يأخذ بيده.

وأخيراً أقول : لعل الله يهدي بهذا الكتاب ، الضال الذي يدعو إلى ضلال ، والملحد الذي يدعو إلى إلحاد ، والعلماني الذي يحمل راية العصيان.

والله اسأل أن ينفع بهذا الكتاب طلاب العلم والمعرفة وأن يجعله في ميزان حسنات الأخ الأستاذ الدكتور / جمعه علي عبد القادر.

إنه سميع الدعاء

الأستاذ الدكتور

القصبي محمود زلط

مقدمة

إن أعداء الإسلام كثر، وهم يعملون في الخفاء وفي العلن، ليل نهار – منذ بزوغ شمس الإسلام ــ لأهداف ترنوا لتحطيم هذا الدين العظيم، عن طريق محاولات التشكيك: في الإسلام عامة وفي القرآن الكريم، وفي نبي الإسلام محمد ﷺ خاصة ، وخلق شبهات خاصة بالمرأة المسلمة ، وغير ذلك من الافتراءات ؛ بهدف الحيلولة ضد أبناء جنسياتهم من فهم الإسلام والاهتداء بهديه، وأيضًا بهدف جذب السذج من أبناء المسلمين وإخراجهم من نعيم هذا الدين...وقد تنطلي بعض هذا الأفكار ــ للأسف ــ على عامة الناس...!!

ولا تكاد مفتريات وشبه هؤلاء الأعداء تخرج كثيرا – منذ قرار بدء الاستشراق بقرار من الكنيسة عام ١٣١٢م في مدينة فينا عاصمة النمسا، حتى وقتنا هذا ــ عن الشبهات التي أثارها كفار قريش، سوى أن المستشرقين قدموها بطريقة أكثر تفصيلاً ، وصبغوها بالصبغة العلمية الأكاديمية ، وقد انطلت هذه الشبهات على الأوروبيين وغيرهم من الشعوب التي بهرت وخضعت للفكر الأوربي.

وقد تشعب هذا الاتجاه الاستشراقي الافترائي – منذ قرار الكنيسة المشار إليه ــ ووجد له مكانا في الجامعات الأوربية.

ففي إنجلترا : وجد له أرضية متينة في جامعتي... اكسفور وكامبردج.

ثم في باريس عاصمة فرنسا، وفي بولونيا إحدى مدن إيطاليا، وغير ذلك .

وهذه جميعها تعتبر النواة الأولي التي انطلق منها المستشرقون لدراسة كل ما يحيط بالشرق، وعلى وجه الخصوص : اللغة العربية ؛ لأنها أفضل وسيلة لفهم الإسلام والمسلمين ، ومن ثم يتسنى لهم وضع أهدافهم ومخططاتهم لرد المسلم عن دينه. أو على الأقل تشكيكه في دينه، وخاصة بعد فشل الحروب الصليبية التي استمرت ردحًا من الزمان، وما حققت أهدافهم ، ولا أثمرت ما يريدون ؛ حيث إنهم كما أخبر القرآن الكريم ﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ﴾!!! ولكن ﴿ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾ [التوبة٣٢]

ومن أمثلة هؤلاء الذين أعادوا صياغة شبهات الكفار على الإسلام بأسلوب جديد براق خادع، وسار خلفهم تلاميذهم، وبهر بهم وقلدهم أذناب من أبناء جلدتنا الذين يتسمون بأسمائنا ويعيشون بين ظهرانينا، ويدعون حماية دينهم من خفافيش الظلام كما يقولون ، وهم بهذا الوصف أليق..!!!

من هؤلاء:

١-المستشرق : برناردلويس (Bernardlouis)اليهودي يقول: " إن الرسول الأمي ـــ ﷺ ـــ وقع تحت تأثير عوامل ومؤثرات عديدة منيا المسيحية واليهودية ؛ لأنه كان يعيش بين ظهرانيهم ، وأن القرآن قد أخذه الرسول ـــ ﷺ ـــ من

الرحالة الذين كانوا يرتحلون في الجزيرة العربية من اليهود والنصارى وغيرهم.

٢- المستشرق: كارليل (Corlisle) الذي وصف القرآن بأنه كتاب ممل، وغير متجانس ، بل إنه كتاب معقد، ومتكرر ، وصعب الفهم (هكذا ..!!)

٣- المستشرق الهولندي هادريان ريلاند (Hadrian Reyland) يقول: إنه يجب على كل مسيحي أن يعرف هذا الشيطان ـــ يعني الإسلام ـــ لكي يحاربه بكل الوسائل.

٤-المستشرق إدوارد لين (Edward lynn) الإنجليزي الذي ادعي الإسلام ليتقرب به ويصل إلى غايته ، وكان في واقع الأمر يعمل في الخفاء لكي يوطد أقدام المستعمرين في البلاد الإسلامية؛ حيث كان أحد من ساعد الإنجليز على استعمار مصر ١٨٨٢ م، بعد أن خالط الشعب المصر وعرف عاداقم ودينهم وطريقة تفكيرهم، وتنكر بينهم حتى حقق ما يريد واحتل الإنجليز مصر.

وغير هذا وذاك...فهم كما قلنا كثر.

لذا : فديننا ، وقرآننا، ونبينا، وتاريخنا ، بحاجة إلى علماء أكفاء أمناء حريصين على الذود عن دينهم وأمتهم ، وتوضيح صورة هذا الدين، ووضعها في إطارها السليم.

والحمد لله تعالي يقوم بهذا الواجب : علماء أكفاء من البناء هذه الأمة خير قيام ، يردون كيد المبطلين ، ويدحضون افتراءات المستشرقين، ويكشفون انتحال المقلدين ؛ حبا في دينهم ، وخدمة لكتاب ربهم، وتبصيرا

لأمتهم، ودعوة للدنيا كلها ، ونشرا لقوله تعالي ﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾ [الإسراء ٩]

ومن هؤلاء العلماء الأفذاذ المتخصصين في القرآن وعلومه، الذين يتصدرون لـ " دفع شبهات المفترين حول القرآن الكريم " مؤلف هذا الكتاب الذي بين أيدينا أ.د/جمعة على عبد القادر، وهو من شهدت له المحافل العلمية ، واللجان الجامعية ، وكشفت عن علمه دراساته المتعددة المتخصصة ، فوق أنه أستاذ ورئيس قسم تفسير القرآن الكريم وعلومه بكلية أصول الدين جامعة الأزهر الشريف.

وأدَع حضراتكم بين جولاته الدعوية العلمية القوية الحجة ، العفيفة الأسلوب في كتابه هذا.

وأدعو الله تعالي : أن يجعل هذه المصابيح المضيئة – في كتابه – للمحبين ، والسهام الموجهة – في كتابه – للحاقدين ، في ميزان حسناته ، ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ [الشعراء ٨٨،٨٩]

د/ عبد الحي حسين الفرماوي

أستاذ التفسير وعلوم القرآن

وكيل كلية أصول الدين (السابق)

رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن (السابق)

عضو اللجنة العلمية الدائمة

لترقية أساتذة جامعة الأزهر الشريف

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾

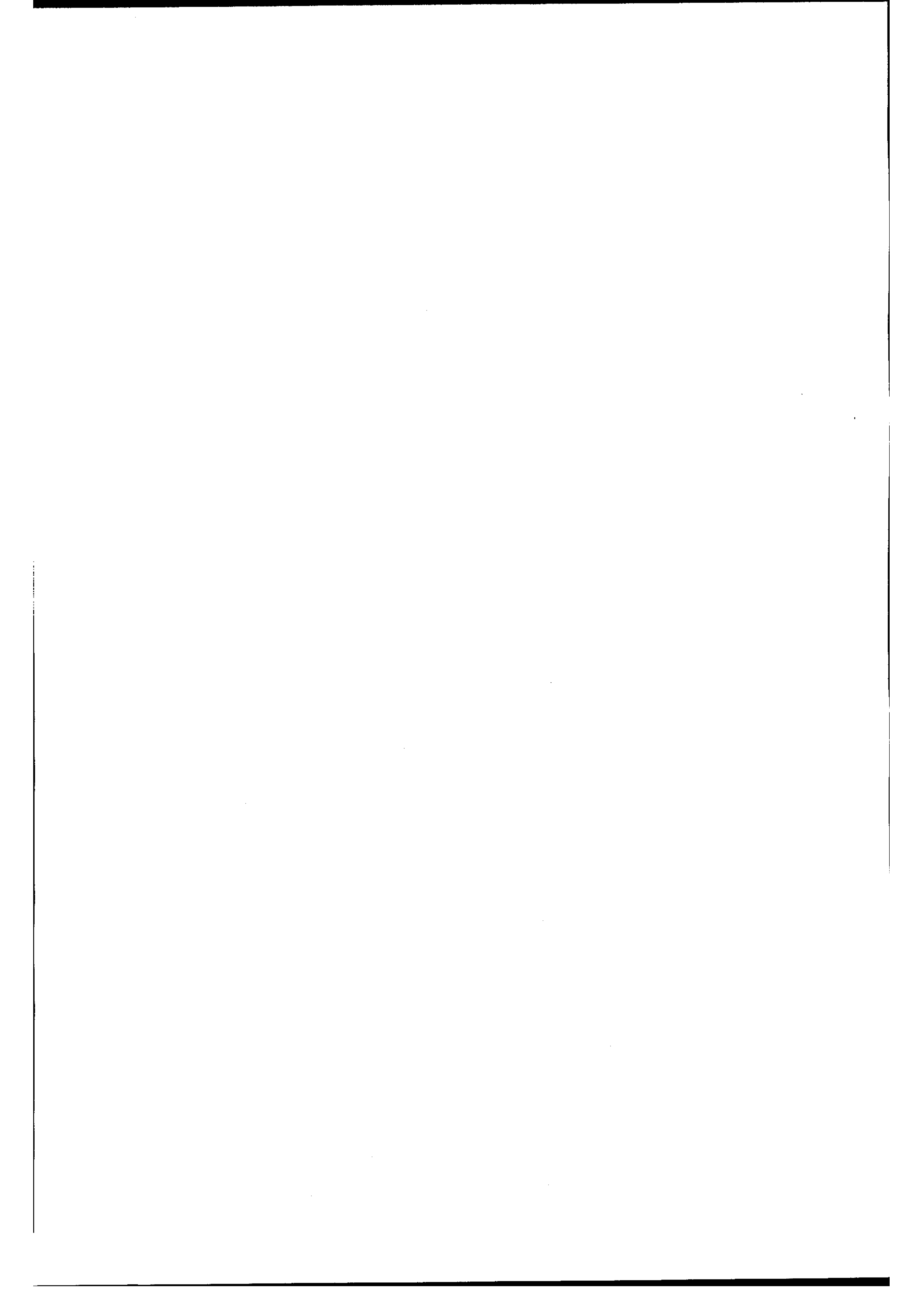
الحجر : ٩

﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾

الاسراء : ٩

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾

فصلت : ٤١ ــ ٤٢



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــــــة

الحمد لله حمدا يوافي نعمه ويكافئ مزيده، يا ربنا لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، " سبحانك اللهم لا نحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك"[1] وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن القرآن الكريم دستور هذه الأمة، ومعجزة نبينا محمد ﷺ، معجزة تخاطب العقول على مر الأزمان، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال النبي ﷺ : " ما من الأنبياء نبي إلا أُعطِيَ ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة" [2] .

ولما كان القرآن الكريم معجزة دائمة خالدة لا تبلى، عكف علماء هذه الأمة عليه يقرؤونه ويتعلمونه ويدرسونه ويتدبرونه ويستخرجون معانيه، ويبحثون في أسراره، بل إنهم لم يصبروا على دراسة كلام كما صبروا على دراسة القرآن الكريم، وذلك لأن القرآن الكريم بما يتضمنه من أحكام هو دين الله عز وجل، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى إن

---

(١) هذا الدعاء ورد في حديث أخرجه مسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركـــوع والســـجود، ١ ٣٥٢ حديث ٢٢٢.

(٢) صحيح البخاري كتاب : فضائل القرآن باب : كيف نزول الوحي وأول ما نزل ١٨٢/٦.

نهضة الأفراد والأمم لا يمكن أن تقوم إلا على الاسترشاد بتعاليم القرآن ونظمه الحكيمة التي روعيت فيها جميع عناصر السعادة للنوع البشري على ما أحاط به علم الخالق الحكيم، وبدهي أن العمل بهذه التعاليم لا يكون إلا بعد فهم القرآن وتدبره، والوقوف على ما حوى من نصح وإرشاد، والإلمام بمبادئه عن طريق تلك القوة الهائلة التي يحملها أسلوبه البارع المعجز، وهذا لا يتحقق إلا عن طريق الكشف والبيان عما تدل عليه ألفاظ القرآن الكريم" (١) .

وعليه فقد أخذ علماء المسلمين يؤلفون في مناح متعددة وكان نتاج ذلك مؤلفات لا تحصى. لأن سنة الله في تصارع الحق والباطل جارية؛ ومن ثم حاول أعداء الإسلام عبر العصور إثارة الشبهات حول الإسلام وكان للقرآن من ذلك الحظ الأوفر.

وبعد فشل الحروب الصليبية اشتد ترويج هذه الشبهات خوفاً من المد الإسلامي من جهة وطمعاً في القضاء على الإسلام من جهة أخرى.

فتوالت حملات التشكيك في الإسلام والقرآن ،وساعد على ترويجها أسباب عدة منها الثورة الهائلة في الاتصالات والمواصلات ومنها ضعف الأمة الإسلامية وتكالب الأعداء عليها والله عز وجل من ورائهم محيط.

ومن العجيب أنه ما من شبهة يأتي بها أعداء الإسلام إلا ويجعلها الله عز وجل آية مبهرة دالة على صدق القرآن الكريم والحمد لله رب العالمين.

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن للشيخ الزرقاني ١٠/٢.

ومن هنا فإن قصة الصراع بين الحق والباطل والخير والشر قصة قديمة بدأت فصولها مع بداية وجود الإنسان على الأرض. وسوف تتواصل فصولها طالما كان هناك إنسان في هذا الوجود.

وعندما ظهر الإسلام منذ أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان لم يتوقف سيل الشبهات التي يثيرها المشككون والمبطلون من خصوم هذا الدين تشكيكاً في مصادره أو في نبيه أو في مبادئه وتعاليمه، ولا تزال الشبهات القديمة تظهر حتى اليوم في أثواب جديدة يحاول مروجوها أن يضفوا عليها طابعاً علميًا زائفًا.

ومن المفارقات الغريبة في هذا الصدد أن يكون الإسلام ـ وهو الدين الذي ختم الله به الرسالات، وكان آخر حلقة في سلسلة اتصال السماء بالأرض ـ قد اختص من بين كل الديانات التي عرفها الإنسان سماوية كانت أم أرضية بأكبر قدر من الهجوم وإثارة الشبهات حوله.

ووجه الغرابة في ذلك يتمثل في أن الإسلام في الوقت الذي جاء فيه يعلن للناس الكلمة الأخيرة لدين الله على الأرض لم ينكر أيًا من أنبياء الله السابقين ولا ما أنزل عليهم من كتب سماوية، ولم يجبر أحدًا من أتباع الديانات السماوية السابقة على اعتناق الإسلام. ولم يقتصر الأمر على عدم الإنكار، وإنما جعل الإسلام الإيمان بأنبياء الله جميعًا وما أنزل عليهم من كتب عنصرًا أساسيًا من عقيدة كل مسلم بحيث لا تصلح هذه العقيدة بدونه. ومن شأن هذا الموقف المتسامح للإسلام إزاء الديانات السابقة أن يقابل بتسامح مماثل وأن يقلل من عدد المناهضين للإسلام.

ولكن الذي حدث كان على العكس من ذلك تمامًا. فقد وجدنا الإسلام ـ على مدى تاريخه ـ يتعرض لحملات ضارية من كل اتجاه.

وليس هناك في عالم اليوم دين من الأديان يتعرض لمثل ما يتعرض لــه الإسلام في الإعلام الدولي من ظلم فادح وافتراءات كاذبة.

وهذا يبين لنا أن هناك جهلاً فاضحًا بالإسلام وسوء فهم لتعاليمه، سواء كان ذلك بوعي أو بغير وعي، وأن هناك خلطًا واضحًا بين الإسلام كدين وبعض التصرفات الحمقاء التي تصدر من بعض أبنـــاء المســلمين باسم الدين وهو منها براء.

ومواجهة ذلك تكون ببذل جهود علمية مضاعفة من أجل توضـــيح الصورة الحقيقية للإسلام، ونشر ذلك على أوسع نطاق.

ولم يقصر علماء المسلمين على مدى تاريخ الإسلام فـــي القيـــام بواجبهم في الرد على هذه الشبهات كل بطريقته الخاصة وبأسلوبه الـــذي يعتقد أنه السبيل الأقوم للرد. وهناك محاولات جادة بـــذلت فـــي الفتـــرة الأخيرة للدفاع عن الإسلام في مواجهة حملات التشكيك.

وإذا كان المفترون على الإسلام صوبوا شبههم حول الإسلام ككـــل وحول القرآن الكريم بخاصة وحول النبي صلى الله تعـــالى عليـــه وســـلم وسنته، فإن منهجية البحث اقتضت منا وبين دفتي هذا الكتاب أن نتعرض للشبهات التي افتراها أصحابها على مصدر الإسلام الأول وهـــو القـــرآن الكريم، ومن هنا فإن القارئ العزيز سوف يقف وفي صفحات هذا الكتاب وقضاياه على ما افترى من شبه حول القرآن الكريم سائلين المولى عـــز وجل أن يَمُدنا بمدد يَبُل الريق ويروي الظمأ في هذا المقام وهذا الصـــدد والله من وراء القصد.

***

بواعثنا في إعداد هذا الكتاب

مما لا شك فيه أن هناك من الحوافز والبواعث التي دعتنا لنخط بالقلم أسطر هذا الكتاب وها هي بواعثنا في هذا المقام.

١- إن هذا العمل قائم على مناقشة الآخر والدفاع وبيان الصحيح من تعاليم الإسلام وهذا الباب باب عظيم كم أتاح للمسلمين من علوم؛ فقد نشأ جلُ علم الكلام من هذا المنطلق بدءاً بالمعتزلة في الرد على النصارى واليهود والفلاسفَة ثم تحرر هذا العلم على يد الإمام أبي الحسن الأشعري وتحررت الصياغة.

٢- إن هذا العمل يعد من الدراسات البينية التي فيها مناقشات وحوارات تساعد على إعادة الدورة الدموية للعلوم الإسلامية وتساهم في إعادة صياغة العلوم الإسلامية صياغة عصرية توافق مشكلات العصر.

٣- يمثل هذا العمل لبنة من لبنات الحوار مع الآخر وبيان عقيدة الإسلام وبعض تعاليم القرآن التي قد تلتبس على سطحي الثقافة منهم وفي هذا إحياء لعلوم الإسلام وكشف عن كنوز القرآن وإعجازه.

٤- هذا العمل يقوم بدور السياحة في عقول علماء الأمة الذين ألفوا كتبهم وقعّدوا القواعد بناء على تلك الردود على مثل هذه الشبهات.

٥- إن القيام بهذا العمل يمثل دورًا تطبيقيًا جيد لقواعد العلوم الإسلامية التي ذكرت في كتب علماء المسلمين بل وخزنت في أم رءوسهم.

٦- إن هذا الموضوع في هذا الكتاب يمثل موضوعًا من موضوعات علوم القرآن الفريد ويحتاج إلى جهد من الباحثين كما أسلفت.

٧ـ إن رد الشبهات هو الباب الذي فتح على المسلمين مجال إظهار إعجاز القرآن الكريم.

٨ـ إن في دراسة الشبهات والرد عليها استنباط مناهج جديدة وضوابط للفهم البشري للقرآن الكريم.

٩ـ إن هذا العمل يضع بعض الضوابط في تفسير القرآن الكريم والاستدلال به من خلال مناقشة هذا المدعى وبيان خلله في الفهم والتفسير وفكر الضوابط [١] هذا فكر مهم محتاج إليه في هذا العصر الذي لختلطت فيه الأمور، وهو يساعد على الصياغة الجديدة للعلوم الموروثة.

١٠ـ هالني ما رأيت حيث اشتدت في السنين العشر الأخيرة الحملة على الإسلام وبخاصة في ظل النظام العالمي الجديد أو العولمة. وزاد من ضراوتها وسائل البث والإعلام الحديثة، في عصر تدفق المعلومات، والسموات المفتوحة، واستغل خصوم الإسلام هذه "المستجدات" فاتخذوها منافذ للانقضاض على قيم الإسلام ومبادئه، بغية تشويه حقائقه أو القضاء عليه إن أمكن، لأنه أصبح المنافس الوحيد لحضارة أوروبا بعد سقوط الاتحاد السوفييتي ؛ودأبوا على إثارة الشبهات ضد الإسلام، إما على شبكات الإنترنت، وإما على مطبوعات مجهولة المصدر.. وها نحن أولاء نواجه كل ذلك في إطار مؤلفات تكتب يتولى أصحابها الرد على هذه المفتريات حتى تعود سهام العدو الطائشة في نحورهم. والله ولي ذلك والقادر عليه.

لكل هذه البواعث التي سلفت وغيرها قمنا بإعداد هذا الكتاب.

---

(١) أريد به وضع علم جديد يحكم الفهم البشري للقرآن الكريم ، ومن ثم يمنع الحداثيين من تفسير القرآن الكريم على وفق الهوى ، وكذلك العلمانيين والمستشرقين والمستغربين وغيرهما .

منهاجنا في إعداد هذا الكتاب وما جاء فيه من قضايا

المتصفح لهذا الكتاب الذي جاء تحت عنوان " دفع شبهات المفترين حول القرآن الكريم " يجد أنه تضمن مقدمة كان فيها الحديث عن القرآن والاشتغال به ودفع ما أثير حوله من شبهات المشتبهين عليه ــ حيث كثر الاشتباه على القرآن بصفة خاصة والإسلام بصفة عامة في الآونة الأخيرة عصر التقدم العلمي. وبعد المقدمة يجد القارئ البواعث التي حفزتنا لنَشرُف بالكتابة حول موضوع هذا الكتاب "وهو دفع ما أثير حول القرآن من شبهات، ثم يكون التمهيد بعد تلك البواعث وفيه أربعة مطالب كان أولها يدور مع مادة كلمة (اشتبه والشبهه) ونحو ذلك، ثم يجئ الحديث عن القرآن حيث يمثل النصيب الأوفر في عنوان هذا الكتاب، يأتي بعد ذلك مطلب ثالث يتمثل في عنوانين، أ ــ رد الشبهات علم من علوم القرآن، ب ــ رد الشبهات منهج قرآني، أما رابع المطالب في هذا التمهيد، فالحديث فيه يدور حول شبهة لها خطرها ووزنها حول الإسلام بعامة والقرآن بخاصة والشبهة تدور حول القرآن الكريم وهل يمكن الاستغناء به عن السنة وفي هذا المطلب كانت التجلية لهذه الشبهة. وبعد هذا التمهيد تكون مباحث الكتاب. فقد بلغت ثلاثة وثلاثين مبحثاً ذُيلت هذه المباحث بخاتمة الكتاب، وحين نستعرض هذه المباحث نجد أن أربعة منها كان الحديث فيها عن (فيما أدُعِيَ على القرآن من اللحن) (في ذكر المتشابه وحكمته) (في تأويل الحروف التي أدُعِيَ على القرآن بها الاستحالة وفساد النظم) (في مشكل القرآن وما أوهَمَ التناقض والاختلاف بين آياته وحكمته).

ولما كان للمستشرقين دورٌ كبيرٌ وباع طويل في مقام إيراد الشبه على القرآن الكريم جاء الحديث عنهم في ثمانية مباحث :

ـ الاستشراق دوافعه وأهدافه

ـ شبهات المستشرقين حول ربط الإسلام بعبادة الأوثان وبالعادات الجاهلية .

ـ من شبهات المستشرقين حول الحنيفية وأنها مصدر من مصادر القرآن

ـ في اعتبار الصابئة من مصادر القرآن والشبهات في هذا المقام.

ـ دفع شببهات المستشرقين حول موثوقية النص القرآني.

ـ دفع ما اشتبه به المستشرقون على تقسيم القرآن ثلاثين جزءاً.

ـ دفع شبهات المستشرقين حول الأحرف المقطعة.

ـ في دفع شبهات المستشرقين على الوحى.

وهناك شبهات تضمنتها سبعة مباحث وثيقة الصلة بعلوم القرآن :

ـ دفع شبهات عن الوحى كموضوع من موضوعات علوم القرآن.

ـ شبهات حول مكي القرآن ومدنيه.

ـ شبهتان حول آخر ما نزل من القرآن وكذا أسباب النزول .

ـ دفع شبهات حول القراءات والأحرف السبعة.

ـ دفع شبهات حول جمع القرآن الكريم .

ـ ما أثير حول رسم المصحف من شبهات.

ـ دفع شبهات حول محكم القرآن ومتشابهه

أما المباحث الأخرى فهي وإن اتحدت في منهاجها حول القرآن الكريم فقد تنوعت بحسب قضاياها لذا يجد القارئ هذه المباحث :

ـ دفع زعم المشتبهين على القرآن من أن فيه أخطاء لغوية .

ـ شبهات على القرآن في هذه القضايا الثلاث ؛

أ ـ الإشراك بالله ب ـ عصيان الملائكة ج ـ عصيان البشر

ـ شبهات حول القرآن في تناقضه في خلق الإنسان والسموات.

ـ دفع شبهات القسيسين عن القرآن .

ـ القرآن يتناقض في حديثه عن بني إسرائيل .

ـ ما جاء في القرآن من شبه حول يوسف ﷺ وتفضيل بعض الأنبياء على بعض.

ـ دفع ما اشتبه به على القرآن حول النبي والإسلام .

ـ شبهة الرتق والفتق في سورة الأنبياء .

ـ فيما اشتبه به القرآن على المرأة والرجل.

ـ شبهة على القرآن الكريم كما جاءت في سورة القلم.

ـ شبهة على حفظ القرآن والذكر وهل الذكر هو كل القرآن أو بعض القرآن.

وإذا كانت هذه المباحث التي سلفت تضمنت شبهاً تولى هذا الكتاب الرد عليها، ففي آخر الكتاب ثلاثة مباحث تظهر عظمة القرآن الكريم، المبحث الحادي والثلاثون والثاني والثلاثون والثالث والثلاثون .

أما الخاتمة فكانت جواباً تفصيليا على أن القرآن الكريم معصوم، وأن هذه الشبه وغيرها لا تؤثر في عظمته.

وقد ذيلت هذه الخاتمة بعنوان (غِرَاسٌ وثِمَارٌ) وهذا العنوان يتضمن ما خلصنا إليه من قضايا ، وما يسمى بلغة العصر النتائج، وعلى قارئنا العزيز أن يتأمل ما ذكرناه في منهاجنا هذا .

والله من وراء القصد.

تمهــــيد

وفيه أربعة مطالب

المطلب الأول : وقفة مع مادة هذه الكلمة بين المتشابه والشبهة .

المطلب الثاني : الحديث عن القرآن الكريم .

المطلب الثالث : أ ــ رد الشبهات منهج قرآني.

ب ــ رد الشبهات علم من علوم القرآن .

المطلب الرابع : هل يستغنى بالقرآن عن السنة المطهرة ،

وها هو الحديث عن هذه المطالب.

المطلب الأول:

وإذا كنا قد وعدنا القارئ بأن حديثنا عن المطلب الأول يكون بالوقفة مع كلمتي متشابه وشبهة، فإن الحديث عن المتشابه يقتضي منا بالضــرورة الحديث عن المحكم. فماذا قيل في هذا الصدد؟

المحكم لغة : مأخوذ من حكمت الدابة وأحكمتها بمعنــى منعــت، والحكم: هو الفصل بين الشيئين، فالحــاكم يمنــع الظلــم ويفصــل بــين الخصمين ويميز بين الحق والباطل، والصدق والكــذب، ويقــال حكمــت السفيه وأحكمته: إذا أخذت على يديه، وحكمت الدابة وأحكمتها، إذا جعلت لها حَكَمَة: وهي ما أحاط بالحنك من اللجام لأنهــا تمنــع الفــرس عــن الاضطراب.

ومنه الحِكْمَة: لأنها تمنع صاحبها عما لا يليق ، وإحكام الشــئ : [illegible] والمُحْكَم : المُتْقَنْ.

فإحكام الكلام إتقانه بتمييز الصدق من الكذب في أخباره، والرشد من الغي في أوامره ، والمحكم منه: ما كان كذلك.

وقد وصف الله القرآن كله بأنه محكم على هذا المعنى فقال ﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [1]

وقال ﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾ [2]

فالقرآن كله محكم : أي أنه كلام متقن فصيح يميز بين الحق والباطل، والصدق والكذب. وهذا هو الإحكام العام.

والمتشابه لغة: مأخوذ من التشابه: وهو أن أحد الشيئين يشبه الآخر، والشبيه: هو ألا يتميز أحد الشيئين من الآخر لما بينهما من التشابه عينا كان أو معنى قال تعالى﴿ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[3] أي يشبه بعضه بعضا لونا لا طعما وحقيقة ، وقيل متماثلا في الكمال والجودة .

وتشابه الكلام : هو تماثله وتناسبه بحيث يصدق بعضه بعضا، وقد وصف الله القرآن كله بأنه متشابه على هذا المعنى، فقال ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ ﴾ [4]

القرآن كله متشابه: أي أنه يشبه بعضه بعضا في الكمال والجودة، ويصدق بعضه بعضا في المعنى ويماثله. وهذا هو التشابه العام.

---

(1) هود : ١.

(2) يونس : ١ .

(3) البقرة : ٢٥ .

(4) الزمر : ٢٣.

وكل من المحكم والمتشابه بمعناه المطلق المتقدم لا ينافي الآخــر، فالقرآن كله محكم بمعنى الإتقان، وهو متماثل يصدق بعضه بعضا، فــإن الكلام المحكم المتقن تتفق معانيه وإن اختلفت ألفاظه، فإذا أمــر القــرآن بأمر لم يأمر بنقيضه في موضع آخر، وإنما يأمر به أو بنظيره، وكــذلك الشأن في نواهيه وأخباره. فلا تضاد فيه ولا اختلاف﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْـدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾[1] [2]

الشبهة وتعريفها من كتب المعاجم

١ـ قال ابن منظور :

(شبه) الشِّبْهُ والشَّبَهُ والشَّبِيهُ: المِثْلُ، والجمع أَشْباهٌ. وأَشْــبَه الشــيءُ الشيءَ مَاثَلَهُ. وفي المَثَلُ: مَنْ أَشْبَه أَباه فما ظَلَمَ، وأَشْبَه الرجلُ أُمَّه، وذلك إذا عجز وضَعُفَ "عن ابن الأعرابي" وأنشد: أَصْبَحَ فيه شَبَهٌ من أُمِّهِ مــن عِظَمِ الرأسِ ومن خرطُمِّهِ أراد من خُرْطُمِهِ فشدد للضرورة وهي لغة فــي الخُرْطُوم وبينهما شَبَه بالتحريك والجمع مَشَابِهُ، على غير قيــاس، كمــا قالوا مَحاسِن ومَذاكير. وأَشْبَهْتُ فلاناً وشابَهْتُه، واشْتَبَه علَــيَّ، وتَشــابَه الشيئانِ، واشْتَبَها: أَشْبَهَ كلُّ واحدٍ منهما صاحِبَه. وفي التنزيل: ﴿ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ﴾[3] وشَبَّهه إِياه، وشَبَّهَه به: مَثَّلَــهُ. والمُشْــتَبِهاتُ مــن

---

[1] النساء : ٨٢.

[2] انظر في هذا المقام : ١ـ اللآلي الحسان في علوم القرآن ، د/ موسى شاهين لاشين ص ١٥٦ ، مطبعة الفجر الجديدة ٢ـ مباحث في علوم القرآن ـ للشيخ / مناع القطــان ص ٢١٤ ، الطبعــة الثامنة ـ ٣ـ بحث بعنوان: المحكم والمتشابه في القــرآن ، د/ جمعة علي عبــد القــادر ص ٦٨ ، مستل من حولية كلية أصول الدين .

[3] الأنعام : ٩٩

الأُمور: المُشْكِلاتُ. والمُتَشابِهاتُ: المُتَماثِلاتُ. وتَشَبَّهَ فلانٌ بكذا. والتَّشْبِيهُ: التمثيل. وفي حديث حذيفة، وذَكَر فتنة فقال: تُشَبِّهُ مُقْبِلَةً، وتُبَيِّنُ مُـدْبِرَةً، قال شمر: معناه أن الفتنةَ إذا أقبلت شَبَّهَتْ على القوم، وأرَتْهُمْ أنهم علـى الحق حتى يدخلوا فيها، ويَرْكَبُوا منها ما لا يحل، فإذا أدبرت وانقضت بانَ أمرُها، فعَلِمَ مَنْ دخل فيها أنه كان على الخطأ.

والشُّبْهَةُ: الالتباسُ ، وأُمورٌ مُشْتَبِهةٌ ومُشَبِّهَةٌ : مُشْكِلَة، يُشْـبِهُ بعضُـها بعضاً.

قال: اعْلَمْ بأنَّك في زَمانِ مُشَبِّهات هُنَّ هُنَّهْ، وبيـنهم أشْـباهٌ، أي أشياءُ يتَشابهون فيها. وشَبَّهَ عليه خَلَّطَ عليه الأمْرَ حتى اشْـتَبَه بغيـره. أهـ.

٢ـ وجاء في المعجم الوسيط :

أشبه الشئُ الشئَ : ماثَلَهُ

(شابهه) : أشبهه.

(شَبَّهَ) عليه الأمرُ : أبهمه عليه حتى اشتبه بغيره. و ـ الشئَ بالشـئ: مَثَّلَهُ . و ـ أقامه مقامَه لصفةٍ مشتركةٍ بينهما .

(شبه) عليه ، وله: لُبِّسَ . و في التنزيل العزيز: ﴿ وَمَـا قَتَلُـوهُ وَمَـا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ [١]

(اشتبه) الأمر عليه: اختلط . و ـ في المسألة: شك في صحتها.

(تشابه) الشيئان: أشبه كل منهما الآخر حتى التبسا. وفي التنزيل العزيز : ﴿ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾ [٢]

---

[١] النساء : ١٥٧.

[٢] البقرة : ٧٠

(تشبه) بغيره: ماثله وجاراه في العمل.

(التشبيه) : التمثيل. و ـ (عند علماء البيان) : إلحاق أمر بأمر لصفة مشتركة بينهما. كتشبيه الرجل بالأسد في الشجاعة. و (تشبيه المسجونين): أخذ البصمات اللازمة، وكتابة الأوصاف على استمارة خاصة، لتحديد الشخصية.

(الشبه) : المثل . أشباه ، (الشبه) : النحاس الأصفر. أشباه

و(الشبهة): الإلتباس. و ـ (في الشرع) : ما التبس أمره فلا يدري أحلال هو أم حرام، وحق هو أم باطل. شبه.

(الشَّبِيهُ) : المِثْل. شباه ، وأشباه.

(المتشابه) : النص القرآني يحتمل عدة معان. وفي التنزيل العزيز ﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾[1].

(المشابه) : الأشباه : جمع شبه (على غير قياس) . يقال: فيه مشابه من فلان.

(المُشَبِّهَةُ) : أتباع نحلة دينية يُشَبِهُ أصحابها الخالق بالمخلوقات[2].

ومن هنا وبعد معايشتنا لمادة هذه الكلمة اتضح لنا أن الشبهة تطلق ويراد منها الأمر الملتبس المختلط ، والشبهات جمع شبهة، وتجمع أيضا على شبه، فما اختلط والتبس أمره على المفترين بقصد وبغير قصد رموا به الإسلام والقرآن وسنة النبي ﷺ.

---

[1] آل عمران : ٧.

[2] انظر في هذا المقام : ١ــ لسان العرب لابن منظور ٤ / ٢١٨٩ ، ٢ــ المعجم الوسيط ١ /٤٩٠ مجمع اللغة العربية ، ٣ــ مختار الصحاح ص ٣٢٨ ــ ٤ ــ المصباح المنير ١ / ٤١٢

المطلب الثاني

وفيه الحديث عن القرآن الكريم

القرآن الكريم .. هو كلام الله المنزل بلفظه ومعناه على نبيه محمد ﷺ للتحدي والإعجاز، والمنقول إلينا بالتواتر، وله مهمتان :

أولاهما: الإعجاز والتحدي لإثبات صدق النبي ﷺ في دعواه الرسالة؛ حيث عجز الناس عن الإتيان بمثله أو بأقصر سورة منه.

والمهمة الثانية: هي الهداية، قال تعالى ﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [1] وأمرنا الله بإتباعه فقال:﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴾[2]، وحذرنا من ترك هديه الذي أنزله على أنبيائه فقال:﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴾[3]،وأمرنا أن نرد إليه كل نزاع ليفصل فيه فقال:﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾[4] . وبين النبي ﷺ أن استقامة الحياة رهن بالتمسك بكتاب الله وسنة رسوله فقال ﷺ : " إني تركت فيكم ما إن تمسكتم به فلن تضلوا بعدي أبدا كتاب الله وسنتي" [5] كما حذر من الأخذ ببعضه وترك بعضه الآخر فقال:

---

(١) الإسراء : ٩.

(٢) الأعراف : ٣.

(٣) طه : ١٢٣ ــ ١٢٤.

(٤) النساء : ٥٩

(٥) أخرجه الحاكم في العلم ، باب خطبته ﷺ في حجة الوداع ٩٣/١.

﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ ﴾ [1]، ذلك أن القرآن قد اشتمل على كل ما يهم الناس في معاشهم ومعادهم على المستوى الفردي والجماعي المحلي والعالمي. وفي المجالات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والحربية وغيرها.

يقول تعالى ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [2].

وتبيان القرآن لكل شئ قد يكون بالنص والتصريح، وقد يكون بالإشارة والتلميح، مما فسح المجال للمجتهدين أن يستنبطوا منه حكما لكل قضية أو حلا لكل مشكل، الأمر الذي يضمن استمرارية العطاء للقرآن، وصلاحية الدين لكل زمان ومكان، فليس هذا هو القرآن الكريم تنزيل رب العالمين، نزل به الروح الأمين، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وقد وصل إلينا بالتواتر محفوظا من كل تغيير وتبديل، وقد تكفل سبحانه بحفظه فقال سبحانه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [3]

هذا كتاب الله الذي خلق الإنسان، علمه البيان، وقد وصل إلينا عن طريقين : الحفظ في الصدور الذي امتازت به الأمة الإسلامية، لحديث أحمد قال: ﷺ : " لو كان القرآن في إهاب ما أكلته النار" [4].

---

[1] البقرة : ٨٥.

[2] النحل : ٨٩.

[3] الحجر : ٩.

[4] أخرجه الإمام أحمد في مسنده ، كذا في الفتح الكبير للنبهاني ج ٣ ص ٤٣ ، ط / مصطفى الحلبي.

كما وصل إلينا عن طريق المصاحف التي كتبت من واقع ما كتب عليه القرآن وقت نزوله بأمر النبي ﷺ واتخذ سيدنا عثمان عند نسخه في المصاحف كل الاحتياطات حتى وصل إلينا القرآن على الصورة التي نزل بها على النبي ﷺ وشغل به المسلمون في جميع العصور تلاوة وحفظا وتدبرا ومنهجا واستنباطا وتبليغا ونشرا، وظل محفوظا بحفظ الله وتسخير كل القوى المسلمة والكثير من الأمم غير المسلمة للإسهام في حفظه كتابة وطبعا ونشرا، وسيظل كذلك بفضل الله حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين [1].

وبعد .. فإن هذا هو القرآن الذي وقف العقل البشري بين يديه – منذ نزل به جبريل – كما يقف هواة الصيد على شاطئ البحر وكل يرجو أن يرجع بما يحب من باطنه، حتى إذا عاد كل بما يبتغي عاد بعد تلك المرة بعد المرة ليأخذ حظه من خيره مؤمنا بأن ما في باطنه لا ينفد خيره، وهكذا يتوالى على هذا البحر الفوج بعد الفوج عبر مرور الأيام والأعوام وكل يطمع في عطاء الله له منه.

ويظل البحر هو البحر في أحشائه الدر الذي هو غاية الإنسان عبر السنين والأعوام، كذلك القرآن أنزله خالق الإنسان والزمان والمكان وأودعه حاجات الإنسان (كل إنسان) التي يصلح بها شأنه طالما دبت قدمه على الأرض، وفي أي موقع كان في كل عصر وأوان، وهو القائل:

---

(1) البيان ج ١ ص ٥١ – ٥٦ بتصرف.

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [1] ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [2] ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [3].

وفي هذا العصر تتوالى السهام تبتغي النيل منه ومن قدسيته وهيهات هيهات لما يريدون ..وصدق الله العظيم إذ يقول ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ [4]، [5].

---

(1) الملك : ١٤.

(2) يس : ٨٣.

(3) يس : ٧٩.

(4) الصف : ٨.

(5) انظر كتاب الرد على " كتاب أخطاء إلهية " رد مجمع البحوث الإسلامية ص ١٠ .

المطلب الثالث

ويتضمن هذين العنوانين

أ ـ رد الشبهات منهج قرآني.

ب ـ رد الشبهات علم من علوم القرآن.

أ ـ رد الشبهات منهج قرآني : ـ

اهتم القرآن الكريم بنقل شبهات المشركين والرد عليها قال تعالى:
﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [1].

وقال: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴾ [2].

وكانوا يقولون: ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾ فرد الله عليهم بقوله:
﴿ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ [3].

وكانوا يقولون عن رسول الله ﷺ ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴾[4].

ومن ردود القرآن الكريم على أهل الكتاب قوله تعالى ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى

---

[1] الفرقان : ٥.

[2] الفرقان : ٤.

[3] النحل : ١٠٣.

[4] الفرقان : ٧.

صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [١] وقوله تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [٢] وقوله تعالى ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [٣].

وفي القرآن الكريم نماذج كثيرة للرد على إيراداتهم بعد نقلها أو من غير نقلها.

---

(١) المائدة : ١٥ ــ ١٦.

(٢) المائدة : ١٩.

(٣) المائدة : ٤٤.

ب ـ رد الشبهات علم من علوم القرآن : ـ

ذكر الشيخ طاش كبرى زاده في كتاب مفتاح السعادة أن رد الشبهات علم من علوم القرآن الكريم وما ذكره رحمه الله تعالى لا يحتاج إلى دليل؛ فكثير من موضوعات علوم القرآن تبحث في الآيات التي يلتبس فهمها على بعض الناس، ومن ثم وجدنا جهابذة علماء الأمة يفردون ذلك بتأليف مستقل، من ذلك ما كتبه القاضي عبد الجبار رحمه الله تعالى في كتابه "تنزيه القرآن عن المطاعن " . وكذلك ما كتبه القاضي الباقلاني رحمه الله في كتابه "الانتصار للقرآن" وكتابه الآخر " النكت" ولعل من أهم ما يذكر هنا الكتب التي ألفت في إعجاز القرآن الكريم وذلك باعتبار أن التأليف في الإعجاز إنما كان الدافع الأول له هو ما أثاره المشككون من شبهات حول القرآن الكريم.

وأقول أن هذا العلم علم قد هجر ويحتاج إلى مزيد اهتمام من الباحثين بتقعيد قواعده وبيان ضوابطه وتحرير مسائله وجمع المؤلفات التي ألفت لهذا الغرض قديما وحديثا.

* * *

المطلب الرابع

حول الاستغناء بالقرآن عن السنة

وعلاقة السنة بالقرآن

هناك من يكتفون بالقرآن الكريم .. ويشككون في صحة الأحاديث، ويظهرون التناقضات بينها، ويذكرون الحديث الذي ينص على عدم زيارة المرأة للقبور، والحديث الذي يقول (في معناه) أن الرسول ﷺ قال إنني قد أمرتكم بعدم زيارة القبور من قبل، والآن أسمح لكم بزيارة القبور [1]. فيشيرون إلى ذلك بأنه تناقض .. ويدللون على ذلك بأن الأمة قد فقدت الكثير من الأحاديث النبوية عبر الزمان، أو أن هذه الأحاديث قد حرفت عن معانيها الصحيحة .. (أهـ) .

<u>الرد الأول على الشبهة :ـ</u>

في بداية الجواب عن شبهة هؤلاء الذين يشككون في الأحاديث النبوية. ننبه على مستوى جهل كل الذين يثيرون مثل هذه الشبهات حول الحديث النبوي الشريف .. ذلك أن التدرج والتطور في التشريع الذي يمثله حديث النهي عن زيارة القبور ثم إباحتها.. هذا التدرج والتطور في التشريع لا علاقة له بالتناقض بأي وجه من الوجود، أو أي حال من الأحوال.

ثم إن التشكيك في بعض الأحاديث النبوية، والقول بوجود تناقضات بين بعض هذه الأحاديث، أو بينها وبين آيات قرآنية .. بل والتشكيك في مجمل الأحاديث النبوية، والدعوة إلى إهدار السنة النبوية والاكتفاء

---

(1) الحديث من رواية أنس . كذا في الفتح الكبير للنبهاني ج ٢ ص ٤٣٣.

بالقرآن الكريم.. إن هذه الدعوة قديمة وجديدة، بل ومتجددة.. وكما حذر رسول الله ﷺ من الكذب عليه .. فلقد حذر من إنكار سنته، ومن الخروج عليها.

ونحن بإزاء هذه الشبهة نواجه بلونين من الغلو:

أحدهما : يهدر كل السنة النبوية ، اكتفاء بالقرآن الكريم.. ويرى أن الإسلام هو القرآن وحده.

وثانيهما: يرى في كل المرويات المنسوبة للرسول ﷺ سنة نبوية، يكفر المتوقف فيها، دونما فحص وبحث وتمحيص لمستويات "الرواية" و "الدراية" في هذه المرويات . ودونما تمييز بين التوقف إزاء الراوي وبين إنكار ما ثبت عن رسول الله ﷺ .

وبين هذين الغلوين يقف علماء السنة النبوية، الذين وضعوا علوم الضبط للرواية، وحددوا مستويات المرويات، بناء على مستويات الثقة في الرواة .. ثم لم يكتفوا ــ في فرز المرويات ــ بعلم " الرواية" والجرح والتعديل للرجال ــ الرواة ــ وإنما اشترطوا سلامة " الدراية" أيضا لهذه المرويات التي رواها العدول الضابطون عن أمثالهم حتى رسول الله ﷺ .

أي أن هؤلاء العلماء بالسنة قد اشترطوا " نقد المتن والنص والمضمون" بعد أن اشترطوا "نقد الرواية والرواة" وذلك حتى يسلم المتن والمضمون من "الشذوذ والعلة القادحة" ، فلا يكون فيه تعارض حقيقي مع حديث هو أقوى منه سندا، وألصق منه بمقاصد الشريعة وعقائد الإسلام ، ومن باب أولى ألا يكون الأثر المروي متناقضا تناقضا حقيقيا مع محكم القرآن الكريم ..

ولو أننا طبقنا هذا المنهاج العلمي المحكم، الذي هو خلاصة علوم السنة النبوية ومصطلح الحديث، لما كانت هناك هذه المشكلة ـ القديمة .. المتجددة ـ .. ولكن المشكلة ـ مشكلة الغلو ، بأنواعه ودرجاته ـ إنما تأتي من الغفلة أو التغافل عن تطبيق قواعد هذا المنهج الذي أبدعته الأمة الإسلامية، والذي سبقت به حضارتنا كل الحضارات في ميدان "النقد الخارجي والداخلي للنصوص والمرويات" .. وهذه الغفلة إنما تتجلى في تركيز البعض على "الرواية" مع إهمال "الدراية" أو العكس .. وفي عدم تمييز البعض بين مستويات المرويات، كأن يطلب من الأحاديث ظنية الثبوت ما هو من اختصاص النصوص قطعية الثبوت.. أو من مثل تحكيم " الهوى" أو " العقل غير الصريح" في المرويات الصحيحة، الخالية متونها ومضامينها من الشذوذ والعلة القادحة..

وهناك أيضًا آفة الذين لا يميزون بين التوقف إزاء "الرواية والرواة" ـ وهم بشر غير معصومين ، وفيهم وفي تعديلهم وقبول مروياتهم اختلف الفقهاء وعلماء الحديث والمحدثون ـ وبين التوقف إزاء " السنة " ، التي ثبتت صحة روايتها ودرايتها عن المعصوم ﷺ فتوقف العلماء المتخصصون ـ وليس الهواة أو المتطفلون ـ إزاء " الرواية والرواة " شئ، والتوقف إزاء "السنة" التي صحت وسلمت من الشذوذ والعلل القادحة شئ آخر.. والأول حق من حقوق علماء هذا الفن، أما الثاني فهو تكذيب للمعصوم ﷺ ، والعياذ بالله..

أما الذين يقولون إننا لا حاجة لنا إلى السنة النبوية ، اكتفاء بالبلاغ القرآني، الذي لم يفرط في شئ .. فإننا نقول لهم ما قاله الأقدمون من أسلافنا ـ للأقدمين من أسلافهم:

إن السنة النبوية هي البيان النبوي للبلاغ القرآني ، وهي التطبيق العملي للآيات القرآنية ، التي أشارت إلى فرائض وعبادات وتكاليف وشعائر ومناسك ومعاملات الإسلام .. وهذا التطبيق العملي، الذي حول القرآن إلى حياة معيشة ، ودولة وأمة ومجتمع ونظام وحضارة، أي الذي " أقام الدين" ، قد بدأ بتطبيقات الرسول ﷺ للبلاغ القرآني، ليس تطوعًا ولا تزيدًا من الرسول، وإنما كان قيامًا بفريضة إلهية نص عليها القرآن الكريم ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1] فالتطبيقات النبوية للقرآن ـ التي هي السنة العملية والبيان القولى الشارح والمفسر والمفصل ـ هي ضرورة قرآنية، وليست تزيدًا على القرآن الكريم .. هي مقتضيات قرآنية، اقتضاها القرآن .. ويستحيل أن نستغني عنها بالقرآن .. وتأسيًا بالرسول ﷺ ، وقيامًا بفريضة طاعته التي نص عليها القرآن الكريم : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾ [2] ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾ [3] ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ [4] ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [5] ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ﴾ [6]. تأسيًا بالرسول ﷺ ، وطاعة له، كان تطبيق الأمة ـ في جيل الصحابة ومن بعده ـ لهذه العبادات والمعاملات .. فالسنة

---

(1) النحل : ٤٤.

(2) آل عمران : ٣٢ .

(3) النساء : ٥٩ .

(4) النساء : ٨٠.

(5) آل عمران : ٣١ .

(6) الفتح : ١٠ .

النبوية ، التي بدأ تدوينها في العهد النبـوي ، والتـي اكتمـل تـدوينها وتمحصيها في عصر التابعين وتابعيهم، ليست إلا التدوين للتطبيقات التي جسدت البلاغ القرآني دينًا ودنيا في العبادات والمعاملات .

فالقرآن الكريم هو الذي تطلب السنة النبوية، وليست هي بـالأمر الزائد الذي يغني عنه ويستغنى دونه القرآن الكريم.

أما العلاقة الطبيعية بين البلاغ الإلهي ـ القرآن ـ وبين التطبيـق النبوي لهذا البلاغ الإلهي ـ السنة النبوية ـ فهي أشبه ما تكون بالعلاقة بين "الدستور" وبين "القانون" . فالدستور هو مصدر ومرجـع القـانون.. والقانون هو تفصيل وتطبيق الدستور، ولا حجة ولا دسـتورية لقـانون يخالف أو يناقض الدستور.. ولا غناء ولا اكتفاء بالدستور عن القانون .

إن رسول الله ﷺ ، ليس مجرد مُبلغ فقط ، وإنما هو مُبلغ، ومُبين للبلاغ، ومطبق له، ومقيم للدين، تحول القرآن على يديه إلى حياة عملية ـ أي إلى سنة وطريقة يحياها المسلمون.

وإذا كان بيان القرآن وتفسيره وتفصيله هو فريضة إسلامية دائمة وقائمة على الأمة إلى يوم الدين .. فإن هذه الفريضة قد أقامهـا ـ أول من أقامها ـ حامل البلاغ ، ومنجز البيان، ومقيم الإسلام ـ عليه الصلاة والسلام.

والذين يتصورون أن الرسول ﷺ مجرد مبلغ إنما يضـعونه فـي صورة أدنى من صورتهم هم ، عندما ينكرون عليه البيان النبوي للـبلاغ القرآني، بينما يمارسون هم القيام بهذا البيان والتفسير والتطبيق للقرآن

الكريم ! .. وهذا "مذهب" يستعيذ المؤمن بالله منـــه ومـــن أهلـــه ومـــن الشيطان الرجيم ! [1] .

---

[1] انظر في هذا المقام " حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين " المجلس الأعلى ص٣٩٥ .

الرد الثاني على هذه الشبهة المثارة

وهي: القرآن يستغنى به عن السنة

هذه الشبهة تنطلي على الكثيرين، لما للقرآن الكريم من منزلة في نفوس الناس، فيكثر أعداء السنة من القول بأن القرآن كاف، واف ، شاف، وأنهم ليسوا بحاجة للسنة ، ويدللون على ذلك بقول الله تعالى:

﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [1]، وقوله عز وجل: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [2].

الرد: وأقول لهم كيف يستغنى بالقرآن عن السنة وقد قال الله:

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [3] ؟ أي قدوة حسنة.

كيف يستغنى بالقرآن عن السنة، وفي القرآن من المجمل ما يحتم أن يكون بيانه من السنة ؟ .

ففيه : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ [4].

وفيه : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى ﴾ [5] .

وفيه : ﴿ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ . . . ﴾ [6].

---

(1) الأنعام : ٣٨ .

(2) النحل : ٨٩ .

(3) الأحزاب : ٢١ .

(4) البقرة : ٤٣ .

(5) البقرة ٢٣٨ .

(6) النساء : ١٠٢ .

وفيه: ﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾[1]
وفيه: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ [2]

في القرآن الكريم كلام من عدة أوجه عن الصلاة، صلاة الأمن، وصلاة الخوف، وفيه الحديث عن القبلة والاتجاه إلى البيت الحرام، وفيه الكلام عن المساجد وعمارتها، وأنها لعبادة الله وحده، قال تعالى : ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾[3].

وفيه الأمر بالمحافظة على الصلاة في أوقاتها: ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾ [4] .

وفيه الحث على الخشوع في الصلاة : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ [5].

وفيه التحذير من تأخيرها عن وقتها: ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ [6].

وفيه الأمر بالتطهر لها: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ

---

(1) البقرة ١٤٤ .
(2) التوبة : ١٨ .
(3) الجن : ١٨ .
(4) النساء : ١٠٣ .
(5) المؤمنون : ١ .
(6) الماعون : ٤ ، ٥ .

مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١).

وهنا يتساءل الإنسان عن هذه الصلاة التي لها أوقات، ولها قبلة، وتصلى في جماعة ولو في المعركة مع المشركين، وتبنى لها مساجد، ويتطهر لها، يتساءل الإنسان: أين التوصيف الدقيق لها ؟ فما عددها، وما أوقاتها وكيف تؤدى؟ بل يتساءل عن دقائقها فما معنى ﴿ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ يتساءل أسئلة كثيرة ناشئة عن آيات القرآن الكريم، فيجد إجابتها في السنة النبوية، فيجد فيها توصيفًا دقيقًا يتناغم مع القرآن الكريم بكل دقة، ويتوافق مع الكتاب العزيز بكل عظمة، حتى إن القارئ للكتاب والسنة لابد أن يقول : إنهما من مشكاة واحدة.

فحينما نقرأ في القرآن الكريم : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ (٢) نجد في السنة النبوية بيان هذا المجمل بكل توضيح، فالصلوات خمس في اليوم والليلة، صلاة الصبح ركعتان، والظهر أربع، والعصر أربع، والمغرب ثلاث، والعشاء أربع. نجد في السنة حقيقة الركعة، وأنها مؤلفة من قراءة الفاتحة، وركوع، وسجود أول، وجلوس، وسجود، مع اطمئنان في تأدية الأركان، وأمور تستحب ، وهيئات تستحسن.

---

(١) المائدة : ٦ .

(٢) البقرة : ٤٣ .

نجد في السنة توضيحًا كاملاً لقوله تعالى: ﴿ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ ففيها أحكام صلاة الجماعة، ومن أولى بالإمامة، ومتى يجهر الإمام ومتى يسر. هذا وغيره كثير، حتى إن الإنسان لا يحتاج بعد توضيح السنة شيئًا قط. فقد وضح الأمر كل الوضوح.

وهكذا في كثير وكثير جدا من المسائل، تجدها مجملة في القرآن الكريم فيبينها المصطفى المعصوم ﷺ ، ويتناقلها المسلمون واقعًا عمليًا، ولفظًا محفوظًا في الصدور وفي السطور.

قرأت لأحد منكري السنة: إن الصلاة التي أمرنا الله بها في القرآن الكريم هي الدعاء، فإذا دعوت بعض دعوات فقد صليت [1]!!

وعجبت كثيرا ، كيف يقول هذا عاقل؟ إن القرآن قد وضح ملامح الصلاة المفروضة بما معناه لا يمكن أن تكون هي الدعاء، لقد وضح أنها فيها ركوع وسجود ، ولها قبلة، ومساجد، ولها أذان، وفيها صلاة جمعة، إلى آخر الملامح القرآنية للصلاة.

فكيف يقول إنسان يدعي أنه يتبع القرآن الكريم، كيف يقول إن الصلاة التي أمرنا الله بها في القرآن الكريم إنما هي مجرد دعاء؟ إن هذا تضليل بلغ من الوضوح درجة لا يحتاج إلى أن يرد عليه، فإنه يرفضه كل سليم الفطرة معتدل التفكير، أما من في قلبه مرض، أو لوثت فطرته، أو اختل عقله لتعصب أو هوى أو غير ذلك فمثل هذا ليذهب إلى الجحيم فلا عبرة بما يرى.

الجزء القرآني من شبهتهم :

---

(1) نشرت هذا جريدة معارضة مطمورة مصرية ، وكم للجرائد والمجلات من طامات .

أما استدلالهم بقول الله تعالى ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (١)

يستدلون بها على أن القرآن الكريم قد حوى كل العلوم ولا حاجة للسنة فأتساءل معهم: هل بين القرآن الكريم عدد الصلوات المفروضة؟

هل بيّن القرآن الكريم كيفية الصلاة ؟

هل بيّن القرآن الكريم كيفية صلاة الجماعة . . . إلى آخر ما ذكرت قبل ذلك.

وأقول لهم : قال الله تعالى: ﴿ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ فهل بين القرآن الكريم الأموال التي يجب فيها الزكاة، والمدة التي تجب فيها الزكاة، والمقدار الذي تجب فيه الزكاة، والمقدار الذي يجب أن يخرجه صاحب المال، إن القرآن لم يبين ذلك، فكيف يستدلون بالآية على أن القرآن يكفي عن السنة ؟ !

وما قلته عن الصلاة والزكاة يقال عن الصيام، والحج، والجهاد، والبيوع، والنكاح، والطلاق، والرضاع، والنفقات، جاءت التشريعات في هذه الأمور وغيرها مجملة في القرآن الكريم(٢) فأين ﴿ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ ؟ وأين الاستغناء بالقرآن الكريم عن السنة ؟

نعم: أنزل الله الكتاب تبيانا لكل شئ، لكن ليس تفصيلا، وإنما

---

(١) النحل : ٨٩ .

(٢) لقد اختصرت هذا بذكر الموضوعات فقط ، أما المروزي فإنه قد وضح ذلك وأجاد فليراجع كتابة "السنة"موضوع : ذكر السنن التي هي تفسير لما افترضه الله مجملاً مما لا يعرف معناه بلفظ التنزيل دون بيان النبي ﷺ وترجمته صـ٣٦ ــ ٨٦ ، وراجع ما بعده .

باشتماله على كليات الإسلام وأصوله، وباشتماله على المصادر التي تبين وتفصل الأمر باتباع هذه المصادر وهي:

١- السنة:

لقوله تعالى: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ [١]

٢- الإجماع: لقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾[٢]

٣- القياس: لقوله تعالى: ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾[٣]

إن القرآن الكريم قد حوى الكثير من أمور الدين، وأمر باتباع السنة، واتباع الإجماع، والاعتماد على القياس عند الحاجة ، فأصبح متضمنا العلوم، وعلوم السنة والإجماع والقياس، لأنه لما أمر باتباع هذه الأشياء كان العمل بها عملاً بالقرآن الكريم، فبذا أصبح تبياناً لكل شئ.

إنني أتساءل مع القائلين بأن القرآن قد بين كل شئ، ما بال الصحابة كانوا يسألون رسول الله عن بعض أمور الإسلام كالذي أرسل امرأته إلى بيت رسول الله ﷺ تسأل عن تقبيل الرجل زوجته وهو صائم[٤] وأكثر من ذلك لماذا سأل الصحابة رسول الله ﷺ عن معاني القرآن،

---

[١] الحشر : ٧   [٢] النساء : ١١٥   [٣] الحشر : ٢

[٤] يراجع كتاب " المدخل إلي السنة " صـ٢٨٦ ، بحث : الإستدلال من السنة علي حجية الآحاد

فسألوا حينما نزلت : ﴿ الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ سألوا قائلين : أينا لا يظلم نفسه ؟

لقد فهموا : أن الظلم في الآية مطلق ظلم، فبين لهم ﷺ أن الظلم في الآية إنما المراد به الشرك، مستدلاً بآية أخرى من الكتاب العزيز ﴿ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [1].

إن تساؤلات الصحابة دليل على أن البيان موكول إليه ﷺ، ومن هنا جاء الأمر بطاعته، وجاء التحذير من مخالفته.

وسؤال آخر: هل العموم في الآيتين ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ ، ﴿ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾

هل هذا العموم على إطلاقه ؟

لو كان كذلك لكانت علوم الدنيا والآخرة في القرآن الكريم، ولما فكر مفكر. فلم يبق إلا تخصيص هذا العموم، وأنه تبيان لكل شئ من أمور الدين، وما دام العام قد خص، فقد ضعف عمومه.

وأيضا ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ هل الكتاب هنا هو القرآن؟

إن سياق الآية: ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ لو كان الكتاب هو القرآن لكان القرآن مشتملاً على شئون جميع المخلوقات، ومقدراتها، وأرزاقها، الطيور في الهواء، وأمم البحر من أسماك وغيرها، وأمم أكبر من وحوش

---

[1] هذا الحديث أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ، باب قول الله : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ ﴾ ٦/٤٦٥، رقم ٣٤٢٩ ؛ وقول الله : ﴿ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ... ﴾ والآية من سورة لقمان رقم ١٣.

وغيرها، ولما لم يكن القرآن مشتملاً على ذلك ، ثبت أن المراد بالكتاب في قوله تعالى: ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ إنما هو اللوح المحفوظ، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [1].

لقد أطلت في الرد على هذه الشبهة بعض الإطالة نظرًا لأنها قد تنطلي على العامة.

أما الذين يثيرونها فلا أظن أن الرد يخفى عليهم، لكنه الباطل الذي يعمي حبه بعض الخلق نسأل الله العفو والعافية.

ولست بالحريص أن أكتب لهؤلاء، فإنهم ينكرون السنة في أول كتبهم ويدعون العمل بالقرآن، وبعد قليل من كتاب أحدهم تجد ينكر القرآن تمامًا، إنهم يتشدقون بالقرآن تعمية على الناس، وترويجًا لباطلهم، لكنك إذا قرأت لهم وجدتهم ينكرون القرآن، ويحتالون على تغيير أحكامه.

---

[1] هود : ٦

وختامًا للحديث على هذه الدعوى ــ دعوى أن القرآن يستغنى به عن السنة ــ أتساءل: إذا كان القرآن يغني عن السنة، فما معنى الآيات الآمرة:

١ــ باتباع رسول الله ﷺ مثل قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [1].

وقوله سبحانه: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرً ﴾ [2].

٢ــ وما معنى الآيات المفيدة لنزول السنة عليه ﷺ ، ومنها قوله تعالى: ﴿ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [3].

وقوله تعالى لنساء رسول الله ﷺ : ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ [4]

٣ــ وما معنى الآيات الآمرة بطاعته ﷺ ، مثل قوله تعالى: ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ [5].

٤ــ إذا كان القرآن يغني عن السنة فما معنى الآيات المحذرة من مخالفته ﷺ ، ومنها قوله تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [6]

---

(١) آل عمران : ٣١.

(٢) الأحزاب : ٢١.

(٣) النساء : ١١٣.

(٤) الأحزاب : ٣٤.

(٥) النساء : ٨٠.

(٦) النور : ٦٣.

إن الذين يدعون اتباع القرآن وأنه يغني عن السنة يتناقضون مع القرآن الكريم، فإن القرآن يشتمل على الكثير من الآيات الدالة على وجوب العمل بسنته ﷺ [1].

وعليه فلا يخدعون أنفسهم بأنهم " قرآنيون " ولا ينخدع بهم غيرهم لجلال كلمة "قرآن" فإنهم ليسوا بقرآنيين ، لأنهم لا يعملون بهذه الآيات الآمرة باتباع رسول الله ﷺ والموجبة لطاعته. إنما " القرآنيون " هم الذين يتبعون رسول الله ﷺ في كل ما جاء به عن الله ، من قرآن ، ومن سنة. وهو القائل ﷺ: " إني قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدًا كتاب الله وسنة نبيه " [2] [3].

* * *

---

[1] راجع باب وجوب العمل بالسنة ، فصل " القرآن الكريم يوجب العمل بالسنة " ص ٧٧ من كتاب "المدخل إلى السنة النبوية " .

[2] اخرجه الحاكم في العلم ، باب خطبته ﷺ في حجة الوداع ٩٣/١ ، وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى في آداب القاضي ما يقضي به القاضي ١١٤/١٠.

[3] انظر في ذلك " دفاع عن السنة " ص ٨٣ ـ الطبعة الأولى ـ د/ عبد المهدي عبد القادر .

المبحث الأول

فيما ادعى على القرآن من اللحن

قال ابن قتيبة في كتابه مشكل القرآن وهو يستعرض ما جاء في هذا الباب من قضايا، وطبعي أن ما ذكره ابن قتيبة صلته وثيقة بموضوع كتابنا فقد قال [1]:

أما ما تعلقوا به من " حديث عائشة" رضى الله عنها في غلط الكاتب، و " حديث عثمان" ﷺ : (أرى فيه لحنًا) ـ فقد تكلم النحويون في هذه الحروف، واعتلوا لكل حرف منها، واستشهدوا الشعر[2]:

* فقالوا: في قوله سبحانه : ﴿ إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ ﴾ [3]وهي لغة بلحرث بن كعب [4] يقولون : مررت برجلان، وقبضت منه درهمان، وجلست بين يداه، وركبت علاه. وأنشدوا :

تزود منا بين أذناه ضربة دعته إلى هابي التراب عقيم [5]

أي موضع كثير التراب لا ينبت.

وأنشدوا :

أي قلوس راكب تراها

(١) كذا في كتاب " مشكل القرآن " لابن قتيبة ص ٥٠ ، ط الثالثة .

(٢) راجع اللسان : ١٦/١٧١ ــ ١٧٢.

(٣) طه : ٦٣.

(٤) انظر الصاحبي ٢٠ (السلفية) .

(٥) البيت لهوبر الحارثي ، كما في اللسان ١٠/٦٤ ، ١٩/١٦٣ ، ٢٠/٢٢٦ ، وفي كل هذه المواضع ورد بلفظ : " بين أذنيه " والهابي من التراب : ما ارتفع ودق . والبيت في= =الجمهرة ٢/٣٢٣. " بين أذناه " وقبله بيتان ، وفي الصحاح ٦/٢٥٣٢ ، وفي التاج ١٠/٤٠٥.

طاروا علاهن فطرْ علاها [1]

على أن القراء قد اختلفوا في قراءة هذا الحـرف: فقـرأه " أبـو عمرو بن العلاء" ، و " عيسى بن عمر" : ﴿ إن هذين لساحران ﴾ وذهبا إلى أنه غلط من الكاتب كما قالت "عائشة" .

وكان " عاصم الجحدري" [2] يكتب هذه الأحرف الثلاثة في مصحفه على مثالها في الإمام، فإذا قرأها ، قرأ : ﴿ إن هذين لساحران ﴾ ، وقرأ ﴿والمقيمون الصلاة ﴾[3] ، وقرأ : ﴿ إِنَّ الَّـذِينَ آمَنُـوا وَالَّـذِينَ هَـادُوا والصابئين ﴾ [4].

وكان يقرأ أيضا في سورة البقرة: ﴿ والصـابرون فـي البأسـاء والضراء ﴾ [5] ويكتبها: ﴿ الصابرين ﴾.

---

[1] في نوادر أبي زيد ص٥٨ " وقال المفضل : وأنشدني أبو الغول لبعض أهل الـيمن : أي قلـوص راكب .. فشل علاها" القلوص مؤنثة . وعلاها : أراد عليها ، ولغة بنيالحارث ابن كعب قلب اليـاء الساكنة إذا انفتح ما قبلها ، يقولون : أخذت الدرهمان ، واشتريت ثوبان ، والسلام علاكم .وهـذه الأبيات علي لغتهم ... قال أبو حاتم : : سألت عن هذه الأبيات أبا عبيده فقال : أنقط عليـه ، هـذا صنعه المفضل " وكذلك قال في ص ١٦٤ ، وانظر اللسان ٣٢٢/١٩ ، وخزانـة الأدب ١٩٩/٣ ، وشرح شواهد الشافية ٣٥٥ ، وشرح شواهد المغني ص ٤٧ .

[2] هو عاصم ابن أبي الصباح : العجاج ، أبو المجشر الجحدري ، البصري المقري المفسر ؛ قرأ علـى الحسن البصري . ومات سنة ١٢٨ . وترجمته في غاية النهاية ٢٤٩/١ وتاريخ الإسلام ٩٠/٥ وميزان الإعتدال ٣٥٤/٢ ولسان الميزان ٢٢٠/٣ .

[3] النساء : ١٦٢ .

[4] المائدة : ٦٩ .

[5] البقرة : ١٧٧ .

وإنما فرق بين القراءة والكتابة لقول "عثمان" رحمه الله : " أرى فيه لحنًا وستقيمه العرب بألسنتها " فأقامه بلسانه، وترك الرسم على حاله.

وكان "الحجاج" وكل " عاصما " و " وناجية بن رمح" و " علي بن أصمع " [1] بتتبع المصاحف، وأمرهم أن يقطعوا كل مصحف وجدوه مخالفا لمصحف عثمان، ويعطوا صاحبه ستين درهما.

خبرني بذلك " أبو حاتم" عن " الأصمعي" قال: وفي ذلك يقول "الشاعر" :

وإلا رسوم لدار قفرا كأنها   كتاب محاه الباهلي بن أصمعا

وقرأ بعضهم: ﴿ إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ ﴾ اعتباراً بقراءة " أبي " لأنها في مصحفه: " إن هذان إلا ساحران " وفي مصحف " عبد الله " : " وأسروا النجوى أن هذان ساحران " منصوبة الألف بجعل ﴿ أن هذان ﴾ تبيينًا للنجوى.

وقالوا في قوله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى والصابئون ﴾[2] رفع " الصابئين" لأنه رد على موضع ﴿ إن الذين آمنوا ﴾ وموضعه رفع، لأن " إن" مبتدأة وليست تحدث في الكلام معنى كما تحدث أخواتها، ألا ترى أنك تقول: زيد قائم، ثم تقول: إن زيدًا قائم، ولا يكون بين الكلامين فرق في المعنى. وتقول: زيد قائم ، ثم تقول: لعل زيدًا قائم، فتحدث في الكلام معنى الشك. وتقول: زيد قائم، ثم تقول:

---

(١) في القرطين " علي بن أصمع عم أبي الأصمعي "

(٢) البقرة : ٦٢

ليت زيدًا قائم، فتحدث في الكلام معنى التمني ، ويدلك على ذلك قولهم: إن عبد الله قائم وزيد، فترفع زيدًا ، كأنك قلت: عبد الله قائم وزيد، وتقول لعل عبد الله قائم وزيدا ، فتنصب مع "لعل" وترفع مع "إن" لما أحدثته "لعل" من معنى الشك في الكلام، ولأن "إن" لم تحدث شيئًا. وكان "الكسائي" يجيز: إن عبد الله وزيد قائمان، وإن عبد الله وزيد قائم . و " البصريون" يجيزونه ويحكون: ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﴾[1] وينشدون:

فمن يك أمسى بالمدينة رحله ... فإني وقيار بها لغريب[2].

* وقالوا في نصب "المقيمين" بأقاويل : قال بعضهم: أراد بما أنزل إليك وإلى المقيمين .

وقال بعضهم: وما أنزل من قبلك ومن قبل المقيمين، وكان " الكسائي " يرده إلى قوله: ﴿ يؤمنون بما أنزل إليك ﴾ - أي- ويؤمنون بالمقيمين، واعتبره بقوله في موضع آخر: ﴿ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [3] أي بالمؤمنين.

وقال بعضهم: هو نصب على المدح.

قال " أبو عبيدة" : هو نصب على تطاول الكلام بالنسق، وأنشد " للخرنق بنت هفان " :

لا يبعدن قومي الذين هم ... سم العداة وآفة الجزر

النازلين بكل معترك ... والطيبون معاقد الأزر[4]

---

(1) الأحزاب : ٥٦ ، وانظر البحر المحيط ٢٤٨/٧ .

(2) البيت لضابئ البرجي في اللسان ٤٣٨/٦ ، والكامل ١٨٨/١ ، والأصمعيات ١٦، ونوادر أبي زياد ص ٢٠ والنقائض ٢٢٠/١ ، وخزانة الأدب ٢٢٣/٤ ، وتفسير الطبري ١٣٧/١٦ ،

(3) التوبة : ٦١.

(4) ديوانها ص ١٠ ، وأمالي القالي ١٥٤/٢ ، وأمالي المرتضي ٢٠٥/١ ، ومجاز القرآن ٦٥/١ =

* ومما يشبه هذه الحروف ـ ولم يذكروه ـ قوله في سورة البقرة: ﴿ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ ﴾ [1].

والقراء جميعا على نصب "الصابرين" إلا "عاصما الجحدري" فإنه كان يرفع الحرف إذا قرأه، وينصبه إذا كتبه؛ للعلة التي تقدم ذكرها.

واعتل "أصحاب النحو" للحرف، فقال "بعضهم" : هو نصب على المدح، والعرب تنصب على المدح والذم، كأنهم ينوون إفراد الممدوح بمدح مجدد غير متبع لأول الكلام، كذلك قال الفراء.

وقال "بعضهم" : أراد: وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين والصابرين في البأساء والضراء.

وهذا وجه حسن؛ لأن البأساء : الفقر، ومنه قول الله عز وجل: ﴿ وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴾ [2].

والضراء: البلاء في البدن، من الزمانة والعلة. فكأنه قال: وآتى المال على حبه السائلين الطوافين ، والصابرين على الفقر والضر الذين لا يسألون ولا يشكون ، وجعل "الموفين" وسطا بين المعطين نسقا على "من آمن بالله".

* ومن ذلك قوله في سورة الأنبياء : ﴿ وَكَذَلِكَ نُجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾[3] كتبت في المصاحف بنون واحدة، وقرأها " القراء" جميعا " ننجي " بنونين

= ومعاني القرآن للفراء ١/١٠٥ ، والخزانة ٢/٢٠٣ ، وأمالي بن الشجري ١/٣١٠ ، وتفسير الطبري ، ٢٤/٢٧.

(١) البقرة : ١٧٧ (٢) الحج : ٢٨. (٣) الأنبياء : ٨٨.

إلا عاصم بن أبي النجود فإنه كان يقرؤها بنون واحدة، ويخالف " القراء" جميعا، ويرسل الياء فيها على مثال "فعل" (١).

فأما من قرأها بنونين ، وخالف الكتاب، فإنه اعتل بأن النون تخفى عند الجيم، فأسقطها كاتب المصحف لخفائها، ونيته إثباتها.

واعتل بعض النحويين "لعاصم" فقالوا: أضمر المصدر، كأنه قال: نجى النجاء المؤمنين، كما تقول: ضرب الضرب زيدا، ثم تضمر الضرب، فتقول: ضرب زيدا (٢).

وكان "أبو عبيد" يختار في هذا الحرف مذهب "عاصم" كراهية أن يخالف الكتاب، ويستشهد عليه "حرفا" في سورة الجاثية، كان يقرأ به "أبو

---

(١) قراءة عاصم الجحدري التي ذكرها ابن قتيبة هي : " نجي " بضم النون وتشديد الجيم وسكون الياء ـــ رواه عنه : أبو بكر بن عياش وحده . أما رواية حفص عنه فهي : " ننجي " بنونين مضمومة فساكنة ، وهي التي عليها قراءتنا الآن في المشرق . قال ابن مجاهد في كتاب " السبعة " ورقة ٧٨ ـــ ب : " قرأ عاصم في رواية أبي بكر وحده : " نجي المؤمنين " بنون واحدة ، مشددة ، على ما لم يسمى فاعله ، والياء ساكنة. حفص ، عن عاصم : " ننجي " بنونين ، خفيفة ؛ وكذلك قراءة الباقون . عبيد ، عن أبي عمرو ، وعبيد ، عن هارون ، عن أبي عمرو : " نجي" مدغمة . كذلك قالا : " مدغمة " وهو وهم . لا يجوزها هنا الإدغام ؛ لأن النون الأولى متحركة ، والثانية ساكنة . والنون لا تدغم في الجيم . وإنما خففت لسكونها ، ولأنها تخرج من الخياشيم . فحذفت من الكتاب ، وهي ثابتة في اللفظ . وانظر التيسير للداني ١٥٥ ، وإبراز المعاني لأبي شامة ٤٠٢ وإتحاف فضلاء البشر ٣١١ ؛ والبحر المحيط ٦/٣٣٥ ، وأمالي بن الشجري ٢/٥١٥ .

(٢) بعض النحويين الذين اعتلوا لقراءة عاصم هذه ـــ هم : الفراء ، وأبو عبيد ، وثعلب . وقد خطأ ها الزجاج وأبو حاتم ، وقالا : إنها لحن ؛ لأنه نصب اسم ما لم يسمى فاعله ، وإنما يقال : نجي المؤمنون ، كما يقال : كُرِّم الصالحون . ولا يجوز : ضرب زيد ، بمعنى : ضرب الضرب زيدا ؛ لأنه لا فائدة فيه ؛ إذ كان ضرب يدل على الضرب .

جعفر المدني" ، وهو قوله : ﴿ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [1] أي ليجزي الجزاء قوما.

وأنشدني بعض النحويين [2] :

ولو ولدت فقيرة جرو كلب   لسب بذلك الجرو الكلابا [3]

* * *

* ومن ذلك : ﴿ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [4] أكثر القراء يقرءون ﴿ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ ﴾ بغير واو. واعتل " بعض النحويين" في ذلك بأنها محمولة على "موضع" فأصدق ، لو لم يكن فيه الفاء، وموضعه جزم، وأنشد:

فأبلوني بليتكم لعلي   أصلحكم وأستدرج نويا [5]

---

(1) في تفسير القرطبي ١١/٣٢٥ : " ولأبي عبيد قول آخر ـــ وقاله القتبي ـــ وهو أنه أدغم النون في الجيم . قال النحاس : وهذا قول لا يجوز عند أحد من النحويين ؛ لبعد مخرج النون من مخرج الجيم ، فلا تدغم فيها . ولا يجوز في " من جاء بالحسنة " : " مجاء بالحسنة . ولم أسمع في هذا أحسن من شئ سمعته من " علي بن سليمان (الأخفش) قال : الأصل " ننجي " فحذف إحدى النونين ؛ لاجتماعهما ، كما تحذف إحدى التاءين ؛ لاجتماعهما ، نحو قوله عز وجل : ﴿ ولا تفرقوا ﴾ ، والأصل : تتفرقوا " .

(2) راجع تفسير القرطبي ١١/٣٣٤ ـــ ٣٣٥ .

(3) البيت لجرير كما في الخزانة ١/١٦٣ وهو غير موجود في ديوانه ولا في النقائض . وهو غير منسوب في القرطبي ١١/٣٣٥ .

(4) المنافقون : ١٠ .

(5) البيت في اللسان ١٣/٥٠١ غير منسوب ، وفي شرح شواهد المغني للسيوطي ٢٨٤ لأبي دؤاد ، وهو له في الخصائص ١/١٧٦ ، ومعاني القرآن للفراء ١/٨٨ ، وفي النقائض ١/٤٠٨ أراد : نوايا فذهب به إلى قفيا وهويا ، وهو الوجه الذي يريده . واستدرج ، يقول : أترككم وأذهب . ولعل بمعنى كي على رأى الكوفيين . واستشهدوا بهذا البيت . وفي هامش م : " النوى : النية ، وأبلوني من

فجزم " وأستدرج"، وحمله على موضع "أَصالحكم" لو لم يكن قبلها: "لعلي" كأنه قال: فأبلوني بليتكم أصالحكم واستدرج.

وكان "أبو عمرو بن العلاء" يقرأ : ﴿ فأصـــدق وأكــون ﴾ بالنصـــب [1]، ويذهب إلى أن الكاتب أسقط الواو، كما تسقط حروف المــد واللـــين فـــي "كلمون" وأشباه ذلك.

* * *

وليست تخلو هذه الحروف من أن تكون على مذهب من مــذاهب أهل الإعراب فيها، أو أن تكون غلطا من الكاتب، كما ذكرت "عائشة" رضى الله عنها.

فإن كانت على مذاهب النحويين فليس هاهنا لحن بحمد الله.

وإن كانت خطأ في الكتاب، فليس على رسوله، ﷺ ، جناية الكاتب في الخط [2]

ولو كان هذا عيبا يرجع على القرآن ، لرجع عليه كل خطأ وقـــع في كتابة المصحف من طريق التهجي:

الإبلاء ، وهو الإ‍ ناء . والبلية : الناقة كانت تحبس على رأس قبر الميت ، وكانت العـــرب تـــزعم أن الأموات تبعث ركبانا " وانظر اللسان ١٨/٩٢.

(١) راجع الخصائص والقراءات الشاذة ص ١٥٧ ، والبحر المحيط ٨/٢٧٥ .

(٢) في مجاز القرآن ٢/٢٥٩ : " قال أبو عمرو : وأكون الصالحين " وذهب الواو من الخط ، كمـــا يكتب "أبو جاد" : " أبجد " هجاء . وقال آخرون : الجزم على غير موالاة ولا شركة " وأكون " ولكنه أشركه في الكلام الأول ، كأنه قال : هلا أخرتني أكن . فهذه الفاء شركة في موضـــع الفـــاء الأولى ، والفاء الأولى التي في "أصدق" في موضع جزم ، قال :

إذا قصرت أسيافنا كان وصلها .. خطانا إلى أعدائنا فنضارب

فقد كتب في الإمام : ﴿ إن هذن لساحران ﴾ بحذف ألف التثنية.

وكذلك "ألف التثنية" تحذف في هجاء هذا المصحف في كل مكـان، مثل: ﴿ قال رجلن ﴾ و ﴿ آخَرَنِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَـا ﴾ [1] وكتبـت كتـاب المصحف: الصلوة والزكوة والحيوة، بالواو، واتبعناهم في هذه الحـروف خاصة على التيمن بهم، ونحن لا نكتب : "القطـاة والقنـاة والفـلاة" إلا بالألف، ولا فرق بين تلك الحروف وبين هذه .

وكتبوا "الربو" بالواو، وكتبوا: ﴿ فمال الذين كفروا ﴾[2] فمال بلام منفردة .

وكتبوا : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِى الْمُرْسَلِينَ ﴾ [3] بالياء ﴿ أو مـن ورائي حجاب ﴾ [4] بالياء في الحرفين جميعا، كأنهما مضافان، ولا يـاء فيهما، إنما هي مكسورة .

وكتبوا : ﴿ أم لهم شركو ﴾ [5] و ﴿ فقال الضعفو ﴾ [6] بواو، ولا ألف قبلها.

وكتبوا : ﴿ أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاوُ ﴾ [7] بواو بعد الألـف، وفي موضع آخر ﴿ ما نشاء ﴾ [8] بغير واو ، ولا فرق بينهما.

---

(1) المائدة : ١٠٧ .

(2) المعارج : ٣٦.

(3) الأنعام : ٣٤ .

(4) الشورى : ٥٢.

(5) القلم : ٤١ ، والشورى : ٢١ .

(6) إبراهيم : ٢١.

(7) هود : ٨٧.

(8) الإسراء : ١٨ ، والحج : ٥.

وكتبوا : ﴿ أَوْ لَا أَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ [1] بزيادة ألف. وكذلك ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ ﴾ [2] بزيادة ألف بعد لام ألف.

وهذا أكثر في المصحف من أن نستقصيه.

وكذلك لحن اللاحنين من القراء المتأخرين، لا يجعل حجة على الكتاب.

وقد كان الناس قديما يقرءون بلغاتهم كما أعلمتك.

ثم خلف قوم بعد قوم من أهل الأمصار وأبناء العجم ليس لهم طبع اللغة، ولا علم التكلف، فهفوا في كثير من الحروف وزلوا وقرأوا بالشاذ وأخلوا.

منهم " رجل" [3] ستر الله عليه عند العوام بالصلاح، وقربه من القلوب بالدين.

---

[1] النمل : ٢١.

[2] التوبة : ٤٧.

[3] هذا الرجل هو : حمزة بن حبيب الزيات ، أبو عمارة الكوفي ، أحد القراء السبعة ، " ٨٠/١٢٧ هـ " ومن عجب أن يقول ابن مطرف في كتاب القرطين : ١٥/٢ : " وباقي الباب لم أكتبه بما فيه من الطعن على حمزة . وكان أورع أهل زمانه . مع خلو باقي الباب من الفائدة " !!! هكذا قال ابن مطرف ، وهو قول يدل على عصبية مضلة ، وغفلة عن قيمة الحقائق العلمية ، وأي فائدة أعظم من أن يبين ابن قتيبة في باقي الباب ، أوهام القراء التي وهموا فيها ، وسجلها عليهم العلماء الأثبات ، وبينوا خطأهم فيها . وهل طعن ابن قتيبة في حمزة بغير حق ؟ ثم أنه لم ينفرد بالطعن فيه . فقد سبقه إلى ذلك أعلام العلماء . فقد كان يزيد بن هارون يكره قراءة حمزة كراهية شديدة ، وأرسل إلى أبي الشعثاء : لا تقرأ في مسجدنا قراءة حمزة . وقال عبد الرحمن بن مهدي: لو كان لى سلطان على من يقرأ قراءة حمزة لأوجعت ظهره .

لم أر فيمن تتبعت وجوه قراءته أكثر تخليطا، ولا أشد اضطرابا منه؛ لأنه يستعمل في الحرف ما يدعه في نظيره، ثم يؤصل أصلا ويخالف إلى غيره لغير ما علة. ويختار في كثير من الحروف ما لا مخرج له إلا على طلب الحيلة الضعيفة.

هذا إلى نبذه في قراءته مذاهب العرب وأهل الحجاز، بإفراطه في المد والهمز والإشباع، وإفحاشه في الإضجاع والإدغام، وحمله المتعلمين على المركب الصعب، وتعسيره على الأمة ما يسره الله، وتضييقه ما فسحه.

وكذلك كان أحمد بن حنبل يكرهها . وكذلك كرهها وتبرم بها عبد الله بن إدريس الأودي . وقال أبو بكر بن عياش : قراءة حمزة بدعة . وعلق على ذلك الذهبي بقوله : " يريد ما فيها من : المد المفرط ، والسكت، وتغيير الهمز في الوقف والإمالة وغير ذلك " . وقال ابن دريد : إني لأشتهي أن يخرج من الكوفة قراءة حمزة. وقال حماد بن زيد : لو صلى بي رجل فقرأ بقراءة حمزة ، لاعدت صلاتي . وكان أحمد يكره أن يصلي خلف من يقرأ بقراءته . وقال الأزدي والساجي : يتكلمون في قراءته وينسبونه إلى حالة مذمومة . ولكن الذهبي قال في ميزان الاعتدال : قد انعقد الاجماع بأخره على تلقي قراءة حمزة بالقبول، والإنكار على من تكلم فيها، فقد كان من بعض السلف في الصدر الأول فيها مقال ويكفي حمزة شهادة مثل = = الإمام سفيان الثوري له ، فإنه قال : ما قرأ حمزة حرفا إلا بأثر " وعجيب من الذهبي أن يكتفي بدعوى الإجماع ! وقول الثوري هذا ، ويسكت عما قاله فيه السلف ولا يتعرض له بنقد ، فهل انعقد الإجماع بأخره على أنهم كانوا في نقدهم لحمزة من الخاطئين ؟ راجع ترجمة حمزة في طبقات ابن سعد ٢٦٨/٦ (ليدن) ، ٣٨٥/٦ (بيروت) و التاريخ الكبير ٤٨/١/٢ ، والجرح والتعديل ٢/١ ــ ٢٠٩ ، ٢١٠ ، وميزان الاعتدال ٦٠٥/١ ــ ٦٠٦ ، ومعرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار ٩٣/١ ــ ٩٩ ، ووفيات الأعيان ٤٤٥/١ ، والمعارف ٢٣٠ ، وطبقات القراء لابن الجزري ٢٦٣/١ ، والنشر ١٦٦/١ ، والتيسير ٦ ــ ٧ ، وتهذيب التهذيب ٣/ ٢٧ ــ ٢٨ ومعجم الأدباء لياقوت ١٩/ ٢٨٩ ــ ٢٩٣ .

ومن العجب أنه يقرئ الناس بهذه المذاهب، ويكره الصلاة بهـا!
ففي أي موضع تستعمل هذه القراءة إن كانت الصلاة لا تجوز بها ؟ !

وكان "ابن عيينة" يرى لمن قرأ فـي صـلاته بحرفـه، أو أتـتم بقراءته: أن يعيد، ووافقه علىذلك كثير من خيار المسلمين منهم "بشر بن الحارث" [١] و"أحمد بن حنبل".

وقد شغف بقراءته عوام الناس وسوقهم، وليس ذلك إلا لما يرونه من مشقتها وصعوبتها، وطول اختلاف المتعلم إلى المقرئ فيها، فإذا رأوه قد اختلف في أم الكتاب عشرا، وفي مائة آية شهرا، وفي السبع الطول [٢] حولا، ورأوه عند قراءته مائل الشدعين، دار الوريدين، راشح الجبينين — توهموا أن ذلك لفضيلة في القراءة وحذق بها.

وليس هكذا كانت قراءة رسول الله ، ﷺ ، ولا خيـار السـلف ولا التابعين؛ ولا القراء العالمين؛ بل كانت قراءتهم سهلة رسلة: وهكذا نختار لقراء القرآن في أورادهم ومحاريبهم. فأما الغـلام الـريض والمسـتأنف للتعلم، فنختار له أن يؤخذ بالتحقيق عليه، من غير إفحاش في مد أو همز أو إدغام؛ لأن في ذلك: تذليلا للسان، وإطلاقا من الحبسة، وحلا للعقدة.
وما أقل من سلم من هذه الطبقة في حرفه من الغلط والوهم:

---

(١) توفي بشر بن الحارث ، المعروف بالحافي سنة سبع وعشرين ومائتين ، وقد بلغ من السـن خمسـا وسبعين سنة ، راجع ترجمته في تاريخ بغداد ٦٨/٧ — ٨٠ ووفيات الأعيان ٢٤٨/١ — ٢٥١.

(٢) في اللسان ٤٣٦/١٣ ، والسبع الطول من سور القرآن : سبع سور ... " .

فقد قرأ "بعض المتقدمين" [1]: ﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ ﴾ [2] فهمز، وإنما هو من دريت بكذا وكذا .
وقرأ [3] : ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴾[4] توهم أنه جمع بالواو والنون.
* وقرأ آخر [5] : ﴿ فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ ﴾ [6] بفتح التاء، وكسر الميم، ونصب الأعداء. وإنما هو من : أشمت الله العدو فهو يشمته، ولا يقال: شمت الله العدو .

*وقال : " الأعمش" [7] قرأت عند "إبراهيم" [8] "وطلحة بن مصرف" [9] : ﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾ [10] ، فقال: "إبراهيم" ما تزال تأتينا

---

(1) يقصد الحسن ، جاء في القراءات الشاذة ص ٤٦ " ولا أدرأتكم به " بالهمز والتاء : الحسن ، وفي البحر المحيط ٥/١٣٣ " وقرأ ابن عباس وابن سيرين والحسن وأبو رجاء : ولا أدرأتكم به " بهمزة ساكنة . وخرجت هذه القراءة على وجهين ... " انظر الكشاف ٢/١٨٤.

(2) يونس : ١٦.

(3) يقصد الحسن أيضا ، راجع القراءات الشاذة ص ١٠٨ والكشاف ٣/١٢٩ وفي البحر المحيط ٤٦/٧ وقرأ الحسن : الشياطون ... قال أبو حاتم : هي غلط منه أو عليه . وقال النحاس : هو غلط عند جميع النحويين ... وقال الفراء : غلط الشيخ ، ظن أنها النون التي على هجائن ... " .

(4) الشعراء : ٢١٠ . وانظر تفسير القرطبي ١٣/١٤٢ .

(5) في البحر المحيط ٤/٢٩٦ " وقرأ ابن محيصن : تَشمِت بفتح التاء وكسر الميم ونصب الأعداء — "

(6) الأعراف : ١٥٠.

(7) هو سليمان بن مهران الأعمش ، أبو محمد الأزدي الكوفي ولد سنة ٦٠ ومات سنة ١٤٨ ، راجع غاية النهاية في طبقات القراء ١/٣١٥.

(8) هو إبراهيم بن يزيد ، أبو عمران النخعي الكوفي المتوفي سنة ٩٦.

(9) هو طلحة بن عمرو بن كعب ، أبو عبد الله الهمداني الكوفي ، تابعي ، مات سنة ١١٢ ، كما في غاية النهاية في طبقات القراء ٢/٣٤٣ والمعارف ٢٣٠ .

(10) الشعراء : ٢٥.

بحرف أشنع ! إنما هو : " لمن حوله" واستشهد "طلحة" فقال مثل قولــه. قال " الأعمش" : فقلت لهما : لحنتما، لا أقاعدكما اليوم [(١)].

* وقرأ " يحيي بن وثاب" [(٢)] : ﴿ وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا ﴾ [(٣)] مـــن الولاية. ولا وجه للولاية ههنا [(٤)]، إنما هي تلووا ــ بواوين ــ من ليــك في الشهادة وميلك إلى أحد الخصمين عن الآخر. قال الله عز وجل: ﴿ يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ ﴾ [(٥)] واتبعه على هذه القــراءة "الأعمــش" و "حمزة".

* وقرأ "الأعمش" : ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيِّ ﴾ [(٦)] بكسر الياء [(٧)]، كأنه ظن أن الباء تخفض الحرف كله، واتبعه على ذلك "حمزة" [(٨)].

---

(١) نقل البغدادي في خزانة الأدب ٢٥٨/٢ عن الفراء قال : حدثني مندل بن علي الغـــزي ، عـــن الأعمش قال: قلت عند إبراهيم ، وطلحة بن مصرف : " قال لمن حوله : ألا تستمعون " بنصب اللام من حوله ، فقال لي إبراهيم : ما تزال تأتينا بحرف أشنع ! إنما هي لمن حوله بخفض اللام . قال : قلـــت : لا إنما هي : " حوله " فقال إبراهيم : يا طلحة ، كيف تقول ؟ قال : كما قلت . قـــال الأعمـــش : قلت : لحنتما ، لا أجالسكما اليوم ".

(٢) هو يحي بن وثاب الأسدي ، الكوفي ، تابعي ثقة . قال ابن قتيبة : مات سنة ١٠٣، راجع غايـــة النهاية في طبقات القراء ٣٨٠/٢ ، والمعارف ص ٣٣٠.

(٣) النساء : ١٣٥ . وانظر : اتحاف فضلاء البشر ١٩٥.

(٤) راجع الكشاف : ٣٠٤/١.

(٥) آل عمران : ٧٨.

(٦) إبراهيم : ٢٢.

(٧) في الكشاف ٣٠٠/٢ " وهي ضعيفة " .

(٨) في البحر المحيط ٤١٩/٥ " وقرأ يحي بن وثاب والأعمش وحمزة " بمصـــرخي " بكســـر اليـــاء ، وطعن كثير من النحاة في هذه القراءة . قال الفراء : لعلها من وهم القراء ؛ فإنه قل من سلم منهم من الوهم . ولعله ظن أن الباء في " بمصرخي" خافضة للفظ كله ، والياء للمتكلم خارجة مـــن ذلـــك ..

وقرأ "حمزة" : ﴿ وَمكْرَ السَّيِّئْ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ [1]
فجزم الحرف الأول، والجزم لا يدخل الأسماء، وأعرب الآخر وهو مثله [2]
* وقرأ "نافع" [3] : ﴿ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ [4] بكسر النون. ولو أريد بها الوجه الذي ذهب إليه ، لكانت "فبم تبشرونني" بنونين؛ لأنها في موضع رفع
وقرأ "حمزة" [5]: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴾

وقال الأخفش : ما سمعت هذا من أحد من العرب ولا من النحويين . وقال الزجاج : هذه القراءة رديئة مرذولة ولا وجه لها إلا وجه ضعيف " وقد نقل البغدادي في خزانة الأدب ٢/٢٥٨ ـ ٢٥٩ نص كلام الفراء والزجاج من تفسيرهما . وانظر إتحاف فضلاء البشر ٢٧٢.

(1) فاطر : ٤٣.

(2) في البحر المحيط ٧/٣١٩ " وقرأ الجمهور : " ومكر السيئ " بكسر الهمزة ، وقال الأعمش وحمزة بإسكانها ، فإما إجراء للوصل مجرى الوقف ، وإما إسكانا لتوالي الحركات وإجراء للمنفصل مجرى المتصل كقوله : لنا إبلان . وزعم الزجاج أن هذه القراءة لحن . قال أبو جعفر : وإنما سار لحنا لأنه حذف الإعراب منه. وزعم محمد بن يزيد أن هذا لا يجوز في كلام ولا شعر ؛ لأن حركات الإعراب دخلت للفرق بين المعاني. وقال الزجاج أيضا : قراءة = حمزة ، ومكر السيئ موقوفا عند الحذاق بيائين لحن لا يجوز إنما يجوز في الشعر لإضطرار ..." وانظر الكشاف ٣/٢٨٧ ، وإتحاف فضلاء البشر ٣٦٢.

(3) هو نافع بن عبد الرحمن ، أبو رويم ، أحد القراء السبعة ، توفى سنة ١٦٩ ، راجع طبقات القراء ٢/٣٣٤، والمعارف ص ٢٣٠ ، وغرائب القرآن على هامش الطبري ١/٩ ، وفيات الأعيان ٥/٥ ، والتيسير ص ٤ .

(4) الحجر : ٥٤ ، وانظر الكشاف ٢/٣١٥ ، وفي البحر المحيط ٥/٤٥٨ " وقرأ نافع بكسر النون مخففة ، وغلطه أبو حاتم ، وقال : هذا يكون في الشعر اضطرارا ... "

(5) في البحر المحيط ٤/٥١٠ " وقرأ ابن عامر وحمزة وحفص : " ولا يحسبن بالياء ، أي ولا يحسبن الرسول أو حاسب ، أو المؤمن ... وباقي السبعة بالتاء ، خطابا للرسول أو للسامع ... " ويرى = الزمخشري أن قراءة حمزة هذه ليست بنيرة ، راجع الكشاف : ٢/١٣٢.

بالياء[1].

ولو أريد بها الوجه الذي ذهب إليه لكانت : "ولا يحسبن الذين كفروا أنهم سبقوا ، إنهم لا يعجزون" . وهذا يكثر [2]

---

[1] الأنفال : ٥٩ بفتح الياء والسين من " يحسبن " وكسر الهمزة من " إنهم " وانظر آراء العلماء في إتحاف فضلاء البشر ٢٣٨ . وإبراز المعاني ٣٣٤ ــ ٣٣٥ وتفسير القرطبي ٣٣/٨ ــ ٣٥ والبحر المحيط ٥١٠/٥ ــ ٥١١، وتفسير الطبري ٢٨/١٤ ــ ٣١ " طبعة شاكر " والتيسير ١١٧ ومعاني القرآن للفراء ٤١٤/١ــ٤١٦.

[2] راجع ذلك تفصيلا في كتاب مشكل القرآن لابن قتيبة ص ٥٠ ط الثالثة .

المبحث الثاني
في ذكر المتشابه وحكمته

قال العلماء : وأما قولهم: ماذا أراد بإنزال المتشابه في القـرآن ، من أراد بالقرآن لعباده الهدى والتبيان ؟

ـ فالجواب عنه: أن القـرآن نـزل بألفـاظ العـرب ومعانيهـا ، ومذاهبها في الإيجاز والاختصار، والإطالة والتوكيد، والإشارة إلى الشئ، وإغماض بعض المعاني حتى لا يظهر عليه إلا اللقن [1]، وإظهار بعضها، وضرب الأمثال لما خفى.

ولو كان القرآن كله ظاهرا مكشوفا حتى يستوي في معرفته العالم والجاهل، لبطل التفاضل بين الناس، وسقطت المحنة، وماتت الخواطر.

ومع الحاجة تقع الفكرة والحيلة، ومع الكفاية يقع العجز والبلادة.

وقالوا : عيب الغني أنه يورث البله، وفضيلة الفقر أنه يبعث الحيلة.

<u>الحكمة من وجود المتشابه في القرآن :</u>

ولعل السؤال الذي يدور بأذهاننا هو إذا كان القرآن علـى ضـوء الحق منقسما إلى محكم ومتشابه فهل نلمس فائدة أو حكمة مـن وجـود المتشابه في القرآن ؟ وقد إلتمسنا الإجابة على ذلك من السـيوطي فـي كتابه الإتقان حيث قال (والجواب) أن العلماء ذكروا لوقوع المتشابه فيـه

---

(1) في اللسان ٢٧٥/١٧ " لقن " : سريع الفهم . وفي حديث الهجرة : ويبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر ، وهو شاب ثقف لقن ، أي فهم حسن التلقين لما يسمعه " . وانظر سيرة ابـن هشـام ج ٢ ص ٨٩ ط مكتبة الكليات الأزهرية .

فوائد منها أنه يوجب مزيد المشقة في الوصول إلى المراد وزيادة المشقة توجب مزيد الثواب ومنها أنه لو كان القرآن كله محكما لما كان مطابقا إلا لمذهب واحد وكان بصريحه مبطلا لكل ما سوى ذلك المذهب وذلك مما ينفر أرباب سائر المذاهب عن قبوله وعن النظر فيه والانتفاع به فإذا كان مشتملا على المحكم والمتشابه طمع صاحب كل مذهب أن يجد فيه ما يؤيد مذهبه وينصر مقالته فينظر فيه جميع أرباب المذاهب ويجتهد في التأمل فيه صاحب كل مذهب وإذا بالغوا في ذلك صارت المحكمات مفسرة للمتشابهات وبهذا الطريق يتخلص المبطل من باطله ويتنصل إلى الحق ومنها أن القرآن إذا كان مشتملا على المتشابه افتقر إلى العلم بطريق التأويلات وترجيح بعضها على بعض وافتقر في تعلم ذلك إلى علوم كثيرة من علم اللغة والنحو والمعاني والبيان وأصول الفقه ولو لم يكن الأمر كذلك لم يحتج إلى تحصيل هذه العلوم الكثيرة في إيراد المتشابه هذه الفوائد الكثيرة ومنها أن القرآن مشتمل على دعوة الخواص والعوام ، وطبائع العوام تنفر في أكثر الأمر عن درك الحقائق فمن سمع من العوام في أول الأمر إثبات موجود ليس بجسم ولا متميز ولا مشار إليه ظن أن هذا عدم ، وقع في التفضيل فكان الأصلح: أن يخاطبوا بألفاظ دالة على بعض ما يناسب ما توهموه وتخيلوه ويكون ذلك مخلوطا مما يدل على الحق الصريح فالقسم الأول وهو الذي يخاطبون به في أول الأمر يكون من المتشابهات والقسم الثاني وهو الذي يكشف لهم في آخر الأمر من المحكمات [1]

---

[1] انظر الإتقان ٢/١٣ ، اللالئ الحسان ص ١٧١ ، مباحث في علوم القرآن ص ٢١٤

المبحث الثالث

في تأويل الحروف التي إدُّعِيَ على القرآن بها الاستحالة وفساد النظم

* من ذلك "الحروف المقطعة" [1]

قد اختلف المفسرون في الحروف ا لمقطعة:

* فكان بعضهم يجعلها أسماء للسور، تعرف كل سورة بما افتتحت به منها.
* وكان بعضهم يجعلها أقساما.
* وكان "بعضهم" يجعلها حروفا مأخوذة من صفات الله تعالى، يجتمع بها في المفتتح الواحد صفات كثيرة، كقول "ابن عباس" : في ﴿ كهيعص﴾: إن "الكاف" من كافٍ، و"الهاء" من هاد، و"الياء" من حكيم، و"العين" من عليم، و "الصاد" من صادق [2].
* وقال "الكلبي" هو: كتاب كاف، هاد ، حكيم، عالم ، صادق.

---

(1) راجع تفسير الطبري ٦٧/١ ـ ٧٤ واللسان ٤/١ـ ٦ والبحر المحيط ٣٤/١ والقرطبي ١٥٤/١ ـ ١٥٧ والكشاف ١٢/١ ـ ١٩ ، ومجمع البيان ٣٢/١ ـ ٣٣ والإتقان ١٣/٢ ـ ١٩ والصاحبي ٩٣ ـ ٩٦.

(2) مريم : ١ ، وتفسير الطبري ٣٢/١٦ وفي اللسان ٣٥٠/١٧ " وروى عن سعيد بن جبير في تفسيره عن ابن عباس ، أنه قال : في " كهيعص " : هو كاف ، هاد ، يمين ، عزيز ، صادق . قال أبو الهيثم : فجعل قوله: " كاف" أول اسم الله كاف ، وجعل " الهاء أول اسمه : هاد ، وجعل " الياء " أول اسمه : يمين ، من قولك : يمن الله الإنسان بيمينه يمنا ويمناً فهو ميمون ... قال : فجعل اسم اليمين مشتقا من اليُمن، وجعل " العين" عزيزا ، و "الصاد " صادقا ، والله أعلم .

* ولكل مذهب من هذه المذاهب وجه حسن، ونرجو ألا يكون ما أريد بالحروف خارجا منها، إن شاء الله .

* * *

* فإن كانت أسماء للسور ، فهي أعلام تدل علـى مـا تـدل عليـه الأسماء من أعيان الأشياء وتفرق بينها. فإذا قال قائل: قرأتُ ﴿ المص ﴾ أو قَرأتُ ﴿ ص ﴾ أو ﴿ ن ﴾ دل بذاك على ما قرأ، كما تقـول : لقيـت محمدا وكلمت عبد الله ، فهي تدل بالإسمين على العينين، وإن كان قد يقع بعضها مثل "حم" و "ألم" لعدة سور ـــ فإن الفصل قد يقع بأن تقول: حـم السجدة، والم البقرة، كما يقع الوفاق فـي الأسـماء، فتـدل بالإضـافات وأسماء الآباء والكنى.

* * *

* وإن كانت أقساما ، فيجوز أن يكـون الله ، عـز وجـل، أقسـم بالحروف المقطعة كلها، واقتصر على ذكر بعضها من ذكر جميعها، فقال: " ألم" وهو يريد جميع الحروف المقعطة، كما يقول القائل: تعلمت " أ ب ت ث " وهو لا يريد تعلم هذه الأربعة الأحرف دون غيرهـا مـن الثمانيـة والعشرين، ولكنه لما طال أن يذكرها كلها، اجتزأ بذكر بعضها. ولو قـال: تعلمت "حاء طاء صاد" لدل أيضا على حروف المعجـم، كمـا دل بـالقول الأول، إلا أن الناس يدلون بأوائل الأشياء عليها فيقولون : قرأت "الحمـد لله" يريدون فاتحة الكتاب فيسمونها بأول حرف منها. هذا الأكثر،

وربما دلوا بغير الأول أيضا، أنشد الفراء [1]:

لما رأيت أنها في حطى   أخذت منها بقرون شمط [2]

يريد " في أبي جاد" فدل بحطى كما دل غيره بأبي جاد.

* * *

* وإنما أقسم الله بحروف المعجم، لشرفها وفضلها، ولأنها مباني كتبه المنزلة بالألسنة المختلفة، ومباني أسمائه الحسنى وصفاته العلى،وأصول كلام الأمم [3]، بها يتعارفون ، ويذكرون الله ويوحدون.

وقد أقسم الله في كتابه بالفجر، والطور، وبالعصر، وبالتين، والزيتون ــ وهما جبلان ينبتان التين والزيتون، يقال لأحدهما : طور زيتا وللآخر: طور تينا، بالسريانية، من الأرض المقدسة؛ فسماهما بما ينبتان ــ وأقسم بالقلم؛ إعظاما لما يسطرون.

---

(1) في معاني القرآن ٣٦٩/١ والرجز لأبي القمقام الأسدي ، كما في تهذيب الألفاظ ص ٤٤٧ والأمالي ٢٠٠/٢ غير منسوب ، وكذلك في اللسان ٣٦٨/١٢ ومجمع البيان ٣٣/١ وتفسير الطبري ٦٨/١ " بعض الرجاز من بني أسد :

لما رأيت أمرها في حطى   وفنكت في كذب ولط

أخذت منها بقرون شمط   فلم يزل ضربي لها ومعطي

حتى علا الرأس دمٌ يغطيَ

فزعم أنه أراد بذلك ، الخبر عن المرأة أنها في "أبي جاد" فأقام قوله : " لما رأيت أمرها في حطى " مقام خبره ، وعنها أنها في " أبي جاد " إذ كان ذاك من قوله ، يدل سامعه ما يدل عليه قوله " لما رأيت أمرها في أبي جاد " .

(2) في معاني القرآن : " أمرها في حطى " .

(3) في البحر المحيط ٣٤/١ " وقال الأخفش : هي مبادئ كتب الله المنزلة بالألسنة المختلفة ، ومبانِ من أسماء الله الحسنى ، وصفاته العلا ، وأصول كلام الأمم " .

* ووقع القسم بها في أكثر السور على القرآن فقال: ﴿ الم ذلك الكتاب لا ريب فيه ﴾ [1]؛ كأنه قال: وحروف المعجم، لهو الكتاب لا ريب فيه.

و ﴿ الم اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ، أي وحروف المعجم لهو الله لا إله إلا هو ﴿ الْحَيُّ الْقَيُّومُ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ [2].

و ﴿ المص كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ ﴾ ، أي وحروف المعجم، لهو كتاب أنزل إليك ﴿ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ ﴾ [3]، و ﴿ يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴾ [4]، و ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾[5]، و﴿ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾[6] كله أقسام .

* وإن كانت حروفا مأخوذة من صفات الله ؛ فهذا فن من اختصار العرب؛ وقلما تفعل العرب شيئا في الكلام المتصل الكثير إلا فعلت مثله في الحرف الواحد المنقطع.

فكما يستعيرون الكلمة فيضعونها مكان الكلمة لتقارب ما بينهما؛ أو لأن إحداهما سبب للأخرى ؛ فيقولون للمطر: سماء ؛ لأنه من السماء ينزل ويقولون للنبات: ندى؛ لأنه بالندى ينبت؛ ويقولون : ما به طرق؛ أي ما به قوة؛ وأصل الطرق : الشحم؛ فيستعيرونه مكان القوة؛ لأن القوة

---

[1] البقرة : ١ ، ٢ .

[2] آل عمران : ١/٣.

[3] الأعراف : ١، ٢ .

[4] يس : ١، ٢ .

[5] ص : ١ .

[6] ق : ١ .

تكون عنه. كذلك يستعيرون الحرف في الكلمة مكان الحرف فيقولون :" مدهته" بمعنى " مدحته" ؛ لأن "الحاء" و "الهاء" يخرجان (جميعا من مخرج واحد). ويقولون للقبر: جدث وجدف، ويقولون : ثوم وفوم ومغاثير ومغافير [1]، لقرب مخرج "الفاء" من "الثاء" .

ويقولون : هرقت الماء وأرقته، ولصق ولسق، وسحقت الزعفران وسهكته؛ وغمار الناس وخمارهم.

في أشباه لهذا كثيرة يبدلون فيها الحرف من الحرف؛ لتقارب ما بينهما.

* وقد كان "قوم من المفسرين" يفسرون بعض هذه الحروف فيقولون: "طه" يا رجل، و "يس " يا إنسان، و "نون" الدواة.

وقال "آخر" : "الحوت" و "حم" : قضى والله ما هو كائن، و "قاف" : جبل محيط بالأرض.

و "صاد" ـ بكسر الدال ـ من المصاداة وهي المعارضة[2].

وهذا ما لا نعرض فيه ؛ لأنا لا ندري كيف هو ولا من أي شئ أخذ، خلا "صاد" وما ذهب إليه فيها .

انتهى والله أعلم .

---

(١) في اللسان ٦/٣١٠ " والمغاثير لغة في المغافير " وفي ص ٣٣٢ " والمغافير صمغ : يسيل من شجر العرفط . غير أن رائحته ليست بطيبة " .

(٢) في تفسير الطبري ٢٣/ ٧٤ " اختلف أهل التأويل في معنى قوله : " ص " فقال بعضهم : هو [illegible] المصاداة: من صاديت فلانا ، وهو أمر من ذلك ، كأن معناه عندهم : صاد بعملك القرآن ؛ أي عارضه به، ومن قال هذا تأويله ، فإنه يقرأه بكسر الدال ، لأنه أمر . وكذلك روى عن الحسن ... وقال آخرون : هي حرف هجاء ... وقال آخرون : هو اسم من أسماء القرآن أقسم الله به ... وقال آخرون : معنى ذلك : صدق الله .. " .

المبحث الرابع

في مشكل القرآن

وما أوهم التناقض والاختلاف بين آياته وحكمته

المراد من هذا المبحث ، الآيات التي يوهم ظاهرها التعارض والاختلاف في القرآن الكريم وينبغي قبل البحث أن نضع في اعتبارنا الحقائق الأساسية الآتية:

حقائق مرعية بين يدي هذا المبحث : ـ

أولا : كلام الله تعالى منزه قطعا عن التناقض والتضارب، مصداقا لقوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [1].

ثانيا : أن ما يقع للمبتدئ وقليلي العلم ممن توهم تعارضِ بعضِ الآياتِ وتناقضها ، إنما هو بسبب ضعفهم في معرفة الأساليب العربية، وبسبب عدم تعمقهم في دراسة التفسير ، وقلة علمهم بحق الكلام الحكيم.

ثالثا : إن كل كلامين ظاهرهما التعارض إذا رفع تناقضهما بإضافة شئ إلى أحدهما فليسا متناقضين :

وإنما المتناقضان ما تضادا من كل جهة.

فمثلا : ـ

أكل محمد، ولم يأكل محمد، ليسا متضادين، إذا أضفنا مفعولا به مختلفا لكل منهما. بأن قلنا: أكل محمد الخبز، ولم يأكل محمد التفاح.

---

[1] النساء :٨٢

وأكل محمد التفاح ولم يأكل محمد التفاح؛ ليسا متضادين إذا أضفنا مفعولا مطلقا مختلفا لكل منهما. بأن قلنا: أكل محمد التفاح أكلة واحدة؛ ولم يأكل محمد التفاح أكلتين.

حتى إن اتفقا في المفعول به والمفعول المطلق فليسا متضادين إذا أضفنا حالا من الفاعل مختلفا لكل منهما؛ بأن قلنا: أكل محمد التفاح أكلة واحدة واقفا ولم يأكل محمد التفاح أكلة واحدة جالسا.

حتى وإن اتفقا في المفعول به والمفعول المطلق وحال الفاعل فليسا متضادين إذا أضفنا حالا من المفعول مختلفا لكل منهما، بأن قلنا: أكل محمد التفاح نيئا أكلة واحدة واقفا ولم يأكل محمد التفاح ناضجا أكلة واحدة واقفا.

وهكذا إن أضفنا زمانا، أو مكانا، أو آلة ، أو غير ذلك من الجهات.

فإذا راعينا هذه الحقائق، وتدبرنا كلام الله تعالى، وجدناه خاليا من التناقض والتعارض تعالى الله وكلامه عن النقائض.

<u>أسباب الاختلاف التي بمقتضاها يزول التعارض وإيهام التناقض</u>

وقال الإمام الزركشي في البرهان :[1]

وللاختلاف أسباب :

الأول: وقوع المخبر به على أحوال مختلفة، وتطويرات شتى، كقوله تعالى في خلق آدم "من تراب" . " من حمأ مسنون" . "من طين لازب" "من صلصال كالفخار" .

---

[1] انظر البرهان للزركشي ج٢ ص ٥٤ ط : الثانية .

وهذه الألفاظ مختلفة، ومعانيها في أحوال مختلفة. لأن الصلصال غير الحمأ، والحمأ غير التراب؛ إلا أن مرجعها كلها إلى جوهر ، وهو التراب، ومن التراب تدرجت هذه الأحوال.

ومنه قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴾ [1] وفي موضع ﴿ رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ ﴾ [2] والجان هو الصغير من الحيات، والثعبان هو الكبير منها، وذلك لأن خلقها خلق الثعبان المبين، واهتزازها وحركاتها وخفتها كاهتزاز الجان وخفته.

السبب الثاني: اختلاف الموضوع كقوله تعالى ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴾ [3] وقوله ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [4] مع قوله ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴾ [5] فتحمل الآية الأولى على السؤال عن التوحيد وتصديق الرسل، والثانية على ما يستلزم الإقرار بالنبوات من شرائع الدين وفروعه. (فالاختلاف في الموضوع المسئول عنه) .

وقوله ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [6] مع قوله ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [7].

---

(1) الشعراء : ٣٢.

(2) النمل : ١٠.

(3) الصافات : ٢٤.

(4) الأعراف : ٦.

(5) الرحمن : ٣٩.

(6) البقرة : ١٧٤.

(7) الحجر : ٩٢ ، ٩٣.

قيل : المنفي كلام التلطف والإكرام ، والمثبت سؤال التوبيخ والإهانة ، فلا تنافي.

وكقوله تعالى ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ [1] مع قوله ﴿ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ ﴾ [2] والجواب أن التضعيف هنا ليس على حد التضعيف في الحسنات؛ بل هو راجع لتضعيف مرتكباتهم، فكان لكل مرتكب منها عذاب يخصه، فليس التضعيف من هذا الطريق على ما هو في الطريق الآخر، وإنما المراد هنا تكثيره بحسب كثرة المجترحات، لا أن السيئة الواحدة يضاعف الجزاء عليها، بدليل سياق تلك الآية، وهو قوله ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ [3].

فهؤلاء الذين كذبوا على ربهم، وصدوا عن سبيله، وبغوها عوجا، وكفروا قد ارتكبوا مرتكبات يعذبون بكل مرتكب منها.

وكقوله ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [4] مع قوله ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾ [5].

فإن الأولى تقتضي أنهم كتموا كفرهم السابق.

والجواب من وجهين:

---

(1) الشورى : ٤٠.

(2) الفرقان : ٦٩.

(3) هود : ١٨.

(4) الأنعام : ٢٣.

(5) النساء : ٤٢ .

أحدهما : أن للقيامة مواطن، ففي بعضها يقع منهم الكذب، وفـي بعضها لا يقع.

والثاني: أن الكذب يكون بأقوالهم، والصدق يكون من جـوارحهم، حيث يأمرها الله بالنطق فتنطق بالصدق.

وكقوله : ﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ﴾ [1] مع قوله ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ [2].

والجواب أن المراد لا تكسب شرا ولا إثما، بدليل سـبب النـزول، وهو أن الكفار، قالوا للنبي ﷺ : ارجع يا محمد إلى ديننا، واعبد آلهتنـا، واترك ما أنت عليه، ونحن نتكفل لك بكل تباعـة تتوقعهـا فـي دنيـاك وآخرتك، فنزلت الآية.

والآية الأخرى ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ ذكـر فيهـا الأمران، ولهذا لما ذكر القسمين ذكر ما يميز أحدهما عن الآخر.

ومنه قوله تعالى: ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ [3]مع قوله ﴿ فَـاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [4]

فتحمل الآية الأولى على التوحيد، والثانية على الأعمال، والمقـام يقتضي ذلك، لأنه قال بعد الأولى ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ .

---

(1) الأنعام : ١٦٤.
(2) البقرة : ٢٨٦.
(3) آل عمران : ١٠٢.
(4) التغابن : ١٦.

ومنه قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ [1]مع قوله في أواخر السورة ﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ [2]

فالأولى تفهم إمكان العدل والثانية تنفيه.

والجواب أن المراد بالعدل في الأولى العدل بين الأزواج، في توفية حقوقهن، وهذا ممكن الوقوع.

والمراد به في الثانية الميل القلبي، والإنسان لا يملك ميل قلبه إلى بعض زوجاته دون بعض، وقد كان ﷺ يقسم بين نسائه، ثم يقول: " اللهم هذا قسمي فيما أملك ، فلا تؤاخذني بما لا أملك " . يعني ميل القلب. [3]

وكان عمر يقول: اللهم قلبي فلا أملكه، وأما ما سوى ذلك فأرجو أن أعدل.

وقد يحتاج الاختلاف إلى تقدير، فيرتفع به الإشكال، كقوله تعالى: ﴿ لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴾ ، ثم قال سبحانه : ﴿ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [4]

والأصل في الأولى: وفضل الله المجاهدين على القاعدين من أولى الضرر درجة، والأصل في الثانية: وفضل الله المجاهدين على القاعدين من الأصحاء درجات وأجرا عظيما.

---

[1] النساء : ٣

[2] النساء : ١٢٩

[3] أخرجه أحمد وأهل السنن كذا في تفسير ابن كثير ج ١ ص ٥٦٤.

[4] النساء : ٩٥.

وكقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ﴾[1] مع قوله ﴿ أمرنا مترفيها فَفَسَقُوا فِيهَا ﴾ [2] فالأولى في
الأمر الشرعي، والثانية في الأمر الكوني وهو القضاء.

السبب الثالث: الاختلاف في جهتي الفعل، كقوله تعالى﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾ نفي القتل عنهم باعتبار التأثير، وهو يسند إليهم على جهة الكسب والمباشرة.

ولهذا قال الجمهور إن الأفعال مخلوقة لله تعالى، مكتسبة للآدميين، فنفى الفعل بإحدى الجهتين لا يعارضه إثباته بالجهة الأخرى.

وكذا قوله تعالى: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ ﴾ [3] أي ما رميت خلقا إذ رميت كسبا.

قال ابن جرير الطبري: وهي الدليل على أن الله خالق لأفعال العباد، فإن الله تعالى أضافه إلى نبيه، ثم نفاه عنه، وذلك فعل واحد، لأنه من الله تعالى التوصيل إليهم، ومن نبيه بالحذف والإرسال، وإذا ثبت هذا لزم مثله في سائر أفعال العباد المكتسبة، فمن الله تعالى الإنشاء والإيجاد، ومن الخلق الاكتساب.

السبب الرابع: الاختلاف في الحقيقة والمجاز، كقوله تعالى: ﴿ وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى ﴾ [4]

---

[1] الأعراف : ٢٨

[2] الإسراء : ١٦

[3] الأنفال : ١٧

[4] الحج : ٢

﴿ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾[1] وهو يرجع إلـى قـول المناطقة :الاختلاف بالإضافة، أي ﴿وترى الناس سكارى ﴾ بالإضافة إلى أهوال القيامة مجازا، ﴿ وَمَا هُمْ بِسُكَارَى ﴾ بالإضافة إلى الخمر حقيقة .

السبب الخامس: الاختلاف بوجهين واعتبارين كقوله تعالى:
﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [2] مع قوله: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [3] فقد يظن أن الوجل خلاف الطمأنينة .

وجوابه: أن الطمأنينة إنما تكون بانشراح الصدر بمعرفة التوحيد، والوجل: يكون عند خوف الزيغ، والذهاب عن الهدى، فتوجل القلوب لذلك.

وقد جمع بينهما في قوله: ﴿مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [4].

فإن هؤلاء قد سكنت نفوسهم إلى معتقداتهم ، ووثقوا بها، فانتفى عنهم الشك.

وكقوله تعالى: ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾[5] مع قوله ﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ

---

[1] إبراهيم : ١٧

[2] الرعد : ٢٨.

[3] الأنفال : ٢.

[4] الزمر : ٢٣.

[5] المعارج : ٤.

سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [1] فهذا الاختلاف باعتبار حال المؤمن والكافر، بدليل قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴾[2] وقوله: ﴿ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ [3].

وكقوله : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ ﴾ [4] مع قوله: ﴿ أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا * وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾ [5].

فظاهر الآية الأولى أن خلق الأرض قبل السماء، وظاهر الآية تأخر الأرض عن السماء، ولكن الفهم الصحيح يرفع التنافي فالأولى تدل على أن الأرض وما فيها خلقت قبل السماء، وذلك صحيح ، ثم دحيت الأرض بعد خلق السماء .

وكقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾[6] مع قوله : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ [7] وقوله: ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ [8] .

---

(1) السجدة : ٥.

(2) الفرقان : ٢٦.

(3) المدثر : ٩ ، ١٠.

(4) البقرة : ٢٩.

(5) النازعات : ٢٦ ــ ٣٥.

(6) الأنعام : ٦١.

(7) السجدة : ١١.

(8) الزمر : ٤٢.

وجمع بينها بأن توفى ملك الموت بالدعاء والأمر، يدعو الأرواح فتجيبه، ثم يأمر أعوانه بقبضها ونزعها، وتوفى الله سبحانه وتعالى خلق الموت فيه.

انتهى كلام الإمام الزركشي بتصرف.

وقد ذكر في كلامه السابق خمسة أسباب للاختلاف وكان أساس رفع التعارض في جميعها هو أن التضاد ليس من جميع الوجوه، وبتقدير التغاير بين المتعارضين بوجه من الوجوه يرتفع التضاد والتناقض.

مجموعة أخرى من موهم الاختلاف والجمع بينها :

١ــ قال تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ [١] وقال: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ [٢].

وجمع بينهما باختلاف الزمن ومواطن يوم القيامة ، فهم لا يتساءلون في وقت ويتساءلون في وقت آخر.

قال ابن عباس: فإنه إذا نفخ في الصور، فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ، فإذا نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون.

٢ــ قال تعالى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾[٣]

---

(١) المؤمنون : ١٠١.

(٢) الصافات : ٢٧.

(٣) الأعراف : ٣٧.

وقال: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ [1]

وقال : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ [2].

فالاستفهام إنكاري بمعنى النفي. والمعنى : لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذبا. لا أحد أظلم ممن أعرض . لا أحد أظلم ممن منع ذكر الله . ورفع التعارض بتخصيص كل موضع بمعنى صلته، فكأنه قال: لا أحد من المفترين أظلم ممن افترى على الله . لا أحد من المعرضين أظلم ممن ذكر فأعرض. لا أحد من المانعين أظلم ممن منع مساجد الله . وأجاب أبو حيان بأن نفي الأظلمية لا يستدعي نفي الظالمية؛ لأن نفي التفضيل ونفي الزيادة لا يستلزم نفي المساواة، ففي الآيات إثبات التسوية فى الأظلمية، وإذا ثبتت التسوية فيها لم يكن أحد يزيد على الآخر وصار المعنى: لا أحد أظلم من كذا وكذا وكذا ، كما تقول: لا أحد أكبر من علي وبكر وخالد. وهو جواب حسن [3]

٣ـ قال تعالى: ﴿ لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ [4] وقال:﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ [5] .

فأخبر أولا أنه لا يقسم به ، ثم أقسم به .

---

(1) الكهف : ٥٧.

(2) البقرة : ١١٤.

(3) كذا في البحر المحيط لأبي حيان ج١ ص ٣٥٧ ط : دار الفكر .

(4) البلد : ١.

(5) التين : ١ ـ ٣.

وأجيب بأن "لا" في قوله ﴿ لَا أُقْسِمُ ﴾ زائدة ملغاة، وقيل؛ إنها رد لكلام سابق وبدء الكلام أقسم بهذا البلد.

٤ـ قال تعالى: ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [١] وقال مخاطبا عيسى عليه السلام؛ ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ ﴾ [٢] وأجيب بأنه لا خالق غير الله ، والمراد من خلق عيسى من الطين كهيئة الطير تصوير الطين وتشكيله على هيئة الطير، وليس الإيجاد والإنشاء ابتداء وعلى أبدع وجه.

٥ـ قال تعالى: ﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ [٣] وقال: ﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ ﴾ [٤].

والجواب أن الوعد كان ثلاثين ليلة، ثم بعد ذلك وعده بعشر أخرى، فتم ميقات ربه أربعين ليلة ، فالآية الثانية إخبار تفصيلي، والآية الأخرى إخبار بما تم واستقر عليه الوعد.

٦ـ قال تعالى: ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ﴾ [٥] وقال: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [٦].

وأجيب بتخصيص النفي بالدنيا ، والإثبات بالآخرة .

---

(١) الزمر : ٦٢.

(٢) المائدة : ١١٠.

(٣) البقرة : ٥١.

(٤) الأعراف : ١٤٢.

(٥) الأنعام : ١٠٣.

(٦) القيامة : ٢٢ ـ ٢٣.

التعارض بين الآية والحديث :

وقد يقع التعارض الظاهري بين الآية والحديث، فيجمع بينهما بأوجه الجمع السابقة؛ من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾[1] يعارضه أن النبي ﷺ شج يوم أحد وكسرت رباعيته.

وأجيب بوجهين:

الأول: أن هذا كان قبل نزول الآية لأن غزوة أحد كانت سنة ثلاث من الهجرة، وسورة المائدة من أواخر ما نزل بالمدينة.

الثاني: أن المراد العصمة من القتل، وفيه تنبيه على أنه ﷺ يجب عليه أن يحتمل من أنواع البلاء ما دون النفس.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [2] يعارضه قوله ﷺ : " لن يدخل أحدا عمله الجنة. قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال: ولا أنا . إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة " [3].

وأجيب بأن النجاة من النار بعفو الله ، ودخول الجنة برحمة الله ، وانقسام المنازل والدرجات بالأعمال، فالآية مراد منها المنازل والدرجات، والحديث مراد به أصل ا لدخول فلا تعارض ، والله أعلم . [4]

---

[1] المائدة : ٦٧.

[2] النحل : ٣٢.

[3] أخرجه في الصحيحين كذا في تفسير ابن كثير ، ج ٢ ص ٢١٥ .

[4] انظر تفصيل ذلك فيما يأتي : ١ـ اللالئ الحسان في علوم القرآن ص ١٧٣، ٢ـمشكل القرآن ص ٦٥ ، ٣ ـ البرهان في علوم القرآن ج ١ ص ١١١، وللاستزادة ، =راجع ما يأتي ٤ـ ملاك التأويل للغرناطي ط الأولى ، ٥ـ درة التنزيل وغرة التأويل للأسكافي ط الرابعة ، ٦ ـ بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ، ٧ ـ دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب ، ٨ـ الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ج٢ النوع الثامن والأربعون ص ٢٧ ـ دار الفكر

الحكمـــة من ورود موهــم
الاخـــتلاف والتـــناقض في القرآن الكريم

خلص بنا البحث في المبحث السابق إلى تنزيه القــرآن عــن الاخــتلاف والتناقض، وخلو القرآن من التناقض من وجوه إعجازه البيانية كما يــدل عليه قوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْـدِ غَيْـرِ اللَّــهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ (١)

وقد بلغ القرآن في لغته وأسلوبه مبلغ الإعجاز ، فلو نزعت مــن القرآن لفظة ثم أدرت لسان العرب جميعا في أن يوجــد أفضــل منهــا لا يوجد، فما من نص قرآني يوهم الاخــتلاف أو التعــارض عنــد النظــرة السريعة، إلا ويزول هذا الوهم عند التأمل والنظر بل إنــه عنــد التــدبر والغوص في دقائق الآيات وتركيباتها البلاغية والبيانية المعجزة ســرعان ما يتبين السر البلاغي على وجه معجز لا تصل إليه قوى البشر جميعا.

وقد يقول قائل: ألم يكن من الأفضل أن ينأى القرآن بأسلوبه عــن كل ما يكون محلا للشك والريبة وإيهام التناقض ؟

أم أن هناك حكمة في المجئ بالآيات على هذه الصورة؟ هــذا مــا سيسفر عنه البحث بحول الله تعالى وقوته :

وما من ناظر في القرآن بعين الإنصاف والتجرد عن الهوى والشك إلا وتتجلى له حكمة في كل أمر ورد ذكره في كتاب الله تعالى وخاصة عند التدبر والتأمل كما أمر الله بذلك في قوله : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ

---

(١) النساء : ٨٢.

لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [1]

وفي قوله سبحانه : ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [2]

حِكمٌ تتجلى في موهمه و متناقضه

وعند النظر والتأمل يتبين لنا أن الحكمة من ورود موهم الاختلاف والتناقض في القرآن تتجلى فيما يلي :

أولا : إظهار إعجاز القرآن الكريم :

أخرج البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة ـ ﷺ ـ أن رسول الله ﷺ قال : " ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحى الله إليّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة " [3].

يقول النووي في شرحه لهذا الحديث : اختلف فيه على أقوال: أحدها: أن كل نبي أعطى من المعجزات ما كان مثله لمن كان قبله من الأنبياء فآمن به البشر، وأما معجزتي العظيمة الظاهرة فهي القرآن الذي لم يعط أحد مثله. والثاني: معناه أن الذي أوتيته لا يتطرق إليه تخييل بسحر وشبهة بخلاف معجزة غيري. والثالث: أن معجزات الأنبياء السابقين انقرضت بانقراض أعصارهم ولم يشاهدها إلا من حضرها بحضرتهم، ومعجزة نبينا ـ ﷺ ـ القرآن المستمر إلى يوم القيامة مع

---

[1] ص :٢٩

[2] يونس : ٢٤.

[3] أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن ٩٧/٦ ، ومسلم في كتاب الإيمان باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته ١٨٦/٢ بشرح النووي ، واللفظ لمسلم .

خرق العادة في أسلوبه وبلاغته وإخباره بالمغيبات وعجز الجن والإنس عن أن يأتوا بسورة من مثله مجتمعين أو متفرقين في جميع الأعصار مع اعتنائهم بمعارضته فلم يقدروا وهم أفصح القرون، إلى غير ذلك من وجوهه المعروفة (1)

وما دام القرآن بهذه الصفة من الإعجاز والسمو البياني فمن المحال أن يوجد فيه اختلاف أو تناقض بل ما يوهم ذلك فيه دليل على إعجازه وسمو بيانه؛ يقول الإمام محمد أبو زهرة: إن القرآن في أعلى درجات البيان من حيث لفظه ومن حيث نغماته ومن حيث معانيه، ومن حيث الصور البيانية التي تكون في ألفاظه وعباراته، حتى إن كل عبارة تلقى في الفكر والخيال بصورة بيانية كاملة في روعتها ودقة تصويرها، بل إن كل كلمة لها صورة بيانية تنبثق منها منفردة، وبتآخيها مع أخواتها في العبارة تتكون صورة بيانية أخرى، فوق أن الرنين الموسيقي تنفعل به الأسماع إلى القلوب في معان محكمة وحقائق بينة وشرائع منظمة للعلاقات والسلوك الإنساني القويم الهادي إلى الصراط المستقيم(2)

ولقد كان العرب أحرص ما يكون على إيجاد تناقض أو اختلاف بين آيات القرآن فلو كان فيه شئ من ذلك لتعلقوا به وعضوا عليه بالنواجز، ولتناقله الناس، أما وإنه لم ينقل فدل على أنه لم يقع في القرآن شئ من ذلك أبدا وهيهات هيهات لأنه ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (3) وهو :

---

(1) شرح النووي على مسلم ١٨٨/٢ باختصار .

(2) المعجزة الكبرى : ص ٤٩ — ٥٠.

(3) فصلت : ٤١ — ٤٢.

﴿تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَـنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[1] وهو : ﴿ لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾ [2].

وهو : ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [3]

نقل الإمام الزركشي في برهانه عن الخطابي قال : سمعت ابن أبي هريرة يحكي عن أبي العباس بن سريج قال: سأل رجل بعض العلماء عن قوله تعالى: ﴿ لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ [4] فأخبر أنه لا يقسم بهذا، ثم أقسم به في قوله : ﴿ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴾ [5] فقال ابن سريج : أي الأمرين أحب إليك أجيبك ثم أقطعك أو أقطعك ثم أجيبك؟ قال: بل اقطعني ثم أجبني، فقال: اعلم أن هذا القرآن نزل على رسول الله ـ ﷺ ـ بحضرة رجال وبين ظهراني قوم، وكانوا أحرص الخلق على أن يجدوا فيه مغمزا وعليه مطعنا، فلو كان هذا عندهم مناقضة لتعلقوا به ، وأسرعوا بالرد عليه ، ولكن القوم علموا وجهلت، فلم ينكروا منه ما أنكرت، ثم قال له : إن العرب قد تدخل لا في أثناء كلامها وتلغى معناها، وأنشد فيه أبياتا، والقاعدة في هذا وأشباهه أن الألفاظ إذا اختلفت وكان مرجعها إلى أمر واحد لم يوجب ذلك اختلافا . اهـ [6]

---

(1) فصلت : ٢ ، ٣ .

(2) الإسراء : ٨٨.

(3) هود : ١.

(4) البلد : ١.

(5) التين : ٣ .

(6) البرهان ٢/٤٦.

والناظر في القرآن العزيز يجده يفتن في إيراده المعنى الواحد بصور متعددة وعبارات مختلفة فيخيل لذي النظرة السطحية أنها متعارضة وليست كذلك، بل جميع آياته متآخية متعانقة، مؤتلفة غير مختلفة، وتفنن القرآن في العبارات راجع إلى التفنن والتنوع الذي يقتضيه السياق والمقام، وهذه ميزة ينفرد بها القرآن عن سائر أنواع الكلام مما يشهد له بأنه معجزة البيان والبيان المعجزة.

يقول السكاكي: لله در التنزيل في إحاطته على لطائف الاعتبارات في إيراد المعنى على أنحاء مختلفة بحسب مقتضيات الأحوال، لا ترى شيئا منها يراعى في كلام البلغاء من وجه لطيف إلا عثرت عليه مراعى فيه من ألطف وجوهه.

ثم قال : وأنا ألقى عليك من القرآن عدة أمثلة فيما نحن فيه لتستضيئ بها فيما عسى أن يظلم عليك من نظائرها إذا أحببت أن تتخذها مسارح نظرك ومطارح فكرك : منها :

أنه قال عز من قائل في سورة القصص في قصة موسى: ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى ﴾ [1] ، فذكر المجرور بعد الفعل وهو موضعه. وقال في (سورة يس) في قصة رسل عيسى ﷺ : ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى ﴾ [2] فقدم لما كان أهم.

يبين ذلك أنه حين أخذ في قصة الرسل اشتمل الكلام على سوء معاملة أصحاب القرية للرسل وأنهم أصروا على تكذيبهم ، وانهمكوا في

---

(1) القصص : ٢٠.

(2) يس : ٢٠.

غوايتهم، مصرين على باطلهم، فكان مظنة أن يلعـن السـامع ـ علـى مجرى العادة ـ تلك القرية قائلا: ما أنكدها قرية، ومـا أسـوأها منبتـا، ويبقى مجيلا في فكره؛ أكانت بحافاتها كذلك؟ أم كان هنـاك قطـر دان أو قاص منبت خير؟ منتظرا لمساق الحديث هل يلم بذكره؟ فكان هذا العارض مهما فجاء مقدما إسعافا للنفوس بما تتطلع إلى بيانه وذلك بخلاف قصـة موسى عليه السلام. [1]

وأنت ترى أن الإمام السكاكي كشف لنا عن جانـب مـن عظمـة القرآن وإعجازه البياني وأرانا الدقة المتناهية في رعاية القرآن العزيـز لدقائق السياق، والذي بلغ به أعلى درجات الإعجاز، يقول ابن الأثير: إذا نظرنا إلى حكمة أسرار الفصاحة في القرآن غصنا منه في بحر عميـق لا قرار له

ولقد صدق رحمه الله فيما قال، فلقـد تـواردت ألفـاظ القـرآن وعباراته منسجمة متناسبة في الإبداع تنتظم تارة في تراكيـب رصـينة جزلة، آخذ بعضها برقاب بعض، وتتوارد تارة أخرى متماثلة في السلاسة في عبارات فصيحة بليغة، وقد تفردت في الحالين بأسـلوبها واختصـت بحسن ترتيبها وخلت من الحشو والزيادة.

فما لفظة في القرآن إلا لها دلالة خاصة وموقع سديد، فلو نزعـت كلمة منه ثم نظرت في كلام العرب كله إلى أحسـن منهـا فـي موقعهـا وائتلافها مع ما حولها لارتد إليك طرفك خاسئا حسيرا، وعقلـك مبهوتـا متحيرا من عظمة البلاغة الإلهية فتدرك يقينا أنها تعجز قوى البشر جميعا

---

[1] مفتاح العلوم ص ١٨٢.

ولا تبلغها قدراتهم ولا تدانيها مواهبهم إلى أبد الآبدين [(١)]

هذا : والمتأمل في حروف القرآن وكلماته وأساليبه يجد أنــه لــم يخرج عن المعهود من لغة العرب ورغم ذلك نشعر أن له كيانــا خاصــا بنى عليه تراكيبه ونظمه الفريد ، إنه نسيج وحده، إنه قرآن.

يقول الرماني: أتى القرآن بطريقة منفردة خارجة عن العادة لهــا منزلة في الحسن تفوق به كل طريقة [(٢)]

ويقول الباقلاني: إنه بديع النظم عجيب التأليف متناه في البلاغــة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه .... إلى أن قال: وقد تأملنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه على حد واحد في حسن النظم وبديع التــأليف والرصف لا تفاوت فيه ولا انحطاط عن المرتبة العليا، ولا إسفاف فيه إلى المرتبة الدنيا.

وكذلك تأملنا ما تنصرف إليه وجوه الخطاب من الآيــات الطويلــة والقصيرة فرأينا الإعجاز في جميعها على حد واحد لا يختلف بل هو نهاية البلاغة وغاية البراعة، فعلمنا بذلك أنه مما لا يقدر عليه [(٣)]

إن نظم القرآن وتراكيبه متناسق رائع ومتناسب رائق، ولقد أبدع وأمتع أديبنا الرافعي رحمه الله تعالى في حديثــه عــن القــرآن ونظمــه وإعجاز تأليفه وأجاد وأفاد بتلك التقسيمات الرائعة للنظم وســر الإعجــاز فيه، وقسمه إلى ثلاثة أقسام: حروف هي من الأصوات، وكلمات هي مــن

---

(١) المعجزة الخالدة ص ٢٠٧ ، ٢٠٨.

(٢) النكت في إعجاز القرآن للروماني ص ٦٩ وما بعدها ، وهي ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للروماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني .

(٣) انظر إعجاز القرآن للباقلاني ص ٤٧ وما بعدها ، باختصار وتصرف .

الحروف، وجمل هي من الكلم، ثم قال: وقد رأينا سر الإعجاز يتناول هذه كلها بحيث خرجت من جميعها تلك الطريقة المعجزة التي قامت بـه ثـم شرح ذلك ووضحه، وهاك بعض عباراته الرائعة في هذا الصدد:

فلابد في مثل نظم القرآن من إخطار معاني الجمل وانتزاع جملة ما يلائمها من ألفاظ اللغة، بحيث لا تند لفظة، ولا تختلف كلمة ثم استعمال أمسها رحما بالمعنى وأفصحها في الدلالة عليه وأبلغها في التصوير وأحسنها في النسق وأبدعها سناء وأكثرها غناء وأصفاها رونقا وماء ثم اطراد ذلك في جملة القرآن على اتساعه وما تضمن من أنواع الدلالة ووجوه التأويل ثم إحكامه على أن مراجعة فيه ولا تسامح وعلى العصمة من السهو والخطأ في الكلمة وفي الحرف من الكلمة، حتى يجيئ ما هو كأنه صيغ جملة واحدة في نفس واحدة وقد أديرت معانيها على ألفاظ من لغات العرب المختلفة فلبستها مرة واحدة، وذلك ولا ريب مما يفوت كل فوت في الصناعة ولا يدعيه من الخلق فرد ولا جماعة... إلى أن قال: تختلف الألفاظ ولا تراها إلا متفقة، وتفترق ولا تراها إلا مجتمعة، وتذهب في طبقات البيان وتنتقل في منازل البلاغة وأنت لا تعرف منها إلا روحا تداخلك بالطرب وتشرب قلبك الروعة [1]

خذ مثلا قوله تعالى في سورة الأنعام : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ [2] ، وفي الإسراء: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ [3].

---

(1) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص ٢٢٦ ــ ٢٢٨ ، ٢٤٠ ــ ٢٤١ ، باختصار وتصرف.

(2) الأنعام : ١٥١.

(3) الإسراء : ٣١.

فإنه لما كان قتل الأولاد من إملاق ــ أي فقر ــ واقع فعلا بالآباء كما يفيده التعبير ﴿ من إملاق ﴾ وقع تقديم ضمير المخاطبين ــ الآباء ــ مقدما على ضمير الغائبين ــ الأولاد ــ فقيل ﴿ نرزقكم وإياهم ﴾ تطمينا لهم، وإزالة لما في نفوسهم من خوف الهلكة، فإن الإنسان في حال الشدة والفقر لا يعنيه إلا نفسه فيؤثرها على أحب الأشياء إليه وهي ولده، فكان التعبير مسعفا لما يجول في النفوس في وقت الهلكة والشدة.

أما في آية الإسراء: فإنه لما كان قتل الأولاد خشية فقر مستقبل يحصل بسبب الأولاد تأخر ضمير المخاطبين ــ الآباء ــ إذ لا فقر واقع بالفعل يخشونه، وتقدم ضمير الغائبين ــ الأولاد ــ فقيل ﴿ نرزقهم وإياكم ﴾ وفيه ضمان الرزق منه تعالى للأولاد حيث يسوق رزق الولد قبل مجيئه فلا معنى الخوف من فقر يخشى حصوله بسبب الأولاد.

وهكذا نرى التوافق والترابط والإعجاز بين آيات القرآن العزيز ، مما يجلي لنا أنه لا اختلاف فيه ولا تضاد ولا تناقض بل اتساق عجيب وتآلف تام بين آياته وجمله، فوجود ما يوهم الاختلاف في القرآن ؛ يوقفنا على سر الإعجاز فيه، فسبحان من أنزله.

<u>ثانيا : الابتلاء والاختبار :</u>

من حكم وجود ما يوهم الاختلاف والتناقض في القرآن الابتلاء والاختبار، ذلك أن الناس بإزاء هذا النوع من الآيات ينقسمون إلى فريقين:

الفريق الأول: مؤمن بآيات الله تعالى يوقن أن الله تعالى أنزل كتابه على أحكم ما يكون، وما من لفظة فيه إلا أصاب بها الذي أراد وعلم أن ما ظاهره التناقض فليس فيه شيئ من ذلك.

الفريق الثاني: كافر طمست بصيرته فلم يعد يبصر الحق، فهو ينظر إلى هذا النوع من الآيات على أنه تناقض وتضارب واختلاف، فيزداد مرضا إلى مرضه.

والنتيجة من ذلك: نجاح المؤمن الذي يوقن بحكمة الله تعالى في كل شيئ وخسران الكافر الذي ازداد حسرة وعمى، تأمل قوله تعالى:

﴿ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾[1]

وإليك هذا المثال الذي يوضح أن موهم الاختلاف والتناقض له أعظم الأثر في الابتلاء والاختبار.

لما أنزل الله تعالى قوله: ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾[2]، لم يبين القرآن حقيقة المراد بهذا العدد: أهم أفراد من الملائكة وخزنة النار؟ أم هم صنوف؟ أم أنواع من الملائكة ؟ أم نقباء مع كل نقيب جند وأعوان ؟

أما المؤمنون : فقد تلقوا آيات الله تعالى بالتسليم والإيمان تأدبا، فلم يماروا في خبره سبحانه .

وأما المشركون والمرتابون: فتلقوها بقلوب خاوية من الإيمان، عارية عن التوقير لله تعالى، وراحوا يتهكمون من الأمر، ويسخرون، ويتخذونه مسارا للمزاح والتندر، حتى قال أبو جهل: أما لمحمد من الأعوان إلا تسعة عشر يخوفكم محمد بتسعة عشر وأنتم الدهم أفيعجز كل

---

(1) التوبة : ١٢٤ ــ ١٢٥.

(2) المدثر : ٣٠.

واحد منكم أن يبطشوا بواحد منهم ثم يخرجوا من النار ؟ فقال أبو الأشد، وهو رجل من بني جمح: يا معشر قريش إذا كان يوم القيامة ، فأنا أمشي بين أيديكم ، فأدفع عشرة بمنكبي الأيمن وتسعة بمنكبي الأيسر، ونمضي ندخل الجنة فأنزل الله ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ﴾[1] وبمثل هذا التندر والسخرية قابلوا هذا القول الكريم، عندئذ نزلت الآية لإفحامهم[2]

والآية تدل على أن خزنة النار شديدوا الخلق لا يقاومون ولا يغالبون فكيف تدعون أيها الكفار مغالبتهم ؟ .

ويمضي بنا السياق ليكشف لنا هذا السر في العدد فيقول: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ ثم قال سبحانه : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ ﴾ فرفع توهم أن المراد تسعة عشر ملكا فقط، أي ما يعلم عدتهم وكثرتهم إلا الله تعالى، ثم قال : ﴿ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ ﴾ أي عدة خزنة جهنم تذكرة للبشر ليعلموا كمال قدرة الله وأنه لا يحتاج إلى أعوان وأنصار.

وقد يتوهم التعارض بين قوله ﴿ عليها تسعة عشر﴾ وقوله ﴿ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ ﴾ فحدد العدد ثم عاد فأبهمه،

---

(1) المدثر : ٣١.

(2) راجع : أسباب النزول للسيوطي ص ٢٩٠ ، وأسباب النزول عن الصحابة والمفسرين ص ٢٣٩

والجواب: أنه لا تعارض ولا اختلاف : إذ أنه في الأولى قال: (تسعة عشر) واقتصر على ذلك ، فلم ندر هل المراد: ملكا، أم صفا، أم نوعا، ثم جاءت الثانية مؤكدة لمضمون الأولى في أن عدة أفرادهم لا يعلمها إلا الله تعالى .

ولعل السر في ذكر هذا العدد أنه هو الذي يتحقق به فتنة الكافرين والمنافقين، وإيقان أهل الكتاب بأنه مصدق لما بين أيديهم من الكتب، وزيادة إيمان المؤمنين، إذ كل خير يأتيهم من الله يؤمنون به فتخبت له قلوبهم.

وبذلك يظهر لنا أن وجود هذا النوع وهو موهم الاختلاف: من مظاهر الابتلاء والاختبار للعباد ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ (١) ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آَمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آَذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ (٢)

ثالثا : فتح مجالات البحث أمام العلماء لإزالة ما يوهم التعارض :

فلولا وهم من وهم التناقض فيه لما اتجه العلماء إلى البحث لدفع هذا التعارض المتوهم بين نصوص التنزيل العزيز.

وأول من أثر عنه الرد على بعض الاستشكالات في هذا المجال ترجمان القرآن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ كما جاء في رده على سؤال نافع بن الأزرق له في آيات توهم فيها اختلافا، ووجه كل آية على ما يصح من

---

(١) الإسراء : ٨٢.

(٢) فصلت : ٤٤.

المعنى اللائق بكلام الله عز وجل، وبين أنه لا تناقض ولا اختلاف في القرآن بل ووجهه إلى ما ينبغي عند اختلاف بعض الآيات عليه، فقال له : فما اختلف عليك من القرآن فهو يشبه ما ذكرت لك، وقد سبق ذكره [1]

إن إزالة التعارض المتوهم بين الآيات الكريمة يحتاج إلى إعمال فكر وتعمق نظر ومزيد من المشقة حتى يمكن فهم الآيات على الوجه الصحيح، ولا شك أن هذا يؤدي إلى مزيد من الثواب بفضل الله وإنعامه، وهذا من أقوى الدواعي إلى التفكير والنظر والبحث والدرس، وهذا يميز المؤمن المتدبر لكتاب الله من المرتاب الذي وقف عند ظاهر النص فظنه متناقضا.

يقول ابن قتيبة: إن القرآن نزل بألفاظ العرب ومعانيها ومذاهبها في الإيجاز والاختصار والإطالة والتوكيد، والإشارة إلى الشيئ وإغماض بعض المعاني حتى لا يظهر عليه إلا اللقن ــ أي حسن الفهم ــ وإظهار بعضها وضرب الأمثال لما خفى ، ولو كان القرآن كله ظاهرا مكشوفا حتى يستوي في معرفته العالم والجاهل لبطل التفاضل بين الناس وسقطت المحنة وماتت الخواطر.

ومع الحاجة تقع الفكرة والحيلة، ومع الكفاية يقع العجز والبلادة، وقالوا: عيب الغني أنه يورث البله، وفضيلة الفقر أنه يبعث الحيلة، وقال أكثم بن صيفي: ما يسرني أنني مكفي كل أمر الدنيا ، فقيل له : ولم قال : أكره عادة العجز؟

---

[1] مسائل الإمام الطسق عن أسئلة نافع بن الأزرق وأجوبة عبد الله بن عباس ، دكتور/ عبد الرحمن عميرة . ج١ ص ٣٣ ، دار الاعتصام .

وكل باب من أبواب العلم: من الفقه والحساب والفرائض والنحو، فمنه ما يجل ومنه ما يدق، ليرتقي المتعلم فيه رتبة بعد رتبة حتى يبلغ منتهاه، ويدرك أقصاه ولتكون للعالم فضيلة النظر، وحسن الاستخراج، ولتقع المثوبة من الله على حسن العناية، ولو كان كل فن من العلوم شيئا واحدا، لم يكن عالم ولا متعلم، ولا خفى ولا جلي، لأن فضائل الأشياء تعرف بأضدادها، فالخير يعرف بالشر، والنفع بالضر، والحلو بالمر، والقليل بالكثير، والصغير بالكبير، والباطن بالظاهر، وعلى هذا المثال كلام رسول الله – ﷺ – وكلام صحابته والتابعين وأشعار الشعراء وكلام الخطباء ليس فيه شيئ إلا وقد يأتي فيه المعنى اللطيف الذي يتحير فيه العالم المتقدم ويقر بالقصور عنه النقاب المبرز [١].

وقد كان من نتيجة البحث والنظر والتوفيق بين ما يوهم التعارض: أن وضع العلماء قانون الجمع بين الآيات التي توهم اختلافا، وأجمعوا على نسخ ما استحكم التعارض فيه، ولم يمكن الجمع، بشرط معرفة المتقدم من المتأخر، باعتبار أن المتأخر ناسخ للمتقدم عليه في الزمان، كما فرقوا بين العام والخاص، والمطلق والمقيد، والمجمل والمبين، إلى غير ذلك من القواعد.

ولا شك أن هذا يحتاج إلى تحصيل علوم كثيرة ويفتح المجال للبحث والدرس لعدد من العلوم والمعارف لا حصر لها ولا عد.

رابعا: إقامة الأدلة والبراهين على سعة علم الله تعالى وعجز الإنسان وقصور علمه، فيتطامن ويتواضع ولا يزهو ولا يتكبر.

---

(١) تأويل مشكل القرآن ص ٨٦.

خامسا : إظهار فضل العالم على الجاهل وفضل طالب العلم على الخامل الكسول، وبيان النفوس الشريفة التي تتشوف لطلب العلم وتحصيله ، وبذلك تتحقق الخشية لله تعالى عن طريق تحصيل العلم، فإن العلماء أولى بذلك ، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [1]

---

(1) فاطر : ٢٨.

وبعد ..

فإن ورود ما يوهم الاختلاف في القرآن يعد إعجازا بيانيا من بيانه المبهر، كما أنه وسيلة من وسائل الاختبار والامتحان، وبه يفتح المجال أمام العلماء والباحثين للنظر والبحث، وعدم الركون إلى الدعة والبلادة، خاصة وأن الله قد ميز أمة الإسلام برجاحة العقول، ولذا كثر في القرآن لفت الأنظار إلى تأمل ما احتواه الكتاب الحكيم من دلائل قاطعة على أنه من عند الله حقا، كما أنه دليل قاطع على سعة علم الله تعالى المحيط بكل شيئ ، وقصور علم البشر، وبه يظهر فضل العالم على غيره لمزيد معرفته بالله تعالى وبسننه في خلقه وشرائعه ، والله أعلم (1)

* * *

(1) انظر في هذا المقام بحث بعنوان : " موهم الاختلاف والتناقض في القرآن الكريم " ص ٢٥ د/ حسن محمد عبد العزيز .

المبحث الخامس

الاستشراق ، دوافعه ، وأهدافه

ذكرنا في منهاج إعدادنا لهذا الكتاب أننا سوف نتعرض في ثنايا مباحثه لشبهات افترى بها المستشرقون على القرآن الكريم وقبل الشروع في ذكر هذه الشبهات . من الطبيعي أن نتحدث عن معنى الاستشراق، دوافع الاستشراق، أهداف المستشرقين، وإذا ما ذكرنا بعد ذلك ما اشتبهوا به على القرآن كان لقارئنا العزيز معرفة بهؤلاء .

أ ــ تعريف الاستشراق :

كلمة الاستشراق لفظة مولدة من لفظ (استشرق) المأخوذ من مادة "شرق" أي مستشرق.

استعملها المحدثون ترجمة لكلمة (O rientalism) التي تدل على معنى (مستشرقون) ، أما المحققون فيستعملون بدلا منها (علماء المشرقيات) ولكن كلمة (مستشرقون) أكثر شيوعا خاصة في الآونة الأخيرة [1]

فالمستشرق هو: عالم غربي اهتم بالدراسات الشرقية عقدية كانت أو تاريخية أو أدبية أو حضارية .. إلخ.

فكلمة الاستشراق إذن هي دراسة الغربيين عن الشرق من ناحية عقائده أو تاريخه أو آدابه .. إلى غير ذلك .

---

[1] الاستشراق نشأته وتطوره وأهدافه ــ إسحاق موسى الحسيني ص ١.

وكان أول ظهور لكلمة (مستشرق) في اللغة الإنجليزية سنة ١٧٧٩م كما دخلت في معجم الأكاديمية الفرنسية سنة ١٨٣٨م [١]

ب ــ نشأة الاستشراق :

اختلف المفكرون كثيرا في بداية حركة الاستشراق على أقوال عدة وإن كان قول من أرجعه للقرن السادس عشر الميلادي أكثر وضوحا ولا يمنع أن يكون هناك محاولات غير منظمة ظهرت قبل هذا التاريخ من القرن العاشر الميلادي منذ أن عم الإسلام بلاد الأندلس، وانهزمت أمامه جيوش الغرب العسكرية وبان عوار تأخره ثقافيا وحضاريا ، فما كان منه إلا أن وجه كل اهتمامه للتعرف على هذه القوة التي قهرته وتغلغلت في أرضه حتى دكت أبواب دوله وعواصمه، فأرسل طلابه ينهلون من العلوم الإسلامية في معاقل العلم في ديار الإسلام ، فترجموا كثيرا من كتبه وعلى رأس ذلك القرآن الكريم للتعرف على هذا الدين العظيم كما طلبوا مدرسين يعلمونهم في مراكز العلم عندهم إلى غير ذلك من الأمور التي تدل على اهتمامهم بالشرق الإسلامي من وقت مبكر.

فمن هذه البعثات الدراسية التي جاءت تنهل العلم من ديار الإسلام.

١ــ البعثة الفرنسية برئاسة الأميرة "إليزابيث" ابنة خالة "لويس السادس" ملك فرنسا.

٢ــ البعثة الإنجليزية برئاسة الأميرة (دوبان) ابنة الأمير جورج صاحب مقاطعة (ويلز).

---

[١] فلسفة الإستشراق د/ أحمد سما يلوفتش ص ٣٠ ، والاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ــ د/ محمود زقزوق ــ ص ١٨.

٣ـ البعثة الأسبانية التي كانت سنة ١٢٩٣م والتي بلغ تعداد طلابها (٧٠٠) طالب وطالبة [1] وكان من بين هؤلاء الطلاب بعض الرهبان فرجع هؤلاء لبلادهم يحملون علوم الشرق الإسلامي الباهرة.

وكان من بين الدعاة المتحمسين الذين طالبوا بضرورة تعلم لغات الشرق لغرض التنصير "روجر بيكون" (١٢١٤ ـ ١٢٩٤م) و " رايموندلول" (١٢٣٥ ـ ١٣١٦م) وكان لهذين المستشرقين الأثر الكبير في إنشاء كراسي تدريس اللغة العربية في الجامعات الغربية على أثر قرارات مجمع (فينا) الكنسي في عام ١٣١٢م الذي وافق على أفكارهما واقتراحاتهما بذلك فأنشأ خمسة كراسي جامعية في خمس جامعات غربية لتعليم اللغة العربية منها: باريس، اكسفورد، بولونيا ، سلمنكا [2]

<u>ما هي العوامل التي كونت نشأة الاستشراق ؟</u>

والعوامل التي كونت نشأة الاستشراق متعددة: دينية، وسياسية، واقتصادية، وعلمية ، وغير ذلك.

فالعامل الديني واضح لا غموض فيه وهو يهدف إلى نشر الديانة المسيحية وتبليغ دعوتها، وتصوير الإسلام تصويرا يثبت فضل المسيحية ورجحانها عليه، ويبعث في الطبقة المثقفة إعجابا بالمسيحية وحرصا عليها ويحول بين أفرادهم والدخول في الإسلام ، لذا ركزوا على إثارة الشبهات والأباطيل حول القرآن خاصة والإسلام عامة لهذا الغرض نفسه.

---

[1] الفكر الإسلامي وصلته بالاستعمار ـ البهي الخولي ، ص ٥٣٢.

[2] تراث الإسلام ـ لجنة الجامعين لنشر العلم بحث الأدب ـ جب ٢٧١/١ ـ ٢٧٢.

ولذلك نرى أن "الاستشراق والتبشير" يسيران في أغلب الأحوال معا. وأن عدد المستشرقين الأكبر أساقفة، وعددا منهم يهود ديانة وجنسا.

أما العامل السياسي فواضح كذلك فقد كـان المستشـرقون روادا لدولهم الغربية في الشرق، ومن واجـبهم أن يمـدوها بمـددهم العلمـي ليتعرف الغرب ــ عن قرب ــ على الشرق في كل شؤون حياته، ويتسنى له أن يبسط نفوذه وسلطته على الشرق وأن يحسن التعامل مـع أهلـه، ويتسنى له قيادهم والتحكم فيهم.

أما العامل الاقتصادي فكثير من المثقفين اتخذ الاستشراق تجـارة رابحة، ومهنة ناجحة، فشجعوا نشر الكتب التـي تـدور حـول الإسـلام والعلوم الشرقية، وأشرفوا على نشرها لما يرون لها من سوق نافقة فـي أوربا وآسيا وغيرهما من بلاد العالم اليوم.

وأما العامل العلمي المحض فهو محدود وقد كان من عدد قليل من المثقفين الذين اهتموا بالدراسات الشرقية لشغفهم العلمي[1].

هذه العوامل وغيرها كانت من الأسـباب الرئيسـية فـي نشـأة الاستشراق ودفع عجلته للأمام وكان من أوائـل مـن اهـتم بالدراسـات الاستشراقية الراهب الفرنسي "جوبرت" الذي انتخب بابا لكنيسة روما عام (٩٩٩م) بعد تعلمه في مدارس الأندلس وعودته إلى بلاده، و " الراهـب بطرس" المحترم (١٠٩٢ ــ ١١٥٦م)، والراهب "جيـراردي كريمـون"

---

(١) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكره الغربية ــ لأبي الحسن الندوي ــ ص ١٨٧ وما بعدها " بتصرف".

(١١١٤ ــ ١١٨٧م) و"فردريك الثاني" ملك صقلية سـنة (١٢٥٠م) ، و "الفونـــــس" ملك قشتالة ، و "جوبرت" الراهب الفرنسي ، وغيرهم .

وعندما عاد هؤلاء الرهبان من الأندلس إلى بلادهم نشروا ثقافة المسلمين وعلومهم ومؤلفات أشهر علمائهم في تلـك الـبلاد، وأخـذوا يدرسونها في معاهدهم آنذاك . وقد استمروا بالاعتماد على هـذه الكتـب قرابة ستة قرون. ولما جاء القرن الثامن عشر العصر الذي بدأ فيه الغرب في استعمار العالم الإسلامي والاستيلاء على ممتلكاته نبغ عدد من علماء الغرب في الاستشراق نبوغا ملحوظا.

وفي الربع الأخير من القرن التاسـع عشـر عقـد أول مـؤتمر للمستشرقين في باريس عام (١٨٧٣م) وتتالى عقد المؤتمرات التي تلقي فيها الدراسات عن الشرق وأديانه وحضاراته حتى يومنا هذا .

فبناء على ما تقدم تكون بداية الاستشراق بشكل واضـح منـذ أن دقت جيوش الفتح الإسلامي أبواب أوربا وعواصمها؛ ممـا دفـع أوربـا الغارقة في الجهل والتخلف الحضاري يومئذ للبحث عن أسـباب نهضـة المسلمين ، وعن سبب بلوغهم هذا المجد العظيم الذي بلغوه ؛ لذا درسوا علوم هؤلاء الفاتحين لعلهم يوقفون مدهم وزحفهم عن بلادهـم، ولعلهـم يكتسبون منهم ما ينفعهم في إنقاذهم من تخلفهم الحضـاري، لـذا كـان الاستشراق هو باب الأمل المنشود لهم [1]

---

[1] أجنحة المكر الثلاثة ــ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني ص ١٢٠ـــ ١٢١ والمستشـرقون والإسلام ــ إبراهيم اللبان ــ ص ١١ .

ولما انتهت الحروب الصليبية بالهزيمة الساحقة لجيوش الغرب النصراني، وضعت الخطة لغزو المسلمين بوسائل أخرى غير الحرب بالأسلحة المادية واقتضت خطة الغزو الجديد التوسع في الدراسات الاستشراقية ؛ لتكون تمهيدا للغزو الفكري الرهيب وإعدادا لشروطه الفكرية والنفسية . وانطلق المهتمون بالدراسات الشرقية يعملون لهذا الهدف فأخذوا يترجمون إلى لغاتهم كثيرا من كتب المسلمين ويعملون عليها الدراسات المتعددة فيضعونها بين أيدي ساسة الغرب ليتسنى لهم إخضاع الشرق لهم فكريا، وتوجيهه سياسيا حسب خططهم المرسومة.

من هنا زاد اهتمام هؤلاء الساسة لحركة الاستشراق وتوجيهها ودعمها لدراسة الشرق من جوانب متعددة: لغوية ، ودينية ، واجتماعية، وتاريخية، وسياسية، وغير ذلك. وقد كان كثير من هؤلاء المستشرقين من منسوبي الكنيسة . لذا التقت في الاستشراق أهداف جمعيات التبشير وأهداف الدوائر الاستعمارية ، ثم توسعت الحركة الاستشراقية ونمت بشكل كبير خاصة عندما انتقلت إلى مقاعد الدراسة ومراكز العلم حيث أسست للاستشراق معاهد ومقاعد جامعية، وتألفت له جمعيات تهتم به وبدراساته وتنشر هذه الدراسات في صحف ومجلات لها اهتمام بهذا الجانب ومن دراساتهم التي نشرت بعض المخطوطات العربية ووضع الفهارس الشاملة لبعض الكتب الإسلامية ووضع بعض المعاجم المفهرسة (كالمعجم المفهرس لألفاظ الحديث) وتأليف (المعجم المفهرس لآيات القرآن الكريم) . وكتفصيلهم آيات القرآن الكريم حسب الموضوعات إلى غيرذلك ..

ومن الجامعات التي اهتمت بالاستشراق فأنشأت له كراسي جامعية جامعة السوربون في فرنسا، وجامعة لندن في بريطانيا ، وغيرهما. وقد بلغ بهذه الجامعات أن أخذت تعطي شهادات في الدراسات الشرقية عامة والإسلامية خاصة. ومما يؤسف له أن بعض هذه الجامعات تدعم من قبل بعض الدول العربية . ظنا منهم أن في دعمهم لها تعريفا للغرب على الإسلام. ورأى اليهود في الاستشراق بابا يحقق أغراضهم وأهدافهم فدخلوه باهتمام بالغ حتى وصل بعضهم لرئاسة بعض هذه الأقسام واحتلال كثير من كراسيها الجامعية مثل جولد تسيهر وغيره.

كما أن الدول الأوربية الشرقية بعد نجاح الثورة الشيوعية في بلادهم اهتمت بالحركة الاستشراقية لاستخدامها في حرب الإسلام الذي يقف سدا منيعا في طريق انتشارها.

وهكذا نجد أن الاستشراق ولد في حضن التبشير وكبر في حضن الاستعمار والصهيونية والشيوعية [1]

دوافع المستشرقين وأهدافهم :

باستطاعتنا أن نتعرف على دوافع المستشرقين وأهدافهم من خلال أعماله، ومن النظرات التاريخية إلى واقع حال الدول الغربية، قبل أن تظهر فيها ظاهرة الاستشراق وبعدها، ومن النظر في صلة الاستشراق بالتبشير، وإلى صلته بالاستعمار.. إلخ فسأذكر فيما يلي خلاصة عن دوافعهم وأهدافهم. مع العلم أن الدوافع تلتقي مع الأهداف، باعتبار أن

---

(١) راجع في هذا المقام على وجه التفصيل " آراء المستشرقين حول القرآن الكريم " عمر بن إبراهيم رضوان ـــ الطبعة الأولى ـــ ج ١ ـــ ص ٢٣. دار طيبة للنشر والتوزيع .

الدافع يمثل المحرض النفسي لاتخاذ الوسائل التي توصل إلى الأهداف الغائية من العمل [1]

أ ــ دوافع الاستشراق

تنوعت دوافع الاستشراق خلال فترات نشأته منها:

١ــ الدافع النفسي :

لا شك أن حب الاطلاع والتعرف على حياة الآخرين وأفكارهم وسبل معيشتهم أمر فطري غريزي في الإنسان وهذه الرغبة متأصلة في أعماق النفس البشرية لا يمكن أن تستأصل. ومن أجل هذه الرغبة يتحمل الإنسان المتاعب والمصاعب بأنواعها[2]

لذا فهذا الدافع كان من أول الدوافع التي جعلت المستشرقين يهتمون بالشرق وحضارته وسبل عيش أهله وطرق تفكيرهم، إلى غير ذلك مما يجهلونه ويحبون أن يطلعوا عليه.

٢ــ الدافع التاريخي :

العلاقة بين الشرق والغرب قديمة جدا، كان يصحبها في بعض الأحيان عداء وحروب بين الطرفين، وصراع من أجل السيطرة سواء كانت فكرية أو عسكرية. مما يدعو كل طرف منهما للاطلاع على ما عند الآخر من عقائد، وتراث وحضارة وعادات وقيم ليخترقه ويسيطر عليه من خلال نقاط الضعف التي فيها. ومن الأمثلة على ذلك الحروب الصليبية

---

(١) أجنحة المكر الثلاثة للميداني ص ١٢٥.

(٢) فلسفة الإستشراق ص ٤٠ ــ ٤٢ ــ دكتور/ أحمد سما يلوفتش ــ ط : دار المعارف.

حيث اقتضت هذه الحروب استصحاب من له خبرة واطلاع على جغرافية الشرق وأحوال أهله ودياناتهم وعاداتهم .. إلى غير ذلك من الأمور [1]

٣ـ الدوافع الاقتصادية والتجارية :

من الدوافع التي كان لها الأثر في تنشيط حركة الاستشراق، رغبة الغربيين في التعامل مع الشرق لترويج بضائعهم في أسواقه والاستيلاء على موارده الطبيعية الخام بأبخس الأثمان؛ لذا حرصوا على فتح أسواق تجارية لصناعاتهم في منطقتنا، وحرصوا كذلك على قتل النشاط الصناعي والتجاري في شرقنا حتى يبقى متخلفا، شاعرا بالنقص والحاجة لهم، منهزما نفسيا أمام تقدمهم مما يسهل خضوعه وخنوعه وانقياده لهم.

هذه من الدوافع التي جعلت الغرب يهتم بالشرق ويحب التعرف على كل شئ فيه خاصة جغرافيته، ومكان الخيرات فيه مما جعل هؤلاء الطامعين يشجعون الباحثين والمفكرين في تقديم دراسات وافية عن الشرق [2] وقد نالت هذه الدراسات الرضا والقبول وأصبحت تدر على أهلها ودور النشر التي تتولى نشرها أرباحا هائلة.

٤ـ الدافع الديني :

إننا لا نحتاج إلى عناء كبير للتعرف على دافع الاستشراق الديني فقد بدأ الاستشراق أول ما بدأ كما ذكرت سابقا من الفاتيكان، وكان أول رواده من رجال الكنيسة وعلماء اللاهوت حيث ظلوا المشرفين على هذه الحركة

---

(١) الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ـ د/ محمود زقزوق ـ ص ٧٤.

(٢) افتراءات فيليب حبيب وكارل بروكلمان على التاريخ الإسلامي ـ عبد الكريم الباز ـ ص ١٩ ، وأجنحة المكر الثلاثة ص ١٢٨.

والمسيرين لها حتى القرن التاسع عشر؛ وذلك للدفاع عن الكنيسة وسلطاتها ولمواجهة الضغوط الشديدة المتزايدة من المفكرين المتمردين عليها، خاصة وأن بعض المتمردين وجدوا في الإسلام فرصة لتفكيرهم وتخلصا من سلطان كنائسهم التي تحجر على عقولهم، حيث أظهر بعضهم إعجابه بالإسلام. مما أفزع الكنيسة ودفعها لمحاربة الإسلام بثلاثة اتجاهات:

اتجاهات الكنيسة في محاربة الإسلام :

١ــ الطعن في الإسلام وتشويه حقائقه، والافتراءات عليه بمختلف الأكاذيب لشحن أتباعها ضده وتنفيرهم منه، والإثبات لجماهيرها التي تخضع لسلطانها أن الإسلام هو الخصم الوحيد للمسيحية وهو دين لا يستحق الانتشار، زاعمة أن أتباعه ــ على حد زعمهم ــ قوم همج متخلفون ، سراق نياق ، سفاكو دماء، يبحثون عن المتعة الرخيصة من الكأس إلى غير ذلك من الأباطيل والافتراءات التي لا تمت للحقيقة بصلة [1]

٢ــ حماية النصارى من خطر الإسلام بالحيلولة بينهم وبين رؤية حقائقه الناصعة، وآياته البينة الواضحة، وتاريخه المجيد حتى لا يؤثر عليهم فيدخلوا فيه.

٣ــ محاولة تنصير المسلمين فمن أجل ذلك جهزوا جيوشا من المنصرين لهذا الغرض، ووضعوا بين أيديهم الإمكانيات الكبيرة، لإعطاء الثقة لمن فقدها من أبناء جنسهم، ولهز ثقة المسلمين أنفسهم في دينهم.

فمن أجل هذا الغرض عقدوا مؤتمرات عدة بدأوها بمؤتمر فينا الكنسي سنة (١٣١٢هــ) الذي قرروا فيه إنشاء كراسي جامعية للغة العربية [2] كما حصل في جامعة كمبردح آنذاك وغيرها وذلك ليسهل عليهم التعرف على الإسلام ومعرفة مكامن الضعف عند المسلمين

---

(١) افتراءات فيليب حبيب وبروكلمان على التاريخ الإسلامي ــ ص ١٨ ــ الإستشراق والخلفية الفكرية ــ د/ زقزوق ص ٧٢ . الاستشراق والخلفية الفكرية ص ١٩.

(٢) الاستشراق والخلفية الفكرية ص ٧٢.

فيتسللوا من خلالها. وكذلك أنشأوا المجلات العلمية لنشر أفكارهم ودسائسهم فيها كمجلة العالم الإسلامي (سنة ١٩١١م) برئاسة (صموئيل زويمر) رئيس المبشرين في الشرق الأوسط. كما أكثروا من التأليف عن الإسلام بكتب فقدت روح البحث العلمي لما حوته من تفاهات وأساطير وأباطيل وقلب للحقائق عن الإسلام ككتب "سال" مثلا [1] وقد استمرت سيطرة الكنيسة على حركة الإستشراق من سنة (١٣١٢م) إلى القرن الثامن عشر حيث بدئ بالفصل بين اللاهوت والدراسات الاستشراقية في بعض البلاد الغربية كفرنسا وانجلترا. أما ألمانيا والنمسا فقد استمرت فيهما سيطرة الكنيسة على الحركة الاستشراقية لمنتصف القرن التاسع عشر حيث فصل بينهما، وخير من وجه حركة الاستشراق وجهة علمية بعيدة عن التنصير وكان ذلك في منتصف القرن التاسع عشر المستشرق الفرنسي (سلفستر دي ساسي).

وممن اشتهر من المستشرقين بالدراسات الإسلاميه على وجه الخصوص "جولد تسيهر" ، و "تولديكة" ، و " فلهاوزن" ، "ريتشارد بل" ، و " بلاشير" وغيرهم. كما أن هذا الدافع دفع اليهود لاستغلال حركة الاستشراق لتحقيق مآربهم وأهدافهم وإن لم يظهروا بشخصيتهم اليهودية بل تلونوا مع كل الطوائف وعملوا تحت كل اللافتات وكان من أشهرهم اليهودي المجري "جولد تسيهر" ، والألماني "تولديكة" وغيرهما كثير.

وكان هذا الدافع من أكثر الدوافع التي دفعت عجلة الاستشراق للأمام وأكثر من أساتذتها وتلاميذها.

---

(١) المرجع السابق نفس الصفحة.

٥ـ الدافع الاستعماري والسياسي :

لازمت حركة الاستشراق الاستعمار الغربي لبلاد الشرق الإسلامي فقد استطاع الغرب المسيحي أن يسيطر على كثير من بلدان العالم الإسلامي. وقد كان هذا الاستعمار امتدادا للحروب الصليبية التي كانت في ظاهرها دينية وفي باطنها استعمارية.

ولم تأت نهاية القرن التاسع عشر حتى كانت كل أجزاء العالم الإسلامي تقريبا قد سقطت في براثن الاستعمار الغربي. وليتم لهم السيطرة ، وليتمكنوا من الاستمرار في بقائهم في هذه البلاد كان لازما عليهم دراسة أحوال الشرق، وتاريخه، ولغاته وعقائده فجندوا لهذه المهمة عددا كبيرا ممن لهم دراية بالشرق وأحواله فسخروا علمهم لخدمة الاستعمار البغيض فكان هؤلاء المستشرقون عملاء لحكوماتهم، وشركاء لهم في صنع القرار السياسي في آن واحد.

بعد تحرر البلاد الإسلامية من الاستعمار العسكري رأى ساسة الغرب أن يكون الاستعمار له طابع آخر وهو أن يكون استعمارا فكريا ؛ لذا اقتضى الأمر أن تزود القنصليات والسفارات والمؤسسات الدولية التابعة لهم بمن لديهم الخبرة في الدراسات الاستشراقية ليبثوا ما تريده دولهم من اتجاهات سياسية ، وليقوموا بمهمات سياسية متعددة منها :

المهمات السياسية لدى المستشرقين :

١ـ الاتصال بالسياسيين والتفاوض معهم لمعرفة آرائهم واتجاهاتهم.

٢ـ الاتصال برجال الفكر والصحافة للتعرف على أفكارهم وواقع بلادهم.

٣ـ بث الاتجاهات السياسية التي تريدها دولهم ، فيمن يريدون بثها فيهم وإقناعهم بها.

٤ـ الاتصال بعملائهم وأجرائهم الذين يخدمون أغراضهم السياسية داخل شعوب الأمة الإسلامية [(١)]

وقام هؤلاء المستشرقون بدراسة هذه البلاد في كل شئونها من عقدية وعادات وأخلاق وثروات ولغات وتاريخ إلى غير ذلك. للتعرف على مواطن القوة فيها فيضعفوها والى مواطن الضعف فيغتنموها ، ولإضعاف المقاومة الروحية والمعنوية في نفوس المسلمين، وبث الوهن والارتباك في تفكيرهم ، وكان لهم في ذلك دسائس تسللوا بها إلى نفوس المسلمين منها:

دسائسهم في هذا الخصوص :

١ـ التشكيك بفائدة ما في أيدي المسلمين من تراث، وبما عندهم من عقيدة وشريعة، وخلق وقيم إنسانية، ليفقدوا الثقة بأنفسهم ويرتموا في أحضان الغرب يستجدون منهم المقاييس الأخلاقية والمبادئ والعقائد

---

(١) الاستشراق والمستشرقون ـ د/ مصطفى السباعي ص ١٨ ـ ١٩.

والحلول لمشاكلهم ليتم للغرب إخضـاع المسـلمين لحضـارته وثقافتـه إخضاعا كاملا.

٢ـ إحلال مفاهيم جاهلية ماتت منذ انتشر الإسـلام، كالقوميـات الفرعونية ، والفينيقية ، والآشورية، والعربيـة والكرديـة، والتركيـة، والفارسية، ونحو ذلك ؛ ليتسنى لهم تشتيت شمل الأمة الواحدة [١]

٣ـ إحلال الفتن الطائفية بين السـكان كالمسـلمين والنصـارى والدروز والعلويين، وغير ذلك . وما حرب لبنان عنا ببعيد. وإشعال الفتن بين الدول الجارات كما حصل في إشعالهم الحرب بـين العـراق وإيـران وتمزيق وحدة الأمة الواحدة بسياستهم "فرق تسد" ، وطـبخ الانقلابـات العسكرية لصالح سياسة دولة من دولهم.. حتى باتت كثير من حكوماتنـا عسكرية تحكم شعوبها بالحديد والنار وسفك الـدماء وسـجن الأحـرار والمصلحين. مع أنهم لا يرضون لأنفسهم إلا الديمقراطية وكامل الحريـة الشخصية للفرد.

فمن خلال هذه الدراسات تعرف الغرب على مكامن وبواعث القوة والمجد ومواقع الخير والإنتاج والعبقرية والتفوق عنـد الشـرق وعلـى مواقع الجدب وهزال الإمكانات والمواهب [٢]فتسنى لهم السيطرة الكاملـة على شرقنا العزيز، فضيعوا هويته، وأفقدوه ثقته بنفسه فكـان لهـم مـا أرادوا. وبهذا يكون قد خرج الاستشراق عن السياسة التي أسـس مـن أجلها مما أثار في نفوس بعض المنصفين منهم ، الأسى والحزن لهذه

---

(١) أجنحة المكر الثلاثة ص ١٢٧ ــ ١٢٨.

(٢) وحي الله حقائقه في الكتاب والسنة ــ نقض مزاعم المستشرقين ــ د/ حسن عتر ــ ص ٢١.

السياسة حيث قال "اسفان فيلد" مظهرا استياءه:

[والأقبح من ذلك أنه توجد جماعة يسمون أنفسهم مستشرقين سخروا معلوماتهم عن الإسلام وتاريخه في سبيل مكافحة الإسلام والمسلمين. وهذا واقع مؤلم لابد أن يعترف به المستشرقون المخلصون لرسالتهم بكل صراحة] [1]

نماذج دالة على ارتباط الاستشراق بالاستعمار:

ومن بين الأمثلة العديدة على ارتباط الاستشراق بالاستعمار:

١ــ المستشرق "كارل هينريخ بيكر" (ت ١٩٣٣م) مؤسس (مجلة الإسلام) الألمانية الذي قام بدراسات تخدم الاستعمار الألماني في إفريقيا حيث حصل الرايخ الألماني في عام ١٨٨٥ ــ ١٨٨٦م على مستعمرات في أفريقيا واستمر هذا الاستعمار إلى عام ١٩١٨م.

٢ــ المستشرق الروسي " بارثود" (ت ١٩٣٠م) الذي تم تكليفه عن طريق الحكومة الروسية بالقيام ببحوث تخدم السيادة الروسية في آسيا الوسطى. وقد أسس مجلة باسم (عالم الإسلام).

٣ــ المستشرق (سنوك هورجرونيه) عالم الإسلاميات الهولندي الشهير، فإنه في سبيل خدمة الاستعمار توجه إلى مكة في عام ١٨٨٥م بعد أن انتحل اسما إسلاميا هو (عبد الغفار) ، وأقام هناك ما يقرب من نصف عام ، وقد ساعده على ذلك أنه كان يجيد العربية كأحد أبنائها، وقد لعب هذا المستشرق دورا هاما في تشكيل السياسة الثقافية والاستعمارية في المناطق المستعمرة للهولنديين في الهند الشرقية، وقد شغل (سنوك)

---

(١) الاستشراق ــ د/ محمود حمدي زقزوق ــ ص ٤٤.

مناصب قيادية في السلطة الاستعمارية الهولندية في أندونيسيا [1]

٤ــ "هانوتو" ج. ت (١٩٤٤م) المستشرق الفرنسي الذي كان بمقترحاته يوجه سياسة فرنسا في مستعمراتها الأفريقية الإسلامية والتي ركز فيها على إضعاف المسلمين في عقيدتهم حتى يسهل قيادهم [2]

٥ــ اللورد " كيرزن الإنجليز" الذي كان متحمسا لإنشاء مدرسة للدراسات الشرقية لدعم الموقع الذي نالته بريطانيا في الشرق وقد تحولت هذه المدرسة فيما بعد إلى جامعة لندن للدراسات الشرقية والأفريقية .

والذي يظهر لك مقدار اعتماد الدول الاستعمارية على الاستشراق أن الحكومة البريطانية كانت تضع سياستها في البلاد التي احتلتها بعد التشاور مع فريق من المستشرقين .

وهكذا يظهر لنا جليا الارتباط العضوي الذي كان يجمع بين الاستعمار والاستشراق وكيف استطاع الاستعمار أن يسخر الاستشراق لأغراضه الرخيصة ، وأن يخرج الاستشراق عن أهدافه العلمية.

٦ــ الدافع العلمي:

من المستشرقين نفر قليل جدا أقبل على الدراسات الاستشراقية لإشباع نهم علمي متجرد. وذلك بدافع من حب الاطلاع على حضارات الأمم، وأديانها، وثقافاتها، ولغاتها. وكان هؤلاء النفر من المستشرقين أقل من غيرهم خطأ في فهم الإسلام وتراثه، حيث جاءت بحوثهم أقرب

---

(١) نفس المرجع السابق ص ٤٥ ــ ٤٦.

(٢) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ــ د/ محمد البهي ــ ص ٣٠ .

إلى الحق والصواب، إلا أن موارد هؤلاء المالية الخاصة بهم كانت قليلة لا تسعفهم بالانصراف لمثل هذه الدراسات والتي لا تلقى رواجا عند رجال الدين ولا عند رجال السياسة في بلدانهم؛ لذا كسدت بحوثهم فقل عددهم حتى أصبحوا نادرين وهؤلاء مع إخلاصهم في البحث والدراسة لم يسلموا من الأخطاء والاستنتاجات البعيدة عن الحق، إما لجهلهم بأساليب اللغة العربية وإما لجهلهم بالأجواء التاريخية الإسلامية على حقيقتها، فيتصورونها كما يتصورون مجتمعاتهم الغربية، ناسين الفروق الطبيعية والنفسية والزمانية التي تفرق بين المجتمعين ، ومن استطاع من هؤلاء أن يعيش بقلبه وفكره ويتجرد من جو البيئة التي كان يعيش فيها، أتى بنتائج توافق الحق والصدق والواقع ومثل هؤلاء المستشرقين لا يدعهم قومهم وشأنهم ، بل يهاجمونهم ، ويتهمونهم بالانحراف عن المنهج العلمي، والانسياق وراء العاطفة لمجاملة المسلمين. ومن هؤلاء المستشرقين المستشرق "توماس أرنولد" الذي حين أنصف المسلمين في كتابه (الدعوة إلى الإسلام) الذي برهن فيه على تسامح المسلمين في جميع العصور مع مخالفيهم في الدين.

ومن هؤلاء المستشرقين من أدى به بحثه الخالص لوجه الحق إلى اعتناق الإسلام كما حصل ذلك مع المستشرق الفرنسي الفنان "دينيه" والذي سمى نفسه "ناصر الدين دينيه" وألف بعد ذلك مع عالم جزائري كتابا عن سيرة الرسول ﷺ . و "لدينيه" كتاب آخر بعنوان (أشعة خاصة بنور الإسلام) بين فيه تحامل قومه على الإسلام ورسوله. ومنهم المستشرق المجري "عبد الكريم جرمانوس" الذي أسلم في الهند سنة ١٩٣٠م والذي ألف أكثر من (١٥٠) كتابا عن الإسلام ومنهم الطبيب

الفرنسي "موريس بوكاي" صاحب كتاب "دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة" الذي أثبت فيه موافقة القرآن لأحداث الحقائق العلمية التي توصل إليها الناس بوسائلهم المختلفة اليوم [١]، وغير هؤلاء كثير. ومثل هؤلاء المستشرقين يحتاجون من المسلمين أن يتبنوا كتبهم بنشرها والوقوف بجانبهم في كل ما يحتاجونه من دعم مادي ومعنوي، فإنهم أقدر منا وأبلغ في إيصال دعوة الإسلام لأبناء قومهم وذلك لمعرفتهم الشاملة بما يناسب قومهم من أساليب وبراهين ، وما هم بحاجة لكشفه من شبهات وتفنيد ما ترسب في نفوسهم من أباطيل وأكاذيب [٢] ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[٣]

أهداف المستشرقين :

الذي ينظر في أعمال المستشرقين وجهودهم التي بذلوها في سبيل التعرف على الشرق وأحواله ودياناته وحضاراته.. إلخ يتساءل :

ما الذي دعا هؤلاء الباحثين الغربيين لبذل كل هذا الجهد والعمر والمال في دراسة غريبة عنهم. مع أنهم لو بذلوها لدراسة مجالات أوربية أخرى لكانت أكثر فائدة لهم من الناحية العلمية والمادية. ولسلموا من النقد الذي يوجه إليهم دائما، فلا شك أن هناك دوافع قوية وأهدافا رئيسية كانت وراء كل هذه الجهود وقد وجدت "تجيب العقيقي" في كتابه (المستشرقون) قد جعل الدافع العلمي وراء كل هذه الجهود.

---

(١) والأستاذ/ محمد أسد ، صاحب كتاب " منهاج الحكم في الإسلام " .

(٢) أجنحة المكر الثلاثة ص ١٢٩ ــ ١٣١ " بتصرف " .

(٣) يوسف : ٢١.

ولكني أجد أن الاستشراق ولد في حضن التنصير، وكبر في حضن الاستعمار، ونضج في النهاية في حضن المؤسسات التعليمية.

وقد أكد "رودي بارت" أن الدافع العلمي في الحركة الاستشراقية لم يظهر إلا في منتصف القرن التاسع عشر.

فالذي يرجع لبداية تاريخ الاستشراق يجد أن الهدف الديني هو أساس انطلاقة الحركة الاستشراقية ولم يستطع الاستشراق أن يتحرر من إسار الخلفية الدينية حتى نهاية القرن التاسع عشر إلا قليلا. وقد تمثل هذا الهدف باتجاهات ثلاثة:

١ـ محاربة الإسلام والبحث عن نقاط ضعف فيه، وإبرازها وتضخيمها والزعم بأنه دين مأخوذ من النصرانية واليهودية، والانتقاص من قيمته والحط من قدر نبيه.

٢ـ حماية النصارى من خطر الإسلام بحجب حقائقه عنهم، وتحذيرهم من خطره عليهم.

٣ـ حملات التنصير بين المسلمين ، لتشكيكهم في دينهم، وهز ثقتهم فيه وخير ما يوضح هذا الهدف قرارات مؤتمر (فينا) الكنسي الذي عقد سنة ١٣١٢م.

واعتبار هذا الهدف هو أساس الأهداف كلها لا يعني أنه لا يوجد أهداف أخرى واكبت لحركة الاستشراق في خلال مسيرتها. وسأستعرض هذه الأهداف بشيئ من التفصيل .. والله الموفق [1].

---

[1] راجع في هذا المقام على وجه التفصيل " آراء المستشرقين حول القرآن الكريم " د/ عمر إبراهيم رضوان ج ١ ص ٢٣ ـ ط : الأولى .

١ـ منع انتشار الإسلام في أوربا وغيرها والحيلولة بينه وبينهم، حفاظا على سلطان الكنيسة ومغانمها. وذلك لما رأوا في الإسلام من تمتع بقوى ذاتية يصل من خلالها للنفوس، بسبب جلاء معانيه، وبساطة تعاليمه، وانسجامه مع الفطرة، وصلاحيته لكل زمان ومكان وفي كل الظروف [١] لذا قاموا بتشويه الإسلام، وحجب محاسنه عن أقوامهم لإقناعهم بعدم صلاحيته لهم كنظام حياة.

وقد استغل المستشرقون كراهية الأوربيين للإسلام بسبب التوسع العثماني في أوربا، وما صحبه من تعصب وحروب لعدة قرون، فعمد المستشرقون إلى تعميق هذه الكراهية والأحقاد في نفوس الأوربيين وتغذيتها بالشبهات والأباطيل.

٢ـ اقتباس أفكار إيمانية من الإسلام لتثبيت أقدام الكنيسة في بلادها بفكر ديني معقول. وهذا يظهر جليا في مسائل القضاء والقدر وكلزوم التداوي من الأمراض اليوم وخلاف ما كان يعتقده القوم سابقا [٢]. واختيار الإنسان في أعماله الإرادية.. وفي مسائل الإيمان عامة كالإيمان بوحدة الكون ووحدة نظامه في الأرض والأجرام السماوية . وسلك رجال الكنيسة في إيراد الدلائل العقلية على الإيمان بالله كثيرا آخذيها من مسائل علماء الإسلام المتقدمين الواردة في الكتاب والسنة وكتب علم الكلام. ولا يعني هذا أن الفكر الكنسي الغربي قد خلص من جميع آفاته بل إنه لا يزال يعول على ما نسميه: العقيدة الاحتياطية، والتي يقصدون بها أن العقيدة

---

(١) وحي الله ـ د/ عتر ـ ص ٣٢.

(٢) انظر شمس العرب تسطع على الغرب للمستشرقة الألمانية زيغريد هونكه ـ ص ٢١٥.

الدينية قضايا فوق العقل، فالتسليم بها واجب ومناقشتها بالدلائل محظور وذلك تخلصا من نقاش عامة النصارى للأسس والعقائد الكنسية المنافية للعقل والعلم كالتثليث ونحوه [1]

٣ـ جعل الدراسات الاستشراقية مصدرا لتعليم الإسلام للمسلمين أنفسهم ومصدرا للدراسات عن الشرق عامة .

لقد شملت دراسات المستشرقين كافة الدراسات العربية والإسلامية مما دعا قومنا لإكبارهم والإعجاب بإنتاجهم العلمي واثقين بهذه الدراسات كل الثقة لتوهمهم أنها أنشئت على الموضوعية العلمية والحياد والإنصاف في البحث ابتغاء الحقيقة.

وغفل قومنا أن هؤلاء لم يكونوا أمناء على كتابهم المقدس فكيف بهم يؤمنون على دراساتنا ولغاتنا. والذي يطلع على ما كتب هؤلاء يجد أنهم وضعوا السم في الدسم، وقلبوا الحقائق وكتموا الحق وهم يعرفونه. وقد وصل الهوان بقومنا أن أصبحت مناهج التعليم في كثير من الدول الإسلامية في المدارس والجامعات من صنع هؤلاء المستشرقين.

قال الأستاذ "عبد الرحمن الميداني" : [وسقطت معظم الجامعات المنشأة في بلاد المسلمين تحت الأيدي الخفية للاستشراق والتبشير والدوائر الاستعمارية، وغدت خططها ومناهجها وتوجيهاتها تخضع بطريق غير مباشر لما تفرضه وتمليه هذه الأيدي الخفية ، وغدت الكنيسة الغربية تفخر بأن العلوم الإسلامية والعلوم العربية تدرس على طريقتها التي تخدم أغراضها في بلاد المسلمين، وبأن المشرفين على تدريس هذه

---

(١) وحي الله ــ د/ عتر ــ ص ٣٣ ــ ٣٤ .

العلوم من تلامذة أبنائها] [1]

وأي انتكاس أقبح من هذا الانتكاس، أن يتعلم المسلمون دينهم ولغاتهم وفق طرائق أعدائهم وأعداء دينهم، ووفق دسائسهم وتشويهاتهم وتحويراتهم وأكاذيبهم وافتراءاتهم.

٤ـ تمزيق الوحدة اللغوية في الأمة الإسلامية حرصا على تمزيق عقيدة الأمة ووحدتها.

صب المستشرقون وعملاؤهم أشنع الاتهامات على اللغة العربية فزعموا أنها عاجزة عن مسايرة ركب الحضارة المعاصرة، وموكب العلم الحديث مع أن هذه اللغة أقوى لغات العالم في توليد الألفاظ والكلمات اللازمة للمعاني المستحدثة بالنحت والاشتقاق، والقلب والإبدال والتعريب [2]

---

(١) أجنحة المكر الثلاثة ـ للميداني ـ ص ١٥٠ ، طبعة دار القلم ـ دمشق .

(٢) الفصحى لغة القرآن الكريم . أنور الجندي ـ ص ٥١.

أساليب المستشرقين في الطعن
على لغة الضاد الفصيحة وترويج غيرها

ركز المستشرقون طعوناتهم في حيوية هذه اللغة وروجوا لغيرها من اللغات بأساليب متعددة منها:

أ ـ زعمهم أن اللغة العربية اقتبست كلمات عربية من لغات قديمة متنوعة، مما يدل على قصورها في تلبية حاجات الشعوب والمعروف أن الشعوب تتأثر ببعضها ثقافة وحضارة إلى غير ذلك من الأمور، لذا فأمر طبيعي انتقال بعض المفردات من أمة إلى أمة أخرى كما هو ملاحظ اليوم بين شعوب الأرض قاطبة.

ب ـ ومن ذلك زعمهم أن اللغة العربية عسيرة التعلم؛ لذا تبنوا الدعوة إلى اللغة العامية ليجمدوا تقدم العربية وتمكنها من نفوس المسلمين فيضعف فهمهم للقرآن الكريم.

<u>دعاة العاميه من المستشرقين وأتباعهم في مصر وغيرها</u>

وكان على رأس الداعين لهذه الدعوة من المستشرقين "د.نللينو" الإيطالي، و "سيافكوفسكي" الروسي ولكل منهما كتاب بعنوان (دراسة عامية مصر).

والمستشرق "فيليب وولف" الألماني، وله كتاب بعنوان (دراسة عامية مصر والشام وفلسطين) ومجموعة من علماء فرنسا برئاسة "ماشويل" ولهم كتاب بعنوان (دراسة عامية المغرب وتونس).

والمستشرق "إلياس برازين" الروسي وله كتاب بعنوان (دراسة عامية الجزيرة العربية وبين النهرين) والمستشرق "يوريال" الفرنسي وله كتاب (عامية حلب).

والمستشرق "فرانكل" وله كتاب (الكلمات الآرامية الدخيلة في العربية) ، وغير هؤلاء كثير. كما للمستشرقين مجموعة من الصحف التي اعتنت بهذا الجانب ومن المؤسف أن كثيرا من أبناء جنسنا من المفكرين والأدباء والكتاب قد حمل وزر هذه الدعوة منهم:

" لطفي السيد" حيث كتب عدة مقالات في جريدة (الجريدة) سنة (١٩١٣م) يدعو فيها إلى استعمال الألفاظ العامية وإدخالها حرم اللغة الفصحى، و "قاسم أمين" حيث أعلن تصريحه عن الإعراب وتسكين أواخر الكلمات عام (١٩١٢م) ، و "الخوري مارون غصن" حيث ألف كتابا بعنوان (حياة اللغة وموتها) "اللغة العامية" سنة (١٩٢٦م) . و "سلامة موسى" وله كتاب (الدعوة إلى اللغة العامية وكتابة البلاغة العصرية)، و " طه حسين" حيث ألف كتابه (مستقبل الثقافة) سنة (١٩٣٩م) ، وقد بلغ ببعضهم المطالبة بتغيير الحروف العربية إلى اللاتينية . كان منهم "عبد العزيز فهمي" حيث قدم مشروعا إلى المجمع اللغوي المصري في ٢٤ يناير ١٩٤٤م لاتخاذ الحروف اللاتينية لرسم الكتابة العربية [١]

ج ـ دعوا إلى إحياء اللغات القومية لكل جنس كالفارسية والتركية والأوردية والكردية والبربرية وغيرها.

---

[١] الفصحى لغة القرآن ـ ص ١٨٥.

والمعروف أن اللغة العربية من أهم عوامل الوحدة بين الشعوب الإسلامية، وهي عامل تعلمهم الإسلام وفهمهم للقرآن الكريم، وعامل توحيدهم فكريا وعقائديا واجتماعيا وشعوريا، ولكن ضعف المسلمين وغفلتهم هو الذي أدى لخسران المسلمين للغتهم ولكن هذه الدعوات ولله الحمد قد باءت بالفشل بعد ما تبينت أغراضها [1] وسوء مقاصد أصحابها.

٥ـ إضعاف الشخصية الإسلامية بالاحتيال والتزوير في تاريخ الإسلام المجيد، ومحاولة تحطيمها كذلك بالحرب النفسية.

المعروف أن التاريخ المجيد ذا الصفحة البيضاء لأي أمة يعتبر من أهم العناصر الفعالة في تكوين شخصية المواطن لتصبح قوية وتندفع في سلم الترقي والتقدم فالتاريخ هو شخصية الأمة.

لذا فالمستشرقون لم يتركوا هذا الجانب من الدراسات الإسلامية دون اهتمام وبحث فدرسوا التاريخ الإسلامي وأخذوا يغيرون حقائقه ويخفون صفحاته البيضاء، ويظهرون ما كان فيه من ثغرات ويضخمونها كبعض الفتن التي حصلت في تاريخ الإسلام حيث ضخموها أضعاف حجمها، مضيفين إليها تفسيراتهم الخاصة كالتفسير المادي المنزوع منه الجمال الإيماني، والرجولة العربية المتميزة كما فعل ذلك (بروكلمان) (وفيليب) حتي في كتاباتهم، وغيرهما.

لذا فالواجب على المهتمين بهذا الجانب من الدراسات من المسلمين أن يعيدوا النظر فيما كتب هؤلاء المستشرقون فينظفوا تاريخنا

---

[1] وحى الله ــ د/ عتر ٣٨ ــ ٤٠.

من دسائسهم وافتراءاتهم وأكثر من حمل وزر هذه الافتـراءات "فيليب حتي" ، و "بروكلمان".

٦ـ تحويل المسلمين عن دينهم، وإشاعة البلبلـة الفكريـة فـي صفوفهم، وتحطيم الوحدة الفكرية التي تجمعهم ؛ لتصير البلاد لقمة سائغة للأعداء ، ويصير المسلمون أتباعا لهم خاضعين لسلطانهم.

لذا ركز المستشرقون في دراساتهم على تشكيك المسـلمين فـي دينهم وإضعافه في نفوسهم، والتشكيك في صحة نبوة سيدنا محمد ـ ﷺ ـ وبإضعاف الروح المعنوية عند المسلمين ، وإضعاف ثقتهم في نفوسهم وذلك بتعظيم أمر الحضارة الغربية في أعينهم وتقليـل شـأن الحضـارة الإسلامية حتى ينظر لهم بعين الإعجاب ويتبـع ذلـك سـهولة الانقيـاد. وركزت دراسات المستشرقين كذلك على كل ما يبعد المسلمين عن ديـنهم وقيمهم وأخلاقهم بنشر المذاهب الهدامة والمبـادئ الفاسـدة المخالفـة للشرع الإسلامي الحنيف، وإيهام الشباب أن سبب تخلف البلاد الإسـلامية التمسك بالدين الذي يربي أفراده على الجمود والرجعيـة ـ علـى حـد زعمهم ـ كل ذلك لتذويب الشخصية الإسلامية ولتسييرها في ركب الغرب الغاشم بسهولة ويسر.

٧ـ تأييد الغزو الاستعماري لبلاد المسلمين والعمل على تحطـيم المقاومة الإسلامية.

لذا قام المستشرقون بتقديم خدمات عدة لهذا الغرض، مـن هـذه الخدمات: تزويدهم الاستعمار بما يحتاجه من دراسات استشـراقية عـن مناطق نفوذه مما يسهل له مهمته ويمكنه من رقاب الشعوب الإسـلامية وذلك بتعريفه بنقاط القوة في العالم الإسلامي لهدمها ومـواطن الضـعف

للتسلل من خلالها، فمن أجل هذه المهمة فتح المستشرقون في المنطقة جامعات وزودوها بالأساتذة الفاهمين لدورهم، وزودوا الحملات الاستعمارية بأصحاب اختصاص ومعرفة بالشرق وأحواله من المستشرقين.

ولتسهيل المهمة أكثر فتحوا كراسي للغة العربية والدراسات الإسلامية في جامعاتهم لتخريج كوادر طلابية تحمل سموم أفكارهم وتهيئ لهم المناخ في بلادنا لتحقيق أهدافهم وغاياتهم كما أنهم أعدوهم لتولي مناصب هامة في بلادنا لتنفيذ مخططاتهم كما أن هؤلاء المستشرقين يبذلون قصارى جهدهم لتحطيم مكامن القوة الإسلامية فشنوا حملاتهم ضد مفهوم الجهاد الإسلامي مع محاولاتهم صرف أنظار المسلمين إلى الدعة والقعود عن هذا الجهاد طالما أنه في سبيل الله . مع دفع مفهوم الجهاد الحقيقي لمعنى آخر وهو:

الاشتغال بالعبادة والزهد وتسميته بالجهاد الأكبر وإكمالا لهذا الأمر تبنوا الجماعات التي تؤول الجهاد عن معناه الحقيقي وتمنعه كالأحمدية والقاديانية في باكستان وغيرها [1]، كما عمل المستشرقون على تحطيم وحدة المسلمين، وتمزيق الدول الإسلامية، وعزل الشريعة الإسلامية عن التطبيق في المجتمع المسلم، وإحلال الأنظمة الوضعية القانونية والسياسية والتربوية محل أنظمة الإسلام العظيم بالقوة .

---

(١) الرسول في كتابات المستشرقين ص ١٢٠.

٨ـ التنفير من العودة للخلافة الإسلامية :

لا شك أن الخلافة الإسلامية من أهم العوامل في توحيد المسلمين وجمع كلمتهم، وإعادة مجد قوتهم وعـزتهم؛ لـذا ركـز المستشـرقون والمبشرون والمستعمرون في دراساتهم وأعمالهم للحيلولة بين المسلمين وهذا المطلب العزيز؛ فأخذ المستشرقون على عاتقهم نشر كل ما يسـيئ للخلفاء بتوهين شخصياتهم وتشكيك الناس في حسن أخلاقهم وإداراتهـم، فأخذوا يكيلون لهم كل تهمة باطلة كما هو الحال مـع الخليفـة الصـالح "هارون الرشيد" الذي يعتبرونه رجل مجون وفسق زورا وبهتانا، نـاقلين أخباره من كتب غير علمية ، وأكثر ما هاجم هؤلاء المستشرقون الخلافة العثمانية التي تآمر المستعمرون واليهود على إسـقاطها والتـي يسـعى المستشرقون والمبشرون والمستعمرون من الدول الكبرى من الحيلولـة دون رجوعها إلى البلاد الإسلامية [١]

وكما ركز المستشرقون في دراساتهم المصـدرة لنـا بحـروبهم النفسية لتحطيم الشخصية الإسلامية كزعمهم أن الناس أجناس فـالغرب جنس آرى فطر على الذكاء والنبوغ والمواهب والعلم والعبقريـة ، وأن الشرق جنس سامي لا يرقى لهذا المستوى وليس هو بأهل لـه فـالغرب غرب والشرق شرق، كما بثوا زعمهم أن العوالم دول صـناعية متقدمـة وهي دول الغرب، ودول نامية متخلفة يقصدون بذلك ما سـواهم، حتـى يرسخوا في نفوس المسلمين أنهم شعوب متخلفة لا ترقى لمصاف الـدول المتقدمة، وشنوا حربهم على كل بادرة تقدم في ديارنا ونهبـوا خيـرات

---

(١) وحي الله ــ د/ عتر ص ٤٢ ــ ٤٣.

بلادنا باشتراء مواردنا الخام بأرخص الأثمان ليصنعوا منها أسلحتهم ، وصناعاتهم بأنواعها، وأخذوا يبيعونها في البلاد الإسلامية بأغلى الأثمان.

كما قام هؤلاء المستشرقون بإقناع أغنياء العالم الإسلامي بحفظ أموالهم في بلاد الغرب فانجر أغنياء الدول الإسلامية لهذه الخدعة فسلموهم أموالهم وأخذ الغرب يعمل ويصنع بها، وإذا احتاجت دولة من الدول الإسلامية لقرض من القروض داينوهم من هذه الأموال بفوائد سنوية ربوية كبيرة، فإن عجزوا عن التسديد تضاعف الربا عليهم، حتى أثقلوا كاهلهم بالديون، وقل أن تجد دولة إسلامية وليس عليها ديون كبيرة نتيجة لهذه الخطة الماكرة، فبهذه السياسة الرهيبة تمكن المستعمرون بتوجيه من المستشرقين من رقاب المسلمين، وحكامهم، فأصبح الحكام لا يقدرون أن يعصوا لهم أمرا وإلا هددوهم بما عليهم من التزامات مالية كبيرة.

وإذا قام مصلح أو جماعة إصلاحية تنبه لهذا الخطر المدلهم أوعزوا إلى هؤلاء الحكام بالتهديد بديونهم تارة وبتخويفهم من ضياع سلطانهم تارة أخرى بالضرب بيد من حديد على يد هؤلاء المصلحين. وكان لهم ما أرادوا فامتلأت السجون بالدعاة المصلحين، وحوربوا في أرزاقهم وحرياتهم واعتدى على كراماتهم وأعراضهم ردعا لهم عما قاموا من أجله، وتفوهوا به من الإصلاح، ووصل الأمر إلى حد التصفيات الجسدية وبإشراف من هؤلاء الغربيين على الأمر بأنفسهم من خلف الستار.

فبهذه السياسة الرهيبة للمستشرقين والدراسات الحاقدة لهم تكونت عقدة النقص في الشعوب الإسلامية، مما دعاهم للتقليد الأعمى، والتبعية

دون وعي منهم لهذه الدول الكافرة، مع الخضوع والذلة لهم والسير كما يريدون .

والحل: هو أن ننتبه لخطر هذه الدراسات الإستشراقية، وخطر سياسات هذه الدول الاستعمارية، وأن نعرف ما يريدون من بلادنا وشعوبنا وأن نعرف أنهم ذئاب بثياب حملان، وأعداء بألسنة مطلية بالعسل وحلو الكلام ؛

وعلى حكامنا إعادة الثقة بنفوس شعوبهم والتخفيف ما أمكن من حاجاتنا لهذه الدول المستعمرة وتقليل التبعية لهم مع رفع مستوى بلادهم خلقيا ونفسيا وصناعيا.

٩ـ تشكيك المسلمين بقيمة تراثهم الحضاري :

فقد ركز المستشرقون في أبحاثهم على أن الحضارة الإسلامية منقولة عن حضارة الرومان، وما المسلمون في نظرهم إلا ناقلون لفلسفة هذه الحضارة، وإذا ذكروا شيئا من محاسن حضارتنا ـ على مضض ـ انتقصوه وقللوا من شأنه [١]، ليشككوا المسلمين في تراثهم العريق العظيم الذي أقام أمة فريدة متميزة في كل شؤون حياتها فنالت الخيرية على كل أمم الأرض.

وقد شككوا كذلك في التراث العلمي للمسلمين زاعمين أنه قد دخله التحريف والوضع والكذب، كما هو حال الحديث النبوي الشريف.

كل ذلك لتشكيك المسلمين في تراثهم العلمي ويضطروهم للأخذ بالتراث الغربي فيسهل للاستعمار تشديد الوطأة عليهم، والتحكم بهم،

---

(١) الاستشراق والمستشرقون ـ د/السباعي ص ٢٣.

وإضعاف روح المقاومة والدفاع عن أنفسهم عندهم حيث تذوب شخصيتهم في غيرهم [1]

* * *

(1) اعتمدنا في نقلنا على كتاب " آراء المستشرقين حول القرآن الكريم " د/ عمر بن إبراهيم رضوان ـــ ج ١ ص ٣٨ ، ط : الأولى .

المبحث السادس

في شبهات المستشرقين

حول ربط الإسلام بعبادة الأوثان والعادات الجاهلية

الشبهة الأولى :

قالوا: مما دعا إليه الإسلام الوحدانية وكان ذلك بتأثير الوسط الوثني الذي نشأ فيه الإسلام [1]

الجواب:

قلت : نحن لا ننكر أن الوحدانية أمر أصيل وجذورها التاريخية تصل لأقدم عصر وجد فيه إنسان على سطح الأرض فآدم عليه السلام أنزل بالتوحيد والدعوة لعبادة الله وحده دون سواه، ونبذ الشرك بأنواعه، وتكررت هذه الدعوة على ألسنة كل الرسل بين أقوامهم كما ذكر ذلك القرآن الكريم ، قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [2]

وقد نقل إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ هذه الدعوة إلى أرض الجزيرة، ولكن مع تقادم العهد نسى العرب نصيبا مما ذكروا به فطمسوا معالم التوحيد بالشرك والخير بالشر فجاءت دعوة المصطفى ـ ﷺ ـ لتذكيرهم بدعوة أبينا إبراهيم ـ عليه السلام ـ والتوجه في سائر الأعمال لله الواحد الأحد ونبذ عبادة الأصنام والشرك بكل أنواعه.

---

(١) انظر مصادر الإسلام لستدال ص ٦.

(٢) الأنبياء : ٢٥.

فدعوة المصطفى ﷺ للوحدانية لم يكن بتأثير الوسط الوثني كما زعم المستشرقون بل هي صدى للدعوة الأولى دعوة إبراهيم عليه السلام، لأن أصلهما واحد. والتاريخ يشهد بذلك. والناظر في التوراة والإنجيل والقرآن وأي كتاب سماوي آخر يجد أن هذه الدعوة متكررة على لسان كافة أنبياء الله فلا غرابة إذن من تجديد الدعوة لها في الإسلام على لسان رسولنا ﷺ

والقرآن الكريم ملئ بالآيات القرآنية الداعية لتوحيد الله سبحانه وتعالى، منها : قوله تعالى: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ﴾ [1] وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ [2]

وكذلك وضح القرآن هذه القضية في دعوة إبراهيم — عليه السلام — كما أنه كان داعية إلى هذا التوحيد. قال تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [3]

<u>الشبهة الثانية :</u>

زعموا أن هناك تشابها بين الإسلام والوسط الجاهلي الذي نشأ فيه في جانب الشعائر التعبدية كالحج مثلا بما فيه من طواف وتقبيل للحجر الأسود وسعى بين الصفا والمروة، وغير ذلك من شعائر الحج [4].

---

(1) البينة : ٥. (2) النحل : ٥١. (3) النحل : ١٢٠.

(4) انظر مصادر الإسلام ص ٨٠٦ ، ومقدمة القرآن بل ص ٩.

الجواب :

من المعلوم أن الجزيرة العربية نبتت فيها دعوة إبراهيم وابنه إسماعيل- عليهما السلام - ولكن العرب هم الذين غيروها بالشركيات والوثنيات ومع هذا فإنه بقى في هذا الوسط الوثني شئ من تلك الديانة الحنيفية.

كما أن الشرائع الإلهية التي نزلت على إبراهيم وإسماعيل ومحمد - عليهم السلام - أصلها واحد وهي منزلة من عند الله عز وجل لأنهم جميعا رسله لأقوامهم فالصلاة والصيام والزكاة والحج وسائر العبادات مما شرعه الله عز وجل في كل الديانات سواء ديانة إبراهيم أو ديانة محمد أو غيرهما من أنبياء الله عليهم السلام فإذا حصل تشابه في مثل هذه الجوانب بين الديانات السماوية مع اختلاف في الهيئات والأوقات والأماكن فهو أمر طبيعي قال تعالى: ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾ [1]

ويشهد لما قلت ما جاء على ألسنة المستشرقين في دائرة المعارف الإسلامية حيث قالوا: (ولم يك هذا الحج إلى عرفات أمرا اختص به العرب فالحج إلى معبد من المعابد عادة سامية قديمة جعلت حتى في الأجزاء القديمة من أسفار موسى الخمس فرضا يجب أداؤه فقد ورد في سفر الخروج الإصحاح الرابع والثلاثين (ثلاث مرات في السنة يظهر جميع ذكورك أمام السيد الرب إله إسرائيل) [2]

---

[1] الحج : ٦٧.

[2] دائرة المعارف الإسلامية : ٣٠٥/٧ ، وانظر الكتاب المقدس ص ١٤٥.

فالمسلمون يقفون في حجهم على جبل عرفات، واليهود يقفون في حجهم على جبل سيناء، والنصارى يحجون إلى بيت المقدس في فلسطين فهل يعني هذا أن الديانات الثلاث أخذن شعيرة الحج من الوسط الجاهلي الوثني ! والمستشرقون يعرفون أن اليهودية والنصرانية سابقة للوثنية في الجزيرة العربية فلا يبقى إلا أن يكون المصدر لكل ذلك هو الله عز وجل.

والجاهليون لم يكونوا مقتصرين في حجهم بالطواف ببيت واحد بل كان لهم بيوت أخرى يطوفون بها كبيت ذي الخلصة [1]

روى البخاري في صحيحه: عن جرير بن عبد الله قال: [كان في الجاهلية بيت يقال له ذو الخلصة، وكان يقال له الكعبة اليمانية، أو الكعبة الشامية، فقال لي رسول الله ـ ﷺ ـ هل أنت مريحي من ذي الخلصة، قال: فنفرت إليه في خمسين ومائة فارس من أحمس قال: فكسرناه وقتلنا من وجدنا عنده فأتيناه فأخبرناه فدعا لنا ولأحمس] [2]

وقد ذكر كذلك عن معبد في الشمال [3]. فلا غرابة إذن إذا جاء الإسلام بنسك كالحج. فأصل هذه الشرائع والمناسك هو الوحي فقط وأي تبديل أو طمس لها فمرده أمر الجاهلية فحسب. والإسلام ما جاء إلا ليحيي هذه المناسك التي شرعها الله عز وجل، لذا بينها وفصلها ليبرز محاسن الإسلام في هذه المناسك والشعائر.

---

(١) بيت من مروة بيضاء ، منقوش عليها كهيئة التاج . كان سدنتها من إمامة من باهلة كالات والعزى ، كان يطلق على هذا المعبد الكعبة اليمانية أو الشامية .

(٢) انظر صحيح البخاري ٢٣٢/٤ ، كتاب مناقب الأنصار .

(٣) انظر دائرة المعارف الإسلامية ٣٠٥/٧.

وفي الحج الإسلامي مقاصد عظيمة منها: توجه العباد إلى عبادة الله الواحد الديان ، وتذكيرهم بيوم الحشر الأكبر، ولتكون فريضة الحج وشرائعه مدرسة تربوية مكتملة الجوانب ضمن صرح الإسلام العظيم، فأين هذا التشابه المزعوم وأين هذه التشريعات التي تسمو بالعواطف الإنسانية النبيلة من تلك المظاهر الوثنية المنحطة. فلا شك أنه لا يلتبس أمر التفريق بين الشريعتين شريعة الجاهلية وشريعة الإسلام على ذي عقل، وإن برزت في بعض الصور والخطوط العامة وكأنها مستقاة من دين إبراهيم عليه السلام.

وما شعيرة الحج في الإسلام إلا صورة عن شعيرة الحج التي أداها إبراهيم عليه السلام والتي يجمعهما التوحيد الخالص لله عز وجل، وخلع كل الشركيات التي أدخلتها الجاهلية الوثنية لحج إبراهيم عليه السلام كما حصل في إدخالهم الشرك في التلبية وهي قولهم:

(لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك) [1]، وكاستئذانهم بالوقوف في جبل عرفة من الغوث بن مر وولده من بعده [2]، وكعدم دفعهم من عرفة إلا إذا دفع رجل من صوفة ولا رميهم إلا إذا رمى رجل من صوفة[3]كذلك وكابتداعهم أمر الحمس وغير ذلك من الأمور.

---

(1) انظر سيرة ابن هشام ١/١٠١.

(2) انظر سيرة ابن هشام ١/٢٣٠.

(3) انظر سيرة ابن هشام ١/١٤٣ . الغوث بن مر : كانت أمه من جرهم ، وكانت لا تلد ، فنذرت لله إن هي ولدت رجلا أن تصدق به على الكعبة عبدا لها يخدمها ويقوم عليها ، فولدت الغوث ، فكان يقوم مع أخواله هو الأول على خدمتها ، والغوث هو الذي كان يجيز للناس في الجاهلية النزول

وهكذا ما من تغيير لحج إبراهيم عليه السلام إلا وجاء الإسلام ليعيده لما كان عليه .

وهكذا يظهر جليا أن أصل الحج وغيره من العبادات من السماء بأمر وتعليم من الله عز وجل لنبيه محمد ﷺ لا من الوسط الوثني المزعوم عند المستشرقين ، وما كان عند الجاهلية باق من شعائر ومناسك

هو من بقايا دين إبراهيم عليه السلام الذي جاء الإسلام ليحيه ويعيده.

وكذلك فإن الحج ليس مصدره من اليهودية كما زعم "دوزي" [1] حيث ظهر من عرضي السابق أن الحج عند الجميع من مسلمين ويهود ونصارى وغيرهم مصدره ديانة إبراهيم عليه السلام .

شبهتهم على تقبيل الحجر الأسود: ـ

أما بالنسبة لتقبيل الحجر الأسود وهل هو من بقايا الوثنية؟.

قلت : فالإسلام دين التوحيد وقد دعا له من أول يوم ولم يكن يرضى بالأوثان والشركيات بل حاربها وطمسها فلو كان الحجر الأسود واحدا من بقايا الوثنية كما زعم المستشرقون لما أبقاه الإسلام.

من عرفة ، ثم تولى هذه الإجازة من بعده حتى انقرضوا ، وكان سبب تسميتهم بصوفة ، لأن أمه كانت تربط شعره بصوفة . (هذا كلام شيخي مناع خلال جلسة المناقشة) " نقلا عن صاحب كتاب " آراء المستشرقين حول القرآن الكريم " .

(1) نظر دائرة المعارف الإسلامية ٣١٠/٧.

فالحجر الأسود لم يكن في يوم من الأيام صنما من أصنام العرب ولا من أوثانهم ولم يقدسوه في يوم من الأيام فهل يعقل يترك الوثنيون عبادته وتقديسه ويفعله المسلمون !!! .

أما سر احترام هذا الحجر لأنه من بقايا بناء إبراهيم للكعبة المشرفة حتى إن عمر بن الخطاب ﷺ أظهر الدافع لتقبيل هذا الحجر أنه الاقتداء بسنة رسول الله ﷺ حيث جاء إلى الحجر الأسود فقبله فقال: " إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ قبلك ما قبلتك " ثم قال: " فما لنا والرمل إنما كنا راءينا به المشركين وقد أهلكهم الله ثم قال: شئ صنعه النبي ﷺ فلا نحب أن نتركه " [١]

فالتقبيل إذن أمر تعبدي خالص لله سبحانه وتعالى وإن جهلنا سر ذلك التقبيل فهو من سنن الطواف بالبيت فكثير من العبادات تخفى أسرارها والمسلم مكلف بأدائها.

وشتان بين التوجه تعظيما قلبيا لحجر أو شجر أو مخلوق ما على سبيل العبادة، وبين أداء عبادة لله سبحانه وتعالى وحده وطاعة له دون سواه إيمانا واحتسابا في زمن معين وبصفة معينة وفي مكان معين.

والنكتة في مقالة عمر ﷺ هذه لئلا يغتر بعض قريبي العهد بالإسلام الذين كانوا ألفوا عبادة الحجر وتعظيمها رجاء نفعها وخوف الضرر بالتقصير في تعظيمها، وكان العهد قريبا بذلك لذا بين أنه حجر مخلوق كباقي المخلوقات التي لا تضر ولا تنفع لأن الضرر والنفع بيد الله سبحانه وحده دون سواه [٢]

---

(١) انظر صحيح البخاري ١٦٠/٢ كتاب الحج باب ٥٠/ ٥٧.

(٢) الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني ٣٨/١٢.

وما حذر منه وقع به المستشرقون في يومنا هذا حيث ظنوا أن هذا الفعل هو من بقايا الوثنية.

والمسلمون اليوم كلهم يتوجهون في صلواتهم إلى الكعبة المشرفة جاعليها قبلة لهم ولا يوجد مسلم واحد صحيح العقيدة يعتقد أنه بهذا التوجه يعبد الكعبة. بل حتى أقل من ذلك فقد نهينا عن الحلف والقسم بالكعبة بل نقسم بربها سبحانه، لأن القسم بالشئ لون من ألوان تعظيمه والتعظيم لا يكون إلا لله سبحانه.

ما الذي ترمز إليه مناسك الحج ؟ :

أن بعض مناسك الحج ترمز لأشياء معينة، فلبس الأبيض لباس الإحرام فيه تذكير بالكفن الذي يكفن به الإنسان ساعة موته، وخلع للدنيا والإقبال على الآخرة. والوقوف في عرفات فيه تذكير بيوم الحشر الأكبر، ورمي الحجارة فيه التذكير لمواقف كيد الشيطان للإنسان كما حصل منه مع سيدنا إبراهيم ﷺ ولا يمنع أن يكون تقبيل الحجر من هذا القبيل بالرمز لما كان عليه هذا الحجر أول نزوله من الجنة للأرض أشد بياضا من الثلج حتى سودته خطايا أهل الشرك كما جاء في الحديث الذي رواه ابن عباس ﷺ عن رسول الله ﷺ [1] حيث فيه إشارة إلى أن الخطايا إذا أثرت في الحجر الصلد فتأثيرها في القلب أشد وذلك ليترك الناس المعاصي ويتوجهوا إلى الله بالطاعات.

---

[1] انظر الفتح الرباني ١٢/٢٦. وانظر صحيح مسلم ٢/٩٤٣ ك الحج ح (٣١٠) .

وتقبيل الحجر الأسود سنة من سنن الطواف فعلها الرسول ﷺ وتفعلـه لفعله، لأنه لا يفعل إلا ما أمر به من الله عز وجل وما شرعه له، ونحـن مأمورون بالاقتداء به وهو القائل ﷺ يوم النحر وهو يرمي على راحلته: لتأخذوا مناسككم فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه) [1]

فهل بقى بعد هذا البيان شبهة إلا في أذهان خربة ونفوس حاقـدة على الإسلام وأهله تزعم أن استلام الحجر وتقبيله من بقايا الوثنية التـي أبقاها محمد في تشريعاته .

زعم آخر لهم يدور في فلك الشبهات وهو متصل بعالم الجن : —

وزعم "سال" أن مما أخذ الإسلام من موروثات الجاهلية الاعتقـاد بالجن مما يدل على أن الإسلام صورة عن الجاهلية [2]

الجواب:

عرف العلماء الجن: بأنها أجسام هوائية وهبها الله قـدرة علـى التشكل بأشكال مختلفة، منهم من يظهر على شكل حيوانات متنوعة، لهم عقول وأفهام ومقدرة على الأعمال الشاقة، يأكلون ويشربون ويتنـاكحون ويتناسلون .. وهم خلاف الإنس.

وعرفها بعض العلماء : بأنها حيوان ناري شفاف الجـرم[3] ووجـودهم حقيقة ثابتة لا ينكرها أو يشك بها عاقل فليس عدم رؤيتهـا دليـل علـى إنكارهم لها، فكم من أشياء حـول الإنسـان وهـو لا يراهـا، كـالهواء

---

(1) انظر صحيح مسلم ٩٤٣/٢ ك الحج ح (٣١٠) .

(2) مذاهب التفسير الإسلامي ــ جولد تسيهر ١٦٥ .

(3) حقيقة الجن والشياطين محمد السيداني دار الحارث السودان ط ١/ ١٤٠٧ هــ ١٩٨٧م ص ٩

والإشعاعات، والجاذبية الأرضية، والتيار الكهربائي، والمجالات المغناطيسية، والموجات الصوتية، إلى غير ذلك من الموجودات غير المرئية.

فمذهب أهل السنة والجماعة وأهل الكتاب، ومشركو العرب، وجمهور الكنعانيين واليوانيين والرومان والهنود القدماء الإقرار بوجود الجن. ولم ينكر وجودهم إلا أكثر الفلاسفة وجماعة من القدرية والمعتزلة والجهمية ، وكافة الزنادقة قديما وحديثا [1]

التصور الحقيقي للجن :

والتصور السليم للجن وحقيقتهم عند المسلمين فحسب. أما بقية من يعترفون بوجودهم فقد انحرفت تصوراتهم فيهم.

فمنهم من اعتبرهم شركاء لله في الخلق والتدبير فعبدوهم كالزنادقة، وهو مذهب المجوس واليونانيين والرومان، ومنهم من اعتبر أن لهم سلطانا في الأرض وأنهم يعلمون الغيب، وأن بينهم وبين الله أخوة كمشركي العرب. ومنهم من اعتبر بينهم وبين الله نسبا كاليهود. ومنهم من اعتبر الشيطان رئيس رتبة من الأرواح النجسة وأنه إله في الأرض وذلك كالنصارى. ومنهم من قسم الشياطين لأخيار وأشرار ولكنه اعتبر أن الأخيار همهم الرقص للآلهة أما الأشرار فهم للإفساد في الأرض

---

(1) عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة ــ عبد الكريم عبيدات ــ طبعة دار ابن تيمية ــ الرياض ــ ص ٩٢ وما بعدها ، وانظر : جلال الفكر في التفسير الموضوعي لآيات من الذكر ــ عالم الجن ــ د/ جمعة علي عبد القادر ــ ط : الأولى .

وهكذا من تصورات حادت عن الصواب وتلوثت بروح الوثنية تارة والخرافة والأساطير تارة أخرى .

فالاعتراف بوجود الجن أمر قديم، واعتقاد متوارث وليس منشأه من الوسط الجاهلي كما تصوره "جولد تسيهر" وإنما هو اعتقاد قديم بين أصحاب الديانات السماوية وغيرها وكان دور الإسلام أن أمره وقومه حسب التصور الإلهي السليم البعيد عن الانحراف والخرافة. وقد أقر وجودهم النقل والعقل، فهذا يظهر زيف دعوى المستشرقين الذين يحاولون عبثا أن يجعلوا من مصادر الإسلام الوسط الجاهلي.

الشبهة الثالثة :

استند المستشرقون في دعواهم على أن هناك تشابها بين الإسلام والوسط الوثني كذلك في بعض العادات كالزواج والختان وغيرهما [1]

والجواب :

قلت : كان للعرب عادات تأصلت فيهم فلما جاء الإسلام فما وجده منها موافقا لشرعه أقره وشجعه، وما كان منها مخالفا لشرع الله ودينه فقد أبطله وحاربه.

فالزواج سنة فطرية وأساس قويم للاجتماع البشري ونشوء الكيانات فالأسرة المكونة من الزوجين وما يتصل بهما هي اللبنة الأولى في تكوين الصرح الاجتماعي.

---

(1) انظر مصادر الإسلام لسدال ص ٨.

فأصل الاجتماع البشري الثابت في الديانات السماوية هو نكاح الرجل للمرأة وانفرد الرجل بزوجته وعدم مشاركة أحد له فيها وهذا أمر تقره الفطر السوية، وتقتضيه المجتمعات القويمة لما في ذلك من حفاظ على الدين والخلق والنسل من الاختلاط.

وقد حرص الإسلام حرصا شديدا في تشريعاته التفصيلية الدقيقة على إبقاء الأنساب نظيفة معينة معروفة إلى من تنسب إليه؛ لذا حارب بشدة كل عادة تدعو إلى اختلاط الأنساب ببعضها وإلى إشاعة الفاحشة وإيجاد الفوضى الجنسية في المجتمعات كل ذلك ليبقى المجتمع الإسلامي مجتمعا ربانيا ترفرف عليه ظلال المودة وتقوى الله عز وجل. ووفر الإسلام لهذا المجتمع المقومات التي تساعده للقيام لهذه المهمة بشرائعه الكاملة الشاملة التفصيلية في الزواج والتناسل والحفاظ على سلامة المجتمع من الانحرافات الخلقية.

لذا ما كان من عادات العرب في الزواج وغيره موافقا لروح الإسلام وتشريعاته فقد أقرها الإسلام وحض عليها وما جاء منها مخالفا للإسلام في روحه وشرعه كنكاح الجاهلية الذي وصف في حديث عائشة ـ رضى الله عنها ـ أو عدم الزواج من امرأة المتبني، أو نكاح أكثر من أربع نساء كل ذلك أبطله الإسلام وحاربه لما فيه من أضرار خلقية وفوضى اجتماعية.

هذا شأن الإسلام في كل تشريعاته التقويم والتقييم للخلق الفاضل النبيل وإحياء كل ما يرافق شرع الله ويلائم الفطرة السوية ومحاربة الانحرافات والرذيلة في كل صورها.

هذا هو الإسلام صورة فريدة وليس صورة معكوسة من المجتمع الوثني كما يزعم المستشرقون الذين يجهلون حقيقة الإسلام وروحه وشرعه. هذا بالنسبة لما يتعلق بالزواج.

أما ما يتعلق بالختان فصورته كذلك غير واضحة عند المستشرقين فالختان كذلك سنة فطرية وأمر شرعي في كل الديانات السماوية التي سلمت من التبديل والتحريف والتغيير.

فالختان : هو موضع القطع من الذكر، وموضع القطع من نواة الجارية [1] ، وهذه المادة ترجع للغة السامية القديمة وهي في العبرية بلفظ (عرل) [2] والختان فيه فوائد كثيرة تعود على الإنسان المختون.

ومما يدل على أنها سنة فطرية ما جاء في حديث المصطفى ﷺ الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه (الفطرة خمس: الاختتان، والاستحداد، وقص الشارب، وتقليم الأظفار، ونتف الإبط) [3]

أما ما يدل على قدمها في الديانات منذ إبراهيم عليه السلام ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه (اختتن إبراهيم عليه السلام وهو ابن ثمانين سنة بالقدوم) [4]

وقد ذكرت التوراة أن الختان هو العهد بين الرب وبين إبراهيم وذريته، ومن يترك الختان ينكث العهد، كما ذكرت أن إبراهيم ختن وهو ابن تسع وتسعين. وقد تعاهد الأنبياء وأتباعهم من بعده هذه السنة فقد

---

(1) انظر مادة " ختن " في لسان العرب ــ معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٢/ ٢٤٥.

(2) انظر دائرة المعارف الإسلامية ٢١٥/٨.

(3) انظر صحيح مسلم كتاب الطهارة حديث ٥٠ ج ١ / ٢٢١.

(4) انظر صحيح البخاري ١١١/٤ ــ كتاب الأنبياء ــ باب ٨ ﴿ واتخذ الله إبراهيم خليلا ﴾ .

انتشرت في بني إسرائيل [١] حتى اعتبروا أن من لم يفعلها قد ارتكب عارا. فيشوع مثلا لم يترك الخارجين من مصر قلفا بل ختنهم جميعا ليخلصهم من هذا العار، وقد ذكرت التوراة أمر الختان في سفر يشوع الإصحاح الخامس فقرة ١ ـ ٩ [وفي ذلك الوقت قال الرب : يشوع اصنع لنفسك سكاكين من صوان وعد فاختن بني إسرائيل ثانية. فصنع يشوع سكاكين من صوان وختن بني إسرائيل في تل القلف] [٢].

وقد جاء ذكر ختان بني إسرائيل وأن تركه عار في سفر التكوين الإصحاح الرابع والثلاثين [٣]

والختان كذلك موجود في النصرانية قبل تبديلها وإدخال ما ليس فيها من قبل بولس الذي مسخها وأدخل فيها الوثنية والفلسفة الإغريقية. فقد جاء في العهد الجديد في إنجيل لوقا الإصحاح الثاني الفقرة ٢١ [ولما تمت ثمانية أيام ليختتنوا الصبي سمي يسوع كما تسمى من الملاك قبل أن حبل به في البطن] [٤] كما أن الختان كان منتشرا في أمم أخرى قديمة كالمصريين والعرب، وأهل أروم، وموآب، وبني عمون [٥]

وهكذا نرى من خلال هذه النصوص أن الختان سنة فطرية في أمم الأرض قديما وسنة مشروعة لأهل الأديان السماوية جميعا وفي ذلك رد كاف على هذه الفرية التي أشاعها المستشرقون.

---

(١) انظر الكتاب المقدس ص ٢٤ ـ ٢٥ سفر التكوين وإصحاح ١٧.

(٢) انظر الكتاب المقدس ص ٢٤٣ وانظر " العهد القديم " ص ٥٥ ـ ٥٧

(٣) انظر الكتاب المقدس " العهد الجديد " إنجيل لوقا ص ٩٣.

(٤) انظر الكتاب المقدس " العهد القديم " سفر إرميا ـ الإصحاح التاسع ـ فقرة ٢٥ .

(٥) انظر مصادر الإسلام ص ٨ وتاريخ القرآن لنولدكة ١٩/١

زعم آخر من شبه المستشرقين :ـ

وزعم بعض المستشرقين أمثال "تسدال" و" شيخو" و " شـبرنجر" أن من مصادر القرآن الكريم الشعر الجاهلي. فقد توافقت بعض الآيات القرآنية مع مقاطع من شعر أمية بن أبي الصلت وامرئ القيس مما دل في زعمهم أن القرآن الكريم قد اقتبس من قصائد الشعراء الجاهليين كالمعلقات

الجواب:

قلت : بالرجوع إلى ما جمع من شعر ابن أبي الصلت في تاريخ الأدب العربي؛ لاحظنا أن النصارى من العرب والمستشرقين مثل الأب " شيخو" و " كافنتسكي" قد عنوا بجمع هذا اللون من الشعر الديني أكثر من سواهم حتى إن " كافنتسكي" كتب رسالته للدكتوراة في جمع مثل هذا اللون من الشعر ليظهر العلاقة بين القرآن وبين شعر أمية وقد أشار لأخذ القرآن من شعر أمية [1]ابن أبي الصلت كذلك " كلمنت هاوث" كما أشار تسدال هذه الموافقة بين القرآن وشعر امرئ القيس في كتابه مصادر الإسلام واعتبره مصدرا من مصادر الإسلام وذلك لموافقة الأبيات لبعض التراكيب القرآنية في سورة القمر والملك وغيرهما وهذه هي أبيات أمية المقصودة بالتوافق:

ويوم موعدهم أن يحشروا زمرا يوم التغابن إذ لا ينفع الحذر

مستوسقين مع الداعي كأنهم رجل الجراد زفته الريح منتشر

---

[1] انظر معجم الشعراء الجاهليين والمخضرمين ص ١٥٢ ، تاريخ القرآن لنولدكة ١/١٩.

وأبرزوا بصعيد مستو جرز ... وأنزل والميزان والزبر

فمنهم فرح راض بمبعثه ... وآخرون عصوا مأواهم سقر

يقول خزانها ما كان عندكم ... ألم يكن جاءكم من ربكم نذر

قالوا : بلى فتبعنا فتية بطروا ... وعزنا طول هذا العيش والعمر

أبيات أمرئ القيس التي وافقت القرآن في سورة القمر في زعم " تسدال" :

وأما أبيات امرئ القيس التي ذكرها " تسدال" متوافقة مع آيات من سورة القمر فهي:

دنت الساعة وانشق القمر ... عن غزال صاد قلبي ونفر

أحور قد حرت في أوصافه ... ناعس الطرف بعينه حور

مر يوم العيد في زينته ... فرماني فتعاطى فعقر

بسهام من لحاظ فاتك ... فتركني كهشيم المحتظر

وأضيف لها أبيات أخرى :

وأقبل والعشاق من خلفه ... كأنهم من حدب ينسلون

وجاء يوم العيد في زينته ... لمثل ذا فليعمل العاملون

والجواب :أما الآيات التي وافقتها بزعمهم في بعض الألفاظ والتراكيب فهي

١ـ قوله تعالى: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ [1]

---

[1] القمر : ٦ ـ ٧.

٢ــ وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا * وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ (١)

٣ــ وقوله تعالى ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾(٢)

٤ــ وقوله تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴾ (٣)

إن قضية التلفيق في الشعر ونسبتها للقدماء من الشعراء أمر لا يستطيع أحد إنكاره وقد فعل هذا حماد الراوية وخلف الأحمرفما الذي يمنع أن يكون هذا الشعر ملفقا على العصر الجاهلي(٤) وعلى شعرائه كامرئ القيس وأمية بن أبي الصلت وهذا ما أرجحه. ومن عنده دليل تاريخي أن هذا الشعر ثابت لهما فليثبته.

والرد على هذه الفرية من جوانب :

بالنسبة لأمية بن أبي الصلت عاش في عصر نزول الوحي في الطائف وكان من الحنفاء في الجاهلية ممن قرأ الكتب المتقدمة من كتب الله عز وجل ورغب عن عبادة الأوثان، وكان يخبر بأن نبيا يبعث قد أظل زمانه ويؤمل أن يكون هو ذاك النبي فلما بلغه خروج رسول الله ﷺ كفر حسدا . ولما أنشد رسول الله ﷺ شعره قال: "آمن لسانه وكفر قلبه"

---

(١) الكهف : ٧ ــ ٨. (٢) الملك : ٨ ــ ٩ . (٣) الأنبياء : ٩٦.

(٤) انظر المزهر في علوم اللغة وأنواعها ١/ ١٠٦ ــ ١٠٧ ، والأغاني لأبي الفرج الأصفهاني د/١٦٣.

وكان يحكي في شعره قصص الأنبياء، وأفكارا تتعلق بأمور الآخرة كالميزان، والجنة والنار.. إلخ. وكان يأتي بألفاظ وأفكار لا تعارضها العرب يأخذها من الكتب المتقدمة، وبأحاديث يأخذها من أحاديث أهل الكتاب [١]

والأفكار التي أتى بها أمية في هذه الأبيات من هذا القبيل وصف للناس وأحوالهم في اليوم الآخر ووصف لما فيه من ميزان وحشر وصراط وجنة ونار وتبشير للمؤمنين وتبكيت للمجرمين، وكلها صور من موقف الحساب والجزاء يوم القيامة وقد اشتملت عليها الكتب السماوية السابقة التي اطلع عليها.

فتوافقها مع العبارات القرآنية كتوافق أفكار ومصطلحات مع التوراة والإنجيل مع الفوارق في اللغة والأسلوب.

ثم إن أمية بن أبي الصلت من المعروف أنه كان معاصرا لمحمد ﷺ كما سبق ذكره وعاش واستمر في قرض الشعر طوال ما يقرب من ثماني سنوات بعد هجرة المصطفى ﷺ حيث توفى سنة (٩هـ) [٢] ومن هنا نشعر بالتشابه بين شعر أمية والقرآن الكريم ، لذا يكون من التعسف الادعاء بأن هذا الشعر كان سابقا للقرآن من الناحية التاريخية .

جواب آخر :

وأضيف أن أمية لم يدع الأصالة ولا الإلهام بل إنه كثيرا ما عبر عن خيبة أمله وأسفه في هذا الشأن. مما يحملنا على الاعتقاد بأنه اندفع

---

(١) انظر الشاعر والشعراء ص ٢٢٧.

(٢) معجم الشعراء الجاهليين والمخضرمين ص ١٥٢.

إلى التقليد بروح المنافسة [١] والذي يزيدني جزما أن أمية هو المقتبس من القرآن ما قاله الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجي [أن أمية يأخذ في شعره الكوني والديني من أساليب القرآن ومعانيه وروحه كما في قوله من قصيدة:

عند ذي العرش يعرضون عليه	يعلم الجهر والكلام الخفيا
يوم نأتيه وهو رب رحيم	إنه كان وعده مأتيا
يوم نأتيه مثل ما قال فردا	لم يذر فيه راشدا وغويا
أسعد سعادة أنا أرجو	أم مهان بما كسبت شيئا
رب كلا حتمته وأرد النار	كتابا حتمته مقضيا

ولأمية قصائد أخرى عليها الطابع القرآني كقصيدته في حادثة الفيل وقصة إرسال الله موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ إلى فرعون وغيرهما من القصص.

وأنا لا أشك في سعة ثقافة أمية لنهله من النصرانية حتى عده بعضهم من شعرائها فقصد القصائد في القصص الإنجيلي كقصيدته في قصة مريم وابنها عيسى ـ عليهما السلام ـ . ولنهله من اليهودية حتى عد من روادها الذين قصدوا لها حيث نظم قصائد كثيرة في القصص التوراتي. فهذا كله يجعلنا نزداد جزما أن أمية كما أخذ من التوراة والإنجيل أخذ من القرآن لا العكس] [٢]

---

(١) انظر مدخل إلى القرآن الكريم ص ١٤٣ ــ ١٤٤.

(٢) انظر الشعراء الجاهليون ص ٩٥ ـ ١١٦ " بتصرف " .

كما أن كثيرا من الأشعار المنسوبة إليه محل ريبة كما ذكر ذلــك أكثر من واحد. حيث صنعها غيره ونسبوها له؛ لمعرفتهم بطبيعــة شــعر أمية. ولتأخذ طابع الأقدمية والأصالة.

وقد ذكر الريبة في بعض أشعار الجاهليين وإلصاق بعض الأشعار لهم مع أنهم لم يقولوها بعض المستشرقين أمثال " تيودر نولديكــة " و " ديفـــــيد صمويل رجليوث" و " هــ . الفـــرت" و " أ. برويـــنلش" و " أجنـــتس جولدتســيهر" و "أوجســت أشــبرنجر" و "ف. كرنكســوف" ، وغيرهم.

وأنا أقول إنه قد حصل مثل هذا من حماد الراوية، وخلف الأحمر، ولكنه ليس بالقدر الذي يسقط كل الشعر الجاهلي لان الشعر يعتبــر مــن أسس فهم النص القرآني لنزوله بلغة هؤلاء الجاهليين .

وهذا هو أساس تركيز المستشرقين على هذه القضية باعتبار هذا الشعر أساسا للقرآن ومصدرا من مصادره.

والملاحظ من دراساتهم المستفيضة لهذا الجانب ومــع حرصــهم عليه لم يجمعوا إلا أبياتا معدودة.

جواب آخر :

ثم هناك أمر آخر يرد عليهم فريتهم وهو أن خصــوم محمــد ﷺ كانوا دائما على يقظة لأقل ثغرة يجدونها ليوجهوا من خلالها ضربتهم ضد الإسلام ويحولوه إلى سخرة واستهزاء، ألم يكن من الأيســر لهــؤلاء أن يضعوا يد الرسول ﷺ على مسروقاته المفضوحة من شعر أمية وامرئ القيس وغيرهما هذا الشعر الذي لم يكن قد جف مداده بعد ــ بدلا من أن يوجهوا حججهم في كل اتجاه، وأن يلجأوا إلى كل افتراض وافتراء، حتى

وصل بهم الأمر إلى حد وصم الرسول ﷺ بالجنون تارة، وبالسحر تـــارة أخرى، إلى غير ذلك لتفسير ظاهرة الوحي.

والقرآن الكريم كان أساس الإنتاج الأدبـــي فـــي عصـــر نزولـــه والعصور التالية لذلك.

والشاعر دائما كما هو معروف همه جمال القالب الشعري بغـــض النظر عن المصدر الذي يأخذ منه خاماته، وهذا ما ثبت من شـــعر أميـــة بصفة خاصة الذي كان يأخذ من عدة مصادر وهذا ما لاحظـــه "هـــوارت" على أمية حيث قال عنه: كان أمية إذا وصف النار قلد أســـلوب التـــوراة، وإذا وصف الجنة استخدم عبارات القرآن، وإذا نظم قصص التاريخ الديني لجأ أحيانا إلى الأسطورة الشعبية وإلى ما يشبه الأساطير الميثولوجية أي (الأساطير الإلهية اليونانية حيث يتمثل الشخص أحيانا في صورة إنسان أو حيوان أو نبات)[1]

كما أن المشابهة بين لفظة أو لفظتين مع اختلاف دلالتها ليســـت دليلا على الاقتباس والأخذ كما هو في أبيات امرئ القيس المزعوم نسبتها له.

والملاحظ أن هذه الأبيات لم تثبت تاريخيا لامرئ القيس إلا عنـــد المستشرقين أنفسهم .

والأبيات المزعومة تتحدث عن وصف الحبيبة الموعودة باللقـــاء وفيها يتغزل الشاعر بمحبوبته فقصده من (الساعة) ساعة موعد اللقاء ، ويقصد (بانشقاق القمر) ظهور وجه محبوبته من وسط سواد شـــعرها أو

---

[1] انظر مدخل إلى القرآن ص ١٤٣ ــ ١٤٤ " بتصرف" .

ظلام الليل . ويقصد بـ (فتعاطى فعقر) أن سهام العيون ولحاظ النظر أصابته.فجرحته وجعلته (كهشيم المحتظر) بينما نجد أن القرآن الكريم استعمل هذه الكلمات في الحديث عن الكون ومصيره، وعن معجزة رسول الله ﷺ الباهرة في انشقاق القمر عندما طلبت قريش منه ذلك [1]

أما عبارة (فتعاطى فعقر) القرآنية فقد وردت في سياق الحديث عن الفاسق الشقي من قوم صالح الذي انطلق لعقر ناقة نبي الله صالح ﷺ والتي سبق أن طلبوها منه ليدلل على صدق دعوته ونبوته.

والآيات كما وردت في سورة القمر قال تعالى: ﴿ إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ* وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ * فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ [2]

فلو سلمنا صحة نسبة هذه الأبيات لامرئ القيس فوجود هذه الألفاظ المستعملة في غير ما استعملت له في القرآن الكريم لا يقتضي الأخذ والاقتباس. فالقرآن الكريم قد نزل بلغات العرب وأساليبهم والقرآن عربي وأسلوبه عربي وقد استعملت هذه الألفاظ قبل نزول القرآن وبعده ولم يدع أحد من معاصريه أن القرآن مقتبس من شعر الشعراء أو خطب الخطباء أو كلام الكهان مع معرفتهم بكل ذلك. ولو ثبت شئ من ذلك لرفعت قريش عقيرتها بابطال دعوى محمد ﷺ بل شهدت بعكس هذا.

---

(1) انظرحادثة انشقاق القمر في مسند الإمام أحمد ١/٣٧٧ وغيره من كتب السنة .

(2) القمر : ٢٧ ــ ٣١.

قال ضماد بن ثعلبة الأزدي لرسول الله ﷺ : (لقد سمعت قول الكهنة، وقول السحرة، وقول الشعراء فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء، ولقد بلغن ناعوس البحر) [١]

وقول عتبة بن ربيعة في القرآن لقريش بعد مناظرته رسول الله ﷺ : (. . فلما جلسوا إليه قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال: ورائي أني والله قد سمعت قولا ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا الكهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوه فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ ..) .

قال دراز: إن أدنى الألقاب إلى القرآن في خيال العرب أنه شعر، لأنها وجدت في توقيعه هزة لا تجد شيئا منها إلا في الشعر. ومع هذا :

فالقرآن الكريم ليس بأنغام الموسيقى ولا بأوزان الشعر لأنك ستجد فيه شيئا آخر لا تجده في الموسيقى ولا في الشعر.

ذلك لأنك تسمع القصيدة من الشعر فإذا هي تتحد الأوزان فيها بيتا بيتا، وشطرا شطرا، وتسمع القطعة من الموسيقى فإذا هي تتشابه أهواؤها وتذهب مذهبا متقاربا. فلا يلبث سمعك أن يمجها، وطبعك أن يملها، إذا أعيدت وكررت عليك بتوقيع واحد. بينما أنت من القرآن أبدا في لحن متنوع متجدد، تنتقل فيه بين أسباب وأوتار وفواصل على أوضاع مختلفة يأخذ منها كل وتر من أوتار قلبك بنصيب سواء. فلا يعروك منه على كثرة ترداده ملالة ولا سأم ، بل لا تفتأ تطلب منه المزيد.

---

[١] انظر صحيح مسلم . كتاب الجمعة ٥٩٣/٢ حديث ٤٦.

هذا الجمال التوقيعي في لغة القرآن الكريم لا يخفى على أحد ممن يسمع القرآن الكريم ، حتى الذين لا يعرفون لغة فكيف يخفى على العرب أنفسهم ؟ (١)

هذا هو اعتراف أهل الفصاحة والبلاغة والشعر أن القرآن ليس بشعر ولا يشبه فهل بلغ بالمستشرقين أن أصبحوا أكثر من أهل العربية فصاحة وبلاغة وقدرة على وقوفهم على ما هو شعر مما هو قرآن ؟ أم هو الجهل الفاضح والحقد الدفين؟ يستدرجون به عقول بعض السذج ليكبروهم ويعظموهم ويظنون أنهم أتوا بما لم تأت به الأوائل (٢)

* * *

---

(١) انظر النبأ العظيم ، دراز ، ص ١٠٢ ، ١٠٣ " بتصرف" .

(٢) راجع تفصيل ذلك في كتاب " آراء المستشرقين حول القرآن الكريم " د/ عمر بن إبراهيم رضوان ــ ج١ ص ٢٤٤.

المبحث السابع

من شبهات المستشرقين

حول الحنيفية وأنها مصدر من مصادر القرآن الكريم

ذهب بعض المستشرقين ومنهم " تسـدال" و " مسـتر كـانون سـل" [1] وغيرهما إلى أن الحنيفية ورجالها قبل البعثة المحمدية هم أحد مصـادر القرآن الكريم .

أدلة المستشرقين على شبهتهم :

بدليل وجود توافق وتشابه بين أحكام القرآن وهداياته وبـين مـا كان يدعو إليه الحنفاء مثل :

١ـ الدعوة لإفراد الله بوحدانيته سبحانه وتعالى.

٢ـ رفض عبادة الأصنام.

٣ـ الوعد بالجنان.

٤ـ الوعيد بالعقاب في جهنم .

٥ـ اختصاص المولى تعالى بأسماء منهـا: الـرحمن ، الـرب، الغفور.

٦ـ منع وأد البنات.

٧ـ الإقرار بالبعث والنشور والحشر والحساب.. إلخ.

وقد زعم " شبرنجر" أن أفكار محمد لا تخرج عن الأفكار التي كان يدعو إليها زيد بن عمرو بن نفيل [2] أحد هؤلاء الحنفاء .

---

(١) انظر مصادر الإسلام ص ١٩٨ وما بعدها ، وكتاب " حياة محمد " ص ٥٦ ــ ٥٧ .

(٢) انظر " تاريخ القرآن " ١٨/١.

الجواب :

قلت : من أجل هذا ركز المستشرقون في أبحاثهم على أصل كلمة "حنف" وما يشتق منها كحنيف ، وحنفاء. وهل هــي عربيــة الأصــل أم عبرية؟ أم كنعانية آرامية؟ وعلى معانيها: هل هــي بمعنــى كــافر ؟ أو مشرك؟ أو تدل على الراهب النصراني إلى غير ذلك من المعــاني التــي ذكروها لهذه الكلمة. وزيادة في اهتمامهم بهذه الكلمة كتبوا فيها أبحاثــا وكتابات مختلفة [1]

وهذه الكلمة من (الحاء والنون والفاء)عربية الأصل وهي بمعنى (الميل) يقال للذي يمشي على ظهور قدميه أحنف، والأصــح أن الحنــف اعوجاج في الرجل إلى الداخل، والحنيف: المائل إلى الدين المستقيم قــال الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْــلِمًا ﴾ [2] والأصل هو هذا . ثم اتسع في تفسيره فقيــل: الحنيــف الناســك، ويقال: هو المختون، ويقال: هو المستقيم الطريقة، ويقال: هو يتحنف أي يتحرى أقوم الطرق [3] فالحنيف إذن الصحيح الميل إلى الإسلام والثابــت عليه والدين الحنيف الإسلام، والحنيفية ملة الإسلام وفي الحديث، " أحب الأديان إلى الله الحنيفية السمحة " [4]

فالحنفاء : مجموعة من الناس متفرقين مالوا عن الوثنية وعــن عبادة الأصنام إلى التوحيد، إذن فلم يكن هؤلاء على رأى واحد ولا طائفة

---

[1] انظر دائرة المعارف الإسلامية ١٢٤/٨ ـــ ١٣٠.

[2] آل عمران : ٦٧.

[3] معجم مقاييس اللغة ١١٠/٢ ـــ ١١١.

[4] انظر صحيح البخاري ١٥/١ ـــ كتاب الإيمان ـــ باب ٢٩ الدين يسر .

واحدة تسير على شريعة واحدة ثابتة، وإنما هم نفر من قبائل شتى ظهروا في مناطق مختلفة اتفقت فكرتهم في رفض عبادة الأصنام وفي الدعوة إلى الإصلاح.

وكان ظهورهم في أماكن مختلفة ومتباعدة في زمن واحد فظهروا في اليمن متأثرين بمبادئ التوحيد التي حملتها إليهم اليهودية والنصرانية. وظهروا في مصر على يد "أخناتون" الذي كان داعية التوحيد عندهم. وظهروا في بلاد فارس على يد "زرادشت" بعد مولد إبراهيم ﷺ بنفس الدعوة. وظهروا في الجزيرة العربية امتدادا لدعوة أبينا إبراهيم وابنه إسماعيل – عليهما السلام – فبقوا محافظين على شئ من تراث إبراهيم ﷺ من دعوة للوحدانية ، ونبذ لعبادة الأصنام، والإقرار بالبعث والنشور، والحشر وتبشير المؤمنين بالجنة، وتخويف الكافرين من النار، والابتعاد عن الخمر، ووأد البنات، وسيئ الأخلاق.

وخير من وضح عقيدتهم "القس بن ساعدة" حيث وقف يوما في عكاظ خطيبا فقال: [. . . كلا بل هو إله واحد، ليس بمولود ولا والد، أعاد وأبدى، وأمات وأحيا، وخلق الذكر والأنثى، رب الآخرة والأولى. أما بعد: فيا معشر إياد، أين ثمود وعاد؟ وأين الآباء والأجداد؟ وأين العليل والعواد؟ كل له معاد يقسم قس بن ساعدة برب العباد، وساطح المهاد، لتحشرن على الانفراد، في يوم التناد، إذ نفخ في الصور، ونقر في الناقور، وأشرقت الأرض، ووعظ الواعظ، فانتبذ القانط والصبر اللاحظ، فويل لمن صدف عن الحق الأشهر، والنور الأزهر، والعرض الأكبر، في يوم الفصل، وميزان العدل، إذا حكم القدير، وشهد النذير، وبعد النصير، وظهر التقصير

ففريق في الجنة وفريق في السعير..] [1]

وكانوا يستدلون على هذه الوحدانية بالعلاقات الكونية وإطالة التأمل والتفكر موضحين أنفتهم عن ديانة قومهم. حيث قال قس بن ساعدة في سوق عكاظ يوما كذلك مبينا هذا الأمر:

[يا معشر الناس اجتمعوا فكل من فات فات، وكل شئ آت آت، ليل داج، وسماء ذات أبراج، وبحر عجاج، نجوم تزهر، وجبال مرسية، وأنهار مجرية، إن في السماء لخبرا، وإن في الأرض لعبرا، مالي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون، أرضوا بالإقامة فأقاموا، أم تركوا فناموا، أقسم قس بالله قسما لا ريب فيه، أن لله دينا هو أرضى من دينكم هذا][2]

الحنفاء على دين إبراهيم :

والذي يؤكد أنهم كانوا على دين إبراهيم ومحافظين على بقايا شرعه ما حصل من زيد بن عمرو بن نفيل كما حدثت بذلك أسماء بنت أبي بكر قالت:

" لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل مسندا ظهره إلى الكعبة يقول: يا معشر قريش والذي نفس زيد بيده ما أصبح منكم على دين إبراهيم غيري" [3]

أما عباداتهم فقد ذكر أنه كان لهم صلاة فيها سجود. وذكر أنهم كانوا يعظمون الكعبة حيث قال زيد: اللهم إني لو أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به ولكني لا أعلم ثم يسجد على راحلته، وكان يصلي إلى الكعبة

---

[1] البداية والنهاية ٢/٢٣٣

[2] نفس المرجع ٢/٢٣٠.

[3] نفس المرجع ٢/٢٣٧.

وكان زيد " يحي الموؤدة ولا يأكل الميتة" [1]

وهؤلاء الحنفاء كانوا حريصين أن يصلوا لديـن إبـراهيم عليه السلام ، وكانوا على يقين أن الله سيبعث من يجـدد أمـر ديـن إبـراهيم عليه السلام[2] فاختاروا في ذلك كثيرا وأجهدوا أنفسهم في الوصول لذلك، فساحوا فـي البلاد يلتمسون ما عند أهل الكتاب والملل لعلهم يجدون بغيتهم، لذا فتنصر بعضهم كورقة بن نوفل، وعثمان بن حويرث، وعبيـد الله بـن جحـش، وتهود آخرون،

فبانتقالهم للنصرانية واليهودية يكونوا قد تركوا الحنيفية . أما من هـداه الله منهم للإسلام فأسلم فيكون قد أصاب الحنيفية الحقة كزيد بن عمـرو بن نفيل وأبي قيس بن الأسلت وعبيد الله ابن جحش الـذي أسـلم بعـد تنصره ومات على الحنيفية الأولى، ومنهم كذلك قس بن ساعدة الذي ذكر أن رسول الله ﷺ سمعه في سوق عكاظ يخطب وقد مات قبل بعثة رسول الله ﷺ [3] وهؤلاء جميعا كانوا يبحثون عن دين كالإسلام ويبشرون بنبيه ويتمنون لو يدركوه فينصروه ويسلموا معه كما وضح ذلـك (قـس بـن ساعدة) وورقة بن نوفل .

مصدر وهم المستشرقين كما جاء في زعمهم :

أما ما استوهمه المستشرقون من أن محمدا ﷺ لم تتعد أفكاره

---

(1) نفس المرجع السابق ٢/٢٣٨.

(2) الوحي المحمدي ٢ / ٩٦ ــ ٩٨

(3) ضعف المحدثون هذه الرواية وحكم عليها ابن الجوزي بالوضع والاختلاق ، ذكر ذلك الأستاذ أبو شهبة ، انظر المدخل لدراسة القرآن الكريم لأبي شهبة ص ٩٦ .

أفكار هؤلاء الحنفاء، ودعوته لم تتعد ما دعوا إليه، فهذا ناتج عن جهلهم بحقيقة الإسلام وتاريخ نبيه ﷺ فالمعروف من سيرة رسول الله ﷺ أنه لم يجلس لأحد من هؤلاء الحنفاء جلسة تعلم وإنما كان لقاؤه لهم لقاء عابرا وكانوا هم بحاجة لمن يبصرهم ويرشدهم للدين الذي يرضاه الله عز وجل. وأنا لا أنكر أنه ﷺ لاقى بعضهم على جمل له أورق وذلك قبل البعثة وهو يخطب ويخبر بقرب بعثة نبي أظل زمانه وقد تمنى لو يدركه فيسلم معه وينصره وقد بشر من ينصره بالجنة وخوف من يخالفه بالنار. كما لاقاه ورقة بن نوفل مرتين لمدة قصيرة: فالأولى منهما كانت بطلب من السيدة خديجة ـ رضى الله عنها ـ وبحضورها معه لتستوضح له من ورقة عن حقيقة ما رآه من أمر الوحي. والمرة الثانية لقيه ورقة في الطريق وقبل رأس رسول الله ﷺ وأخبره أنه نبي هذه الأمة وتمنى لو يدركه وينصره يوم يخرجه قومه.

وهؤلاء الحنفاء كانوا في حيرة من أمرهم يبحثون عمن يوصلهم لدينه الذي يرضاه لهم أي دين إبراهيم عليه السلام.

<u>بين القرآن والحنفاء :</u>

والناظر بأدنى تأمل في القرآن الكريم وما أتى به هؤلاء الحنفاء يرى البون الشاسع بينهما يرى بساطة ما دعوا إليه ويرى مقابله قرآنا معجزا في لغته وأسلوبه قد عجز العرب جميعا عن مضاهاته مع فصاحتهم وطلاقة ألسنتهم.

ويرى قرآنا معجزا في تشريعاته صغرت أمامه كل التشريعات البشرية. ويرى قرآنا معجزا في وضوح عقيدته وتكاملها وصدق نبوءته فيما أخبر

عنه من غيبيات، وحقائق علمية ثابتة تحققت في حياته ﷺ وبعد مماته، كما أنه من المعروف أن هذا القرآن بقيّ يتنزل بعد موت هؤلاء الحنفاء حسب ما تقتضيه الحاجة والمصلحة فمن أين يا ترى هذه الاستمرارية له؟

الحنفاء أتباع لا متبعون :

ثم إن هؤلاء الحنفاء كانوا هم أنفسهم يخبرون الناس بقرب بعثة الرسول ﷺ وكانوا يطلبون من الناس أن يتبعوه ولا يخالفوه ويتمنوا لو يدركوه فيسلموا معه وينصروه، فلو كانوا هم الأصل لدعوته ولتعليمه لقاموا بالدعوة لذلك بأنفسهم وتصدروا أمر الرسالة، ونسبوا لأنفسهم هذا الشرف العظيم بل قد تشرفت نفوس بعضهم واشرأبت أعناقهم لهذا الفضل " كأمية بن أبي الصلت" الذي لبس المسوح وترهب طمعا به ولكن الله سبحانه يؤتي فضله من يشاء من خلقه والله ذو الفضل العظيم.

وهذا يدل على فقدهم لهذا الشئ ، وفاقد الشئ لا يعطيه .

التقاء الإسلام مع الحنفاء يبطل شبهة المستشرقين :

أما كون الإسلام التقى مع دعوة الحنفاء في بعض ما صرحوا به واعتقدوه ، فلا غرابة في ذلك لأن ما عندهم بقايا لدين إبراهيم عليه السلام والإسلام كلاهما من مصدر واحد وهو الوحي الإلهي. فمن هذا القبيل جاء الاتفاق بينهما بالدعوة إلى وحدانية الله سبحانه وتعالى، ومحاربة الشرك بأنواعه، وخلع عبادة الأصنام، والأوثان بأشكالها والدعوة للأخلاق الفاضلة، ومحاربة الفساد والرذيلة.

لكن كل ذلك كان في الإسلام أتم وأكمل وأشمل.

والإسلام ما جاء ليهدم كل ما وجده في طريقه ، لا بل ما كان منه موافقا للإسلام أبقاه ودعمه وأحياه ووضح هذا المعنى قوله ﷺ (بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)[1] وهذا المبدأ الذي جعل الرسول ﷺ يحضر حلف الفضول في دار عبد الله ابن جدعان قبل بعثته لأنه يتمشى مع فطرته ﷺ يلائم ما نشأه الله عليه سبحانه . ومنه كان ﷺ يثني على صاحب الخلق النبيل حتى لو كان مشركا كثنائه على حاتم الطائي لكرمه. وما كان منه مخالفا له فحاربه للشر وللخلق الهابط كمحاربته التعري حول البيت أثناء الطواف لعدم ملاءمته حرمة المكان ولمخالفته للفطرة السوية ولأنه تأباه النفس الأبية الزكية[2] هذه هي نقطة اللقاء بين الإسلام والحنيفية لا كما يفهم المستشرقون.

الفرق بين الحنيفية وبين الإسلام :

ومن هنا يتبين الفرق بين نبوة كاملة تامة، وشرع متكامل، وقرآن معجز عظيم، وبين بقايا دين طمس نوره بين حطام الجاهلية وأوحال الشرك والوثنية، فالقرآن بما حواه من لغة رفيعة المستوى، وأسلوب محكم بديع وبما فيه من فصاحة وبلاغة خارقة، وحكم بالغة ، وأمثال محكمة، وذكر لأحوال الماضين من أنبياء وأمم وأنباء المستقبل، وعلاقة الإنسان بخالقه وعلاقته بغيره، والتشريع العظيم الشأن الذي صار موضوع بحث الأئمة المجتهدين، والعلماء الأعلام لا يكون مصدر اجتماع

---

[1] الموطأ للإمام مالك بن أنس ٢/ ٩٠٤ ، كتاب حسن الخلق — باب ١ — حديث رقم ٨ ، وهو بلفظ " حسن" بدلا من " مكارم " .

[2] انظر سيرة ابن هشام ١/١٤٢ ، وانظر رد مفتريات على الإسلام د/ عبد الجليل شلبي ص ٨٠

"زيد بن عمرو" برسول الله ﷺ مصادفة في حراء أو فـــي الطريـــق [1] ولكنها الرسالة التي بعث بها أكرم رسول وهو محمد ﷺ من عند الله عز وجل . فوافق نوره بقايا النور الإلهي الضارب في أعماق التاريخ لإبراهيم عليه السلام والذي حمل مشعله ركب الأنبياء الكـــرام مـــن ذريتـــه ، وتعهـــده الصالحون من أقوامهم، أمثال هؤلاء الحنفاء الـــذين كـــانوا يتمنـــون أن يدركوه وينالوا من شرف الإسلام العظيم كما نال ذلك منهم أبو قيس بـــن الأسلت في المدينة المنورة وغيره.

وبهذا يسقط المصدر الثاني المزعوم للإسلام مـــن قبـــل هـــؤلاء المستشرقين والحمد لله رب العالمين [2]

* * *

[1] حياة محمد ﷺ ــ محمد رشيد رضا ــ ص ٥٦ ــ ٥٧.

[2] راجع تفصيل ذلك في كتاب " آراء المستشرقين حول القرآن الكريم " ج١ ص ٢٦٣.

المبحث الثامن

في اعتبار الصابئة من مصادر القرآن

والشبهات في هذا المقام

اعتبر المستشرقون الصابئة مصدرا من مصادر القرآن الكريم وذلك للتشابه بينها وبين ما جاء في القرآن من عقائد وعبادات ونسك حيث قالوا: إن التأثير من الصابئة انتقل لمحمد ﷺ عبر الوسط الوثني الذي عاش فيه محمد ﷺ وأخذ منه كثيرا من طقوسه الدينية ممثلا في [1]

١ــ التشابه بين الصابئة والإسلام في الصلاة.

٢ــ التشابه في الصوم وارتقاب انتهائه وارتقاب الأعياد ببعض الكواكب .

٣ــ التشابه في الحج والتلبية وتقديم القرابين.

وقد زعموا أن اسم الصابئة مشتق من الأصل العبري "ص ب ع" أي غطس ثم أسقطت العين وهو يدل على المعمدانيين الذين يمارسون شعيرة التعميد أو الغطاس" [2]

الجواب :

قلت : كلمة الصابئة أصلها عربي لا كما زعم المستشرقون فهي من مادة صبأ يصبأ صبأ وصبوءا وصبؤ يصبؤ صبأ وصبوءا كلاهما: خرج من دين إلى دين آخر كما تصبأ النجوم أي تخرج من مطالعها.

---

[1] انظر مصادر الإسلام ص ١١ ، ١٢ ، وانظر المدخل إلى القرآن الكريم ص ١٣٢ ــ ١٣٣ .

[2] انظر دائرة المعارف الإسلامية ج ١٤ / ص ٨٩.

والعرب كانت تسمي النبي ﷺ الصابئ ، لأنه خرج من دين قريش إلى الإسلام، ويسمون من يدخل في دين الإسلام مصبوا من هذا القبيل لأنهم كانوا لا يهمزون [١]

<u>أصل اشتقاق الكلمة :</u>

أما الصابئة : فلما مالوا عن سنن الحق وزاغوا عن نهج الأنبياء سموا بهذا الاسم [٢] وبعضهم رجح أن أصلها من "سبح" لأن ديانة الصابئة تشترط القرب من الماء وتجعله المطهر الأول ، فلا زواج عندهم ولا صلاة ولا صيام ولا حياة إلا به.

<u>فهم المستشرقين للصابئة ، وأين كان وجودهم :</u>

أما المستشرقون فيرجحون أنها من العبرية " ص ب ع " بمعنى غطس. والصابئة من أكثر الفرق صعوبة في الحكم عليها حيث إنها تلتقي مع كثير من الديانات السماوية وغير السماوية سواء في العقائد أو في العبادات أو غير ذلك .

ومن أجل هذا اختلفت أحكام الناس عليهم من القديم وعلى ما كان وجودهم .

١ـ فمن قائل : أنهم قوم لا دين لهم بين اليهود والمجوس كانوا في العراق وهو مروى عن مجاهد وأبي نجيح والحسن وغيرهم.

---

(١) لسان العرب ٣٩٩/٢ .

(٢) الملل والنحل للشهرستاني ٧٦/٢.

٢ـ ومن قائل: هم أهل دين من الأديان كانوا بجزيرة العرب يقولون لا إله إلا الله، وليس لهم عمل ولا كتاب ولا نبي إلا هذه الكلمة وهو مروي عن ابن زيد.

٣ـ ومن قائل : هم عبدة الملائكة يصلون إلى القبلة ويصلون الخمس ويقرأون الزبور وهو عن زياد بن أبيه وبعضهم قال: بل قبلتهم من مهب الشمال وبعضهم قال: بل إلى مهب الجنوب [١]

٤ـ ومن قائل : هم فرقة من أهل الكتاب يقرؤون الزبور وهو مروي عن أبي العالية [٢]

٥ـ ومن قائل : أنهم قوم يزعمون أنهم على دين نوح ﷺ، بكذبهم.

٦ـ ومن قائل: الصابئون قوم يشبه دينهم دين النصارى إلا أن قبلتهم نحو الجنوب [٣]

٧ـ ومن قائل : هم قوم على دين صابئ بن شيث بن آدم[٤]وبعضهم زاد أنهم كانوا يؤمنون بنبوة هرمس أي إدريس ﷺ[٥].

حكمة ذكر هذه الأقوال مع تعددها فيهم :

وذكرى لهذه الأقوال يوضح مدى اختلاف الناس في هذه الفرقة وحيرتهم فيها.

---

(١) انظر : لسان العرب ٣٩٩/٢ .

(٢) انظر تفسير الطبري ١٤٧/٢ ، " الأقوال الأربعة الأولى من تفسير الإمام الطبري " .

(٣) لسان العرب ٣٩٩/٢.

(٤) المصباح المنير ٣٣٢/١ ـ ٣٣٣.

(٥) الصابئون ص ١٤٤.

فمن قال: إنهم وثنيون فذلك لعبادتهم الأصنام والكواكب والملائكة وتقديمهم القرابين لها.

ومن قال: هم من اليهود فذلك لموافقتهم اليهود في طريقة الذبح وحرق القرابين .

ومن قال: هم فرقة من النصارى فلالتقائهم معهم في التعميد في الماء ولتعظيمهم يوم الأحد. ولاتفاقهم معهم في بعض الأعياد.

ومن اتهم المسلمين بأخذهم منهم كالمستشرقين وذلك لما يجمع بينهما من صلاة وتوجه للقبلة، وصيام وارتقاب انتهائه بأحد الكواكب، وحج وتلبية على حد زعمهم، واختلافهم بالحكم عليهم كذلك لكونهم فرق متعددة أشهرها:

١ـ المندائيون وهم أصحاب الروحانيات وهي فرقة يهودية نصرانية تمارس شعيرة التعميد، وتعظم يوم الأحد [١]

٢ـ الحوارنيون: الكلدانيون وهي فرقة وثنية تؤمن بالكواكب السبعة وتقدم لها القرابين وهم الذين أرسل فيهم إبراهيم عليه السلام في العراق وحاجهم في عبادتهم للنجوم وقصته معهم في القرآن الكريم مشهورة.

ترجيح لصاحب كتاب آراء المستشرقين :

وأنا أرجح أن هذه الفرقة هي التي كانت في بابل في العراق وأرسل لهم سيدنا إبراهيم عليه السلام وحاجهم بعبادتهم للنجوم واعتقاداتهم

---

(١) منهج إبراهيم عليه السلام في الدعوة إلى الله في ضوء القرآن ـ محمد الدريعي لسنة ١٤٠٢/ ١٤٠٣هـ " رسالة جامعية في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية " .

بها أنها تضر وتنفع ، وفي تقديمهم القرابين لها.

ومن هذا الباب يكون لهذه الفرقة كتاب أو شبهة كتاب على الأقل لوجود فيهم بعض الشعائر التعبدية كالصلاة والصيام والحج.. إلخ مما هو موجود في الإسلام مع الاختلاف في كيفية هذه العبادات وأوقاتها والناحية التي يتوجهون بها للصلاة.

ولا شك أنها كبقية الأديان دخلها التحريف والتبديل.

لذا سأركز في ردودي على المستشرقين من خلال عبادات هذه الفرقة لما فيها من تشابه ظاهري مع العبادات في الإسلام.

أقول وبالله التوفيق:

شبهاتهم الثلاث وردها :

الشبهة الأولى : التشابه بين الصابئة والإسلام في الصلاة :

قلت: بعد رجوعي لما كتب عن الصابئة وجدت أن الباحثين اختلفوا في عدد صلواتهم فقد ذكر " تسدال " أنها سبع [1] وذكر الأستاذان : " عبد الفتاح الزهيري وفريد المنصور" أنها كانت خمسا وبعد توصية النبي يحيي — عليه السلام — صارت ثلاثا [2]

أما كيفية صلاتهم فهي تختلف عن صلاتنا — المسلمين — فصلاتهم الأولى: قبل طلوع الشمس بنصف ساعة أو أقل؛ لتنقضي مع طلوع الشمس وهي ثمان ركعات وثلاث سجدات في كل ركعة.

---

(1) مصادر الإسلام ص ١٢.

(2) الموجز في تاريخ الصابئة ص ١٠٢.

والصلاة الثانية : انقضاؤها مع زوال الشمس، وهي خمس ركعات وثلاث سجدات في كل ركعة.

والصلاة الثالثة: مثل الثانية، وانقضاؤها يكون عند غروب الشمس وصلواتهم النافلة التي هي بمنزلة الوتر في لزومه للمسلمين ثلاث صلوات كل يوم.

الأولى: في الساعة الثانية من النهار، والثانية: في الساعة التاسعة من النهار، والثالثة: في الساعة الثالثة من الليل.

ولا صلاة عندهم إلا على طهور [1]

وصلاتهم فيها وقوف وركوع وجلوس على الأرض من غير سجود بمجموعة من الأدعية والأذكار وباللغة المندائية، وبالتوجه فيها لحران بالعراق على أصح الأقوال [2]

والصلاة بحد ذاتها أمر فطري ومطلب شرعي في كل الديانات السماوية وكون وجود صلاة عند الطرفين أمر طبيعي لا غرابة فيه على اعتبار أنهم أهل الكتاب أو لهم شبهة كتاب.

كما أنه بينت أن صلاتهم على خلاف صلاة المسلمين في أوقاتها وهيئاتها. فصلاتنا خمس مرات في اليوم والليلة وهي بقيام وركوع وسجود وجلوس وقراءة قرآن وبمجموعة من الأذكار والأدعية. بعكس صلاتهم في كثير من هذه الأمور.

---

[1] انظر الفهرست لابن النديم ص ٤٤٢ ــ ٤٤٣.

[2] الموجز في تاريخ الصابئة ص ١٠٢.

لذا ما زعمه " تسدال" من مصدرية الصابئة للإسلام استنادا لمثل هذه الشبهة زعم باطل ينقصه الدليل، ويرده الواقع. وهو أمر تلبيسي لا أكثر ولم يخل دين من الأديان من وجود شعائر تعبدية وعلى رأسها الصلاة كاليهودية والنصرانية..

<u>الشبهة الثانية :</u>

<u>التشابه في الصوم وارتقاب انتهائه، وارتقاب الأعياد ببعض الكواكب</u>

سبق أن أشرت أنه لا يوجد دين من الأديان السماوية إلا وفيها ألوان من العبادة، والصوم واحد من تلك العبادات المشتركة بين الديانات السماوية.

فالصوم عبادة عرفت من القدم فقد كانت عند قدماء البابليين والآشوريين والمصريين، وهذا ما أشارت له الآية القرآنية وهي قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [1]

والصوم من العبادات التي عرفتها الصابئة الحرانييون[2] وهي عندهم ثلاثين ليلة من الليل إلى شروق الشمس[3] (أولها لثمان مضين من اجتماع آذار، وتسعة أخر أولها لتسع بقين من اجتماع كانون الأول، وسبعة أيام أخر أولها لثمان مضين من شباط وهي أعظمها، ولهم تنفل من صيامهم، وهو ستة عشر وسبعة عشر وعشرون يوما).

---

(١) البقرة : ١٨٣.

(٢) الصابئون ـ الحسنى ـ ص ٨٧ ـ ٨٨.

(٣) مصادر الإسلام ـ لتسدال ـ ص ١٢.

أما الصابئة المندائيون الحاليون يحرمون الصيام في طقوسهم الدينية ويرون أنه من باب تحريم ما أحله الله ، وإن كانوا يتظاهرون به في أول رمضان من كل سنة مجاراة لمجاوريهم من المسلمين كما كان يفعل ذلك أبو إسحاق الصابئي مع الشريف الرضي.

ونجدهم يمتنعون عن أكل اللحوم المباحة لهم (٣٦) يوما، متفرقة على طول السنة ، على نحو امتناع النصارى عنها [١]

فالناظر بعين فاحصة مقارنا بين الصيام عند الصابئة وعند المسلمين يجد أن الاجتماع والاتفاق كان في كلمة الصوم لا غير أما في الحقيقة والصورة فهما مختلفان تماما.

فصيامهم ليلا بينما صيام المسلمين نهارا.

وصيامهم متفرق بينما صيام المسلمين شهر كامل.

وهو ليس عند كل فرقهم بل عند الحوارنيين منهم أما المندائيون فيحرمونه كما ذكرت .

وكذلك عندهم صيام يشبه صيام النصارى لمدة (٣٦) يوما يمتنعون فيها عن أكل اللحوم المباحة.

ثم هناك الاختلاف في وقت الصيام بين الفريقين .

أبعد كل هذه الملاحظات :

أ ــ على وجه المقارنة بين صيام أهل الملتين يبقى دليل مع "تسدال" وغيره ليزعم أن الإسلام أخذ منهم عبادة الصيام بل قد أثبت التاريخ أن الأيام التي كانوا يصومونها وفيها وجه شبه مع وقت الصيام

---

(١) الصابئون ــ الحسنى ــ ص ٨٧ ــ ٨٨.

عند المسلمين ما كانت من الصابئة إلا لمجاراة المسلمين الذين كانوا يملكون السلطة والتي كان يفقدها الصابئون.

فعبادة الصيام عندنا ـ المسلمين ـ عبادة فيها سمو روحي وترفع عن عالم الشهوة سواء كانت في الفرج أم البطن.

وفيها تقوية لعلاقة المسلم بخالقه سبحانه ، وفيها طريقة تربية في مدرسة الصبر على الجوع والحرمان والشعور بالغير، إلى غير ذلك من المعاني السامية الرفيعة.

وأعيد للأذهان مرة أخرى أن التشريعات الإسلامية في العبادات وغيرها ما زالت غضة طرية كما أنزلها الله سبحانه وتعالى على قلب محمد ﷺ لم يدخلها التحريف أو التشويه أو التبديل كما دخل تشريعات الأمم الأخرى ، ومنها عادات الصابئة على اعتبار ما أشرت إليه سابقا أنهم أهل دين سماوي أو كتاب منزل [١] وبهذا تبطل شبهتهم في هذا المقام التي استدل بها "تسدال".

<u>شبهة ارتقابهم الأعياد عن طريق النجوم :</u>

تقريرها :

قلت : كان " تسدال" جعل مناط هذه الشبهة أن الصابئة تثبت أعيادهم بمراقبة خمسة نجوم في السماء وهي: (الجدي ، الزهرة ، زحل، القمر ، والشمس).

وكذلك المسلمون تثبت أعيادهم بمراقبة أحد هذه الخمسة وهو القمر

---

[١] انظر " آراء المستشرقين حول القرآن الكريم " ج ١ ص ١٨٨ ـ ١٨٩.

عندما (يكون هلالا) .

الجواب :

قلت : المعروف أن التقويم لأمم الأرض قديم جدا، وهو إما شمسي وإما هلالي. والناس قد انقسمت عاداتهم في شهرهم وسنتهم القسمة العقلية. وذلك أن كل واحد من الشهر والسنة إما أن يكونا عددين ، أو طبيعيين ، والسنة عددية ، أو بالعكس.

فالذين يعدونهما: فهؤلاء يجعلون الشهر ثلاثين يوما، والسنة اثنى عشر شهرا. والذين يجعلونهما طبيعيين يجعلون الشهر قمريا، والسنة شمسية.

ومنهم الذين جعلوا السنة طبيعية، والشهر عدديا، فهذا حساب الروم، والسريانيين والقبط ونحوهم من الصابئين والمشركين. ممن يعد شهر كانون ونحوه عددا ويعتبر السنة الشمسية بسير الشمس .

أما اعتبار الشهر طبيعيا، والسنة عددية فهو سنة المسلمين ومن وافقهم [1]

حقيقة التقويم عند اليهود والمسلمين :

فالتقويم عند اليهود وعند المسلمين قمريا ، إلا أن اليهود يعتبرونه باجتماع القرصين ، أما النصارى فتجعل صيامها وسائر أعيادها دائرة على السنة الشمسية، وتجعل سائر أعيادها دائرة على السنة الشمسية بحسب الحوادث التي كانت للمسيح عليه السلام .

---

(1) انظر تفصيل ذلك في كتا ب " الصابئين حرانيين ومندائيين " ـــ لرشدي عليان .

وكذلك المجوس والصابئة وغيرهم من المشركين فتقويمهم يجعل السنة طبيعية والشهر عدديا، أما ما جاءت به الشريعة الإسلامية هو أكملها وأحسنها وأبينها وأصحها وأبعدها من الاضطراب ؛ لأن رؤية الهلال أمر مشهور مرئي يدرك بالأبصار، فلا يضل أحد عن دينه، ولا يشغله مراعاته عن شئ من مصالحه، ولا يدخل بسببه فيما لا يعنيه، ولا يكون طريقا إلى التلبيس في دين الله كما يفعل بعض علماء أهل الملل بمللهم.

وما عليه الإسلام هو الأصل لكل الشرائع السابقة إلا أن أتباعها بدلوا كاليهود وعلقوا أحكامها باجتماع القرصين (الشمس والقمر) فإن اجتماعهما الذي هو تحاذيهما الكائن قبل الهلال هو أمر خفي لا يعرف إلا بحساب ينفرد به بعض الناس مع تعب وتضييع زمان كثير، واشتغال عما يعني الناس، وما لابد له منه، وربما وقع فيه الغلط والاختلاف.

وكذلك كما عند بعض الناس أن يحسبوا بمحاذاة الشمس للبرج الفلاني أو الفلاني فلا يعرف كذلك إلا بحساب فيه كلفة وشغل عن غيره مع قلة جدواه.

ومن هنا يظهر أن أفضل المواقيت ما كان متعلقا بالهلال كما عليه المسلمون أما الحول فلم يكن له حد ظاهر في السماء فكان لابد فيه من الحساب والعدد وتكون السنة مطابقة للشهور التي عددها موافق لعدد البروج التي تكمل بدور الشمس فيها سنة شمسية اثنا عشر شهرا بعددها. وإذا دار القمر فيها كمل دورته السنوية وبهذا كله يتبين معنى

قوله تعالى : ﴿ وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ﴾ [١] فإن عدد شهور السنة وعدد السنة بعد السنة إنما أصله بتقدير القمر منازل وكذلك معرفة الحساب فإن حساب بعض الشهور لما يقع فيه من الآجال ونحوها إنما يكون بالهلال . وكذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴾ [٢]

وما دخل على أهل الكتاب والصابئين والمجوس وغيرهم من الاضطراب والحرج والمفاسد دخل عليهم ذلك من جهة المتفلسفة الصابئة [٣]

وهكذا يلاحظ أن ضبط العبادات والأحكام بشئ من الكواكب أمر عليه كل الأمم منذ القديم وليس السير فيه على سنة الصابئة وإلا لكانت الصابئة مصدر المعرفة بهذا الباب لكل الأمم وهذا مردود.

ومن هنا تسقط هذه الشبهة كذلك. ولله الحمد والمنة .

الشبهة الثالثة : التشابه في الحج والتلبية ، وتقديم القرابين :

الجواب :

قلت : بعد رجوعي لما كتب عن الصابئة لم أجد هناك تفسيرا حول هذه الشعيرة إلا أني وجدت أنه كان عندهم حج وكان عندهم تقديم القرابين للآلهة المزعومة عندهم.

---

(١) يونس : ٥ ، قال تعالى : ﴿ هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا ، وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب . ما خلق الله ذلك إلا بالحق . يفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾ .

(٢) البقرة : ١٨٩ .

(٣) انظر مجموع فتاوي الإمام ابن تيمية ــ رحمه الله ــ ٢٥ / ١٣٤ ــ ١٤٢.

أما الحج فهو عبادة موجودة في أهل الأديان وغيرهم وممتدة جذوره لإبراهيم ـ عليه السلام ـ الذي أذن في الناس بالحج فلبى نداءه كل من حج لبيت الله الحرام وسيلبيه كل من سيحج قال تعالى : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [1]

وقد وضحت دائرة معارف المستشرقين أن الحج لم يكن خاصا بالعرب دون غيرهم من الأمم ، بل كان كذلك عند اليهود والنصارى وبعض الوثنيين [2]

وقد فصلت هذا الأمر ورددت عليه في الشبهة الثانية من المصدر الأول فيرجع إليه.

ولكني أريد أن أوضح هنا أمرا مهما وهو أن المعروف أن الحج عند المسلمين يتم في مكة المكرمة وطوافهم بالكعبة وما يقدمونه من قرابين (الهدى) هو لله سبحانه خالصا دون سواه. وقد رخص الأكل منها.

أما عند الصابئة فحجهم يتم بحران بالعراق وليس حول الكعبة [3] وقبلتهم الثابت بشأنها أنها قبل الشمال باتجاه النجم القطبي؛ وذلك لثبوته في محله وعدم تحركه [4]

---

[1] الحج ٢٦ ـــ ٢٧.

[2] انظر دائرة المعارف الإسلامية ٣٠٥/٧

[3] انظر مدخل القرآن الكريم ، ص ١٣٣ ، نقلا عن كتاب ج . سال " ملاحظات تاريخية ونقدية عن الإسلام" ص ٣٠ ـــ ٣١ ، ودائرة المعارف الإسلامية باللغة الفرنسية " مادة صبا "

[4] انظر الموجز في تاريخ الصابئة ص ٣٦ ، الفهرست لابن النديم ص ٤٤٢.

أما بالنسبة لقرابينهم فكانت تذبح لآلهتهم المزعومة من الكواكب كذبحهم للزهرة ولزحل.. إلى غير ذلك.

وكانت سنتهم في قرابينهم أن تحرق تماما، ولا يؤكل منها شيء، وكان بعضهم يقول إذا قرب باسم الباري كانت دلالة القربان ردته لأنه عندهم تعدي إلى أمر عظيم وترك ما هو دونه لما جعله

وللقربان أربعة أوقات في الشهر: الاجتماع، والاستقبال، وسبعة عشر وثمانية وعشرون [1]

في حين أن القربان في الإسلام لا يقبل إلا إذا ذبح لله تعالى ويحرم أكله إذا ذكر عليه غير اسمه سبحانه، كما أنه يذبح في أي وقت من أوقات السنة، سواء كانت الذبائح ذكورا أم إناثا. ولا يمنع ذبح القربان من دخول أماكن العبادة في الإسلام . والذبيحة عندنا لا تحرق بل تؤكل ولا حرج في ذلك ومن هنا يظهر الفرق في حج المسلمين ،وفي قرابينهم عن الصابئة لا كما يزعم المستشرقون من وجوههم مخالفة الإسلام للصابئة .

والإسلام يخالف الصابئة ليس في هذا الجانب فقط، بل في أمور كثيرة منها:

ـ عليهم الغسل وتغيير الثياب بسبب الجنابة ومس الطامث ويعتزلها البتة. أما عندنا فيغتسل ولا تغير الثياب إذا كانت الملابس طاهرة، ولا غسل لمن مس طامثا لنجاستها ليست في يدها. ولا يعتزل عندنا منها، إلا موضع الولد وقت طمثها.

ـ كما أنهم لا يأكلون الجزور ويفرطون في كراهيته والمسلمون

---

(1) انظر الفهرست لابن النديم ص ٤٤٣.

يكنونه ولا يكرهونه. ويتركون الختان وعندنا سنة ثابتة في حق كل مسلم

ــ وفريضة الذكر والأنثى في الميراث عندهم واحدة أما عندنا فللذكر مثل حظ الأنثيين .

ــ وعندهم لا طلاق إلا ببينة عن فاحشة ظاهرة، ولا تراجع عندهم المطلقة وعندنا جواز الطلاق لحاجته، وله مراجعة مطلقته.

ــ وعندهم لا يجمع بين امرأتين ولا يطأهن إلا لطلب الولد. وعندنا يجمع بين أربعة لطلب الولد ولغيره من الاعتبارات الشرعية، وغير ذلك من الأمور التي تخالف الصابئة فيه الإسلام.

<u>والخلاصة :</u>

ومن هنا يظهر الفرق الكبير بين الإسلام وبين الصابئة في الاعتقادات والعبادات والأحكام والسلوك وغير ذلك كثير [١]

والأمر واضح لا شبهة فيه إلا في رؤوس المستشرقين القاصدين تشويه الإسلام بكل سبيل. ولكن الله يأبى إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

وبهذا نكون قد رددنا على الشبهة الثالثة وسقطت قوائمها ونكون بها قد أكملنا الرد على المستشرقين في مصدرهم المزعوم الثالث للإسلام العظيم وقرآنه الكريم، وظهر بطلان دعواهم وبان الحق وعلا. ولله الحمد والمنة [٢]

***

---

[١] انظر الفهرست لابن النديم ص ٤٤٣ ــ ٤٤٤.

[٢] مصدرنا في هذا المقام " آراء المستشرقين حول القرآن الكريم " ج ١ ص ٢٧٠.

المبحث التاسع

دفع شبهات عن الوحي كموضوع من موضوعات علوم القرآن

الشبهة الأولى وردها :

يقولون : إن ما تسمونه معجزات من العلوم والمعارف التي اشتمل على مثلها القرآن، ما هي إلا آثار لمواهب بعض النابغين من الناس، وهذه المواهب وآثارها وجدت ويمكن أن توجد في كل أمة .

والجواب:

أن مواهب النابغين، ونبوغ الموهوبين، وما يكون منهم من آثار وأفكار كل ذلك له وسائل وعوامل، ثم له أشباه معتادة ونظائر، في كل أمة وجيل، وفي كل عصر ومصر، أما المعجزات فلن تجد لها من وسائل ولا عوامل، ولن تستطيع أن تصل إلى أشباه معتادة لها ونظائر، اللهم إلا إذا خرجنا عن نطاق الكون المعروف، وسنن الوجود المألوف.

الشبهة الثانية وردها :

يقولون: إن خرق الله لعاداته على أيدي رسله كما تقولون، يعتبر خروجا عن النظام العام الذي تقتضيه الحكمة، وتناط به المصلحة.

والجواب:

أن المعجزة ـ وإن كانت خارجة عن حدود الأنظمة المعتادة لا تعتبر خروجا على النظام العام الذي تقضي به الحكمة، وتناط به المصلحة، بل هي من مقتضيات ذلك النظام العام الذي تمليه الحكمة. وتوحيه المصلحة. وأي حكمة أجل من تأييد الحق وأهل الحق؟ وأي

مصلحة أعظم من اهتداء الخلق إلى طريق سعادتهم؟ بوساطة تلك المعجزات التي يفهمون منها مراد الخالق من تأييد رسله، ووجوب تصديقهم لهم، واتباعهم إياهم.

الشبهة الثالثة وردها يقولون :

لو كان الوحى ممكنا لأوحى الله إلى أفراد البشر عامة ولم يخص به شرذمة قليلين يجعلهم واسطه بينه وبين خلقه.

والجواب: أن عامة البشر ليس لديهم استعداد لتلقي الوحى عن الله، لا مباشرة ولا بواسطة الملك، حتى لو جاءهم ملك لم يستطيعوا رؤيته إلا إذا ظهر في صورة إنسان، وحينئذ يعود اللبس ويبقى الإشكال. فقضت الحكمة أن يجعل الله من بني الإنسان طائفة ممتازة لها استعداد خاص يؤهلها لأن تتلقى عن الله الوحى، ثم تؤديه في أمانة إلى العامة من إخوانهم في الإنسانية، بعد أن وضع الله في أيديهم شواهد الحق الناطقة التي تدل العالم على مراده سبحانه من تصديقهم، وبعد أن سلحهم بالآيات التي تطمئن الناس على أنهم رسل لإنقاذهم وإرشادهم من عند ربهم. ثم إن اختصاص بعض أفراد النوع الإنساني بالوحي والنبوة، فيه نوع من الاختبار والابتلاء، الذي بنى الله عليه هذه الحياة وميز به الخبيث من الطيب ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾[1] وتلك الشبهة يقول الله في مثلها من سورة الأنعام ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ * وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴾ [2]

---

[1] البقرة : ١٠٥.

[2] الأنعام : ٨ ، ٩ .

الشبهة الرابعة وردها :

يقولون: كيف تدل المعجزة على تصديق الله لرسله، مع أننا ما رأينا الله وما سمعناه.

والجواب:

أن دلالة المعجزة على تصديق الرسول، كدلالة الكون على خالقه، مع أننا ما رأينا الله وما سمعناه. ولنضرب لهم المثال، كيلا تبقى لهم شبهة ولا يقوم لهم عذر: افرض أنك حضرت مجلسا عاما فيه ملك من الملوك، وكان من تقاليد هذا الملك ألا يكشف رأسه في مجلس من المجالس العامة، وبينما القوم جلوس في حضرة صاحب الجلالة إذ نهض رجل من الحاضرين معروف للجميع بصدقه وأمانته، وأدبه واستقامته، وحسبه ونسبه. وإذا هذا الرجل يقول على مرأى ومسمع من الملك ورعيته: أيها القوم إن مولاي المليك حملني هذه الرسالة أبلغكم إياها، وهي أن تفعلوا كذا، وتتركوا كذا ، ثم سكت الملك ولم يكذبه، ثم لم يكتف الرجل بطهارة ماضيه، وسكوت مليكه في ترويج دعوته، وتأييد رسالته. بل قال إن آية صدقي أن يغير مولاي الملك عادته الآن، ويخرج عن تقليد من تقاليده المعروفة لكم جميعا، وذلك بأن يعري رأسه في هذا المجلس العام. ثم ما كاد ينتهي حتى عرى الملك رأسه وخلع تاجه. أفلا يعتبر ذلك دليلا كافيا على صدق هذا الرجل وصدق ما جاء به؟ ثم ما بالك إذا هو قد عزز دليله بالتحدي فقال: إني أتحداكم أن يجيبكم الملك إلى مثل ما أجابني إليه. فأخذوا يطلبون ويلحون، فلم يستجب لهم الملك، ولم يغير عادته

معهم ولا مرة واحدة. أفلا يكون ذلك برهانا أبلجَ من الصبح على أن هذا الداعي هو رسول هذا الملك حقا ؟ ثم ألا يكون المكذب بعد ذلك معاندا ومكابرا، ويكون بالحيوان الذي لا يفهم ولا يعقل؛ أشبه منه بالإنسان الذي يفهم ويعقل؟ ﴿ أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (١)

وذلك المثل هو مثل رسل الله، تؤيدهم معجزات الله. ﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٢)

الشبهة الخامسة وردها :

يقولون: إن هذا الوحي الذي تدعونه وتدعون تنجيمه، جاء بهذا القرآن غير مرتب ولا منظم، فلم يفرد كل غرض من أغراضه بفصل أو باب، شأن سائر الكتب المنظمة. بل مزجت أغراضه مزجا غير مراعى فيه نظام التأليف، فيبعد أن يكون وحيا من الله. وهذه الشبهة واردة كما ترى على تنجيم القرآن وترتيبه أيضا.

والجواب:

إن مخالفة القرآن لأنظمة الكتب المؤلفة لا تعتبر عيبا فيه، ولا في وحيه وموحيه، بل هي ـــ على العكس ـــ دليل مادي، على أنه ليس بكتاب وضعي بشري؛ يجلس إليه واضعه من الناس؛ فيجعل لكل طائفة من معلوماته المتناسبة فصلا، ولكل مجموعة من فصوله المتناسقة بابا؛ بل هو مجموع إشراقات من الوحي الإلهي الأعلى. اقتضتها الحكمة ودعت إليها المصلحة. على ما هو مفصل في أسرار تنجيم القرآن .

---

(١) الأعراف : ١٧٩.

(٢) النحل : ٦٠.

ثم إن هذا المزيج الطريف الذي نجده في كل سورة أو طائفة منه، له أثر بالغ في التذاذ قارئه، وتشويق سامعه، واستفادة المستفيد بأنواع متنوعة منه، في كل جلسة من جلساته أو درس من درسه وهذا هو الأسلوب الحكيم في التعليم والإرشاد، خصوصا لتلك الأمة الأمية التي نزل عليها. فما أشبه كل مجموعة من القرآن بروضة يانعة يتنقل الإنسان بين أفيائها متمتعا بكل الثمرات، أو بمائدة حافلة بشتى الأطعمة يشبع الجائع حاجته بما فيها من جميع الألوان.

وهنا دقيقة أحب ألا تعزب عن علمك. وهي أن هذا الروض الرباني اليانع (القرآن الكريم) يقوم بين جمله وآيه وسوره تناسب بارع، وارتباط محكم، وائتلاف بديع، ينتهي إلى حد الإعجاز، خصوصا إذا لاحظنا نزوله منجما على السنين والشهور والأيام.

قال الشيخ ولي الدين الملوي: " قد وهم من قال: لا يطلب للآي الكريمة مناسبة لأنها على حسب الوقائع المفرقة. وفصل الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلا، وعلى حسب الحكمة ترتيبا وتأصيلا. فالمصحف على وفق ما في اللوح المحفوظ مرتبة سوره، كلها وآياته بالتوقيف كما أنزل جملة إلى بيت العزة. ومن المعجز البين أسلوبه ونظمه الباهر، والذي ينبغي في كل آية أن يبحث أول كل شئ عن كونها مكملة لما قبلها أو مستقلة، ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها؟ ففي ذلك علم جم. وهكذا في السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقت له".

وقال الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره لسورة البقرة ما نصه:

" ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة وفي بدائع ترتيبها، علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه، فهو معجز

أيضا بسبب ترتيبه ونظم آياته. ولعل الذين قالوا : إنــه معجــز بســبب أسلوبه أرادوا ذلك، إلا أني رأيت جمهور المفسرين معرضين عــن هــذه اللطائف غير منتبهين لهذه الأسرار وليس الأمر في هذا الباب إلا كما قيل:

والنجم تستصغر الأبصار رؤيته   والذنب للطرف لا للنجم في الصغر

الشبهة السادسة وردها :

يقولون: إن محمدا كان عصبيا حاد المزاج، وكــان مريضــا بمــا يسمونه (الهستريا) فالوحي الذي كان يزعمه ما هو إلا أعــراض لتلــك الحال التي أصيب بها.

والجواب:

أن هذه فرية تدل على جهلهم الفاضح بمحمد ﷺ فالمعروف عنه بشهادة التاريخ الصحيح، والأدلة القاطعة، أنه كان ﷺ وديعــا، صــبورا حليما، بل كان عظيم الصبر، واسع الحلم، فسيح الصدر. حتى إنه وســع الناس جميعا ببسطه وخلقه. وكان شجاعا مقداما سليم الجســم، صــحيح البدن. حتى إنه صارع ركانة المشهور بشجاعته فصرعه، وكان يثبت في الميدان حين يفر الشجعان، ويفزع الخلق ويشتد الأمر، ويقول: " أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب" ويقول: " إليَّ عباد الله " ولا يــزال كــذلك حتى ينقذ الموقف ويكسب المعركة. ولو أفضنا في هذا الموضوع لطال بنا الكلام، ولكن موضوعه كتب السيرة والشمائل المحمدية فارجع إليهــا إن شئت .. أما مرض (الهستريا) الذي يصمونه ﷺ كذبا به فهو داء عصبي عضال، أكثر إصاباته في النساء. ومن أعراضه شذوذ في الخلق، وضيق في التنفس، واضطراب في الهضم. وقد يصل بصاحبه إلى شلل موضعي،

ثم إلى تشنج، ثم إلى إغماء، ثم إلى هذيان مصحوب بحركة واضطراب في اليدين والرجلين، وقفز من مكان إلى مكان. وقد يزعم المصاب أنه يرى أشباحا تهدده، وأعداء تحاربه أو أنه يسمع أصواتا تخاطبه، على حين أنه لا وجود لشئ من ذلك كله في الحس والواقع.

فهل يتفق ذلك وما هو معروف عن النبي ﷺ من أنه كان أمة وحده في أخلاقه، وثباته، وحلمه، وعقله، ورباطة جأشه، وسلامة جسمه، وقوة بنائه؟

ثم كيف يتفق ذلك الداء العضال الذي أعيا الأطباء، وما انتدب له محمد ﷺ من تكوين أمة شموس أبية، وتربيتها على أسمى نواميس الهداية، ودساتير الاجتماع، وقوانين الأخلاق، وقواعد النهضة والرقي ؟ !

أضف إلى ذلك أنه نجح في هذه المحاولة المعجزة إلى درجة جعلت تلك الأمة بعد قرن واحد من الزمان، هي أمة الأمم، وصاحبة العلم، وربة السيف والقلم !!

فهل المريض المتهوس الذي لا يصلح لقيادة نفسه يتسنى له أن يقوم بهذه القيادة العالمية الفائقة ثم ينجح فيها هذا النجاح المعجز المدهش ؟ !

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم

<u>الشبهة السابعة وردها</u> :

يقولون : إنكم تستدلون على الوحى بإعجاز القرآن وتستدلون على إعجاز القرآن بما فيه من أسرار البلاغة، ونحن لا ندرك تلك الأسرار ولا نسلمها، فلا نسلم الوحى المبني عليها.

والجواب :

أن للقرآن نواحي أخرى في الإعجاز غير ما يحويه من أسرار البلاغة والبيان، ومن السهل معرفتها على من لم يتمهر في علوم العربية واللسان. منها ما يحويه هذا التنزيل من المعارف السامية والتعاليم العالية، في العقائد والعبادات ، وفي التشريعات المدنية والجنائية، والحربية والمالية، والحقوق الشخصية، والاجتماعية والدولية. وإن مقارنة بسيطة بين تلك الهدايات القرآنية وبين ما يوجد على وجه الأرض من سائر التشريعات الدينية وغير الدينية، توضح لك ذلك الإعجاز الباهر، خصوصا إذا لاحظت أن هذا الذي جاء بتلك المعارف الخارقة كان رجلا أمياً، نشأ وعاش ، وشب وشاب، وحي ومات، بين أمة أمية، كانت لا تدري ما الكتاب ولا الإيمان !.

كذلك أنباء الغيب التي تحدث بها القرآن – وهي كثيرة – يمكن إدراك وجه الإعجاز فيها بيسر وسهولة لكل منصف. اقرأ إن شئت فاتحة سورة الروم، لتعرف كيف أخبر القرآن صراحة بأمر كان لا يزال مستترا في ضمائر الغيب، بل كانت العوامل والظواهر لا تساعد عليه، ذلك أنه أخبر في وقت انتصر فيه الفرس على الروم في أدنى الأرض، بأن الروم سيدال لهم على الفرس وينصرون في بضع سنين ؛ وكان كما قال.

ثم اقرأ قوله سبحانه مخاطبا لنبيه في موقف من مواقف الخصومة والمحاجة بينه وبين أعدائه اليهود: ﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآَخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ

أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ [1] وهذا من أبرز شواهد الإعجاز والتحدي: إذ كيف يتسنى لرجل عظيم في موقف من المواقف الفاصلة بينه وبين أعدائه، أن يجرؤ على تحديهم بشئ هو من شأنهم وحدهم، وكان في استطاعتهم عادة، بل في استطاعة أقل واحد منهم، أن يقول ولو ظاهرا: إني أتمنى الموت" ليظفروا بذلك التمني على محمد ﷺ ويبطلوا به دعوته، ويستريحوا منه على زعمهم. ولكن كل ذلك لم يكن ، فما تمنى أحد منهم الموت، بل صرفوا وما زالوا مصروفين عنه أبدا، ثم سجل القرآن عليهم ما أبعد من ذلك، إذ قال عقيب تلك الآية : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ [2] أهـ.

أليست تلك أدلة مادية قامت ولا تزال قائمة، على أن محمدا صلوات الله وسلامه عليه كان مؤيدا بالوحى من ربه، وأنه إنما يتلقى القرآن من لدن حكيم عليم ؟ .

أما إعجاز القرآن من ناحية الأسرار البلاغية فلا يقدح فيه أن جمهرة الناس اليوم لا يدركونها ولا يتذوقونها، فإن ذلك لا يرجع إلى خلو القرآن من أسرار البلاغة والبيان، إنما يرجع إلى جهل الناس باللغة العربية وأساليبها، وإلى فساد ذوقهم من غلبة العجمة عليهم، ومعروف أن عدم الإدراك لشئ ، لا ينهض دليلا على عدم ذلك الشئ. ونظير ذلك أن عدم علمنا بلغة من اللغات الأجنبية مثلا، لا يلزم منه أن ننكر أن فلانا

---

[1] البقرة : ٩٤ ــ ٩٥.

[2] البقرة : ٩٦.

متفوق في تلك اللغة بشهادة الإخصائيين فيها والحاذقين لها، بل نحن نؤمن بوجود لغات لا نعرف منها شيئا. كما نؤمن بوجود نابغين فيها لا نعرفهم ولا نعرف من وجوه نبوغهم شيئا ، اللهم إلا عن طريق سماعنا لذلك من مصادر شتى نثق بها.

كذلكم القرآن الكريم، قد شهد الفنيون والإخصائيون من حذاق اللغة العربية، في أزهى عصور التوفر عليها والتمهر فيها. أنه كتاب فاق الكتب، وكلام بز سائر ضروب الكلام، وبلغ في سموه وتفوقه حدود الإعجاز والإفحام، من ناحية الفصاحة والبلاغة وما يحمل لهما من أسرار ! . ثم نقل إلينا ذلك كله نقلا متواترا قاطعا لا ظل فيه للشك والنكران.

فلماذا لا نقبل هذا الحكم العادل، ومصادره كثيرة محترمة كل الاحترام ؟ !

أليس ذلك تعصبا وعنادا، على حين أن الباب كان ولا يزال مفتوحا أمام كل من يحذق علوم اللغة العربية وأساليبها، أن يتذوق أسرار البلاغة والإعجاز في هذا القرآن، وأن يحكم هو نفسه بما حكم به الآلاف المؤلفة في كل زمان ومكان !

وإذا لم تر الهلال فسلم لأناس رأوه بالأبصار على أن لإعجاز القرآن ميدانا آخر فاطلبه إن شئت. "والله المستعان".

الشبهة الثامنة وردها :

يقولون: إن إعجاز القرآن للعرب لا يدل على أن القرآن كلام الله. بل هو كلام محمد نسبه إلى ربه ليستمد قدسيته من هذه النسبة. وإعجازه جاء من ناحية أن محمدا كان الفرد الكامل في بيئته بين قومه، لذلك جاء

قرآنه الفرد الكامل أيضا بين ما جاء به قومه، ولم يستطيعوا لهذا الاعتبار وحده أن يأتوا بمثله، شأن الرجل الفذ بين أقرانه في كل عصر.

ويجاب على هذه الشبهة بأجوبة خمس :

(أولها) أن كل من أوتى حظا من حس البيان وذوق البلاغة، يفرق بين أسلوب القرآن وأسلوب الحديث النبوي فرقا كبيرا يمثل الفرق الكبير بين مقدور الخالق ومقدور المخلوق. وها هما القرآن والحديث النبوي، لا يزالان قائمين بيننا، يناديان الناس بهذا الفارق البعيد، إن كان لهم إحساس في البيان وذوق في الكلام.

ولو كان لهذه الشبهة شئ من الوجاهة، لكان أولى الناس أن يرفعوا عقيرتهم بها هم أولئك العرب الخلص الذين شافههم القرآن؛ لأنهم كانوا أحرص على تعجيز محمد وإسكاته للاعتبارات التاريخية المعروفة. لكنهم ما قالوا هذا . بل كانوا أكرم على أنفسهم من أن يقولوه، إيقانا منهم بظهور المميزات الفائقة بكلام الربوبية عن كلام النبوة، بحيث لا يلتبس أحدهما بالآخر في شئ. وهكذا "من ذاق عرف ومن حرم انحرف ".

وكم من عائب قولا صحيحا وآفته من الفهم السقيم

(الجواب الثاني)

أن القرآن لم يأت الناس من الخلف، بل جاءهم من أوسع الأبواب، ودخل عليهم من طريق العرب الخلصاء ذوي اللسن والبيان. وتحداهم من الناحية التي نبغوا فيها وهي صناعة الكلام، تلك الصناعة البيانية الفائقة التي وقفوا عليها مواهبهم وأنفقوا فيها حياتهم، حتى صارت موضع

تناقسهم وسبقهم، وموضوع فخرهم وفوقهم. شأن سائر معجزات الله تعالى: لم تأت الناس إلا من الناحية المفهومة لهم كل الفهم، وذلك ليظهر أمر الله واضحا جليا، لا لبس فيه ولا غموض، ولا شبهة ولا شكوك ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [١]

ومن هنا نعلم ، والتاريخ يشهد، أن القرآن لو كان مصدره نفس محمد ـ كما يقول أولئك الملاحدة ـ لأمكن هؤلاء العرب البارزين في البيان أن يعرفوا أنه كلامه، بما أوتوا من ملكة النقد، وما وهبوا من نباهة الحس والذوق، ثم لأمكنهم أن يجاروه ولو شوطا قريبا إن لم يمكنهم مجاراته شوطا بعيدا. لا سيما أن القرآن ذ د اكتفى منهم في معرض التحدي بأن يأتوا بسورة من مثل أقصر سورة، أي بمثل ثلاث آيات قصار من بين تلك الآلاف المؤلفة التي اشتمل عليها الكتاب العزيز. وأنت خبير بأن هؤلاء لم تكن لتعييهم تلك المساجلة وهم فرسان ذلك الميدان، وأئمة الفصاحة والبيان، لو كان الأمر من صناعة محمد ﷺ وإنشائه . كما يزعم أولئك الخراصون فما بالك وقد خرست ألسنتهم، وخشعت أصوات الأجيال كلها من بعدهم.

ومعلوم أن النابغة الفذ في أي عصر من العصور، يستطيع أقرانه بيسر وسهولة، أن يحاكوه مجتمعين ومنفردين في الشئ القليل، على فرض أنهم لا يستطيعون معارضته في الجميع أو الشئ الكثير.

---

[١] النساء : ١٦٥.

(الجواب الثالث)

إن القرآن لو كان مصدره نفس محمد، لكان من الفخر له أن ينسبه إلى نفسه . ولأمكن أن يدعي به الألوهية فضلا عن النبوة. ولكان مقدسا في نظر الناس وهو إله، أكثر من قداسته في نظرهم وهو نبي. ولما كان في حاجة إذا إلى أن يلتمس هذه القدسية الكاذبة بنسبته القرآن إلى غيره ﴿ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ [1]

(الجواب الرابع)

إن هؤلاء الملاحدة غاب عنهم أنهم يتحدثون عن أكرم شخصية عرفها التاريخ طهرا ونبلا، وذهلوا عن أنهم يمسون أسمى مقام اشتهر أمانة وصدقا. فكان ﷺ إذا مر بقومه يشيرون إليه بالبنان ويقولون : هذا هو الصادق الأمين. ثم صدروا عن رأيه، ورضوا بحكمه، والعقل المنصف قال ولا يزال يقول: ما كان هذا الأمين الصدوق ليذر الكذب على الناس ثم يكذب على الله ﴿ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [2]

(الجواب الخامس)

إن هذه الشبهة وليدة الغفلة عن مضامين القرآن العلمية، وأنبائه الغيبية، وهداياته الخارجة عن أفق العادة في كافة النوادي البشرية، فردية كانت

---

(1) النساء : ٧٨.

(2) المنافقون : ٨.

أو اجتماعية. لا سيما أن الآتي بهذا القرآن رجل أمي في أمة أمية كانت في أظلم عهود الجاهلية. أضف إلى ذلك ما سجل القرآن على النبي ﷺ من أخطاء في بعض اجتهاداته، ومن عتاب نحس تارة بلطفه، وأخرى بعنفه. ولو كان هذا التنزيل كلامه ما سمح أن يسجل على نفسه ذلك كله. ولكن الملاحدة سفهوا أنفسهم؛ وزعموا رغم هذه البراهين اللائحة أن محمدا افترى القرآن على ربه. كذبوا وضلوا.

﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [١]. [٢]

---

[١] يوسف : ١١١.

[٢] كذا في مناهل العرفان للشيخ عبد العظيم الزرقاني ، ج١ ص ٧٧ ، ط الثالثة .

المبحث العاشر

دفع شبهات المستشرقين حول موثوقية النص القرآني

ما زال أعداء الله منذ القدم يوجهون للقرآن الكريم سهامهم المسمومة من طعن وتشكيك وافتراءات محضة محاولين إضعاف تمكن هذا القرآن من نفوس أهله ليسهل السيطرة عليهم وعلى خيرات بلادهم.

ومعظم ما استند إليه أعداء الله روايات إما واهية أو مختلفة اشتملت عليها بعض الكتب الإسلامية أو شبه أوردها بعض الكاتبين في علوم القرآن وبعضها صحيحة ولكن لها محامل صحيحة، ومخارج مقبولة. فالتقط المبشرون والمستشرقون هذه الروايات وزادوا عليها من خيالاتهم وأوهامهم وسموم حقدهم محاولين بذلك إدخال الريب في نفوس المسلمين.

والإحالة بين قومهم وبين هذا الدين العظيم. ومن بين الشبه التي أثاروها شبه حول موضوع النص القرآني من حيث كونه ثقة أم يمكن الشك في سلامته بزيادة أو نقصان.

ومن بين من أثار هذه الشبهة (موثوقية النص القرآني) أصحاب دائرة المعارف الإسلامية و "تيودور نولديكة" و "اجنتس جولد تسيهر" و " ريجي بلاشير" و " ريتشارد بل" وغيرهم.

وقد حاول أن يرسخ هذه الشبهة بطريق التساؤل "بل" في مقدمته حيث قال: [لو أن شخصا سأل ما الضمان القائم على أن القرآن الذي تم جمعه في عهد عثمان تسجيل صحيح للتنزيلات كما تم تلقيها وإعلانها

بواسطة محمد . . .] [1]

وقد صرح بهذه الشبهة باضطراب وعدم سلامته "جولد تسيهر" في مقدمة كتابه مذاهب التفسير الإسلامي حيث قال:

[فلا يوجد كتاب تشريعي اعترفت به طائفة دينية اعترافا عقديا على أنه نص منزل أو موحى به، يقدم نصه في أقدم عصور تداوله مثل هذه الصورة من الاضطراب وعدم الثبات، كما نجد في نص القرآن] [2]

وقد رد هؤلاء أسباب هذا الاختلاف والاضطراب لعدة أمور منها:

١ــ الاعتماد في حفظ القرآن على صدور الصحابة.

٢ــ الكتابة بوسائل بدائية يصعب المحافظة عليها.

٣ــ نسيان شئ من القرآن استنادا للنصوص العامة من القرآن والسنة التي ذكرت هذا الأمر.

٤ــ وجود منسوخ التلاوة .

٥ــ اختلاف مصاحف الصحابة في عدد السور والآيات ووجوه القراءات والاختلاف في الرسم.

٦ــ النقصان والزيادة في القرآن الكريم للمصلحة.

وسأتناول هذه الشبهة بالعرض والتفنيد إلا ما خصص له مبحث مستقبل كشبههم على الرسم والكتابة والقراءة فسأتركه لمكانه.

---

(١) مقدمة القرآن ــ بل ص ٥٠ .

(٢) مذاهب التفسير الإسلامي طبعة دار إقرأ ــ بيروت ط ٢ ــ ١٤٠٣هــ ــ ١٩٨٣م ــ ص ٤.

الشبهة الأولى :

قالوا : إن القرآن الكريم قد زيد فيه ما ليس منه بدليل ما ورد أن عبد الله بن مسعود كان لا يكتب الفاتحة والمعوذتين في مصحفه.

وفي رواية كان يحك المعوذتين من مصحفه ويقول إنما أمر النبي ﷺ أن يتعوذ بهما، ويقول إنهما ليست من كتاب الله [١]

الجواب :

هذه الرواية مما اختلف في ثبوتها عن ابن مسعود فممن أنكر ثبوتها عنه الإمام الباقلاني في كتابه نكت الانتصار[٢] والإمام النووي أثناء شرحه لصحيح مسلم، وابن حزم في كتابه القدح المعلي تتميم المحلى [٣].

ولكن والحق يقال : إن هذه الرواية وهي إثبات كون المعوذتين قرآنا مما ثبت وصح نسبتها لابن مسعود ﷺ فقد أثبتها عنه الإمام البخاري في صحيحه والإمام أحمد في مسنده. وأبو يعلى في مسنده وهم من هم علما ومعرفة بحديث الرسول ﷺ وهذه رواية البخاري كما في صحيحه.

روى البخاري بسنده إلى زر بن حبيش قال: سألت أبي بن كعب قلت: أبا المنذر إن أخاك ابن مسعود يقول كذا وكذا فقال أبي: سألت رسول الله ﷺ فقال لي : قيل لي فقلت: قال : فنحن نقول كما قال رسول الله ﷺ [٤]

---

(١) انظر مقدمة القرآن ــ واط ــ ص ٤٦ .

(٢) نكت الانتصار ص ٧٥.

(٣) المدخل لدراسة القرآن ص ٢٨٨.

(٤) انظر صحيح البخاري ٩٦/٦ كتاب تفسير القرآن

ونص رواية الإمام أحمد في مسنده بسنده إلى زر بن حبيش قال : قلت لأبي بن كعب: إن ابن مسعود كان لا يكتب المعوذتين في مصحفه فقال: " أشهد أن رسول الله ﷺ أخبرني أن جبريل عليه السلام قال له : قل أعوذ برب الفلق" [1]

وعنه في رواية عبد الرحمن بن يزيد قال : كان عبد الله يحك المعوذتين من مصاحفه ويقول: إنهما ليستا من كتاب الله تبارك وتعالى.

لكن مع صحة هذه الرواية لعبد الله بن مسعود فإنه لا ينقص ذلك من فضله ولا من علمه بكتاب الله شيئا وهو القائل : "والله لقد أخذت من في رسول الله ﷺ بضعا وسبعين سورة" وقل أن يحصل هذا لكثير من الصحابة كما أن رسول الله ﷺ قال في حقه " .. خذوا القرآن من أربعة من عبد الله بن مسعود وسالم ومعاذ وأبي بن كعب " [2] ولكن هذه الروايات مع ثبوتها وصحتها لكنها توجه وتحمل على محامل ووجوه صحيحة بإذن الله تعالى.

وجوه صحيحة في محامل الرواية : ـ

١ ـ إن عدم كتابة ابن مسعود للمعوذتين وسورة الفاتحة لا يستلزم إنكار كونهما من القرآن الكريم لأن ابن مسعود كان ينكر إثباتها في المصحف فقط لأنه كان لا يرى إثبات شئ من القرآن إلا إن كان النبي ﷺ أذن فيه ، وكأنه لم يبلغه الإذن في ذلك فقال ما قال [3]

---

(١) انظر مسند الإمام أحمد ١٢٩/٥ ـ ١٣٠.

(٢) انظر فتح الباري ٤٦/٩.

(٣) الفتح الرباني ـ للبنا ٣٥١/١٨ وما بعدها .

٢ـ ويحتمل أنه ما كان يكتبها اعتمادا على حفظ الناس وشهرتها وأنها أصبحت مما لا يمكن أن ينسى، لأن كتابة القرآن خوفا من أن ينقص منه شئ أو يزاد .

٣ـ وهناك احتمال قوي وهو ما ذكره أحمد في مسنده أنه كان يظن أنهما عوذة ورقيا لأنه كان يرى رسول الله ﷺ يعوذ بهما الحسن والحسين فظن أنهما كقوله ﷺ " أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة وكسائر الرقى" [١]

٤ـ يحتمل أنه قال ذلك في بادئ الأمر لعدم سماعه لها من النبي ﷺ ولكن لما بلغه قول الجماعة وتأكدت قرآنيتها عنده رجع لهذه السور الثلاث وقال بقول الجماعة وأقرأها لتلاميذه وهذا ما أرجحه ، وذلك لما بلغنا من أسانيد القراء الصحيحة لابن مسعود بقراءتهم القرآن بطريقه ومن ضمن ما تلقوه عنه المعوذات الثلاث الفاتحة والفلق والناس. فممن روى القراءة عنه كل من :

١ـ عاصم بن أبي النجود عنه حفص بن سليمان، وعنه أبو بكر بن عياش عن زر بن حبيش عن ابن مسعود عن رسول الله ﷺ ومن ضمن ما تلقوه عنه، المعوذتان والفاتحة [٢]

٢ـ حمزة بن حبيب الزيات أحد القراء السبعة الذي أخذ القراءة عرضا عن سليمان الأعمش الذي كان يجود حرف ابن مسعود والذي أخذه عن رسول الله ﷺ وفيه المعوذتان والفاتحة [٣]

---

(١) تأويل مشكل القرآن الكريم ص ٤٣ ، ٤٤.

(٢) غاية النهاية في طبقات القراء ٣٤٧/١ ـ ٣٤٨ .

(٣) نفس المرجع ٢٦١/١ : ٢٦٢ .

٣ـ أبو الحسن علي بن حمزة الكسائي الذي تلقى قراءة القـرآن عن حمزة بسنده إلى ابن مسعود عن رسـول الله ﷺ وفيـه المعوذتـان والفاتحة [١]

٤ـ أبو محمد خلف بن هشام أبو محمد الأسدي البزار البغـدادي أحد القراء العشرة والروايات عن سليم بن حمزة الذي تنتهي قراءته إلى ابن مسعود إلى رسول الله ﷺ وفيه المعوذتان والفاتحة [٢]

هكذا نرى أن الراجح إثبات ابـن مسـعود للمعـوذتين والفاتحـة ورجوعه لها والقول بقرآنيتها بعد أن كان لا يثبتها في مصحفه مما يـرد ما نسب إليه من هذا الأمر.

ويشهد لصحة ما قلناه أن تأليف السور الثلاث من نفـس تـأليف القرآن العظيم ومن نفس نظمه البديع الـذي أعجـز البلغـاء ودان لـه الفصحاء واعترف له بالعظمة والجلال الإنس والجـان كمـا قـد أثبـت قرآنيتهن برسم الإمام عثمان وانعقاد الإجماع على ذلك فتم بـذلك العلـم اليقين ولا يضرنا قول من قال من هؤلاء المنكرين الملحدين.

<u>الشبهة الثانية :</u>

زعموا أن القرآن نقص منه بعض السور مستدلين على ذلك بكتابة بعض الصحابة كأبي بن كعب بعض السور ولم تكتب في القرآن الحـالي ويقصدون بذلك سورتي الخلع والحفد كما يحلو لهم تسـميتها وهـو مـا يطلق عليه عندنا دعاء القنوت: " اللهم إنا نستعينك ونستهديك ونستغفرك

---

(١) نفس المرجع ١/٥٣٥ ـ ٥٤٠.

(٢) نفس المرجع ١/٢٧٣.

ونتوب إليك . . " [1] أو غيرهما مما تلقفوه من أقوال الشيعة المـــردودة في حق القرآن الكريم.

الجواب :

هذه القضية وسابقتها من القضايا الهامة لتعلقها بجوهر القـــرآن وكماله وتمام نصه. والمستشرقون بنزوات خيالهم وجنوح فكـــرهم ومـــا جبلت عليه نفوسهم يطيب لهم أن يتهموا القرآن الكـــريم هـــذا الجـــوهر المصون، فيدعون أن النص الموجود في مصاحف المسلمين نـــص غيـــر كامل ويزعمون ــ للبرهنة على ذلك ــ بمثل هذه الأدلة غير الصـــحيحة، وبما نسبوه للشيعة من أقوال أن القرآن دخله النقص والزيـــادة. ولكـــن لحسن الحظ فقد قيض الله لهذا الإسلام من ينفي عنـــه زيـــغ المبطلـــين وتأويل الجاهلين وزيف المنحرفين وأهواء الضالين. قال ﷺ : " يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلـــين وتأويل الجاهلين " [2]

وخلو القرآن من الزيادة والنقصان والتحريف أمر لا يشـــك فيـــه مسلم سواء كان متدينا أو من غير المتدينين فالكل مـــنهم يعترفـــون أن القرآن الكريم هو الوثيقة الربانية التي حفظت من التغيير والتبديل والتـــي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها تنزيل من حكيم حميد " [3]

قال الإمام الطبري: (أما الزيادة في القرآن فمجمع على بطلانها

---

(1) انظر مذاهب التفسير الإسلامي ــ جولد تسيهر ص ٢ .

(2) انظر التمهيد لابن عبد البر ج ١ / ٥٩ طبعة المطبعة الملكية المغربية .

(3) انظر قضايا قرآنية د/ فضل عباس ــ دار البشير ــ عمان ــ ص ٢١٦ وما بعدها .

وأما النقصان فهو أشد استحالة) [1]

١ـ فالناظر لما زعموه من كون دعاء القنوت قرآنا أمر غير مسلم به ترده حقائق العلم الثابتة والروايات الصحيحة المنسوبة إلى أبي بن كعب كما ذكر ذلك عنه أبو الحسن الأشعري ـ رحمه الله ـ حيث قال: (قد رأيت أنا مصحف أنس بالبصرة عند قوم من ولده، فوجدته مساويا لمصحف الجماعة، وكان ولد أنس يروي أنه خط أنس وإملاء أبي) [2]

وكتابة أبي لهذا الدعاء لو صحت لا يدل على قرآنيتها لأن مصاحف الصحابة لم تكن قاصرة على المتواتر من القرآن فقط بل كان بعضها مشتملا على الآحادي منه، وعلى منسوخ التلاوة، وعلى بعض التفسيرات والتأويلات والأدعية،وعلى بعض المأثور ومن ذلك هذا الدعاء الذي يقنت به بعض الأئمة في الوتر فلعله إذا أثبته على أنه دعاء لا استغناء عنه .

٢ـ كما أن الناظر لدعاء القنوت يجده مباينا لنظم سائر القرآن ولا يعدو أن يكون من معدن أقوال الرسول ﷺ .

٣ـ والمعروف أن أبيا كان من أقرأ علماء الصحابة وقد ذكره الرسول ﷺ من ضمن الأربعة الذين حض على أخذ القرآن عنهم وذلك بقوله: " خذوا القرآن من أربعة .. وأبي بن كعب" .

لذا لا يمكن لمن كانت هذه منزلته ومكانته العلمية ومعرفته الكبيرة بكتاب الله عز وجل أن يجهل كون دعاء القنوت ليس قرآنا. ولكني أريد

---

[1] انظر شبهات مزعومة حول القرآن الكريم ـ القمحاوي ص ١٥٠.

[2] نكت الأنصار لنقل القرآن الباقلاني ـ ص ٨١ .

أن أبين صفة كان أبي يمتاز بها أنه كان إذا سمع شيئا من رسول الله ﷺ لا يرجع عنه حتى لو أخبره غيره أن تلاوته نسخت. قال عبد الله بن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال عمر: أبي أقرؤنا، وإنا لندع من لحن أبي وأبي يقول: أخذته من في رسول الله ﷺ فلا أتركه لشئ قال الله تعالى : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [1]

هذا كله يؤكد عدم قرآنية دعاء القنوت وعدم ثبوته عن أبي بن كعب.

ويزيد هذا وضوحا وتأكيدا ما بلغنا من القراء الذين أخذوا القرآن بسندهم إليه. ـ رضى الله عنهم ـ ولم يكن من بين ما تلقوه عنه هاتان السورتان المزعومتان.

ومن هؤلاء الأئمة :

١ـ نافع بن أبي نعيم المدني من طريق الأعرج عن أبي هريرة عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ [2] ولم يكن فيما تلقاه هاتان السورتان.

٢ـ عاصم بن أبي النجود الذي أخذها عن زر بن حبيش عن أبي عبد الرحمن السلمي والذي أخذها عن أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ ولم يكن منها هاتان السورتان [3]

٣ـ أبو الحسن علي بن حمزة الذي تلقى القراءة عن طريق إسماعيل ويعقوب ابني جعفر قراءة نافع والذي بدوره أخذ قراءة أبي بالسند السابق [4]

---

(١) البقرة : ١٠٦.

(٢) غاية النهاية في طبقات القراء ٣١/١.

(٣) غاية النهاية في طبقات القراء ٥٣٥/١ ـ ٥٤٠.

(٤) غاية النهاية في طبقات القراء ٥٣٥/١.

٤ــ خلاد أبو عيسى خالد الشيباني بالولاء الذي تلقى قراءة عاصم والتي سندها يتصل إلى أبي بن كعب بالسند السابق [١]

فهؤلاء القراء كلهم وغيرهم قد تلقوا القراءة عن أبي بن كعب ﷺ ولم يكن فيما تلقوه هاتان السورتان المزعومتان مما يدل على عدم ثبوت ذلك عنه. ويؤكد هذا أن القرآن الكريم قد انتشر واشتهر وثبت تدوينه وحددت سوره بمصحف عثمان القطعي ولم يكن هاتان السورتان المزعومتان فيه، والثابت في حق هذا المصحف وأمثاله أنه قد حرق فقد روى محمد والطفيل ابنا أبي بن كعب أنهما قالا لوفد أصحاب عبد الله عندما طلب مصحف أبيهما : إن عثمان قد قبضه منه) [٢]

فهذا كله يؤيد كونه دعاء فحسب ويرد نسبة إثبات هذا الدعاء على أنه قرآن في مصحفه ﷺ .

والله تعالى أعلم .

---

(١) غاية النهاية في طبقات القراء ٢٧٤/١.

(٢) انظر حاشية كتاب تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص ٤٧ ، ونكت الأنصار لنقل القرآن ص ٨٠

الزعم الآخر ، ويتجلى في خمس نقاط : ـ

أما ما زعموه كذلك أن سورا بكاملها ناقصة من القرآن الكريم أو بعض الآيات القرآنية مستدلين على ذلك بما عند الشيعة من روايات ساقطة وحجج واهية زاعمين أن الدافع من وراء ذلك مصلحة بعض الصحابة فسأذكر بعض هذه الأمثلة التي ذكروها والرد عليها .

١ــ ما نسب للإمام علي من حذفه آية المتعة.

٢ــ حذف من القرآن ما يتعلق بفضائل آل البيت وولايتهم كحذف سورة الولاية التي كانت ٧ آيات. وكما فعل بسورة الأحزاب التي كانت لا تقل طولا عن سورة البقرة ــ ٢٨٦آية.

٣ــ حذف جزء من سورة " لم يكن" كان فيها أسماء سبعين رجلا من قريش.

٤ــ الحذف من سورة النور التي كانت أكثر من مائة آية، وسورة الحجر التي كانت تحوي ١٩٠ آية وسورة النورين التي كانت ٤١ آية.

٥ــ مصحف فاطمة وعلي الخاص بهما.

الجواب :

هذه الترهات والأقاويل تلقفها المستشرقون والمبشرون من بعض فرق الشيعة كالإثنى عشرية ومن الغلاة منهم على وجه أخص أمثال الورى ميرزا حسين الطبرسي صاحب كتاب (فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب) المطبوع في إيران سنة١٢٨٩هـ والذي جمع فيه مئات النصوص عن علماء الشيعة ومجتهديهم في مختلف العصور

لإثبات دخول الزيادة والنقص للقرآن الكريم . وقد أثار هذا الكتاب ضجة كبرى لأنهم لا يريدون لكذبهم أن يفضح فألف كتابا آخر سماه (رد بعض الشبهات عن فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب) [١]

والمفيد في كتابه(تحريف القرآن)، والمجلسي في كتابه (تذكرة الأئمة)، والقمي في تفسيره الذي خص فيه التحريف في آيات الولاية ، والكليني في كتابه(الأصول من الكافي) و(روضة الكافي) وأبو القاسم الكوفي علي بن أحمد بن موسى في كتابه (الاستغاثة) وغير هؤلاء كثير [٢]

فهؤلاء جميعا بشكل خاص والشيعة على وجه العموم إلا بعض الفرق كالزيدية يعتقدون أن القرآن الكامل الذي أنزله الله سبحانه كان أطول كثيرا من القرآن المتداول في أيدينا، ومن قرآنهم أيضا.

وقد نقل هذا الأمر "جولد تسيهر" في كتابه (مذاهب التفسير الإسلامي) و "جارسان دي تاسي" و " مرزا كاظم بك" في (المجلة الآسيوية سنة ١٨٤٢م) اللذان نشرا سورة من هذه السور المتداولة في دوائر الشيعة

كما اعتنى بجمع هذه الزيادات الشيعية " كلير تسدال" باللغة الإنجليزية [٣]

والمعروف أن الشيعة بذلوا جهدهم لإثبات هذه المسألة في سبيل أن يجدوا لعقيدتهم الدينية والسياسية مستندا من القرآن الكريم. وهذه العقيدة تتمثل في رفض الشيعة خلافة أهل السنة، وتقديس علي والأئمة، ورجعة الإمام

---

(١) انظر الشيعة وتحريف القرآن ـ محمد مال الله ـ ص ٥٧.

(٢) تعريف بمذهب الشيعة الإمامية ص ٨٣ ـ ٨٤ .

(٣) مذاهب التفسير الإسلامي ص ٢٩٤.

المهدي المحتجز الذي يعيش في الخفاء. ومن هذا المنطلق كان التحريف الشيعي للروايات والافتراءات التي بها محاولة إثبات النقص في كتاب رب العالمين.

وقد أنكر علي الشيعة هـذه الافتـراءات أحـد عقلائهـم "الإمـام الطبرسي" صاحب كتاب (مجمع البيان لعلـوم القـرآن) و " الشـريف المرتضي ".

قال الإمام الطبرسي: " أما الزيادة في القرآن فمجمع على بطلانها وأما النقصان فهو أشد استحالة. ثم قال : إن العلم بصحة نقـل القـرآن كالعلم بالبلدان والحوادث الكبار والوقائع العظـام، والكتـب المشـهورة وأشعار العرب المسطورة فإن العناية اشتدت والدواعي توفرت على نقلـه وحراسته ، وبلغت إلى حد لم يبلغه شئ في الوجود لأن القـرآن معجـزة النبوة، ومأخذ العلوم الشرعية والأحكام الدينية، وعلماء المسـلمين قـد بلغوا في حمايته الغاية القصوى حتى عرفوا كل شئ اختلـف فيـه مـن تفسيره وأحكامه وإعرابه وقراءاته ورسمه وضبطه وعدد آياتـه وعـدد نقطه وحركاته فكيف يتخيل عاقل بعد تلك العناية الفائقة بالقرآن الكـريم، أن يحصل فيه نقص أو زيادة مع هذا الضبط الشديد" [1]

والذين ينسبون هذا الفعل للصحابة لا يعرفون مقدار حب الصحابة لهـذا الكتاب العظيم الذي فاق حبه عندهم الأهل والولد.

لذا لا يعقل أن تتفق هذه الأمة التي أحبت هذا الكتاب وقدسته، أن تتفق على مثل هذا العمل المفترى دون أن يقوم من ينكر ذلـك، مـع أن

---

(1) انظر شبهات مزعومة حول القرآن الكريم ص ١٥٠ ، ١٥١.

الصدق والأمانة في الأداء والدقة في النقل كانت السمة البارزة لهم حتى إنهم اشترطوا لجمعه موافقة المحفوظ في الصدور لما هو عندهم مكتوب في السطور. بل إن زيدا عندما فرغ منه راجعه ثلاث مرات ثم راجعه أمير المؤمنين عثمان ﷺ مرة رابعة فلما اطمأن قلبه له حمل الناس عليه.
لذا لقد نال هذا الكتاب من العناية والضبط ما لم ينله كتاب آخر وأي مصلحة في إسقاط شئ من كلام الحكيم الخبير الذي لم يجعل لهم عليه سلطانا فأرجع حفظه له وحده وتكفل ذلك بنفسه قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (١)

وإذا كان شعر النابغة أو شعر زهير بن أي سلمى لا يستطيع أحد أن يزيد فيه شيئا أو ينقص منه شيئا لأن أمره سيفتضح فمن باب أولى هذا القرآن العظيم الأكثر اشتهارا.
فالدفاع عنه والمحافظة عليه مقدم على مثل هذه الأشعار. كما أن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ كانوا يحتاطون لأحاديث الرسول ﷺ فلا يسمحون بالزيادة فيها أو الإنقاص منها والقرآن الكريم أولى منها بلا شك.

روى عن أبي سعيد الخدري قال: " كنت جالسا في مجلس من مجالس الأنصار، فجاء أبو موسى فزعا فقالوا: ما أفزعك؟ قال: أمرني عمر أن آتيه فأتيته فاستأذنت ثلاثا فلم يؤذن لي فرجعت فقال: ما منعك أن تأتينا فقلت: إني أتيت فسلمت على بابك ثلاثا فلم تردوا علي، فرجعت.

---

(١) الحجر : ٩.

وقد قال رسول الله ﷺ " إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع " [1]

قال عمر: لتأتيني على هذا بالبينة، فقال عمر لأبي موسى: إني لم أتهمك ولكنه الحديث عن رسول الله ﷺ وفي رواية أخرى وذكر أن عمر قال لأبي موسى : أما إني لا أتهمك، ولكنني أحببت أن أتثبت " [2]

فإذا كان هذا حال الصحابة مع الحديث النبوي الشريف من التحقق والتثبت مع أنهم كلهم عدول أمناء أوفياء لا يجرؤن أن يكذبوا على رسول الله ﷺ لا بزيادة ولا بنقصان لا لمصلحة خاصة لأحدهم ولا عامة كما يزعم الشيعة فكيف إذن لا يكونون أشد تحققا وتثبتا في كلام رب العالمين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه من الحديث النبوي الشريف أو غيره.

ماذا قال المستشرق الأمريكي عن القرآن الكريم :ـ

قال المستشرق الأمريكي "ر.ف. بودلي" في كتابه (الرسول: حياة محمد) عن القرآن الكريم : [فبين أيدينا كتاب معاصر فريد في أصالته وفي سلامته لم يشك في صحته كما أنزل أي شك جدي، وهذا الكتاب هو القرآن. وهو اليوم كما كان يوم كتب لأول مرة تحت إشراف محمد، وعلى الرغم من أن الأفكار قد دونت في الرقاع وسعف النخل والعظام في لحظات غريبة، فالسور والآيات الأصلية قد حفظت .. ثم يقول : وإن الحسنة الوحيدة في طريقة زيد أنها كانت أمينة فوق الشبهات فلم يفعل

---

(1) انظر صحيح البخاري ١٣٠/٧ ـ كتاب الاستئذان ـ باب ١٣ التسليم والاستئذان ثلاثا .

(2) انظر تاريخ القرآن وغرائب رسمه وحكمه ـ محمد طاهر الكردي ـ ط ٢ ـ ١٣٧٢هـ ـ ١٩٥٣م ـ ص ٦٣ وما بعدها .

شيئا ليضيف فقرات، أو يضع جمل ربط، أو يحـذف أو ينسـخ تفاصيل تشين الإسلام، لقد عمل بإخلاص لا يمكن تصوره حتى إنه لما انتهى من نشر القرآن، كان الكتاب من عمل مؤلفه خالصا ومؤلفه فقط) ـ أي الله سبحانه وتعالى ـ .

ثم يقول : والمهم أن القرآن هو العمل الوحيد الذي عاش أكثر من اثنى عشر قرنا دون أن يبدل فيه، ولا يوجد شئ يمكن أن يقـارن بهـذا ادنى مقارنة، لا في الديانة اليهودية ولا في الديانة المسيحية) [1]

<u>من مزاعمهم والرد عليها : ـ</u>

والآن سأعرض لبعض هذه المزاعم للرد عليها.

<u>المسألة الأولى :</u>

ما نسبوه لعلي ﷺ أنه أسقط آية المتعة . . إلخ فهـو محـض كذب وافتراء ولا أدري ماذا يريد الطاعن بالمتعة فإن أراد نكـاح المتعـة فالآية التي يستدل بها بعض القائلين بإباحته موجودة في سورة النساء لم يحذفها على كما زعموا وهي قوله تعالى : ﴿ فَمَا اسْـتَمْتَعْتُمْ بِـهِ مِـنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾ [2] ونكاح المتعـة أحـل فـي أول الإسـلام للضرورة ثم حرم إلى قيام الساعة [3]

وأما إذا قصدوا آية أخرى فعليهم البيان والبراهين.

---

(1) تاريخ القرآن ــ الكردي ــ ص٦٨ ، ٦٩ .

(2) النساء : ٢٤ .

(3) المدخل لدراسة القرآن الكريم ــ ص ٢٩٤ ــ ٢٩٥ .

والشيعة ليست حجة على القرآن وأهلـه لانحـرافتهم العقديـة الخطيرة والتي منها نسبة النقص إلى كتاب الله سبحانه وتعـالى مـع أن التواتر قد قام والإجماع قد انعقد على أن الموجود بين دفتـي المصـحف كتاب الله من غير زيادة ولا نقصان ولا تغيير ولا تبديل.

المسألة الثانية :

ما زعموه أن القرآن الذي جاء به جبريل إلى محمد ﷺ كان سبعة عشر ألف آية مع أن آياته ستة آلاف ومائتان وثلاث وستون آية. ومـا زعموه من رواية منسوبة لمحمد بن نصر أن سـورة (لم يكن) كـان فيها اسم سبعين رجلا من قريش بأسمائهم وأسماء آبائهم. ومـا نسـب لمحمد بن جهم الهلالي وغيره عن أبي عبد الله أن لفظ " أمة هي أربـى من أمة" سقطت من سورة النحل على حد زعمهم. وما زعموه من سقوط سورة "الولاية" بتمامها. وما زعموه من سقوط أكثر سورة "الأحزاب" [1].

هذه الترهات وأمثالها مما افتراه الشيعة لإثبات مذهبهم ومقصدهم المنحرف، مع أنها روايات مكذوبة ينقضها العقل والتاريخ. وهي مجـرد ادعاءات لم يقم عليها دليل ولا شبهة دليل، ولو أن كل دعوة تقبـل مـن غير دليل لما ثبتت حقيقة، ولما توصل الناس إلى علم ومعرفة. وصـدق من قال : [أصحاب الدعاوى أدعياء ما لم يقيموا عليها دلـيلا] فمـثلا زعمهم أن سورة الأحزاب كانت توازي سورة البقرة طولا ومن ضـمنها آية الرجم وأن الصحابة لوجود فضائل أهل البيـت فيهـا ناسـبين ذلـك للصحابي الجليل أبي بن كعب. فالناظر إليه من أول وهلة يشم منه رائحة

---

(1) الشيعة والقرآن ــ إحسان إلهي ظهير ــ ص ٣١.

الكذب والافتراء حتى قال الإمام الباقلاني في ذلك: [هذا شئ لا يصح عن أبي ولو صح فمعناه أنها نسخت تلاوتها وأزيلت، لأنه لم يقل فرطنا فيهــا ولا ضيعناها، وكيف يصح أن يضيع أو يفرط وهو الذي أدخل في مصحفه القنوت الذي ليس هو قرآنا من شدة احتياطه وقــوة اجتهاده [1]. كما ذكر المستشرقون.

وقد أخذ هذه الافتراءات المستشرقون كأمور مسلمات فرحين بهــا وكأنها صيد سمين وهذه الأقوال وأمثالها دعت الشيعة للاعتقاد الفاسد أن القرآن لم يجمع لصحابي من الصحابة أو لمسلم من المسلمين قط، وإنمــا جمع فقط لعلي ﷺ ولأئمتهم لذا قال صاحب الكافي : (باب أنه لم يجمع القرآن كله إلا الأئمة ــ عليهم السلام ــ وأنهم يعلمون علمه) [2] وذلــك كله ليستدلوا منه على نقص القرآن الكريم لذا نقل "بيرتــون فــي كتابــه (جمع القرآن) رواية نسبها لابن عمر متأثرا بأقوال الشيعة حيث قال: [لا تجعلوا أحدكم يقول: لقد حصلت على مجمل القرآن فكيف يتســنى لــه أن يعرف ماذا كان ذلك المجمل؟ إن كثيرا من القرآن قد ذهب فليقل بدلا مــن ذلك : لقد حصلت على ما ظل موجودا] .

ونقل عن زيد : [لقد مات النبي ولم يكن قد تم جمع القرآن فــي أي مكان] [3].

كل ذلك ليؤكدوا أن القرآن أصابه النقص ولم يجمع بتمامه.

---

(1) انظر نكت الأنصار ــ ص ٩٥ ــ ٩٦ .

(2) تعريف بمذهب الشيعة الإمامية ــ ص ٨٢ .

(3) جمع القرآن لبيرتون ــ ص ١١٧ ، ١١٨ .

وهذه الفرقة التي اعتمد أقوالها المبشرون والمستشرقون على السواء طاعنين في كتاب الله سبحانه نشأت بعد موت النبي ﷺ بخمس وعشرين سنة، وقد انتشرت المصاحف في الأصقاع الإسلامية وحفظها الصغار قبل الكبار دون اختلاف. وقد كانت من الكثرة مما لو حاول بعضهم أن يحصيها لأواخر عهد عثمان ﷺ لما استطاع ، وآلت الخلافة والسلطة للإمام علي ﷺ الذي سار على طريق من سبقه من الخلفاء، فلو كان نقص أو زيادة في القرآن وعلمه لما وسعه إلا إبرازه ولأعاده لما ينبغي أن يكون عليه من الصواب. بل قد نقل عنه أقوال تدافع عن عثمان وجمعه وأنه ما صدر إلا عن موافقة الصحابة - رضوان الله عليهم - وعلى رأسهم علي نفسه ﷺ .

ولما كان هذا موقفه تبين زيف الشيعة ومن ورائهم زمرة المبشرين والمستشرقين وبطلان دعواهم بوجود النقص والزيادة في كتاب الله سبحانه وأنه لم يجمع إلا للأئمة الأعلام من الشيعة وعلى رأسهم الإمام علي ـــ رضوان الله عليه ـــ وقد علق على موقف الشيعة من القرآن الكريم " بل، وواط " حيث بينا أن هذه التهم لا تقوم على أسانيد منطقية ولا تنسجم مع أسس النقد الحديث وأن القرآن لا يشك في موثوقيته [1].

---

(1) انظر مقدمة القرآن لمتجمري واط ـــ ص ٥١ .

أدلة المستشرقين في زعمهم الذي ذهبوا إليه :

وقد حاول المستشرقون إيجاد بعض الأدلة ليدعموا هذه المزاعم التي تلقفوها من الشيعة للإيهام أن في القرآن نقصا وعلى رأس هؤلاء المستشرقين "جرجس صال" ومن هذه الأدلة:

١ـ قول الرسول ﷺ : " رحم الله فلانا أذكرني كذا وكذا آية أسقطتها من سورة كذا وكذا وفي رواية " أنسيتها " كنت نسيتها "[١].

٢ـ قوله تعالى : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَىٰ ﴾ [٢].

٣ـ ضياع بعض الأدوات التي كتبت عليها القرآن.

٤ـ سقوط بعض الآيات لفظا وبقاؤها حكما [٣].

الجواب :

١ـ بالنسبة للحديث المذكور سابقا فهو حديث صحيح رواه الإمام البخاري في صحيحه وقد جاءت كلمة "أنسيتها" في الرواية الثانية تفسيرا لما في الرواية الأولى قوله:"أسقطتها" لتدل على أن الإسقاط كان بطريق النسيان لا العمد ورسول الله ﷺ بشر ينسى كما ينسى بقية بني البشر ولكنه محفوظ من الله سبحانه وتعالى بتذكيره. لذا لا يضره هذا النسيان ما دام سيحصل له التذكر إما من نفسه أو من مذكر خارجي كما في الحديث وقد وضح الإمام ابن حجر هذا النوع من النسيان بقوله: والنسيان من النبي ﷺ لشئ من القرآن يكون على قسمين :

---

[١] انظر فتح الباري شرح صحيح البخاري ٩/٨٤ ـ ٨٥ ـ كتاب فضائل القرآن ـ باب نسيان القرآن ، وهل يقول نسيت آية كذا وكذا ؟ .

[٢] الأعلى : ٦.

[٣] انظر كتب أسرار القرآن ـ جرجس صال ـ ص ٢٣ ، ومقدمة القرآن لبلاشير ص ١٦، ١٧.

أحدهما : نسيانه الذي يتذكره عن قرب، وذلك قائم بالطباع البشرية وعليه يدل قوله ﷺ في حديث ابن مسعود في السهو : "إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون" [١].

الثاني: أن يرفعه الله عن قلبه على إرادة نسخ تلاوته وهو المشار إليه بالاستثناء في قوله تعالى : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى * إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ وهو المشار إليه في النقطة الرابعة السابقة.

وأما القسم الأول فعارض سريع الزوال لظاهر قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [٢].

وأما الثاني فداخل في قوله تعالى : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ [٣] على قراءة من قرأ بضم أوله من غير همزة فالنسيان عارض بشري يجوز على الأنبياء فيما ليس طريقه البلاغ من أمور الدين والشريعة، أما ما كان من أمور الدين والشريعة مما هو واجب البلاغ فيجوز لكن بشرطين:

أحدهما : أنه بعد ما يقع منه تبليغه.

والآخر: أنه لا يستمر على نسيانه بل يحصل له تذكرة إما بنفسه وإما بغيره [٤].

وأما قبل التبليغ فلا يجوز أصلا وهذا ما قام عليه الدليل العقلي إذ لو جاز النسيان قبل التبليغ أو بعده بدون أن يتذكر أو يذكره الغير لأدى

---

(١) انظر فتح الباري ٩/٨٦ .

(٢) الحجر : ٩.

(٣) البقرة : ١٠٦.

(٤) انظر فتح الباري ٩/٨٦.

إلى الطعن في عصمة الأنبياء ولجاز ضياع بعض الشـرائع والأديـان [١]
ومثل هذا النوع من النسيان لا يزعزع الثقة بالرسول ﷺ ولا يشكك في دقة جمع القرآن ونسخه وليس في هذا الخبر الذي ذكروه رائحة أن هذه الآيات لم تكن بالمحفوظات التي كتبها كتاب الوحى، وليس فيه مـا يـدل على أن أصحاب الرسول كانوا قد نسوه جميعا حتى يخاف عليها وعلـى أمثالها الضياع ويخشى عليها السقوط عند الجمع واستنسـاخ المصـحف الإمام، كما يفتري هؤلاء الخراصون، وعلى رأسهم "جـرجس صـال" و "بلاشير" بل الرواية نفسها تثبت صراحة أن في الصحابة من كان يقرؤها وسمعها منه الرسول ﷺ كما حصل ذلك من قراءة عباد بن بشـر لهـا وسمعها منه رسول الله ﷺ فتذكرها ورسول الله قد حفظهـا قبـل هـذا الصحابي الجليل واستكتبها كتاب الوحي، وبلغها للناس فحفظوهـا عنـه ومنهم رجل الرواية عباد بن بشر ﷺ.

ونسيان رسول الله ﷺ لهذه الآيات أمر طبيعي يقع مع كل بنـي البشر إذا كان يقرأ نصا قرآنيا واشتغل ذهنه بغيره مع أنه مخـزون فـي حافظته يظهر إذا دعاه داع يستعرضه ويستعرضه ثانية ومثل هذا النسيان لا يعني إمحاءه من حافظته مطلقا لأن في ذلك إخلالا بوظيفـة الرسـالة والتبليغ [٢] وهي بلا شك مما كتب في المصحف ولم تنقص منه كما يظن هؤلاء [٣].

---

(١) انظر المدخل لدراسة القرآن الكريم ـــ ص ٢٩٣.

(٢) انظر مناهل العرفان ١/٢٥٩ ـــ ٢٦٠.

(٣) انظر مناهل العرفان للزرقاني ١/٢٥٨.

كما أن الأحاديث الصحيحة أشارت إلى أن جبريل عليه السلام كان يعارض رسول الله ﷺ القرآن في كل رمضان مرة واحدة.

عن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ أنه قال : " كان رسول الله ﷺ أجود الناس ، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن" الحديث [1].

وفي آخر رمضان من حياته عارضه مرتين والمقصد من هذه المعارضة هي تثبيت حفظ رسول الله ﷺ وحذف منسوخ التلاوة، والإبقاء على النص القرآني صافيا محددا منضبطا فبكل هذه الأدلة يتضح لنا سلامة النص القرآني من الزيادة والنقصان وعدم تأثير ما كان يطرأ عليه من سهو ونسيان.

٢ــ أما دليلهم الثاني: وهو قوله تعالى: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى * إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ استدل المستشرقون بهذه الآية على نسيان رسول الله ﷺ القرآن ومرجع ذلك عندهم الجهل لمراد الله سبحانه وتعالى في الآية الكريمة فسبب نزول هذه الآية هو أن النبي ﷺ كان يتذكر القرآن في نفسه مخافة أن ينسى، فأزال الله خوفه بهذه الآية .

أما الاستثناء: فالمحققون من العلماء على أنه ليس بحقيقي وإنما هو صوري يراد منه تأكيد عدم النسيان بتعليق الشئ على ما هو مستحيل وقوعه وليدل على استحالته بالبرهان وقد ضمن الله لنبيه تحقيقه له فكيف يشاء إنساءه له ؟

قال تعالى: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾[2]

---

[1] انظر إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري ٧٢/١.

[2] القيامه ١٦ ــ ١٨

والذي يدل أن الاستثناء صوري.

١ــ ما جاء في سبب النزول وهو أن النبي ﷺ كان يتعب نفسه بكثــرة قراءة القرآن حتى وقت نزول الوحي مخافة أن ينساه ويفلت منه فأراد الله تطمينه.

٢ــ إن قوله ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ فيه تعليق وقوع النسيان على مشــيئة الله والمشيئة لم تقع بدليل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ (١)

أما الغرض من الاستثناء فهو :

١ــ تعريفه ﷺ أن عدم النسيان من فضل الله تعالى عليــه فيــدين لــه بالشكر والعبادة والذكر في كل وقت .

٢ــ تعريف أمته على ذلك حتى لا يخرجوه ﷺ من مقام العبوديــة إلــى مقام الألوهية كما فعل ذلك اليهود والنصارى بأنبيائهم.

وأيا ما يكن معنى الاستثناء فإنه لا يفهم منه أن الرسول ﷺ نسى حرفا واحدا مما أمر بتلاوته وتبليغه للخلق وإبقاء التشريع على قراءتــه من غير نسخ وذلك على أن المراد من النسيان المحو التام من الذاكرة.

ولا يمنع هذا من أن يشاء الله أن ينسيه ما أراد ســبحانه نســخه فيذهب من قبله قال تعالى: ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ وأيا كان فإن المراد مــن الآية لا يشهد لدعواهم فالقصد نفى النسيان رأسا (٢)وما ورد من أنه نسى شيئا كان يذكره فإن صح ذلك فهو في غير مــا أنــزل الله مــن الكتــاب

---

(١) القيامة : ١٧

(٢) مناهل العرفان١/ ٢٦١ ، المدخل لدراسة القرآن الكريم ــ ص ٢٩٣ ــ ٢٩٤.

والأحكام التي أمر بتبليغها، وكل ما يقال سوى ذلك فهو من مدخلات الملحدين التي جازت على عقول الجاهلين المغفلين .

٣ــ أما الدليل الثالث : ضياع بعض الأدوات التي كتب عليها القرآن ، فقد يأتي له مزيد بيان فيما يتعلق بجمع القرآن من شبهات .

المسألة الثالثة :

استدلالهم على الزيادة والنقصان بوجود مصحف خاص لعلي وزوجه فاطمة رضوان الله عليهم.

الجواب :

لا أحد ينكر أن كثيرا من الصحابة كان لهم مصاحف خاصة بهم لأنفسهم خلطوا فيها بين ألفاظ القرآن وما كان شرحا لها وبيانا لمغزاها. وبين بعض القراءات وإن لم تكن متواترة ولم تثبت في العرضة الأخيرة وهذه المصاحف تختلف عن المصحف الإمام بالزيادة تارة وبالنقصان تارة أخرى ومرة بالتقديم ومرة بالتأخير وهكذا. لذا فلا يجوز القراءة بهذه المصاحف لمخالفتها ما أجمع عليه الصحابة رضوان الله عليهم وهذه أمثلة من هذه المصاحف.

١ــ جاء في مصحف عمر بن الخطاب ﷺ في سورة الفاتحة : "صراط من أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم وغير الضالين" وفي سورة المدثر " في جنات يتساءلون يا فلان ما سلكك في سقر".

٢ــ وجاء في مصحف علي بن أبي طالب ﷺ " آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه وآمن المؤمنون " .

وفي مصحف عائشة أم المؤمنين ـ رضى الله عنها ـ في سورة الأحزاب : " إن الله وملائكته يصلون على النبي والـذين يصـلون فـي الصفوف الأولى" .

فلهذا السبب ولغيره اتفقت الأمة بموافقة عثمان ﷺ على الاجتماع على مصحف واحد وتحريق ما سواه حتى لا تكون هذه المصاحف سببا للفتنة وضياع النص الإلهي الصحيح [١].

ومن هنا يظهر أن وجود مصحف خاص بعلي وبزوجه فاطمة مع وجود بعض المخالفات بينها وبين المصحف الإمام ، ليس دليلا كافيا على وجود النقص والزيادة في الكتاب العزيز لأن الدجة في الكتاب نفسه على غيره لا العكس.

المسألة الرابعة :

استدلالهم على الزيادة والنقصان في القرآن الكريم بعمل الحجاج [٢] إلى غير ذلك لإثبات خلافة بني إمية ، وإبطال خلافة ولد على والعبـاس على حد زعمهم.

الجواب :

هذه القضية من جملة الأدلة الواهية التي يستدلون بها على مثـل هذا الأمر الخطير. وهذه القضية ينقضها الواقع ويكذبها التـاريخ، وهـي تتلخص في أن الناس لما فسدت ألسـنتهم بـاختلاف ألفـاظهم ، وتغيـر

---

(١) كتاب شبهات مزعومة حول القرآن الكريم ـ ص ١٥٢ ـ ١٥٤.

(٢) أسرار عن القرآن ـ سال ـ ص ٣٤ ، والمدخل لدراسة القرآن الكريم ـ ص ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ومناهل العرفان ١/٢٦٦ ، ٢٦٧.

طباعهم، بدخول اللحن على كثير من خواص الناس وعـوامليهم، حـدث تغيير وتحريف في نص القرآن الكريم، طلب أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان على إثر ذلك من الحجاج بن يوسف الثقفي واليه علـى العـراق، بإعجام المصاحف ليزول اللحن والخطأ في كتاب الله عز وجل. قال الإمام أبو عمرو الداني موضحا هذا الأمر في كتابه المحكم في نقط المصـاحف:

[اعلم أيدك الله بتوفيقه أن الذي دعا السلف ــ رضوان الله عليهم ــ إلى نقط المصاحف بعد أن كانت خالية من ذلك وعارية منه وقـت رسـمها. وحين توجيهها إلى الأمصار، للمعنى الذي بيناه والوجه الذي شرحناه، ما شاهدوه من أهل عصرهم، مع قربهم من زمن الفصاحة ومشاهدة أهلهـا من فساد ألسنتهم ، واختلاف ألفاظهم ، وتغير طباعهم، ودخـول اللحـن على كثير من خواص الناس وعوامهم، وما خافوه مـع مـرور الأيـام، وتطاول الزمان من تزيد ذلك ، وتضاعفه فيمن يأتي بعد، ممـن هـو ــ لاشك ــ في العلم والفصاحة والفهم والدراسة دون من شـاهدوه، ممـن عرض له الفساد، ودخل عليه اللحن لكي يرجع إلى نقطها، ويصار إلـى شكلها ، عند دخول الشكوك وعدم المعرفة ويتحقق بذلك إعـراب الكلـم، وتدرك به كيفية الألفاظ ..] [1].

وقد جاءت إشارات لمحاولات تيسيرية لبعض الصحابة في بعض المواطن كأهل المدينة وأهل مكة الذين تركوا نقطهم وتبعوا أهل البصرة [2]

---

[1] انظر المحكم في نقط المصاحف ، لأبي عمرو الداني ــ طبعة دار الفكر ــ ط ٢ ــ ١٤٠٧ هـ ــ ١٩٨٦م ــ ص ١٨ ، ١٩.

[2] انظر كتاب النقط ، لأبي عمرو الداني ص ١٢٤ وكتاب المحكم في نقط المصاحف ص٢ وما بعدها

ولكن الأمر لم يصبح له قواعد وقانون إلا في عهد عبد الملك بن مـروان الخليفة الأموي وقد اختلفوا في أول من نقط المصاحف على أقوال

قيل : إنه أبو الأسود الدؤلي أراد ان يعمل كتابا في العربية يقـوم به ما فسد من كلام الناس.. فقال : أرى أن ابتدئ بإعراب القرآن فجعـل الفتحة نقطة فوق الحرف، والكسرة نقطة تحت الحرف، والضـمة نقطـة أمام الحرف والتنوين نقطتين.

وقيل: كان عمله بطلب من زياد بن أبيه والي البصرة سنة ٤٨.

وقيل: بل كان عمل نصر بن عاصم الليثي سنة ٨٠هـ بأمر مـن الحجاج ، وأنه الذي خمس وعشر.

وقيل: بل كان عمل يحيي بن يعمر، وأن الخليل أتم عملـه بجعـل الهمز والتشديد والروم والإشمام، فيحتمل أن يكون أول من ابتدأ بـالنقط كنظام له قواعد أبو الأسود الدؤلي، ثم تبعه نصر بن عاصم ويحيـي بـن يعمر، ثم جاء بعدهم بقرن تقريبا الخليل بن أحمد فابتدع علامات أخـرى. بهذا أصبح للنقط نظام له قواعد وأصول تتبع.

فيجمع بين هذه الأقوال أن عمل أبي الأسود الدؤلي كـان شـكلا بطريقة النقط، أما نقط الحجاج بلجنته المكونة من نصر بن عاصم ويحيي بن يعمر، والحسن البصري فهو بالاصطلاح المعروف اليوم، وكان طابعها طابعا رسميا.

أما ما نسب من عمل كهذا ليحيي بن يعمر وابن سيرين فيكـون عمـلا

فرديا (1) والآن سأعرض الحروف التي غيرها الحجاج كما ذكرها ابن أبي داود في كتابه المصاحف (2) قال ابن أبي داود: [كانت في البقرة " لم يتسن وانظر" بغير هاء فغيرها "لم يتسنه" بالهاء (3). وكانت في المائدة " شريعة ومنهاجا" فغيرها " شرعة ومنهاجا " (4) وكانت في يونس " هو الذي ينشركم " فغيره "يسيركم" (5) وكانت في يوسف " أنا آتيكم بتأويله " فغيرها " أنا أنبئكم بتأويله" (6).

وكانت في المؤمنين "سيقولون لله ... لله ... لله " فجعل الآيتين " الله ... الله " (7) . وكانت في الشعراء في قصة نوح " من المخرجين " ، وفي قصة لوط "من المرجومين" (8)

---

(1) انظر اللالئ الحسان في علوم القرآن ـ ص ٦٩ ـ ٧١ " بتصرف " .

(2) أي في كتابة المصاحف ص ٥٩ ، والباقلاني في كتابه "نكت الانتصار لنقل القرآن" ص ٢٩٩

(3) والقراءتان سبعيتان ، كما ذكرهما ابن زنجلة في حجة القراءات ص ١٤٢ ، ١٤٣ ، حيث قرأ حمزة والكسائي ، " لم يتسن" بحذف الهاء في الوصل ، وقرأ الباقون : " لم يتسنه " بإثبات الهاء في الوصل

(4) قرأ النخعي وابن وثاب بفتح الشين ، وقرأ الجمهور بكسرها " وشرعة" ولم أجد أحدا أشار لقراءة "شريعة"

(5) والقراءتان سبعيتان ، ذكرهما ابن زنجلة في كتابه " حجة القراءات " ص ٣٢٩ ، حيث قرأ ابن عامر "هو الذي ينشركم " بالنون والشين ، وقرأ الباقون : " يسيركم " .

(6) قرأ الحسن " أنا آتيكم " بهمزة مفتوحة ممدودة بعدها تاء مكسورة ، وياء ساكنة ، وقرأ وصلا نافع وأبو جعفر " أنا أنبئكم " كما ذكر ذلك أحمد عبد الغني الدمياطي في كتابه " إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر " ٢٦٥ .

(7) القراءات سبعيات كما ذكر ذلك ابن زنجلة في حجة القراءات : ص ٤٩٠ ، حيث قرأ أبو عمرو " سيقولون الله " سيقولون الله بالألف فيهما ، وقرأ الباقون " الله .... الله " ولم يختلفوا في الأولى .

(8) لم أجد أحد أشار لما ذكره المؤلف .

وكانت الزخرف " نحن قسمنا بينهم معايشهم " فغيرها "معيشتهم" [1]. وكانت في الذين كفروا " من ماء غيرياسن " فغيرها "من ماء غير آسن" [2] . وكانت في الحديد" فاللذين آمنوا منكم واتقوا لهم أجر كبير" فغيرها "وأنفقوا" [3]
وكانت إذا الشمس كورت
" وما هو على الغيب بظنين" فغيرها "بضنين" [4].

هذه القراءات كما لاحظت من الصحيح المتواتر الثابت الذي يجوز القراءة به على أية وجه رسم به ومنها ما لم أجده ثابتا مما يدعو للشك في نسبته للحجاج، وخاصة أنه لم يكن بمعزل عن الأمة، بل ما كان لأحد من المسلمين في عصره ليسمح بتغيير أو بتبديل شئ ثابت عن رسول الله ﷺ قرآنا كان أو حديثا. فهذا كله يرد دعاوي هؤلاء المستشرقين] . أمور ذكرها صاحب كتاب آراء المستشرقين يدفع بها دعاواهم في هذا الخصوص : —

ومما يؤكد صحة ما ذهبت إليه عدة أمور منها :

١ــ كون الحجاج من شيعة عثمان ، وكان يؤاخذ كل من قصر في نصرته يوم الدار، فكيف لمن هذا حاله أن يطعن في عثمان ومصحفه ويغيره.

---

(١) قراءة الجمهور معيشتهم على الإفراد . وقرأ عبد الله والأعمش ، وابن عباس وسفيان معائشهم على الجمع ، كما ذكر ذلك أبو حيان في البحر المحيط ١٣/٨.

(٢) قرأ السبعة ما عدا ابن كثير غير آسن بالمد ، أما قراءة ياسن فهي قراءة شاذة ذكرها أبو حيان في تفسيره بلفظ قيل .انظر حجة القراءات لأبن زنجلة ص٦٦٧ ،وتفسير البحر المحيط ٧٩/٨ .

(٣) لم أجد من أشار لهذه القراءة .

(٤) قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي وريس وابن مهران عن روح بالظاء ، وقرأ الباقون بالضاد ، وكذا في جميع المصاحف ، انظر النشر في القراءات العشر ٣٩٨/٢ ، ٣٩٩.

٢ـ إن المصحف العثماني انتشر في الآفاق وكثرت نسخه في عهد عثمان وعلي لغاية أنه لو أراد أحد إحصاءها لما استطاع ، فكيف بعددها في عهد الخلافة الأموية فلا شك أنه بلغ أكثر من ذلك كما أن الحجاج ما كان إلا واليا لولاية من ولايات الدولة الإسلامية المترامية الأطراف ، والمتباعدة النواحي فإذا استطاع تغيير المصاحف في ولايته فأنى له أن يصل للمصاحف في الولايات الأخرى وهي بالآلاف.

والتاريخ لم يذكر تناقضا بين المصاحف في العراق وبين المصاحف في غيرها.

والمعروف أن الحفظ لهذا الكتاب العظيم كان حفظا في المصاحف كان حفظا في الصدور فإذا استطاع الحجاج أن يصل لحفظ السطور فأنى له أن يصل لحفظ صدور الآلاف من المسلمين.

٣ـ والمعروف كذلك أن الدولة العباسية قامت على أنقاض الدولة الأموية وقد غيروا كثيرا من سياسات بني أمية في إدارة شئون الدولة، ولم يدخروا وسعا في تبيين مثالب بني أمية ، والتقرب إلى الرعية بإبراز العدالة والإنصاف والدفاع عن الحق.

فلو وجد العباسيون شيئا من هذا التغيير في المصحف الشريف لكانت من أعظم الفرص المواتية لبني العباس ليظهروا ذلك باعتباره مثلبا كبيرا في حق بني أمية، وإضفاء للشرعية والعدل والحق على حكمهم [1].

* * *

---

[1] راجع ما كتبه " عمر بن إبراهيم رضوان " في كتابه " آراء المستشرقين حول القرآن " ج١ ص ٤٠٧ ، الطبعة الأولى .

المبحث الحادي عشر

دفع ما اشتبه به المستشرقون على تقسيم القرآن ثلاثين جزءا

زعم المستشرقون أن القرآن الكريم من أجل سهولة تلاوته قسم ثلاثون جزءا لتتلاءم مع عدد أيام شهر رمضان ــ حسب تعبير الموسوعة البريطانية ــ .

وقال " بلاشير": إن تقسيمه كان لمجرد الباعث العملي وتسهيلا لتلاوته في الاحتفالات الدينية (١).

<u>الجواب:</u>

هذا الكلام بجملته بعيد كل البعد عن الدقة والموضوعية ، فتقسيم القرآن الكريم إلى ثلاثين جزءا كان إجراءا متأخرا كثيرا عن نزول القرآن . أما فرضية رمضان ، ونافلة التراويح كان ذلك في عهد الرسول ﷺ ولا ريب أن المسلمين كانوا يحفظون القرآن ، ولا يجدون في ذلك صعوبة ولا عسرا قبل أن يجزأ القرآن إلى أجزاء، وكانوا لا ريب كذلك يصلون التراويح وهي النافلة الرمضانية قبل أن يجزأ القرآن كذلك .

فربط التجزئة بشهر رمضان أو المواسم الدينية بعيدة عن الحقيقة والمنطق والتطبيق العملي، بل بعيد حتى عن روح هذا الدين لأن اهتمامه دائما بالجوهر لا بالشكليات. والمسلمون مطلوب منهم أن يقرءوا القرآن في صلاتهم وفي صلاة التراويح في رمضان وغيرها من العبادات وأوقات الفراغ بقدر نشاطهم ، وظروف القارئ والمصلين من بعده ، لأن هذا

---

(١) قضايا قرآنية ص ٣٣ ؛ والقرآن لبلاشير ــ طبعة دار الكتاب اللبناني ــ بيروت ــ ص ٣٨.

الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه [1].

أما تجزئة القرآن لأجزاء، وأحزاب، وأرباع ، وسور، وآيات، ففي ذلك فوائد كثيرة لا يدركها أمثال هؤلاء المستشرقين وقد ذكرها العلماء في مؤلفاتهم.

<u>من هذه الفوائد التي ذكروها:</u>

١ـ أن التجزئة للقرآن الكريم يدل على مقدار الاهتمام والعناية التي بذلت لهذا القرآن الكريم فيزداد المسلم له طمأنينة . وهي خاصية امتازت فيها هذه الأمة في اعتنائها بكتاب ربها عز وجل بعكس الأمم السابقة .

٢ـ تعرف المسلم على بداية كل جزء ونهايته، وأنصاف القرآن وأرباعه .. إلخ وهذا تسهيل عليه لحفظه فيزداد المسلم رغبة في تلاوته. لأنه كلما أنهى سورة أو جزءا كان أنشط له للدخول في التي تليها فيزداد في التحصيل من الحفظ لكتاب الله سبحانه ويسهل عليه الوقوف على معانيه والعمل به .

٣ـ أن الحافظ إذا حفظ السورة اعتقد أنه أخذ من كتاب الله طائفة مستقلة بنفسها فيعظم عنده ما حفظه ، ومنه حديث أنس ﷺ " كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جد فينا " [2] إلى غير ذلك من الفوائد التي لم أذكرها خيفة من الإطالة.

* * *

---

(١) " قضايا قرآنية " بتصرف ص ٣٣ ـ ٣٤ .

(٢) مسند الإمام أحمد ٣/١٢٠.

المبحث الثاني عشر

دفع شبهات المستشرقين حول الأحرف المقطعة

زعم " جرجس سال " أن هذه الحروف لغو لا فائدة فيها وهذا يخالف كون القرآن الكريم هدى وبيان. وقد غاب معناها حتى عن الراسخين في العلم فالخطاب بها كالخطاب بالمهمل.

وذكر بعضهم أن هذه الحروف مما وضعه كتبة محمد من اليهود.

وذكر أصحاب دائرة المعارف البريطانية أنها اختصار لكلمات أو أن لها أهمية سحرية [1].

وكل كلامهم هذا ليستدلوا منه أنه ليس بكلام الله سبحانه [2].

أما بعض المستشرقين فقد اعتبر أن هذه الحروف لها معان ودلالات فقد زعم " هيرشفيلد" و "تولديكة" وغيرهما أنها اختصار لأسماء الأشخاص الذين سبق لهم تدوين بعض السور ، أو جمع شئ من القرآن

١ـ أما " أدوارد جوستر" فزعم أن هذه الحروف اختصارات لعناوين لم تعد تستعمل لتلك السور[3] .

الجواب :

هذه الحروف . قد نالت عند العلماء من التوضيح والشرح والعناية ما تستحق. فهي ليست كما زعم "سال" لغو لا معنى لها، أو لها أهمية سحرية فحسب على رأى أصحاب الموسوعة البريطانية . بل إن العلماء

---

(١) قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية ـ ص ٤١.

(٢) أسرار عن القرآن ص ٤٧ ، ٤٨ .

(٣) مقدمة القرآن ـ واط ـ ص ٦٣ .

وبعض السلف ــ رضوان الله عليهم ــ كابن عباس من رواية أبي ظبيان، والشعبي، والثوري، وبعض علماء الخلف كـأبي حيـان ، والسـيوطي، والشوكاني، عدوها من المتشابه الذي انفرد الله بعلمه، وخفى على الخلق معرفته، ومع هذا فقد أثبتوا لها معنى خفي على الخلق معرفته وأسره الله عنده ابتلاءا واختبارا لإيمانهم، وهذا في حد ذاته لون من ألـوان البيـان والهدى، ففيه يعرف المؤمنـون مـن المنـافقون لأن الإيمـان بالغيـب والمتشابه من القرآن من أركان الإيمان.

إلا أن "سال" ومن قال بقوله من المستشرقين يزعمـون أن هـذه الحروف لا معنى لها بلا دليل علمي. أو لفهمهم معنى التشابه فهما خطأ .

أشهر ما قيل في معنى الأحرف المقطعة :

وقد ذكر علماء المسلمين لهذه الحروف مـا يقـرب مـن واحـد وعشرين قولا أشهرها :

١ــ اسم الله الأعظم إلا أنا لا نعرف تأليفه منها وهو منسوب لابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ .

٢ــ سر من أسرار هذا الكتاب، والقرآن كتاب سـماوي لابـد أن يكون له أسرار كأي كتاب سماوي.

٣ــ اعتبرها ابن جني للفصل بين السور [١].

٤ــ أسماء للسور القرآنية .

٥ــ للتنبيه " كياء النداء" والتحدي وذلك لما أعرض المشـركون عن سماع القرآن أنزل الله هذه الحروف ليستغربوها لعدم تعودهم عليهـا

---

(١) براعة الاستهلال في فواتح القصائد والسور ــ د/ محمد بدري ــ ص ٩٨.

فيفتحوا أذانهم لها ولما بعدها من القرآن الكريم ، وأما جانب التحدي فيها فلأن هذه الحروف منها يتكون كلام العرب ومع هذا عجزوا أن يأتوا بمثل هذا القرآن . أو بشئ منه فثبت عجزهم وقامت عليهم الحجة.

وهذا قول المبرد وقطرب [1] . وهذا القول هـو أرجحهـا . والله تعالى أعلم.

أما قول "هيرششفيلد" وغيره إنها اختصار لأسماء الأشخاص الذين سبق لهم تدوين بعض السور أو جمع شئ من القرآن فيرد عليه بما يلي:

إن العمدة في فهم ومعرفة هذه المعاني وهذه الحروف يعتمد على النقل وعلى ملاءمته لروح العربية .

٢ـ لم يستطع أصحاب هذا الرأي أن يجـدوا اسما لكل حرف في (ألم) فأطلقوها على شخص واحد هو المغيرة وهذا خروج عن القاعـدة المطردة عندهم أن كل حرف يطلق على شخص كـ (ص) لحفصة ، و (ن) لعثمان ، وهكذا [2].

فهذا ينقض دعواهم ويبطل قولهم، ويظهر التناقض في آرائهم .

٣ـ لو كان هذا الأمر صوابا كما زعم "هيرشفيلد" ومن قال بقوله لما تأخر اكتشافه، ولجاء على لسان السلف والخلف من علماء الإسـلام الذين بذلوا قصارى جهدهم في كشف أسرارها والتعرف على معانيها .

أما " نولديكة" فقد كان يقول برأي "هيرشفيلد" أنها أسماء ، لجمعة القرآن ، ثم عدل عن هذا القول لرأي " سال" أنها سحرية ولا معنى لهـا.

---

(١) انظر التفسير الكبير للرازي ٢/٧ ، والمحرر الوجيز لابن عطية ١ /٩٥ .

(٢) انظر مقدمة القرآن - - واط ـ ص ٦٣ .

ثم استقر به الرأى في مقالاته المتأخرة، أنها تقليد لكتابة الكتاب السماوي الذي كان ينقل إلى محمد من اليهود [1]

فقوله الأول أنها أسماء لجمعة القرآن، والثاني أنهـا سـحرية لا معنى لها قد رددنا عليهما ولا دليل عليه، بل هي مـن جـنس حـروف الهجاء، فهي معروفة لكل عارف بالعربية. أما تعليقي على القول الثالث:

فالناظر في كتاب (تاريخ القرآن الكريم) لـ "تولديكـة" يجـد أنـه يحاول أن يرد كثيرا من تعاليم الإسلام لليهودية. وقـد رددت علـى هـذا الرأي فيما مضى من مباحث.

والذي يزيد هذا القول بطلانا أن هذه الحروف لم تنزل في كتـاب سماوي سبق نزوله القرآن الكريم ، فهي مما تفرد به هذا القرآن الكريم .

ولو كانت معروفة عند اليهود ـ كما زعم نولديكة ـ لمـا سـكت عن ذلك اليهود ولكشفوا هذه السرقات من كتبهم. كما أن هذه الحـروف كان نزولها في مكة قبل اختلاط المسلمين باليهود [2].

إلا إذا قصد "تولديكة" ما كان معروفا عند اليهود "بحساب الجمـل" بأن يحولوا الحروف العربية لأرقام حسـابية والـذي تـأثر بـه بعـض المفسرين المسلمين الذين تأثروا بالثقافة اليهودية فهذا قول باطل علـى كل من قال به . وقد رده كثير من المفسرين والعلماء مـن المسـلمين .

والمعروف أن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ كانوا شـديدي الحـرص على كتاب الله سبحانه فلا يسمحوا بدخول شئ إليه من اليهودية أو

---

(1) انظر مقدمة القرآن ــ واط ــ ص ٦٤ .

(2) المدخل لدراسة القرآن الكريم ــ ص ٢٥٠.

غيرها ولا بنقصان شئ منه .

أما ما ذكره "أدوارد جوستر" أن هذه الحروف اختصارات لعناوين سور لم تعد تستعمل اليوم فهذا القول ليس جديدا بل هو لزيد بن أسلم كما ذكره عنه أبو حيان في تفسيره [١]. وهو قول قرره أكثر المتكلمين فهو اختيار الخليل ١٧٥هـ وسيبويه ١٨٠هـ . حتى إنه عقد له سيبويه بابا لأسماء السور، وقال به يونس ١٨٧هـ ، وذهب إليه أبو عبيدة وابن قتيبة ٢٧٦هـ والرازي ودافع عنه وذكره ابن جرير ٣١٠هـ ورأى أن من اعتبرها أسماء للسور مصيب وذلك لأنه يجوز التسمية بالكلمة الواحدة وبالجملة وبالبيت من الشعر.

وقال ابن قتيبة : فإن كانت أسماء للسور فهي أعلام تدل على ما تدل عليه الأسماء من أعيان الأشياء ، وتفرق بينها فإذا قال: قرأت (المص) دل على ما قرأ .

كما أن حجتهم أن بعض العرب سمى ببعض هذه الحروف أسماء أشخاص كتسمية والد حارثة (لام) والطائي (ز) فهذا القول يرده الواقع المنقول والتاريخي لأسماء السور ومعاني هذه الحروف .

فالأقوال التي وردت في كونها أسماء للسور لو صح قولهم هذا فإن هذه الحروف ستطلق على عدة سور، لذا فسيصعب التمييز بين السور المتشابهة بين هذه الحروف [٢].

---

[١] انظر المحرر الوجيز ٩٥/١ ، وتفسير البحر المحيط ٣٤/١.

[٢] انظر كتاب " براعة الاستهلال في فواتح القصائد والسور " ص ١٥٢ وما بعدها .

أما زعمهم أن هذه السور قد جاء لها أسماء أخرى حجبت هذه التسمية المزعومة وكانت الشهرة لها ، فالذي يرد هذا القول كذلك أن هذا القول لم ينتشر عنها بل الثابت أن الرسول ﷺ كان كلما نزل عليه شي من الوحي قال: ضعوا هذه في سورة كذا في مكان كذا ، ولم نعلم أنه كان يذكرها كأسماء لهذه السور.

فالراجح فيها إذن ما سبق أن ذكرته .

وهو يظهر بطلان أقوال المستشرقين ، ويبين أن إلقاءهم أقوالهم كان بلا دليل علمي، ولا مستند عقلي، ويؤكد أن لا حرف في كتاب الله سبحانه إلا وله معنى، فلا شئ فيه لغو لا فائدة منه، فالله غالب على أمره ولو كره الكافرون [1].

* * *

[1] راجع كتاب " آراء المستشرقين حول القرآن " ج ٢ ص ٤٨٨ ــ الطبعة الأولى .

المبحث الثالث عشر
في دفع شبهات المستشرقين على الوحي

عجزت عقول المستشرقين ومختبراتهم العلمية أن توصلهم إلى كنه ظاهرة الوحى. فاختلفوا في هذه الظاهرة على أقوال متباينة مجافية للحق، مجانبة للصواب، وكل ذلك سببه تصورهم ظاهرة الوحى في النصرانية وقياس ظاهرة الوحى في الإسلام عليها.

<u>أقوال المستشرقين في ظاهرة الوحى :</u>

وسأجمل أقوالهم في ظاهرة الوحى في نقاط محدودة :

١ـ الوحى النفسي ، والإلهام السمعي.

٢ـ بتأثير انفعالات عاطفية .

٣ـ لأسباب طبيعية عادية كباعثة النوم (التنويم الذاتي).

٤ـ تجربة ذهنية فكرية.

٥ـ كحالة الكهنة والمنجمين.

٦ـ حالة صرع وهستيريا.

وغير ذلك من الأقوال التي فاقت سذاجة الجاهلين الأوائل.

<u>الشبهة الأولى :</u>

الوحى النفسي :

قالوا : نحن لا نشك في صدق محمد في خبره عما رأى وسمع ، ولا نشك في كونه مصلحا اجتماعيا، وعبقريا فذا ، وإنما نقول إن منبع ذلك إلهام من نفسه وليس فيه شئ جاء من عالم الغيب الذي يقال : إنه

وراء عالم المادة والطبيعة الذي يعرفه جميع الناس. فإن هذا الغيب شيء لم يثبت عندنا وجوده، كما أنه لم يثبت عندنا ما ينفيه ، ويلحقه بالمحال.

فمنازع نفسه العالية وسريرتها الطاهرة، وقوة إيمانه، وخياله الواسع وإحساسه العميق، وعقله الكبير، وذكاؤه الوقاد، وذوقه السليم، مما كان لذلك التأثير بأن يتجلى في ذهنه، ويحدث في عقله الباطن الرؤى والأحوال الروحية فيتصور أن ما يعتقده ألهيا نازلا عليه من السماء بدون وساطة، أو عن طريق رجل يتمثل له يلقنه ذلك، أو يسمعه يقول له شيئا في المنام، والقرآن شئ من هذا الذي يراه ويتخيله ، وإنما كل ذلك نابع من نفسه، ومن عقله الباطن، وصورة لأخيلته ووجدانه التي انطبعت في نفسه بما يحيط بها من شائعات في بيئته على حد تعبير "جب" فامتلأ بها عقله الباطن ففاضت بذلك نفسه ثم صاغها بأسلوبه المؤثر، وخياله الخصيب، نتيجة لخلواته الخاصة بغار حراء، وتأملاته العميقة.

واستدلوا على ذلك بقصة الفتاة الفرنسية "جان دارك" في القرن الخامس عشر الميلادي التي اعتقدت أنها مرسلة من عند الله لإنقاذ وطنها، ودفع العدو الإنكليزي عنه، وادعت أنها تسمع صوت الوحى ، فأخلصت في دعوتها، وتوصلت بصدق إرادتها وحسن سيرتها إلى رياسة جيش صغير تغلبت به على العدو ثم خذلها قومها فوقعت في يد عدوها فألقوها في النار حية فماتت غب انتصارها، وقد ذهبت تاركة وراءها اسما يذكره التاريخ [1]

---

[1] انظر المدخل لدراسة القرآن الكريم — لأبي شهبة — ص ٩٠ ، والوحى المحمدي ص ٨٩ ، وشبهات مزعومة حول القرآن الكريم للقمحاوي ص ٤١ ، ومقدمة القرآن ص ٢٠ .

الجواب :

لما كان الوحى هو الأساس الذي يترتب عليه جميع حقائق الإسلام بعقائده وتشريعاته، وهو المدخل للتصديق بكل ما جاء بــه الرســول ﷺ من إخبارات غيبية وأوامر تشريعية من أجل هذا وغيــره اهــتم أعــداء الإسلام بالتلبيس والتشكيك في حقيقة الوحى الإلهي ليشككوا المسلمين في دينهم ويحولوا بين غير المسلمين وخاصة الأوربيين وبين الإســلام [1] ، لذا زعموا أن الوحى ناتج عن سبب من هذه الأسباب التي لخصناها مــن الشبه آنفة الذكر.

الأدلة النقلية والعقلية تدفع مزاعمهم :

وقد قامت الأدلة النقلية والعقلية على بطلان هذه المــزاعم. فمــن الأدلة النقلية :

١ــ قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ [2]

وقال تعالى: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ [3]

٢ــ ووصفه ﷺ لكيفية إتيان الوحى إليه . كما ورد في حــديث عائشة ــ رضى الله عنها ــ عندما سأله الحارث بن هشــام : " أحيانــا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده على فيفصم عني وقد وعيت عنــه ما قال وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول ... الحديث [4]

---

(١) انظر توثيق نص القرآن الكريم ، خالد عبد الرحمن العك ص ٢٧ ، ٢٨ .

(٢) النجم : ٣ ، ٤ .

(٣) النساء : ١٦٣.

(٤) انظر صحيح البخاري كتاب : كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله بشرح إرشاد الساري .

وعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أنها قالت : " أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصالحة في النوم . . . . " الحديث [1].

أما الأدلة العقلية فكثيرة كذلك. ولكني سأقتصر على رد عام على فريتهم هذه .

فالمستشرقون بنوا هذه الشبهة على مقدمات مبناها أن فكرة الوحى تكونت نتيجة تشبع العقل الباطن بما في البيئة من ثقافات وعقائد وغير ذلك مما جعل نفسه الصافية تفيض بما فيها من ذخائر.

وعلى إثر سقوط هذه المقدمات تسقط النتيجة التي توصلوا لها في تفسير ظاهرة الوحى أنها (وحي نفس) أو ناتج عن رياضات روحية وتفكير طويل كإلهام الواصلين ، وكشف العارفين[2]

<u>كلمه عامة فى هذا المقام</u>

ولكن لابد من كلمة عامة على هذه الشبهة، فالناظر لهذا الدين وحقيقته يجده فريدا متميزا صافيا بكل ما جاء به من عقائد وشرائع عما كان موجودا في وسطه الذي كان يعيش فيه ﷺ فقد جاء هذا الدين عاما شاملا لكل نواحي الحياة، سهلا في عبادته ، دقيقا في معاملاته ، رادعا في حدوده، فذا في نظمه الاقتصادية والسياسية وغيرها، عظيما في أخلاقه وآدابه، إلى غير ذلك من المزايا والفضائل أكل هذه العقائد والنظم والتشريعات كانت مذكورة مدخرة في نفس محمد ﷺ ابن البيئة المختلفة

---

(1) نفس المرجع ٦١/١.

(2) مباحث في علوم القرآن صبحي الصالح ص ٢٦ .

العقائد ، والفقيرة المـوارد، المختلفـة الأنظمـة، المضـطربة الأخـلاق والآداب؟.

فهذا الإسلام بعظمته ، والقرآن بربانيته يبطل كل هـذه المـزاعم، والعلم يكشف كل يوم لنا من أسرار آياته في الأنفس والآفاق مما يؤكد أنه من تنزيل إلهي، وليس فيه شئ لعقل بشري، لأنه أعجز مـن أن يؤلـف شيئا من مثل آياته فكيف تأتي هذه الفرية لتزعم أن هذا القـرآن فـيض بشري ووحي نفسي لمحمد ﷺ .

وقد كان الوحي يفتر عنه فترات وهو بأشد الحاجة إليه ولا يجـد جوابا لما سألوه، أو بما تحدوه. كما أن الوحي ليس إلهاما فقط بل هـو إخبار من الله سبحانه لنبيه ﷺ بواسطة أو بدون واسطة، ويكون قلبيـا أو قلبيا وسمعيا ، أو قلبيا وسمعيا وبصريا.

روى السيوطي في كتابه لباب النقول في أسباب النزول حيث قال: أخرج ابن جرير من طريق ابن إسحاق عن شيخ من أهـل مصـر عـن عكرمة عن ابن عباس قال: " بعثت قريش النضر بن الحارث وعقبة بـن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة فقالوا لهم سلوهم عن محمد وصـفوا لهم صفته، وأخبروهم بقوله فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم مـا لـيس عندنا من علم الأنبياء ، فخرجا حتى أتيا المدينة ، فسألوا أحبار اليهـود عن رسول الله ﷺ ووصفوا لهم أمره ، فقالوا لهم : سلوه عن ثلاث إن أخبركم بها فهو نبي مرسل وإن لم يفعل فالرجل متقول . أي مدعي .

سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان أمرهم فإنه كان لهم أمر عجيب، وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه ؟ ، وسلوه عن الروح ما هو ؟ . فأقبلا حتى قدما على قريش فقـالا

قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد. فجـاءوا رسـول الله ﷺ فقـال: أخبركم غدا بما سألتم عنه ولم يستثن، فانصرفوا ومكث رسـول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يحدث الله في ذلك إليه وحيا ، ولا يأتيه جبريل حتى أرجف أهل مكة وحتى لحزن رسول الله ﷺ مكث الوحى عنه وشق عليه ما تتكلم به أهل مكة ثم جاءه جبريل من الله بسورة أصحاب الكهف فيهـا معاتبته إياه على حزنه عليهم، وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية والرجل الطواف وقول الله يسألونك عن الروح" [١]

فكيف إذن يعجز محمد ﷺ أن يأتيهم بجواب وهو صاحب العقـل الباطن المملوء بالمعارف، وصاحب الوجدان الملتهب، والنفس المتوثبـة، والقريحة المتوقدة، والبديهة الحاضرة.

ماذا إلا لأن القرآن تنزيل من حكيم حميد لا دخل لرسـول الله ﷺ بشئ منه .

رد آخر تنقض به هذه الفرية :

كما ينقض هذه الفرية كون العقل الباطن على مـا يقـول علمـاء النفس إنما يفيض بما فيه في غفلة من العقل الظاهر، ولذلك لا يظهر ما فيه إلا عن طريق الرؤى والأحلام، والأمراض كالحمى مثلا، وفي الظروف غير العادية، والقرآن الكريم لم ينزل شئ منه في هذه الحالات وإنما نزل على نبي الله ﷺ يقظة لا مناما ، وفي اكتمال من عقله وبدنه، في تمـام صحة نفسه فهكذا يظهر لنا جليا أن فريتهم الوحى النفسي التي أتى بهـا

---

[١] كتاب النقول في أسباب النزول ـــ حاشية على تفسير الجلالين ـــ طبعة عبد الحميـد حنفـي ـــ مصر ص ٢٢٩ ـــ ٢٣٠.

لإبطال الوحى الإلهي مكشوفة وما استندوا إليه من مقدمات باطلة مردودة ونتائجهم غير صائبة .

فبهذا يثبت الحق، أن الوحي الإلهي من الله سبحانه وحده دون تدخل بشري والله تعالى أعلم [1].

<u>وجه آخر مما استدلوا به على فريتهم :</u>

أما ما استدلوا به لهذه الفرية بقصة الفتاة الفرنسية (جان دارك) فباطلة، لأن (جان دارك) لم تدع النبوة، ولو أنها ادعت لما صدقت، لأن دعوى النبوة لا تثبت إلا بدليل وهي المعجزة، ولم يظهر من هذا على يدها.

والفتاة لا شك أنها كانت قوية القلب، مرهفة الحس، أصيبت بهيجان عصبي لما أصاب قومها من اضطهاد وظلم مما حرك وجدانها بسبب شعورها الديني، فاستنهضت قومها للقتال، وقادتهم للخلاص من ذل الاستعباد. وهذا أمر متكرر في كل البيئات والأوقات أن يوجد في مثل هذه الظروف مثل هذه الفتاة من رجال أو نساء .

حيث تلاقى دعواتهم هوى في نفوس أقوامهم فيهبوا وراءهم لنصرة صاحب فكرة الخلاص .

وشبيه بهذا أصحاب دعوة المهدي المنتظر، أو دعوى الباب الإيراني، والبهاء والقادياني وغيرهم في التاريخ كثير، مما زعموا أنه يوحى إليهم حيث وجدوا من يغتر بدعواتهم الكاذبة فأين دعوة هؤلاء جميعا من دعوة المصطفى ﷺ التي غيرت تاريخ أمة فجعلتها فريدة في

---

[1] انظر المدخل لدراسة القرآن الكريم ص ٩٩ ــ ١٠٠ .

عقيدتها وشريعتها وهدايتها الربانية قامت على كل ذلك حضارة لها طابعها الخاص بمدة قياسية .

أما (جان دارك) فإنها لم تصنع بدعوتها أمة ولم تقم بها حضارة فأين الثرى من الثريا . فلا قياس [1].

الشبهة الثانية :

زعم "تولديكة" أن ظاهرة الوحى كانت بسبب تأثير النوبات الانفعالية الطاغية التي كانت تسيطر عليه مما كان يدعو محمدا ﷺ إلى الشعور بأنه تحت تأثيرات إلهية [2] حيث قال:

[كانت نبوة محمد نابعة من الخيالات المتهيجة والإلهامات المباشرة للحس أكثر من أن تأتي من التفكير النابع من العقل الناضج. فلولا ذكاؤه الكبير لما استطاع الارتقاء على خصومه. مع هذا كان يعتقد أن مشاعره الداخلية قادمة من الله بدون مناقشة] [3].

الجواب :

هذه الشبهة لها قرب من الشبهة الأولى وتدل على تجن، وسوء فهم واضح، ويرد ذلك الوقوف على سيرته ﷺ وعلى كيفية نزول الوحى عليه.

---

(1) انظر المدخل لدراسة القرآن الكريم ص ١٠٣ ، وانظر الوحى المحمدي لمحمد رشيد رضا ص ٨٩ ــ ٩٤

(2) انظر مقدمة القرآن ــ واط ــ ص ١٨.

(3) تاريخ القرآن ــ نولد يكة ١/٥ .

فالواقف على ذلك يجد أن الوحى كان يأتي رســول الله ﷺ فــي أوقات عدة وبأشكال مختلفة فقد كان يأتيه في ظروف اعتيادية ، ويقطعه في ظروف عصيبة وهو بأشد الحاجة إليه. فكل ذلك يدل على أن الــوحى خارج عن ذاته وليس له فيه أدنى تدخل. فهاهم المنافقون يخوضون فــي عرضه الشريف في قصة الإفك التي افتريت ضد زوجه المصون ويشــتد الأمر عليه ويتمنى لو يجد شيئا يقوله ليبرئ زوجه أو يثبت ما يقولونــه فيرتاح مما هو فيه ولكن الأمر ليس بيده ، ولم يستطع أن يقول شيئا حتى نزل من صاحب هذا القرآن وهو الله سبحانه مــا يبــرئ هــذه الزوجــة الطاهرة النقية ويرد كيد المنافقين .

وما حصل معه في سؤال المشركين لــه عــن الثلاثــة الأســئلة المذكورة في قصة أهل الكهف وقد ذكرت القصة بطولها أثناء ردي علــى الشبهة الأولى مما بينت أن الرسول ﷺ لم يستطع أن يــأتيهم بجــواب حتى خاض المشركون في أمر الرسول ﷺ ما طاب لهم من قــول حتــى نزلت الإجابة من السماء .

كل ذلك يؤكد أن الوحى أمر خارج عن إرادة نبينا محمد ﷺ وعن رغبته، وأنه ما كان يظهر عليه أثناء نزول الوحى عليه أثــر للانفعــالات الطاغية المزعومة عند "تولديكة" فقد كان يأتيه أحيانا بصورة رجل كبقية الرجال حتى إنه لا يستطيع أن يميز جبريل عليه السلام أحد من الحاضــرين إلا رسول الله ﷺ فيدارس الرسول ﷺ قواعد الإسلام وأصوله كما حصل فيما رواه "عمر" في حديثه الطويل. كما أنه أحيانا كان ينفث فــي روعــه شيئا من أمور الإسلام

وأشد ما كان يلاقيه عند نزول جبريل عليه السلام بصوت كصلصلة الجرس وهذا الصوت كان يثير في رسول الله ﷺ عوامل الانتباه فتهيأ نفسه بكل قواها لتلقي القول الثقيل الذي جاء به من الله - سبحانه وتعالى - وهذه الكيفية شدتها ناتجة لما يحصل من ممازجة جبريل عليه السلام لروح محمد ﷺ ويخاطبه بصوت قوي يشبه صوت الجرس يفهمه هو دون غيره.

وسبب المعاناة والتعب والكرب عند نزول الوحي، لأنه أمر طارئ على الطباع البشرية.

وقال في الإمتاع : جعل الله تعالى لأنبيائه - عليهم السلام - الانسلاخ من حالة البشرية إلى حالة الملكية في حالة الوحي فطرة فطرهم عليها، وجبلة صورهم فيها، ونزههم عن موانع البدن وعوائقه ما داموا ملابسين لها بما ركب في غرائزهم من العصمة والاستقامة فإذا انسلخوا عن بشريتهم وتلقوا في ذلك ما يتلقونه عادوا على المدارك البشرية لحكمة التبليغ للعباد. فتارة يكون الوحي كسماع دوي كأنه رمز من الكلام يأخذ منه المعنى الذي ألقى إليه فلا ينقضي الدوي إلا وقد وعاه وفهمه. وتارة يتمثل له الملك رجلا فيكلمه ويعي ما يقوله، والتلقي من الملك والرجوع إلى البشرية وفهمه ما ألقى إليه كله يتم في لحظة واحدة، بل أقرب من لمح البصر، ولذا سمى وحيا.

وإنما كان التعب والشدة في حالة النزول ليبلو صبره فيرتاض لاحتمال ما كلفه من أعباء النبوة .

وفائدة هذه الشدة ما يترتب على المشقة الناتجة عن تلقي الـوحي من زيادة الزلفى ورفع الدرجات [1].

فصور الوحى كلها تدل على أن رسول الله ﷺ كان في حالة تلقيه الوحى يكون في قمة الهدوء وسلامة الأعصاب، ولم يكن يظهر عليه أي انفعالات عاطفية طاغية، وهيجان أحاسيس كما زعم " نولديكة" .

الشبهة الثالثة :

زعم بعضهم أن منشأ الوحى من أسباب طبيعية عاديـة كباعثـة النوم أو ما سماه " واط " (التنويم الذاتي) [2].

الجواب :

هذه فرية من جملة مفترياتهم حيث إن البعد شاسع بـين الـوحى وبين عارض السبات الطبيعي الذي يعتري المرء حيث إن ظاهرة الـوحى كانت تعتريه قائما أو قاعدا، أو سائرا، أو راكبا، وبكرة أو عشيا، ليلا أو نهارا، وفي أثناء حديثه مع أصحابه أو مع أعدائه، وكانت تعتريه فجـأة وتزول عنه فجأة ، وتنقضي عنه أحيانا في لحظات يسـيرة لا بالتـدريج الذي يعرض للوسنان. وكانت تصاحبها تلك الأصوات الغريبة التي تشـبه صلصلة الجرس والتي لا تسمع عند النوم و غيره. فمن هنا يظهر أنهـا كانت تباين حال النائم في كل أوضاعها وأوقاتها وأشكالها. فقد صور لنـا الإمام البخاري ــ رحمه الله تعالى ــ بسنده إلى رسول الله ﷺ صـورة من هذه الصور عندما طلب يعلي من عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنهما

---

[1] إرشاد الساري بشرح صحيح البخاري ١/٥٨ ــ ٦٠.

[2] وحى الله ــ د/ حسن عتر ص ١٤١.

أن يريه النبي ﷺ حين يوحى إليه .

قال الإمام البخاري: فبينما النبي ﷺ بالجعرانة ومعه نفـر مـن أصحابه جاءه رجل فقال: يا رسول الله كيف ترى في رجل أحرم بعمـرة وهو متضمخ بطيب؟ فسكت النبي ﷺ ساعة فجاءه الوحي، فأشار عمـر ﷺ إلى يعلي ، وعلى رسول الله ﷺ ثوب قد أظل به فأدخل رأسه فـإذا رسول الله ﷺ محمر الوجه، وهو يغط . ثم سري عنه . فقال: أين الذي سأل عن العمرة ؟ فأتي برجل فقال: اغسل الطيب الذي بك ثلاث مـرات، وانزع عنك الجبة، واصنع في عمرتك كما تصنع في حجتك [١].

فهذا يبين أن ظاهرة الوحي ليس لها تحضير مسبق من قبل رسول الله ﷺ كما زعم ذلك " واط " بل هي ظاهرة خارجة عن ذاته الشـريف وبغير إرادته وأعراضها لا تستجلب ولا تدفع.

والذي يزيد هذه الحقيقة وضوحا سماع صوت دوي كـدي النحـل عند وجه الرسول ﷺ يسمعه من حوله كما في حديث عمر بن الخطـاب ﷺ : " كان رسول الله ﷺ إذا نزل الوحي يسمع عند وجهه كدوي النحل .. " الحديث [٢].

فهل من كان في سبات يسمع عند وجهه مثل هذا الدوي؟ كل مـا ذكرت يدل على بطلان هذا الرأي الذي زعمه "واط" ومن معه وفساده [٣].

---

(١) انظر صحيح البخاري كتاب الحج ــ باب غسل الخلوق من الثياب ، وانظر إرشاد الساري بشرح صحيح البخاري ٣/١٠٤ ، ١٠٥ .

(٢) سنن الترمذي ــ كتاب التفسير ــ باب ومن سورة المؤمنون .

(٣) وحي الله ــ د/ حسن عتر ــ ص ١٤٢ ــ ١٤٥ .

كما يبين جليا التغاير الواضح بين الظـاهرتين. ظـاهرة الـوحى وظاهرة "التنويم الذاتي" كما سماها بعض المستشرقين.

الشبهة الرابعة :

زعم بعض المستشرقين أمثال " بل " و " واط " [1] أن الوحى كان تجربة ذهنية فكرية وأن النبي ﷺ أدرك ما أدرك نتيجـة قدرتـه علـى التركيز واستدامته ذلك على مستوى تجريدي لا يطيقه غيره، لـذا كـان يختار له ساعات الليل لأنها أدعى للفكر وأصفى للروح، وأكثر اسـتجابة لعواطفه.

الجواب :

١ـ هذا هو الفكر المادي الذي لا يعترف بتكامـل بـين الـروح والمادة ولا يؤمن إلا بالمحسوس الذي يـدخل تحـت عدسـات المجهـر والتحليل المخبري.

فالنبوة لا تخضع لمثل هذه الدراسات. فالإنسان مهما جرب وركـز بكامل قواه العقلية ليصبح نبيا لا يمكن أن يصبح نبيا ولا يصل لرتبتهـا. وأبرز ظواهر النبـوة الـوحى. وهـذا الـوحى لا يمكـن تحضـيره ولا استحضاره، وإنما يأتي فجأة وبإذن من صاحبه فقط وهو الله سـبحانه ، وبلحظات خاطفة كما بينت خلال ردي على الشبهة السابقة، فهو إذا ليس نتيجة فيضان نفسي، أو كبت لمجموعة من التأملات احتشدت وتفجرت في نفس النبي ﷺ لأن النبوة اصـطفاء ربـاني علـوي مسـبوق بـبعض الإرهاصات، لا يعرف التدرج إلى ما يسمى النضج في النهاية .

---

[1] انظر مقدمة القرآن ـ واط ـ ص ١٨.

٢ــ أمر نبوة محمد ﷺ فليس أمرا بدعيا وإنما هو حلقــة فــي سلسلة النبوة ، ولبنة في صرحها العظيم يعرفه كل أصحاب الديانات ، لذا فعندما سمع ورقة بن نوفل من رسول الله ﷺ خبر الوحى قال له : هــذا هو الناموس الذي أنزله الله على موسى عليه السلام[1]

قال الأستاذ قحطان الدوري : [إن الوحي أمر خارج عن الــنفس وهو الأساس الذي يبنى عليه الاعتقاد بالنبوات، وهو الطريق الذي جاءت به العقائد .. ولذلك اهتم الأعداء بإثارة الشكوك حول الوحى، والوحى أمر ثقيل لا يستطيعه إلا من ارتاض جسده على تحمل عبء النبوة] [2].

٣ــ الواقع التاريخي وسيرته ﷺ تكذب وتبطل هذه الفرية:

<u>صور من الواقع التاريخي وسيرته ﷺ ترد فريتهم :</u>

أ ــ من ذلك ما نقلته لنا كتب السير قدوم عبدالله بن أم مكتوم يطلب من رسول الله ﷺ أن يعلمه مما علمه الله في الوقت الذي كان جالسا يخاطب فيه زعماء قريش ويناجيهم طمعا في إسلامهم ، فانصرف عنه وعبس في وجهه. فعاتبه الله عز وجل على ذلك بصدر سورة عبس [3].

وكذلك حادثة [4] أخذه الفدية بدلا من قتل الأسرى في عقب غــزوة بــدر فنزل عتابه بقوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُــثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [5]

---

(١) إرشاد الساري لشرح البخاري ــ كتاب كيف كان بدء الوحى إلى رسول الله ١/٦٥.

(٢) انظر تصحيح المفاهيم ــ أنور الجندي ــ ص ٥٤ ــ ٥٦ .

(٣) (٤) أسباب النزول للواحدي ــ ص ٣٣٢ ــ طبعة مكتبة المتنبي ــ القاهرة .

(٥) الأنفال : ٦٧.

وحادثة مجادلة خولة بنت ثعلبة وشكواها زوجها لرسول الله ﷺ فنزل صدر سورة المجادلة قبل مفارقتها المجلس.

فما نزل من هذه الوقائع كان في حينه وقبل أن ينهض رسول الله ﷺ من مجلسه أحيانا مما يؤكد أنه ليس نتيجة إجهاد ذهن أو طول تفكير بساعات الليل لصفائها على حد زعم المستشرقين .

وقصة إرسال قريش للنضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط لأحبار اليهود بالمدينة وسؤالهم الأحبار عن محمد ﷺ عن أمر الفتية ، والرجل الطواف، والروح، فأخبرهم أنه سيجيبهم في الغد ولم يستثن ولكن الوحى انقطع خمس عشرة ليلة حتى أرجف أهل مكة لانقطاع الوحى وكثر اللغط في حق الرسول ﷺ فنزل صدر سورة الكهف [١].

فلو كان نبينا محمد يأتي بهذا القرآن من بنات فكره، وبلمسة فكرية سحرية منه أو بإطالة تأمل، فما الذي كان يمنعه من أن يأتي بشئ منه للإجابة على أسئلتهم مع أنه في أشد الحاجة إليه، وخاصة في مثل هذه الظروف.

ولكنه ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله [٢] وصدق ربنا إذ يقول: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ [٣].

---

(١) انظر ردنا على الشبهة الأولى .

(٢) النبأ العظيم ــ دراز ــ ص ٢٣ ، ٢٤ .

(٣) الحاقة : ٤٤ وما بعدها .

ب ــ آيات كثيرة عاتب الله سبحانه فيها نبينا محمدا ﷺ عتابـا عنيفـا ، ونقده نقدا مرا على إثر تصرف معين منه كقوله تعالى على إثـر تحـريم رسول الله ﷺ شيئا على نفسه دون تحريم الله له: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِـيُّ لِـمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [1].

وكقوله تعالى على إثر موقفه ﷺ مـن زينـب بنـت جحـش أم المؤمنين ــ رضى الله عنها ــ زوج متبناه زيد بن حـارثة ﷺ ﴿ وَتُخْفِـي فِي نَفْسِـكَ مَا اللَّهُ مُبْـدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّـهُ أَحَـقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ [2] وعتابه له سبحانه لما بدى منه إعراض فـي حـق ابـن أم مكتوم كما ذكر ذلك في سورة "عبس" [3].

أرأيت لو كانت هذه التقريعات المؤلمة صـادرة عـن وجدانـه؟! ومعبرة عن ندمه، ووخز ضميره، حين بدا له خلاف رأيـه الأول أكـان يعلنها عن نفسه بهذا التهويل والتشنيع والعتاب المر والتأنيـب الشـديد. أليس في سكوته ستر على نفسه، واستبقاء لحرمة آرائـه . فلـو كـان القرآن صادرا عن نفسه لكان أولى شئ بالكتمان مثل هذه الآيات [4].

ج ــ لقد كان يجيئه الأمر أحيانا بالقول المجمل أو الأمر المشـكل الذي لا يستبين هو ولا أصحابه تأويله حتى ينزل الله عليه بيانه ، فـأي عاقل يا ترى توحي إليه نفسه كلاما لا يفهم هو معناه، وتـأمره أمـرا لا يعقل هو حكمته، أليس ذلك من الأدلة الواضحة على أنه ناقـل لا قائـل،

---

(١) التحريم : ١ .

(٢) الأحزاب : ٣٧.

(٣) انظر سورة عبس .

(٤) النبأ العظيم ــ ص ٢٥ " بتصرف" .

وأنه مأمور لا آمرا ، وأن القرآن ليس من تأملات فكره ، ولا من صـنيع خياله، بل تنزيل من حكيم حميد.

الشبهة الخامسة :

زعم أصحاب الموسوعة البريطانية أن أسلوب الوحى المحمدي جاء نثـرا مقفى، أو ما يسميه العرب بالسجع، وقد استعمل هذا الأسلوب سابقا مـن قبل
الكهنة، ومن قبل المنجمين..] [1] أهـ .

وقد اعتبر بعضهم أن الوحى من حالات هؤلاء الكهنة والمنجمـين والسحرة.

الجواب :

إن كون أسلوب القرآن مشابها لأسـاليب الكهنـة والمنجمـين أو السحرة من قبل. أمر لم يقبله العرب الذين لم يكونوا أقل حقدا، ولا أقـل كراهية للإسلام ممن جاء بعدهم بعامة ومن كتاب الموسوعة بخاصة، ولم يزعموا كما زعم المستشرقون أن الوحى صادر عن حالـة مـن حـالات الكاهن أو الساحر أو المنجم. وها هو الوليد وعتبة بن ربيعة وغيرهمـا يردون بكل حزم ويرفضون بكل إنصاف أن يكون أسلوب القرآن مشـابها لأسلوب الكهان وسجعهم أوالمنجمين وكلامهم، أو السحرة ونفثهم، ولـم يقولوا إن حالة صدور الوحي عنه كحالة هؤلاء مع إنهم معاصرون لـه، ومن أكثر الناس خبرة بذلك.

---

[1] انظر قضايا قرآنية في الموسـوعة البريطانية ـــ د / فضل عباس ـــ ص ٤٢ .

ولقد روت لنا كتب الأدب والتاريخ شيئا من هذا السجع، أعني سجع الكهان والمنجمين، وأفعال السحرة وكلامهم، وعن أحوالهم حين صدور ذلك عنهم. فالمنصف لا يرتاب في أن أسلوب القرآن ونظمه، والحالة التي يكون فيها ناقله للناس عليه الصلاة والسلام يختلف كلية عن أولئك المذكورين، لذا نفى سبحانه أن تكون حالته كحالتهم أو كلامه ككلامهم قال سبحانه: ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [(١)]

ذكر مقاتل أن سبب نزول هذه الآيات أن الوليد قال: إن محمدا ﷺ ساحر، وقال أبو جهل : شاعر، وقال عتبة: كاهن، فرد الله تعالى عليهم بهذه الآيات [(٢)] ، هذه المزاعم والأكاذيب؛ لأن عدم مشابهة القرآن الشعر أمر بين لا ينكره إلا معاند. بخلاف مباينته للكهانة فإنها تتوقف على تذكر أحواله ﷺ ومعاني القرآن المنافية لطريق الكهانة ومعاني أقوالهم [(٣)] وكل ذلك كان واضحا جليا ومعروفا لدى معاصريهم. فهذا النبي ﷺ يزجر أحد السائلين بأسلوب الكهان وسجعهم حين قال: [يا رسول الله، كيف أغرم من شرب ولا أكل ، ولا نطق ولا استهل؟ فمثل ذلك يطل [(٤)] فقال رسول الله ﷺ " إنما هذا من إخوان الشياطين" [(٥)] من أجل سجعه

---

(١) الحاقة : ٣٨ ــ ٤٢ .

(٢) انظر تفسير روح المعاني ــ طبعة دار إحياء التراث العربي ــ بيروت ــ ٢٩/:٥٢ ــ ٥٥ .

(٣) معاني القرآن ٢٩/٥٣ ــ ٥٤ .

(٤) ولا استهل ولا صاح عند الولادة ، ليعرف به أنه مات ، بعد أن كان حيا ويطل : يهدر ولا يضمن

(٥) صحيح مسلم ــ كتاب القسامة ــ باب " دية الجنين " إلخ ٣/١٣١٠ ، حديث رقم ١٦٨١.

الذي سجع فقد اعتبر رسول الله ﷺ من يسجع بأسلوب الكهان من إخوان الشياطين، لذا نهى أن يفعل أحدهم فعلهم، أو يقول بقولهم.

ولكن المستشرقين والمبشرين على حد سواء جهدهم، وهمهم أن يوجهوا إلى هذا القرآن كل مطعن بقطع النظر عن المقاييس النقدية، والأسس المنطقية، والمنهج العلمي ، كما هو الحال في هذه الموسوعة التي جانبت الحق في هذه المزاعم [1] وألقت الكلام دون تدقيق.

ولكن الله سبحانه اقتضت حكمته أن لا يسوى بين الصادق والكاذب نقل الأستاذ حسن عتر حفظه الله عن الإمام ابن تيمية قوله:

(فإنه يمتنع في حكمة الرب وعدله أن يسوي بين هؤلاء خيار الخلق ، وبين هؤلاء شرار الخلق لا في سلطان العلم وبراهينه وأدلته ولا في سلطان النصر والتأييد. بل يجب في حكمته أن يظهر الآيات والبراهين الدالة على صدق هؤلاء وينصرهم ويؤيدهم ويعزهم ويبقي لهم سلطان الصدق، ويفعل ذلك بمن اتبعهم، وأن يظهر الآيات المبينة ليكذب أولئك ويذلهم ويخزيهم ويفعل ذلك بمن اتبعهم، كما قد وقع في هؤلاء وهؤلاء ، وقد دل القرآن على الاستدلال بهذا في غير موضع) أهـ [2].

فالكاذب المدعي النبوة رجل شرير فاجر، شره المطامع، دنئ المطالب، فالكاهن والساحر والمنجم نفوسهم وضيعة مريضة شريرة خبيثة ونفوسهم تكون مأوى للشياطين فلا ينتج عن هذا الاتصال إلا كل شر.

---

(١) قضايا قرآنية ص ٤٢ ـ ٤٦.

(٢) انظر كتاب " بيانات المعجزة الخالدة " د/ حسن عتر ـ دار النصر ـ سوريا ـ ط : ١ ـ ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م ـ ص ٣٩ ـ ٤٧ .

وخبث ومكر ووقيعة بين الناس، لم يحمله على الدعوة إلا نفسه الخبيثة وأغراضه الخسيسة ، لذلك فإنه إذا تظاهر في البداية بالتدين والصلاح للتغرير بالبعض فإنه لا يطيق في البقاء عليه صبرا.. ولا يلبث أن يفتضح أمره وتظهر حقيقته لأعين الملأ . قال زهير بن أبي سلمى :

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم [1]

لذا سرعان ما افتضح للناس أمر مسيلمة الكذاب، والأسود العنسي وغيرهما [2].

أما القلوب الطاهرة النظيفة كقلوب الأنبياء فلا تكون مأوى إلا للنور الإلهى وحكمته، فلا يخرج منها إلا كل طهر ونبل وحكمة، وأغراضه من دعوته نبيلة.

أما النبي ﷺ في الصلاح والتقى والخيرية ثابت ومؤيد من الله بالدلالة على صدقه بمعجزاته وهو خير أهل زمانه بلا منازع في كل أحواله.

لذا فالمعجزات عامة، والقرآن الكريم خاصة ليست من قبيل السحر والشعوذة والتنجيم حتى لو كان هؤلاء السحرة والكهنة والمنجمون يأتون بالعجائب والغرائب لأن أفعالهم لها قواعد معروفة، وفنونها تدرس، وفيها كتب مؤلفة يمكن لأي إنسان أن يدرسها ويبرع فيها كما برع غيره وأكثر. أما الوحى والنبوات فهبة من الله تعالى، واصطفاء لأهلها، فالفرق بين وواضح بين معجزة موسى عليه السلام وبين ما أتى به سحرة فرعون، فالوحى

---

(1) شرح المعلقات السبع للزوزني ــ ص ١٥٩ ــ مكتبة المعارف ــ بيروت .

(2) بيانات المعجزة الكبرى ــ د/ حسن عتر ــ ص ٣٩ ــ ٤٧ .

حقيقة لا خيال، وصدق لا كذب، ولا يحصل عليه حريص وإلا لنالها أمية بن أبي الصلت الذي ترهب ولبس المسوح لينال شرف النبوة ولكنه لم ينلها، ولم يحصل عليها، وذلك لأنها فضل من الله تعالى يؤتيه من يشاء[1]

الشبهة السادسة :

زعم كثير من المستشرقين والمبشرين أمثال "الويز سبرنجر" و "جوستاف فايل" وغيرهم أن الحالة التي كانت تصيب رسول الله ﷺ حالة صرع يغيب فيها عن الناس وعما حوله ويظل ملقى على إثرها بين الجبال لمدة طويلة، يسمع له على إثرها غطيط كغطيط النائم ، ويتصبب عرقه ، ويثقل جسمه.

وبعضهم اعتبرها حالة هستيرية، وتهيجا عصبيا، يظهر عليه أثرها في مزاجه العصبي القلق، ونفسه كثيرة العواصف بشكل غامض، حتى كان يصل به الأمر أن لا يفرق بين تعاقب الليل والنهار، وقد هزل على إثرها جسمه ، وشحب لونه ، وخارت قواه][2].

الجواب :

هذه المزاعم والمفتريات ليس لها سند من الواقع التاريخي فرسول الله ﷺ عاش ومات وهو بكامل صحته وعافيته ولم يظهر عليه أي عارض نفسي أو عصبي على ما يزعمون.

---

(1) انظر كتاب الوحي والقرآن الكريم ـــ د/ محمد حسين الذهبي ـــ ص ٢٨ "بتصرف" .

(2) انظر مقدمة القرآن مونتجمري واط ـــ ص ١٧ ، ١٨ ، ومقدمة القرآن لبل ص ٢٩ ـــ ٣٠ ، وكتاب العقل المسلم ص ٤١ كتاب حياة محمد ـــ هيكل ص ٤٥ .

لذا كان عاقلا ذكيا فطنا، يمتاز بسرعة البديهة ، وحصافة الـرأي وسداد التفكير، واستقرار النفس، قويا في جسمه وذاكرته، سليما في كـل أعضائه، ويشهد لذلك جهاده الطويل، وسياسـته الحكيمـة، وتخطيطاتـه الحربية الناجحة، وتنظيماته الاجتماعية الكاملة، وكمال الدين الذي دعا له

لذا نفى الله سبحانه عنه صفة الجنون لأنها تناقض هدى النبـوة وتخل بشرف الرسالة. قال سبحانه: ﴿ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴾ [1] ويأبى الله إلا أن يظهر الحق حتى على ألسنة أعدائه .

فهذا أحد المستشرقين وهو "أميل درمنغم" يصف هذا النبي العظيم : [وقد غفل المشتغلون بأمور النفس الحضريون الذين افترضـوا وجـوده مـن الصرع والاستيحاء والخيال المتقد، عن حياة الخيام في الصحراء، وعمـا يجب أن يبديه الرجل فيها من الحذق والدهاء ليبقى زعـيم عصـبة مـن الأعراب، وحياة محمد كانت منتظمة موزونة قبل بعثته، وما انفكت تكون كذلك بعدها إلا في حالات الوحي] .

قال " أرميا" : [انسحق قلبي في وسطي، ارتخت كل عظامي، صرت كإنسان سكران، ومثل رجل غلبته الخمر من أجل كلام الرب ومـن أجـل كلام قدسه] .. ولم تنشأ رؤى محمد ووحيه من مرض فيه ، بـل كانـت تبدو عليه علائم المرض بسبب الرؤى والوحي، وهنالك ظواهر مشـتركة بين مريض الأعصاب أو المهوس وبين الموحى إليه الصـادق، فـالأول منفعل غير فاعل. والآخر مبدع فاعل، وهذا إلى أن من الجائز أن يقـال: إن البنية المريضة قليلا تساعد على التصوف ويزيدها التصوف مرضا.

---

[1] التكوير : ٢٢ .

والحق أن محمدا كان مبرأ من مثل هذه الأمراض على الدوام، فقد كان تام الصحة إلى أن بلغ سن الكمال، ولم تبد العوارض عليه بعد هـذه السن إلا عند تقبل الوحي. وأنت إذا ما استثنيت المرض الـذي اسـتولى عليه في السنين من عمره، رأيته لم يصب بغير وجع الرأس مـرتين أو ثلاث بسبب أسفاره الطويلة تحت وهج الشمس، ذلك الوجع الذي عـولج بوضع المحاجم على رأسه .. وكان النبي ﷺ إذا نزل عليه الوحي يتحدر جبينه عرقا في البرد كأنه الجمان [1]، وكان يَحمرُّ الوجه وهو يغـط كمـا يغط البكر[2]وكان إذا ما خرج من نوبة الوحي يتلو ما أوحى إليه والآيات ، فكان بعض المسلمين يحفظونه عن ظهر قلب أو يكتبونـه كمـا يمليـه عليهم..] [3].

ومع تحفظنا على بعض ما ورد في كلامه فلا نحسبه كتبه من دافع الحب للإسلام وأهله . بل هو لا يقل عن غيره من المستشـرقين تعصـبا ضد الإسلام ونبيه ــ عليه الصلاة والسلام ــ ، فـإن كتابـه هـذا ملـئ بالغمزات المسمومة والوخزات المخدرة، ولكنه لم يستطع أن يخفي مثـل هذه الحقيقة الواضحة.

كما أن التفرقة بين تخبطات المجانين والصرعى، وبـين هـزات الانتشاء الروحي، والإشراق النفسي ليس بالأمر العسير الذي يحتاج إلـى علم غزير ، وإلى دراسات عميقة.. إذ أن شقة الخلاف بين الحالين بعيدة ومدى التفاوت بينهما طوييل ممتد، وبأدنى نظر يستطيع المرء أن يعـرف

(1) الجمان : اللؤلؤ .

(2) و البكر : الفتي من الإبل .

(3) انظر حياة محمد ــ إميل درمنغم ــ ص ٢٤٥ ــ ٢٤٧.

الحق من الباطل، والسليم من السقيم، فهذا رسول الله ﷺ لما نظر لابن صياد عرف أنه يهودي دعي كاذب، قد ركبته جنة، فجعل يخبط ويخرف فتند منه بعض كلمات تبرق فيها بوارق يحسبها كثير من الناس من متنزلات الغيب وما هي في حقيقتها إلا لمعات الخبل والجنون، وكم للخبل والجنون من لمعات .. ولكنها أشبه بلمعان السراب، يحسبه الظمآن ماءا حتى إذا جاءه لم يجده شيئا [1].

<u>خمس ردود يرد بها على هذه الفرية :</u>

وهذه الفرية ترد بما يلي :

١ـ كما ذكرت سابقا أن رسول الله ﷺ كان يتلقى الوحى في أكثر من حالة ولكنه لم يكن يظهر عليه أي مظهر من مظاهر الاضطراب النفسي أو القلق، وقد جاء وصف حالات الوحى في أكثر من حديث منها حديث الحارث بن هشام ﷺ عندما سأل رسول الله ﷺ عن كيفية إتيان الوحى إليه.

٢ـ الثابت علميا أن المصروع يتعطل تفكيره، وإدراكه تعطلا تاما، فلا يدري أثناء نوبته عما يدور حوله، ولا ما يجيش في نفسه، ويغيب عن صوابه. وتعتريه تشنجات تتوقف فيها حركة الشعور عنده، ويصبح المريض بلا إحساس، وأبرز سمة عنده تكون النسيان، ولكن الرسول ﷺ لم يكن يظهر عليه شئ من ذلك. فكان يبقى في تمام وعيه قبل وخلال وبعد حالة الوحى فكان يفصم عنه وقد وعى كل ما قاله له جبريل ﷺ من آيات بينات، وتشريعات محكمات، وعظات بليغات، وأخلاق عظيمة،

---

(١) كتاب النبي محمد ـ عبد الكريم الخطيب ـ ص ١٤٨ " بتصرف" .

وكلام بلغ الغاية القصوى في الفصاحة والبلاغة والإعجاز حتى طأطأ لإعجازه أقدر الناس فصاحة وبلاغة فرادا أو مجتمعين وفي كل الأزمان.

٣ـ وسائل الطب الحديث ، والأجهزة المتقدمة في التشخيص والعلاج، أثبت هذا الطب أن نوبات الصرع ناتجة عن تغيرات فسيولوجية عضوية في المخ. حيث أمكن تسجيل تغيرات كهربائية في المخ أثناء النوبات الصرعية مهما كان مظهرها الخارجي . كما أثبت الطب الحديث أن هناك مظاهر عديدة ومختلفة لنوبات الصرع وذلك تبعا لمراكز المخ التي تبدأ فيها التغيرات الكهربائية ، وتبعا لطريقة انتشارها وسرعته.

وأهم نوبات الصرع، النوبات الصرعية النفسية.

وفي هذه الحالة من نوبات الصرع فإنه تمر بذهن المريض ذكريات قديمة، وأحلام مرئية أو سمعية أو الاثنان معا، وتسمى (بالهلاوس) وهذه الذكريات يكون قد عاشها المريض نفسه ثم احتفظ بها مخه في ثناياه، استدعتها للخروج من مكانها الحالة الصرعية التي انتابته. وقد أمكن طبيا إجراء عملية التنبيه له بواسطة تيار كهربائي صناعي سلط على جزء خاص في المخ فشعر المريض بنفس "الهلاوس" التي تنتابه في أثناء نوبة الصرع، وبتطبيق ما قرره الطب الحديث في حقائق الصرع على ما كان يعتري النبي ﷺ نجده يردد آيات لم يسمعها من قبل في حياته أخبره بها الله جل وعلا. ولما كانت هذه الأحاديث والآيات والأحوال لم تمر به ﷺ من قبل فهى إذا لم تختزن بالتالي في مخه لتثيرها وتخرجها نوبات صرعية فيتذكرها وينطق بها .

فيظهر جليا أن ما كان يعتري رسول الله ﷺ هي حالة نفسية وجسدية لتلقي وحى الله سبحانه فبالتالي فهناك فرق شاسع بين الحالتين:

حالة الصرع التي تنتاب المصروعين، وحالة الوحى التي تعتري أنبياء الله ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ ولا شك أن الطعن في الوحي الذي ينزل على محمد ﷺ طعن في كل ما نزل على أنبياء الله من قبل ، وهذا لا يكون من مؤمن بالله وأنبيائه، ولا يكون إلا من ملحد لا ديني أحيل بين قلبه وبين الإيمان. فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم [1].

٤ـ يرد فريتهم أن الوحى أثر لمرض الهستريا الذي هو كما بينه كل من الأساتذة " كريكيه" و "الأندوز" و "شاركو" أنه مرض عصبي عضال، وهو وراثي أكثر أصابته في النساء، ومن أعراضه شذوذ في الخلق، وضيق في التنفس إلى حد الاختناق، ويظهر عليه ضيق في الصدر، واضطراب في الهضم، وقد تصحب هذه الأعراض كذلك بحركة واضطراب في اليدين والرجلين إلى حد الشلل في بعض الأعضاء ، فإذا تابع المرض تقدمه جاء دور التشنج فيسبقه بكاء وعويل، وكرب عظيم وهذيان، ينتهي إلى حد الإغماء ، فإذا تجاوز هذه المرحلة فإن المريض يرى أشباحا تهدده وتسخر منه، وأعداء تحاربه ويسمع أصواتا لا وجود لها في الحس والواقع.

وفي هذا الدور يقع المريض بحركات مضطربة ، وقفز من مكان لمكان على صورة تلقى الذعر في قلب كل من يراه [2].

هذا الوصف لأعراض هذا المرض لم يكن يظهر منه شئ على رسول الله ﷺ الذي كان يتمتع بشهادة الأعداء قبل الأصدقاء بصحة جيدة

---

(١) انظر المدخل لدراسة القرآن الكريم ـ ص ١٠٣ ـ ١٠٨ ؛ نقلا عن مجلة منبر الإسلام ـ عدد ٩ لسنة ١٩ رمضان ١٣٨١هـ ـ فبراير ١٩٦٤م " بتصرف" .

(٢) انظر القرآن والمستشرقون ـ رابح جمعة ـ ص ٢٧ ، ومناهل العرفان للزرقاني ٧٤/١.

وعقل رصين، ونفسية هادئة، وخلق كريم وحركات متزنة، ويشهد لصحته وقوته صرعه " لركانة بن عبد يزيد" الذي كان أقوى عصره [1] ويشـــهد لرجاحة عقله وسلامته، فصله في خصومة قريش في شرف وضع الحجر الأسود في مكانه [2] . والطب لم يخرج لنا مريضا واحدا مصابا بمثل هذا المرض وقال كلاما معقولا وآراء راجحة .

قال المستشرق الفرنسي "ماسينيون" : [إن محمدا كان على تمام الاعتدال في مزاجه] .

وهذا يناقض ما قاله "كارليل" : [إن محمدا كان حاد الطبع نـــاري المزاج].

وقال "ماكس ما يرهسوف" في كتابه (العالم الإسلامي):

[لقد أراد بعضهم أن يرى في محمد رجلا مصابا بمرض عصـــبي ولكن تاريخ حياته من أوله إلى آخره ليس فيه شئ يدل على هذا . كما أن ما جاء به فيما بعد من أمور التشريع والإدارة يناقض هذا القول] ويقول " بلاتوف" في (تاريخ العالم) : [وغاية ما نقدر أن نجزم به هـــو تبرئـــة محمد من الكذب والمرض] [3].

٥ــ أثبت الطب الحديث أن المصاب بالصرع يشعر بالآم حادة فـــي كافة أعضاء جسمه، ويبقى حزينا كاسف البال بسببها، وكثيرا ما يحـــاول مرضى الصرع الانتحار من قسوة ما يعانون من آلام في النوبـــات، فلـــو

---

[1] انظر الاستيعاب في تمييز الأصحاب ٥١٥/١ ــ ٥١٦ .

[2] السيرة النبوية للذهبي ص ٣٢ ــ ٣٣ ، ط دار الكتب العلمية بيروت ط ١ ١٤٠١هـــ ــ ١٩٨١م

[3] القرآن والمستشرقون ص ٢٦ ــ ٢٧.

كان ما يعتري النبي ﷺ عند حالة الوحى صرعا، لأسف لـذلك وحـزن لوقوعه، ولسعد بانقطاع الوحى عنه؛ ولكن الأمر كان على خلاف ذلـك ، لقد فتر الوحى عن الرسول ﷺ مدة من الزمن ، فحزن حزنـا شـديدا، وكان يذهب إلى غار حراء، وقمم الجبال عسى أن يعثر على الملك الـذي جاءه بحراء أول مرة حرصا عليه، وأسفا على قليه وهجرانه له.

قال الزهري: عن عروة عن عائشة : " وفتر الوحى فتـرة حتـى حزن رسول الله ﷺ حزنا شديدا وغدا مرارا كي يتردى مـن شـواهق الجبال وكلما أوفى بذروة ليلقي نفسه تبدى له جبريل فقال: يا محمد إنـك رسول الله حقا، فيسكن لذلك جأشه وتقر نفسه فيرجع فإذا طالـت عليـه فترة الوحى غدا لمثل ذلك فإذا أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل فقال مثل ذلك " (١).

(١) انظر السيرة النبوية للإمام الذهبي ص ٦٤ .

الخلاصة :

يظهر لنا من خلال هذه المناقشة والأقوال أن ظاهرة الوحى ربانية المنشأ ملائكية النقل، بشرية التبليغ، فرسولنا ﷺ مبلغ فقط، لذا كان يحرص عليها كنعمة مهداة، له من الله سبحانه وتعالى بقوله : " اللهم يا مصرف القلوب صرف قلبي على طاعتك ، اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك" [1].

ولم يكن نتيجة ترو فكرى. يدل على ذلك حرصه على حفظه قال تعالى : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ [2].

ويدل أن القرآن الكريم ليس منه تصدير كثير من الآيات بلفظة "قل" والعتاب الشديد على بعض تصرفاته قال تعالى: ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴾ الآية [3].

وهدده إن غير فيه شيئا بقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾[4]

ويشهد لانفصال ظاهرة الوحى عن شخصه الفرق بين أسلوب وخصائص القرآن الكريم والأحاديث النبوية والقدسية [5].

---

(1) انظر مسند الإمام أحمد ١٦٨/٢.

(2) القيامة : ١٦.

(3) التوبة : ٤٣ .

(4) الحاقة : ٤٤ وما بعدها .

(5) انظر في هذا المقام " آراء المستشرقين حول القرآن الكريم " ج١ ص ٣٨١.

فروق يتميز بها القرآن الكريم عـن الأحاديـث القدسـية وتحمـل فـي طياتهاالرد على هذه الفرية :

فالقرآن الكريم له مزايا وخصائص يتفرد بها عن غيره منها:

١ـ القرآن الكريم معجزة باقية على مر الدهور، محفوظـة مـن التغيير والتبديل ، فتواتر اللفظ في جميع الكلمات والحروف والأسلوب.

٢ـ يحرم روايته بالمعنى.

٣ـ يحرم مسه لمحدث ويحرم تلاوته من جنب.

٤ـ تعينه في الصلاة .

٥ـ تسميته قرآنا .

٦ـ التعبد بقراءته فقراءة كل حرف منه بعشر حسنات.

٧ـ تسمية الجملة منه آية . ومقدار مخصوص من الآيات سورة.

٨ـ القرآن الكريم لفظه ومعناه من عند الله عز وجل قـال تعالى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ .[1]

---

(١) النجم : ٣ .

استدراك :

وبعد هذه الردود على شبهات المستشرقين على الوحى، كما جاء ذلك في هذا المبحث، ربما انقدح في ذهن القارئ سؤال مؤداه: إن الحديث عن الشبهات المتصلة بالوحى تكررت فهناك المبحث التاسع وهذا المبحث الثالث عشر أيضا في هذا الإطار. والجواب أن ما سقناه من شبهات وردود في المبحث التاسع كان بإيذاء ما نقل عن علماء علوم القرآن . لذا كان المبحث هناك يحمل هذه الصبغة . أما الحديث هنا وفي هذا المبحث كان عن شبهات أوردها المستشرقون على الوحى لذا يجد القارئ أن عرض الشبهات هنا والمسلك في ردها اصطبغ بصبغة دعاة الاستشراق فتنبه . !

والله أعلم

* * *

المبحث الرابع عشر
دفع شبهات حول مكيّ القرآن ومدنيِّه
كموضوع من موضوعات علوم القرآن

إن خصوم الإسلام يحرصون كل الحرص على التشكيك في القرآن، لأنه قوام الدين وأصله الذي يعتمد عليه، فإذا ما اهتز هذا الأساس ولو هزة خفيفة تمايلت الأغصان وارتجفت ، وتداعت الثمار للسقوط.

وأعداء الإسلام لتهازيون، يتلقفون قولة واهية من عالم، أو رواية ضعيفة من راو لينفثوا فيها سمومهم.

وأعداء الإسلام كالثعلب ماكرون مخادعون، يلبسون مسوح الانتصاف له، ويتشدقون بعظمته وسموه، حين تضطرهم الآيات أو التشريعات إلى الإذعان والتسليم، وحين تخرس الحجج ألسنتهم الهدامة، وتكتم أنفاسهم السامة، فينخدع القارئ بشهادة المستشرق، ويظن أنه بعيد عن الأهواء، مستند إلى الحقيقة، معترف بها وإن كانت ضد عقيدته ونحلته.

وفي غمار تخدر أعصاب القارئ ينفذ المستشرق من بين المسام إلى الطعن والفتك بأصل الشريعة، مستخدما أسلوب التشكيك، وإثارة الشبهات، لتتزعزع عقيدة المسلم في دينه، فتضعف روح الإيمان وقوته في قلوب أهله، فيسهل إخضاعهم وإذلالهم.

وسنرى في كثير من مباحث علوم القرآن سيلا من الشبهات، بل من الأكاذيب والافتراءات، وسنعرض لبعضها بالدحض والتشريح، ونمسك

عن البعض الآخر لظهور الفرية فيه، ووضوح بعده عن الصواب بمجرد النظر الصحيح.

الشبهة الأولى:

يقولون: إن الفاحص للمكي والمدني يجد القرآن منقسما إلى أسلوبين متغايرين تمام التغاير.

فالأسلوب المكي ملئ بالشدة والعنف، والقسوة والغضب، والوعيد والتهديد والسب والإقذاع، وبالنزول إلى أسلوب الأوساط البدائية المنحطة، ففيه مثلا ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ * ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ [1] وفيه ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ ﴾ [2] وفيه ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا * وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا * سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴾ [3].

وفيه ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ * هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ * مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ * أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ * إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴾ [4].

---

(١) التكاثر : ٢ ــ ٨.

(٢) سورة المسد :

(٣) المدثر : ١٠ ــ ١٧.

(٤) القلم : ٩ ــ ١٦

بخلاف القسم المدني، فهو متسم باللين،والموعظة الهادئة، وأسلوب الأوساط المتحضرة، ففيه ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ [1] وفيه ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ﴾ [2] وفيه: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾[3] إلى غير ذلك من الآيات .

وغرضهم من هذه الشبهة الإيحاء بأن القرآن من أسلوب محمد المتأثر بالبيئة ، غلظة في بيئة الغلظة، واستنارة ولينا في بيئة النور والمعرفة .

الجواب : هذه الشبهة ساقطة من وجوه :

الأول: إن القسم المكي لم ينفرد بالعنف، ففي القسم المدني كثير من الشدة والوعيد كذلك، ففيه: ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [4]

وفيه من التسفيه ما في المكي، يقول تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾ [5].

---

(1) آل عمران : ٦٤ .

(2) البقرة : ٤٤.

(3) البقرة : ٢٥٣.

(4) البقرة : ٢٧٩.

(5) البقرة : ٢٧٥.

الثاني: إن القسم المدني لم ينفرد بالسماحة واللين، ففـــي المكـــي كثير من آيات إرخاء العنان، كقـــوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾[1].

وفيه ﴿ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَـارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴾ [2].

الثالث: سلمنا غلبة أسلوب الشدة في المكي، وأسلوب اللـــين فـــي المدني، لكن هذا الاختلاف غير راجع إلى محمد، وتأثره بالبيئـــة، وإنمـــا مرجعه الحقيقي وأساسه الذي لا شك فيه، هو اختلاف حال المخـــاطبين ، فأهل مكة غلاظ الطبع، قساة القلب، قليلو المعارف، جبلوا على الخشونة ، وترعرعوا على الجفوة، وأهل المدينـــة أهـــل علـــوم ومعـــارف، ورقـــة وإحساس، وشعور ووجدان، فهل من الحكمة أن يتفـــق الأســـلوب مـــع اختلاف حال المخاطبين؟ وهل من البلاغة عدم مراعاة مقتضى الحال؟ إن الحكيم الذي أنزل القرآن عليم بما يصلح لكل من المخاطبين من أســـلوب، وقديما قالوا :

إذا أنت أكرمت الكـــريم ملكتـــه
وإن أنت أكرمت اللئـــــيم تمردا

فوضع الندى في موضع السيف بالعلى
مضركوضع السيف في موضع الندى

---

(1) سورة الكافرون

(2) فصلت : ٣٨.

الشبهة الثانية :

قالوا: إن قصر الآيات والسور المكية، وطول الآيات والسور المدنية دليل على أن القرآن تأثر بالبيئة .

فلما كان محمد أميا مبتدئا قصرت فقرات الكلام، وانحصرت حدود السور في نطاقها الضيق، ولما خرج إلى دائرة المعرفة اتسع الخيال، وانبسط الكلام وطال النفس.

وغرضهم من هذه الشبهة هو غرضهم في الشبهة السابقة،

والجواب عنها كما سبق من وجوه :

الأول: إن القسم المكي لم ينفرد بقصار السور، ولا بقصر الآيات، بل في القسم المدني سور وآيات قصيرة، كقوله تعالى: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ [1]. وهي من أخريات ما نزل من القرآن.

الثاني: إن القسم المدني لم ينفرد بطوال السور ولا بطول الآيات، ففي القسم المكي سور وآيات طوال كسورة الأنعام وآياتها.

الثالث: سلمنا غلبة القصر على المكي والطول على المدني لكن هذا الاختلاف إنما يرجع إلى حال المخاطبين وما يليق بهم من أساليب الخطاب، فأهل مكة كانوا في ذروة الفصاحة والبلاغة، فناسبهم الإيجاز في العبارة، والاختصار في الأسلوب ، وأهل المدينة رغم معارفهم وعلومهم، وحضارتهم ورقيهم، لم يكونوا في درجة القرشيين في ميدان البيان.

---

(1) سورة النصر .

الشبهة الثالثة :

قالوا: إن اختلاف الأسلوب إلى مكي ومدني قطّع القرآن، وقسمه إلى قسمين متميزين ، لا ترابط بينهما، مما يتنافى والوحدة والتناسق المفروض فيه. وهذه الفرية ناشئة عن ضعف الإدراك للخصائص البلاغية، وضعف التذوق البياني، وإذا ضعفت الحواس أخطأ الحكم على المحسوس، فالصفراوي الذي يجد الحلو مرا لا يلتفت إلى حكمه ، ولا يؤثر قوله في طعم الحلو وحقيقته. وإننا نقرأ كتاب الله ونسمعه ليلا ونهارا، فنلاحظ آيات مكية منبثة بين آيات مدنية، وآيات مدنية انتشرت بين آيات مكية، ولا يلحظ بليغ وصل أعلى درجات البلاغة تفككا وانفصاما بينها، بل يحس المفسر روعة وجلالا في إحكام الترابط والاتساق.

الشبهة الرابعة :

قالوا : إن خلو القسم المكي من التشريع وشحن القسم المدني بالأحكام دليل على تأثر القرآن بعلوم أهل المدينة ومعارفهم، فلما كان محمد بمكة أميا بين أميين ضاق أفق التشريع، ولما صار بين المثقفين وأهل الكتاب بالمدينة كثرت الأحكام والفروع.

والجواب عن هذه الشبهة من وجوه :

الأول: إن القسم المكي لم يخل من التشريعات التفصيلية، ففي سورة الأنعام المكية وصايا عشر من أهم أحكام الشريعة الإسلامية، يقول جل شأنه: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ

إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [1]

<u>الثاني:</u> لا جدال في أن القسم المكي ركز على الأصول، واهتم بتصحيح العقيدة وأن القسم المدني عنى بالتشريعات الفرعية، وهي عملية طبيعية تساير ناموس الحياة، فليس من المعقول أن تظهر الأغصان والفروع في وقت واحد مع جذوع الشجر وجذوره، ولا تنعكس الآية فتوجد الثمار قبل الأشجار.

<u>الثالث:</u> إن زعمهم تأثر القرآن بثقافة أهل الكتاب بالمدينة فرية باطلة ، إذ لو كان لها ظل من حقيقة ، أو سهم من صواب، وأن أحكامه مستمدة من أحكامهم لسايرت أحكامه أحكامهم، أو لأثرت أحكامهم في أهل المدينة المقيمين معهم منذ زمن بعيد قبل قدوم محمد إليهم، أو لادعى النبوة وشرَّع الأحكام أحد أحبارهم ورهبانهم، الذين استخلصوها ودرسوها، وتوسعوا فيها بل لو كان لهذه الفرية شائبة من الواقع، لعايره أهل الكتاب بالأخذ عنهم والسرقة منهم حين سفه أحلامهم، وخطأهم في معتقداتهم.

---

(1) الأنعام : ١٥١ ــ ١٥٣.

هذا : ولهم شبهات أخرى لا تستحق الرد لسقوطها قبل معارضتها، وانهيارها قبل تناولها، كقولهم : إن المكي يقسم بالأشــياء المحسوســة، كالضحى والليل والتين والزيتون مما يدل على أسلوب متأثر بالبيئة.

وقولهم : إن القسم المكي اشتمل على لغو من الكلام، حين يفتــتح السور بالحروف المقطعة، مما لا يصدر عن الضليع في القول، القوي في الثقافة والفصاحة والبيان. وقولهم: إن القســم المكــي، قليــل الحجــج والبراهين على الدعاوى التي أوردها بخلاف القسم المدني المملوء بالجدل والأدلة والبراهين.

وهكذا وهكذا سيل من الشبهات والتشكيكات مما لا يُستغربُ انهمارُها حيث عرفنا هدفهم الخبيث ، وكل ما علينا أن نتسلح بالعلم وبالإيمان لنبدد هذه الأوهام كما يبدد الصبح خيوط الظلام.

وما أجمل قول الشاعر:

أنا لا ألوم المستبد   إذا تعنت أو تعدى

فسبيله أن يســتبد   وشأننا أن نستعدا

انتهى .. [1]

---

[1] انظر في هذا المقام :

أ ــ اللآلئ الحسان في علوم القرآن ــ د/ موسى شاهين ــ ص ٢٤ .

ب ــ مناهل العرفان ــ الشيخ عبد العظيم الزرقاني ــ ج١ ص ٢٠٥.

المبحث الخامس عشر

شبهتان حول آخر ما نزل من القرآن وكذا أسباب النزول ودفعهما

١ــ شبهة في هذا المقام :

بقي أن ندحض شبهة أثيرت حول تعيين آخر ما نزل من القــرآن.

قالوا: لماذا لا تكون آية المائدة آخر ما نزل من القــرآن؟ وهــي قولــه سبحانه ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِــي وَرَضِــيتُ لَكُــمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [١] مع أنها صريحة في أنها إعلام بإكمال الله لدينه في ذلك اليوم المشهود الذي نزلت فيه ، وهو يوم عرفة في حجة الوداع بالســنة العاشرة من الهجرة.

والظاهر أن إكمال دينه لا يكون إلا بإكمال نزول القــرآن، وإتمــام جميع الفرائض والأحكام.

والجواب :

إن هناك قرآنا نزل بعد هذه الآية حتى بأكثر من شهرين ، ولعلــك لم تنس أن آية: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[٢] كانت آخر الآيات نزولا علــى الإطــلاق، وأن النبي ﷺ عاش بعدها تسع ليال فقط. وتلك قرينة تمنعنا أن نفهم إكمــال نزول القرآن من إكمال الدين في آية المائدة المذكورة. والأقرب أن يكون معنى إكمال الدين فيها يومئذ هو إنجاحه وإقراره، وإظهاره علــى الــدين

---

(١) المائدة : ٣.

(٢) البقرة : ٢٨١.

كله ولو كره الكافرون. ولا ريب أن الإسلام في حجة الوداع كان قد ظهرت شوكته وعلت كلمته، وأديل له على الشرك وحزبه، والكفر وجنده، والنفاق وحشراته، حتى لقد أجلى المشركون عن البلد الحرام؛ ولم يخالطوا المسلمين في الحج والإحرام. قال ابن جرير في تفسير الآية المذكورة: "الأولى أن يتأول على أنه أكمل لهم دينهم بإقرارهم بالبلد الحرام، وإجلاء المشركين عنه، حتى حجه المسلمون لا يخالطهم المشركون" [1] وأيد هذا التأويل بما رواه عن ابن عباس قال: "كان المشركون والمسلمون يحجون جميعا ، فلما نزلت سورة براءة نفى المشركون عن البيت، وحج المسلمون لا يشاركهم في البيت الحرام أحد من المشركين ، فكان ذلك من تمام النعمة ﴿ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾ . نسأل الله أن يتم علينا نعمته آمين.

٢- شبهة حول أسباب النزول وجوابها :

إذا استشكل على تكرار النزول بأنه عبث ما دامت الآية قد نزلت قبل ذلك السبب الجديد، وحفظها الرسول ﷺ واستظهرها الحفاظ من الصحابة، ويمكن الرجوع من غير حاجة إلى نزولها مرة أخرى .

فالجواب:

إن هناك حكمة عالية في هذا التكرار ، وهي تنبيه الله لعباده، ولفت نظرهم إلى ما في طي تلك الآيات المكررة من الوصايا النافعة، والفوائد الجمة، التي هم في أشد الحاجة إليها. فخواتيم سورة النحل التي معنا مثلا، نلاحظ أن الحكمة في تكرارها هى تنبيه الله لعباده أن يحرصوا

---

[1] كذا في تفسير ابن جرير الطبري ـ ج ٦ ص ٨٠ ـ طبعة دار الفكر ـ بيروت .

على العمل بما احتوته من الإرشادات السامية في تحري العدالة، وضبط النفس عند الغضب، ومراقبة الخالق حتى في القصاص من الخلق، والتدرع بالصبر والثبات. والاعتماد على الله والثقة بتأييده ونصره، لكل من اتقاه وأحسن في عمله، جعلنا الله منهم أجمعين آمين.

أضف إلى هذه الحكمة ما ذكره الزركشي من أن تكرار النزول تعظيم لشأن المكرر، وتذكير به خوف نسيانه [1].

* * *

[1] كذا في مناهل العرفان ج ١ ص١٠١ ــ١٢١ ، و البرهان للزركشي ج١ ص ٢٩ ــ الطبعة الثانية .

المبحث السادس عشر

دفع شبهات حول القراءات والأحرف السبعة

<u>الشبهة الأولى :</u>

يقول المفترون: إن أحاديث نزول القرآن على سبعة أحرف تثبت الاختلاف في القرآن ، والقرآن نفسه يجعل الاختلاف أمارة على أنه ليس من عند الله إذ يقول: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [١]

<u>والجواب :</u>

إن الاختلاف الناشئ عن الأحرف السبعة هو اختلاف في طرق الأداء في دائرة محدودة، لا تعارض بين معانيها، ولا تضارب بين أحكامها

وفي هذا يقول ابن الجزري: قد تدبرنا اختلاف القراءات، فوجدناه لا يخلو من ثلاثة أحوال:

<u>أحدها:</u> اختلاف اللفظ لا المعنى. كالاختلاف في ألفاظ "الصراط" و "عليهم" و "القدس" و"يحسب" ونحو ذلك مما يطلق عليه أنه لغات فقط.

<u>ثانيها:</u> اختلافهما جميعا، مع جواز اجتماعهما في شئ واحد، نحو لفظ. ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ [٢] و "ملك يوم الدين" لأن المراد في القراءتين هو الله تعالى، وكذا " ننشزها " بالزاي، و"ننشرها" بالراء ، لأن المراد بهما هو العظام، وذلك أن الله تعالى أنشرها أي أحياها وأنشزها أي رفع بعضها لى بعض، حتى التأمت ، فضمن الله المعنيين في القراءتين.

---

(١) النساء : ٨٢.

(٢) الفاتحة : ٤.

ثالثها: اختلافهما جميعا ، مع امتناع جواز اجتماعهما في شئ واحد، لكن يتفقان مع وجه آخر، لا يقتضي التضاد، نحو قوله تعالى:﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾ [1]قرئ بالتشديد والتخفيف، في لفظ " كذبوا " المبني للمجهول، فأما وجه التشديد، فالمعنى : وتيقن الرسل أن قومهم قد كذبوهم، وأما وجه التخفيف، فالمعنى: وتوهم المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوهم (أي كذبوا عليهم) فيما أخبروهم به، فالظن في الأول يقين، والضمائر الثلاثة للمرسل إليهم.

ثم قال: فليس في شئ من القرآن تناف ولا تضاد ولا تناقض، وكل ما صح عن النبي ﷺ من ذلك، فقد وجب قبوله، ولم يسع أحدا من الأمة رده، ولزم الإيمان به، وأنه كله منزل من عند الله ، إذ كل قراءة منها مع الأخرى بمنزلة الآية مع الآية، يجب الإيمان بها كلها، واتباع ما تضمنته علما وعملا. ولا يجوز ترك موجب إحداهما لأجل الأخرى، ظناً أن هذا تعارض.أهـ بتصرف.

الشبهة الثانية :

قالوا: إن بعض الروايات في اختلاف القراءات تثير الشك في القرآن ، وتفقد الثقة فيه، ففي بعض الروايات تخيير الشخص أن يأتي باللفظ أو بمرادفه أو باللفظ وما لا يضاده في المعنى، من ذلك حديث أبي بكرة من رواية أحمد وفيه "كلها شاف كاف، ما لم تختم آية عذاب برحمة، أو آية رحمة بعذاب، نحو قولك : تعالى ،وأقبل، وهلم ، وأسرع، وعجل" .

---

(1) يوسف : ١١٠

من ذلك أيضا ما روى عن ابن مسعود، أنه أقرأ رجلا ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴾ [1] فقال الرجل : طعام اليتيم. فردها عليه، فلم يستقم بها لسانه، فقال : أتستطيع أن تقول: طعام الفاجر؟ قال: نعم. قال: فافعل".

والحقيقة أن كثرة الأقوال، وتهافتها، وضعف الروايات وسقوطها، مكن لأعداء الإسلام من التهجم على الكتاب الخالد، الذي ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [2] وأتاح لهم فرصة الاعتراض والتشكيك.

نعم. وإن سماحة الإسلام، فتحت مجال القول والكتابة على مصراعيه، فدخله العالم والجاهل، فكتب فيه ـ بحسن قصد ـ ما ليس منه، ووجد من كلام أبنائه معاول هدم، أخطر عليه من سيوف المبشرين والمستشرقين، وصدق القائل:

لا يبلغ الأعداء من جاهل ... ما يبلغ الجاهل من نفسه

فما أحوج ثروة الإسلام العلمية إلى حملة نقاء وتصفية، في كتب التفسير وكتب الحديث وكتب السير، بل وكتب الأحكام الفقهية الفرعية.

ما أحوج الإسلام اليوم إلى حملة كحملة عثمان تحمل الناس على الطريق السوي، وتباعد بينهم وبين جهل الجاهلين، ودس الدساسين.

ولن يستطيع القيام بهذا العمل المقدس فرد أو أفراد، فقد اتسعت الثروة على الطاقة وأصبحت واجب الهيئات وأولياء الأمور من المسلمين.

---

[1] الدخان : ٤٣ ، ٤٤.

[2] فصلت : ٤٢.

وإنه ليكفي التشريع الإسلامي نصف الأحاديث المجموعة، ويكفي لفهم كتاب الله ربع التفاسير المطبوعة.

أسأل الله توفيق العلماء وأولياء الأمور لما فيه خير الإسلام.

ونعود إلى الشبهة الخبيثة لنرى بعض العلماء يسلم بصحة هذه الروايات لمجرد اطمئنانه للسند، ويحاول الرد بأن هذا كان جائزا في أول الإسلام حتى تلين ألسنة المبعوث إليهم مع ملاحظة أن الكل نازل من عند الله .

وتلك المحاولة ــ رغم حسن القصد الباعث عليها ــ لا تزيد الشبهة إلا اشتباها فإن القرآن لم ينزل للعرب وحدهم ، وكان حريا به أن يراعى المشقة بالنسبة لجميع الأمم، لا بالنسبة لبعض القبائل العربية التي تقف ألسنتها عند كلمات منه محدودة.

والأولى رد هذه الروايات من أساسها، لأن ما جاءت به تخالف الأمر المجمع عليه .

<u>الشبهة الثالثة :</u>

قال بعض الجهلة من المسلمين: إنه لا معنى للأحرف السبعة التي نزل بها القرآن إلا أن يقصد بها القراءات السبع المنقولة عن الأئمة السبعة المعروفين عند القراء.

وللرد على هذه الشبهة يقول ابن الجزري :

ولو كان الحديث منصرفا إلى قراءات السبعة المشهورين ، أو سبعة غيرهم من القراء، الذين ولدوا بعد التابعين، لأدى ذلك إلى أن يكون الخبر عاريا عن الفائدة إلى أن يولد هؤلاء السبعة، فتؤخذ عنهم القراءة.

وأدى أيضا إلى أنه لا يجوز لأحد من الصحابة أن يقرأ إلا بما يعلم أن هؤلاء السبعة من القراء ، إذا ولدوا وتعلموا اختاروا القـراءة بـه ، وهذا باطل، إذ طريق أخذ القراءة أن تؤخذ عـن إمـام ثقـة،لفظا عـن لفظ،إمام عن إمام إلى أن يتصل بالنبي - ﷺ - أهـ

وقال أبو شامة : ظن قوم أن القراءات السبع الموجودة الآن هـي التي أريدت في الحديث، وهو خلاف إجماع أهل العلم قاطبة، وإنما يظـن ذلك بعض أهل الجهل أهـ.

وقال ابن عمار: لقد فعل مسبع هذه السبعة ما لا ينبغي له، وأشكل الأمر على العامة، بإبهامه كل من قل نظره أن هذه القراءات هي المذكورة في الخبر، وليته نقص عن السبعة،أو زاد، ليزيل الشبهة. أهـ.

وقال مكي بن أبي طالب: هذه القراءات التي يقـرأ بهـا اليـوم، وصحت رواياتها عن الأئمة هي جزء من الأحرف السبعة التي نزل بهـا القرآن .

ثم قال: وأما من ظن أن قراءة هؤلاء القراء كنافع وعاصم، هـي الأحرف السبعة التي في الحديث، فقد غلط غلطا عظيما. قال: ويلزم مـن هذا أن ما خرج عن قراءة هؤلاء السبعة، مما ثبت عن الأئمـة غيـرهم، ووافق خط المصحف، أن لا يكون قرآنا، وهذا غلط عظيم. اهـ [1].

* * *

---

[1] انظر في ها المقام :

١ـ اللالئ الحسان ص ١٢٤ ٢ـ مناهل العرفان ج١ ص ١٨٤ ، ٤٧١

المبحث السابع عشر
دفع شبهات حول جمع القرآن الكريم

كان القرآن ولا يزال هدفا لأعداء الإسلام، يسددون إليه سهام المطاعن ويتخذون من علومه مثارا للشبهات يلفقونها زورا وكذبا، ويروجونها ظلما وعدوانا. من ذلك ما نقصه عليك في موضوعنا هذا مشفوعا بالتفنيد فيما يأتي :

<u>الشبهة الأولى :</u>

يقولون : إن القرآن كما حصل فيه نقص عند الجمع، حصلت فيه زيادة، والدليل على ذلك إنكار ابن مسعود أن المعوذتين من القرآن، وأن في القرآن ما هو من كلام أبي بكر وكلام عمر.

وننقض هذه الشبهة :

<u>أولا :</u> بأن ابن مسعود لم يصح عنه هذا النقل الذي تمسكتم به من إنكاره كون المعوذتين من القرآن. والمسألة مذكورة في كثير من كتب التفسير وعلوم القرآن مع تمحيصها والجواب عليها.

وخلاصة ما قالوه: إن المسلمين أجمعوا على وجوب تواتر القرآن. ويشكل على هذا ما نقل من إنكار ابن مسعود قرآنية الفاتحة والمعوذتين. بل روى أنه حك من مصحفه المعوذتين، زعما منه أنهما ليستا من القرآن

وقد أجابوا عن ذلك بمنع صحة النقل، قال النووي في شرح لمهذب ما نصه : " أجمع المسلمون على أن المعوذتين والفاتحة من القرآن، وأن من جحد شيئا منها كفر. وما نقل عن ابن مسعود باطل ليس بصحيح" اهـ وقال ابن حزم في كتاب القدح المعلى: (هذا كذب على ابن

مسعود وموضوع) . بل صح عن ابن مسعود نفسه قراءة عاصم، وفيها المعوذتان والفاتحة. وفي صحيح مسلم عن عقبة بن عامر " أنه ﷺ قرأهما في الصلاة " . زاد ابن حبان من وجه آخر عن عقبة بن عامر أيضا: " فإن استطعت ألا تفوتك قراءتهما في صلاة فافعل "، وأخرج أحمد من طريق أبي العلاء بن الشخير عن رجل من الصحابة أن النبي ﷺ أقرأنا المعوذتين وقال له : إذا أنت صليت فاقرأ بهما. وإسناده صحيح.

ثانيا : يحتمل أن إنكار ابن مسعود لقرآنية المعوذتين والفاتحة على فرض صحته، كان قبلّ علمه بذلك، فلما تبين له قرآنيتهما بعد، تم التواتر، وانعقد الإجماع على قرآنيتهما كان في مقدمة من آمن بأنهما من القرآن .

قال بعضهم: " يحتمل أن ابن مسعود لم يسمع المعوذتين من النبي ﷺ ولم تتواترا عنده، فتوقف في أمرهما. وإنما لم ينكر ذلك عليه، لأنه كان بصدد البحث والنظر، والواجب عليه التثبت في هذا الأمر " أهـ . ولعل هذا الجواب هو الذي تستريح إليه النفس، لأن قراءة عاصم عن ابن مسعود ثبت فيها المعوذتان والفاتحة وهي صحيحة، ونقلها عن ابن مسعود صحيح، وكذلك إنكار ابن مسعود للمعوذتين جاء من طريق صححه ابن حجر إذا فليحمل هذا الإنكار على أولى حالات ابن مسعود، جمعا بين الروايتين.

وما يقال في نقل إنكاره قرآنية المعوذتين يقال في نقل إنكاره قرآنية الفاتحة بل نقل إنكاره قرآنية الفاتحة، أدخل في البطلان، وأعرق في الضلال، باعتبار أن الفاتحة أم القرآن وأنها السبع المثاني التي تثنى وتكرر في كل ركعة من ركعات الصلاة، على لسان كل مسلم ومسلمة.

فحاش لابن مسعود أن يكون قد خفى عليه قرآنيتهما، فضلا عن إنكاره قرآنيتها. وقصارى ما نقل عنه أنه لم يكتبها في مصحفه، وهذا لا يدل على الإنكار. قال ابن قتيبة ما نصه : " وأما إسقاطه الفاتحة من مصحفه، فليس لظنه أنها ليست من القرآن ـ معاذ الله ـ ، ولكنه ذهب إلى أن القرآن إنما كتب وجمع بين اللوحين مخافة الشك والنسيان، والزيادة والنقصان" أهـ ومعنى هذا أن عدم كتابة ابن مسعود للفاتحة في مصحفه كان سببه وضوح أنها من القرآن ، وعدم الخوف عليها من الشك والنسيان والزيادة والنقصان.

ثالثا : إننا إن سلمنا أن ابن مسعود أنكر المعوذتين وأنكر الفاتحة بل أنكر القرآن كله، فإن إنكاره هذا لا يضرنا في شئ، لأن هذا الإنكار لا ينقض تواتر القرآن، ولا يرفع العلم القاطع بثبوته القائم على التواتر. ولم يقل أحد في الدنيا: إن من شرط التواتر والعلم اليقيني المبني عليه ألا يخالف فيه مخالف. وإلا لأمكن هدم كل تواتر، وإبطال كل علم قام عليه، بمجرد أن يخالف فيه مخالف، ولو لم يكن في العير ولا في النفير. قال ابن قتيبة في مشكل القرآن: " ظن ابن مسعود أن المعوذتين ليستا من القرآن. لأنه رأى النبي ﷺ يعوذ بهما الحسن والحسين فأقام على ظنه، ولا نقول إنه أصاب في ذلك وأخطأ المهاجرون والأنصار" اهـ.

رابعا: إن ما زعموه من أن آية ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [1] إلخ من كلام أبي بكر فهو زعم باطل، لا يستند إلى دليل ولا شبه دليل. وقد جاء في الروايات الصحيحة أنها نزلت في واقعة أحد، لعتاب أصحاب رسول الله ﷺ على ما صدر منهم، وأنها ليست من كلام أبي بكر. وذلك أنه لما أصيب المسلمون في غزوة أحد بما أصيبوا به، وكسرت رباعية [2] النبي ﷺ ، وشج [3] وجهه الشريف ، وجحشت [4] ركبته، وشاع بين المقاتلة أن رسول الله ﷺ قد قتل، هنالك قال بعض المسلمين : ليت لنا رسولا إلى عبد الله بن أبي فيأخذ لنا أمانا من أبي سفيان. وبعضهم جلسوا وألقوا بأيديهم. وقال أناس من المنافقين : إن كان محمد قد قتل، فالحقوا بدينكم الأول فقال أنس بن النضر عم أنس بن مالك : إن كان محمدا قتل، فإن رب محمد لم يقتل. وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله ﷺ ؟ فقاتلوا على ما قاتل عليه، وموتوا على ما مات عليه . ثم قال : " اللهم إني أعتذر إليك مما قال هؤلاء (يعني المسلمين) وأبرأ إليك مما قال هؤلاء (يعني المنافقين)، ثم شد بسيفه فقاتل حتى قتل ﷺ .

وروى أن أول من عرف رسول الله ﷺ كعب بن مالك، فقد ورد أنه قال : عرفت عينيه تحت المغفر تزهران، فناديت بأعلى صوتي: يا معشر المسلمين: أبشروا ! هذا رسول الله ﷺ . فانحاز إليه ثلاثون من

---

[1] آل عمران : ١٤٤.

[2] رباعية : هي السن التي بين الناب والثنية .

[3] شج الوجه : جرحه .

[4] جحشُ الركبة : خدشها .

أصحابه رضى الله عنهم ينافحون عنه. ثم لام النبي ﷺ أصحابه على الفرار. فقالوا: يا رسول الله فديناك بآبائنا وأبنائنا. أتانا الخبر أنك قتلت، فرعبت قلوبنا، فولينا مدبرين ، فأنزل الله تعالى هذه الآية : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا﴾ إلخ من سورة آل عمران .

والظاهر أن هؤلاء الطاعنين بزيادة هذه الآية وأنها من كلام أبي بكر، يعتمدون فيما طعنوا على ما كان من عمر يوم وفاة رسول الله ﷺ ومن رد أبي بكر عليه بهذه الآية ، فزعموا أنها من كلام أبي بكر، وما هي من كلام أبي بكر. إنما هي من كلام رب العزة، أنزلها قبل وفاة الرسول ﷺ ببضع سنين، والمسلمون جميعا ـ ومنهم أبو بكر وعمر ـ يحفظونها ويعرفونها، غير أن منهم من ذهل عنها كعمر، لهول الحادث وشدة الصدمة، وتصدع قلبه بموت رسول الرحمة وهادي الأمة ﷺ .

وكان من آثار ذلك أن عمر رضي الله عنه غفل عن هذه الآية يوم توفى رسول الله ﷺ فقام يومئذ وقال: " إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ توفى. وإن رسول الله ﷺ ما مات. ولكنه ذهب إلى ربه ، كما ذهب موسى بن عمران. فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل: مات . والله ليرجعن رسول الله ﷺ كما رجع موسى فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم، زعموا أن رسول الله ﷺ مات.

هنالك نهض أبو بكر ينقذ الموقف فقال: على رسلك يا عمر، أنصت، فحمد الله وأثنى عليه. ثم قال: أيها الناس : من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت. ثم تلا هذه الآية : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ إلى آخرها .

قال الراوي: فوالله ، لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت حتى تلاها أبو بكر يومئذ ، فأخذها الناس من أبي بكر. وقال عمر: ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها، فعقرت[1] حتى وقعت على الأرض، ما تحملني رجلاي وعرفت أن رسول الله ﷺ قد مات " اهـ .

وهذه الآية ـ كما ترى ـ لا يشم منها رائحة أنها من كلام أبي بكر، بل هي تحمل في طيها أدلة كونها من كلام الله، وأن الصحابة يعلمون أنها من كلام الله، نزلت قبل أن ينزل بهم هذا الخطب الفادح ببضع سنين. ولكن ما الحيلة فيمن أعماهم الهوى والتعصب؟ ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [2].

خامسا: إن ما ادعوه من أن آية : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ [3] من كلام عمر، مردود أيضا بمثل ما رددنا به زعمهم السابق في آية ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ﴾ إلخ. بل زعمهم هذا أظهر في البطلان، لأن الثابت عن عمر أنه قال للنبي ﷺ " لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى" فنزلت ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ في سورة البقرة. وهناك فرق بين كلمة عمر في تمنيه الذي هو سبب النزول، وبين كلمة القرآن النازلة بذلك السبب، فأنت ترى أن الآية جاء فيها الفعل بصيغة الأمر ولم يقرن بلفظ " لو". أما تمني عمر فجاء فيه بصيغة الماضي وقرن بلفظ " لو" وتحقيق القرآن أمنية أو أمنيات لعمر، لا يدل على أن ما نزل تحقيقا

---

[1] قال في المختار : (والعقر بفتحتين : أن تسلم الرجل قوائمه ، فلا يستطيع أن يقاتل من الفرق والدهش وبابه طرب ، ومنه قول عمر ﷺ فعَقِرْتُ حتى خررْتُ إلى الأرض) أهـ .

[2] الحج : ٤٦ . [3] البقرة : ١٢٥.

لهذه التمنيات يعتبر من كلام عمر بل البعد بينهما شاسع والبون بعيد.

الشبهة الثانية :

يزعم بعض غلاة الشيعة أن عثمان ومن قبله أبو بكر وعمر أيضا حرفوا القرآن ، وأسقطوا كثيرا من آياته وسوره. ورووا عن هشام بن سالم من أبي عبد الله : أن القرآن الذي جاء به جبريل إلى محمد ﷺ كان سبعة عشر ألف آية [1] . وروى محمد بن نصر عنه أنه قال: كان في سورة " لم يكن" اسم سبعين رجلا من قريش بأسمائهم وأسماء آبائهم. وروى محمد بن جهنم الهلالي وغيره عن أبي عبد الله أن لفظ " أمةٌ هي أربى من أمةٍ" في سورة النحل ليس كلام الله ، بل هو محرف عن موضع، وحقيقة المنزل " أئمة هي أزكى من أئمتكم " ومنهم من قال: إن القرآن كانت فيه سورة تسمى سورة الولاية وأنها أسقطت بتمامها، وأن أكثر سورة الأحزاب سقط؛ إذ أنها كانت مثل سورة الأنعام، فأسقطوا منها فضائل أهل البيت. وكذلك ادعوا أن الصحابة أسقطوا لفظ "ويلك" من قبل ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [2] وأسقطوا لفظ " عن ولاية علي" من بعد ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ [3] وأسقطوا لفظ " بعلى بن أبي طالب" من بعد ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ [4] وأسقطوا لفظ " آل محمد" من بعد ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [5] إلى غير ذلك.

---

(1) مع العلم بأن عدد آيات القر آن ست آلاف آية ومائتا آية وكسور كما يأتي .

(2) التوبة : ٤٠.

(3) الصافات : ٢٤.

(4) الأحزاب : ٢٥.

(5) الشعراء : ٢٢٧.

فالقرآن الذي بأيدي المسلمين اليوم شرقا وغربا، أشد تحريفا عند هؤلاء الشيعيين من التوراة والإنجيل، وأضعف تأليفا منهما وأجمع للأباطيل! ﴿ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ [1].

الجواب :

وننقض هذه الشبهة بما يأتي من خمسة أمور :

أولا : إنها اتهامات مجردة عن السند والدليل، وكانت لا تستحق الذكر لولا رددها بعض الملاحدة، وربما يخدع بها بعض المفتونين. ويكفي في بطلانها أنهم لم يستطيعوا ولن يستطيعوا أن يقيموا عليها برهانا ولا شبه برهان.

" والدعاوي ما لم يقيموا عليها بينات ، أبناؤها أدعياء"

ولكن هكذا شاعت حماقتهم وسفاهتهم ! ﴿ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ [2].

ثانيا: إن بعض علماء الشيعة أنفسهم تبرأ من هذا السخف، ولم يطق أن يكون منسوبا إليهم وهو منهم، فعزاه إلى بعض من الشيعة جمح بهم التفكير وغاب عنهم الصواب ، قال الطبرسي [3] في مجمع البيان ما نصه : " أما الزيادة فيه ـ أي القرآن ـ فمجمع على بطلانها. وأما النقصان فقد روى عن قوم من أصحابنا وقوم من الحشوية. والصحيح خلافه. وهو الذي نصره المرتضى ، واستوفى الكلام فيه غاية الاستيفاء " اهـ .

---

[1] المنافقون : ٤

[2] الحج : ١٨.

[3] الطبرسي : من رؤساء الشيعة ، وكتابه مجمع البيان هو المرجع عندهم .

وقال الطبرسي أيضا في مجمع البيان ما نصه: " أما الزيادة في القرآن فمجمع على بطلانها، وأما النقصان فهو أشد استحالة. ثم قال: إن العلم بصحة نقل القرآن كالعلم بالبلدان والحوادث الكبار والوقائع العظام والكتب المشهورة، وأشعار العرب المسطورة ، فإن العناية اشتدت، والدواعي توفرت على نقله وحراسته، وبلغت إلى حد لم يبلغه شئ فيما ذكرناه، لأن القرآن مفخرة النبوة ، ومأخذ العلوم الشرعية والأحكام الدينية، وعلماء المسلمين قد بلغوا في حفظه وحمايته الغاية، حتى عرفوا كل شئ اختلف فيه من إعرابه وقراءته وحروفه وآياته، فكيف يجوز أن يكون مغيرا أو منقوصا ، مع العناية الصادقة والضبط الشديد؟ " اهـ .

ثالثا : إن التواتر قد قام، والإجماع قد انعقد، على أن الموجود بين دفتي المصحف كتاب الله من غير زيادة ولا نقصان، ولا تغيير ولا تبديل. والتواتر طريق واضحة من طرق العلم. والإجماع سبيل قويم من سبل الحق.﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ﴾ (١)

رابعا: إن الإمام علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ وهو الذي يزعمون أنهم يناصرونه ويتشيعون له بهذه الهذيانات ـ صح النقل عنه بتحبيذ جمع القرآن ، على عهد أبي بكر ثم عهد عثمان. ولعلك لم تنس أنه قال في جمع أبي بكر ما نصه: "أعظم الناس أجرا في المصاحف أبو بكر، رحمة الله على أبي بكر، هو أول من جمع كتاب الله" . وكذلك قال في جمع عثمان ما نصه: " يا معشر الناس اتقوا الله ، وإياكم والغلو في عثمان، وقولكم : حراق مصاحف، فوالله ما حرقها إلا عن ملأ منا

---

(١) يونس : ١٠

أصحاب رسول الله ﷺ " وقوله : " لو كنت الوالي وقت عثمان لفعلت في المصاحف مثل الذي فعل عثمان" وبهذا قطع الإمام ألسنة أولئك المفترين، ورد كيدهم في نحورهم مخذولين. فأين يذهبون؟ ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴾ ؟ [1]

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ [2].

خامسا: إن الخلافة قد انتهت إلى على ـ كرم الله وجهه ـ بعد أبي بكر وعمر وعثمان، فماذا منعه أن يجهر وقتئذ بالحق في القرآن وأن يصحح للناس ما أخطأ فيه أسلافه على هذا الزعم والبهتان؟ مع أنه الإمام المعصوم في عقيدة أولئك المبطلين، ومع أنه كان من سادات حفظة القرآن، ومن أشجع خلق الله في نصرة الدين والإسلام. ولقد صار الأمر بعده إلى ابنه الحسن ﷺ فماذا منعه الآخر من انتهاز هذه الفرصة كي يظهر حقيقة كتاب الله للأمة ! . هذه مزاعم لا يقولها إلا مجنون، ولا يصدق بها إلا مأفون !!

الشبهة الثالثة :

يقولون : ورد أن عبد الله بن مسعود قال : " يا معشر المسلمين. أعزل عن نسخ المصاحف، ويتولاه رجل ـ والله ـ لقد أسلمت وإنه لفي صلب رجل كافر؟ " اهـ .

---

[1] البقرة : ١٦٦.

[2] آل عمران : ٨.

قالوا : وهو يعني بهذا الرجل زيد بن ثابت ، ويريد بذلك الكلام الطعن على جمع القرآن. وهذا يدل بالتالي على أن القرآن الموجود بين أيدينا ليس موضع ثقة ، ولم يبلغ حد التواتر.

<u>الجواب : وننقض شبهتهم هذه :</u>

<u>أولا:</u> بأن كلام ابن مسعود هذا ـ إذا صح ـ لا يدل على الطعن في جمع القرآن، إنما يدل على أنه كان يرى في نفسه أنه هو الأولى أن يسند إليه هذا الجمع، لأنه كان يثق بنفسه أكثر من ثقته بزيد في هذا الباب. وذلك لا ينافي أنه كان يرى في زيد أهلية وكفاية للنهوض بما أسند إليه، وإن كان هو في نظر نفسه أكفأ وأجدر. غير أن المسألة تقديرية ، ولا ريب أن تقدير أبي بكر وعمر وعثمان لزيد أصدق من تقدير ابن مسعود له. كيف والمعروف مجموعة المؤهلات والمزايا التي توافرت فيه، حتى جعلته الجدير بتنفيذ هذه الغاية السامية. أضف إلى ذلك أن عثمان ضم إليه ثلاثة، ثم كان هو وجمهور الصحابة مشرفين عليهم مراقبين لهم ، وناهيك في عثمان أنه كان من حفاظ ومعلمي القرآن!

وخلاصة هذا الجواب: إن اعتراض ابن مسعود ـ على فرض صحته ـ كان منصبا على طريقة تأليف لجنة الجمع، لا على صحة نفس الجمع. مع أن كلمة ابن مسعود السالفة لا تدل على أكثر من أنه كان يكبر زيدا بزمن طويل، إذ كان عبد الله مسلما وزيد لا يزال ضميرا مستترا في صلب أبيه. وليس هذا بمطعن في زيد، فكم ترك الأول للآخر. ولو كان الأمر بالسن لاختل كثير من نظام الكون. ثم إن كلمة ابن مسعود ربما يفهم منها الطعن

في زيد من ناحية أن أباه كان كافرا، ولكن هذا ليس بمطعن، فكثير من أكابر الصحابة كانوا في مبدأ أمرهم كفارا، وخرجوا من أصلاب آباء كافرين. والله تعالى يقول: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ [1] ويقول : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ [2] .

ثانيا : إننا إذا سلمنا صحة ما نقل عن ابن مسعود، وسلمنا أنه أراد الطعن في صحة جمع القرآن ، لا نسلم أنه دام على هذا الطعن والإنكار، بدليل ما صح عنه أنه رجع إلى ما في مصحف عثمان، وحرق مصحفه في آخرة الأمر، حين تبين له أن هذا هو الحق، وبدليل ما صح عنه من قراءة عاصم عن زرعة.

ثالثا: إن كلام ابن مسعود هذا ــ على تسليم صحته وأنه أراد به الطعن في صحة الجمع، وأنه دام عليه ولم يرجع عنه ــ لا نسلم أنه يدل على إبطال تواتر القرآن فإن التواتر كما أسلفنا يكفي في القطع بصحة مرويه أن ينقل عن جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب بشروطه ، وليس من شروطه ألا يخالف فيه مخالف حتى يقدح في تواتر القرآن أن يخالف فيه ابن مسعود أو غير ابن مسعود، ما دام جم غفير من الصحابة قد أقروا جمع القرآن على هذا النحو في عهد أبي بكر مرة ، وفي عهد عثمان مرة أخرى.

---

(1) فاطر : ١٨.

(2) الأنفال : ٣٨.

الشبهة الرابعة :

يقولون: كيف يكون القرآن متواترا، مع ما يروي عن زيد بن ثابت أنه قال في الجمع على عهد أبي بكر ما نصه : " فقمت فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعسب وصدور الرجال، حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدهما مع غيره، وهما: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾[1] إلى آخر السورة . ثم كيف يكون القرآن متواترا، مع ما يروى أيضا عن زيد بن ثابت أنه قال في الجمع على عهد عثمان ما نصه : "فقدت آية من سورة الأحزاب كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرؤها ، لم أجدها مع أحد إلا مع خزيمة بن ثابت الأنصاري الذي جعل رسول الله ﷺ شهادته بشهادة رجلين: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ... ﴾[2]

والجواب على هذه الشبهة :

أولا : إن كلام زيد بن ثابت هذا ، لا يبطل التواتر. وبيان ذلك أن الآيتين ختام سورة التوبة، لم تثبت قرآنيتهما بقول أبي خزيمة وحده. بل ثبتت بأخبار كثرة غامرة من الصحابة عن حفظهم في صدورهم، وإن لم يكونوا كتبوه في أوراقهم . ومعنى قول زيد: " حتى وجدت من سورة التوبة آيتين لم أجدهما عند غيره" أنه لم يجد الآيتين اللتين هما ختام سورة التوبة مكتوبتين عند أحد إلا عند أبي خزيمة، فالذي انفرد به أبو خزيمة هو كتابتهما لا حفظهما، وليس الكتابة شرطا في المتواتر، بل

---

[1] التوبة : ١٢٨ ، ١٢٩.

[2] الأحزاب : ٢٣.

المشروط فيه أن يرويه جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب ولو لـم يكتبـه واحد منهم، فكتابة أبي خزيمة الأنصاري كانت توثقا واحتياطا فـوق مـا يطلبه التواتر ويقتضيه، فكيف نقدح في التواتر بانفراده بها؟ !

ثانيا: يقال مثل ذلك فيما روى عن زيد في آية سـورة الأحـزاب: ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ فإن معناه أن زيـدا لم يجدها مكتوبة عند أحد إلا عند خزيمة بن ثابت الأنصاري. ويدل علـى أن هذا هو المعنى الذي أراده زيد بعبارته تلك، قول زيد نفسه فقدت آيـة من سورة الأحزاب إلخ، فإن تعبيره بلفظ "فقدت" يشعر بأنه كان يحفظ هذه الآية ، وأنها كانت معروفة له، غير أنه فقد مكتوبها، فلم يجـده إلا مـع خزيمة، وإلا فمن الذي أنبأ زيدا أنه فقد آية ؟

ثالثا: إن كلام زيد فيما مضى من ختام التوبة وآيـة الأحـزاب، لا يدل على عدم تواترهما، حتى على فرض أنه يريد انفـراد أبـي خزيمـة وخزيمة بذكرهما من حفظهما. غاية ما يدل عليه كلامه، أنهمـا انفـردا بذكرهما ابتداء،ثم تذكر الصحابة ما ذكراه، وكان هؤلاء الصـحابة جمعـا يؤمن تواطؤهم على الكذب، فدونت تلك الآيات في الصحف والمصـحف، بعد قيام هذا التواتر فيها.

الشبهة الخامسة :

يقولون: كانت الآيات تكتب على الحجارة وسعف النخل والعظـام خوفا عليها من الضياع، وبقى جانب كبير منهـا محفوظـا فـي صـدور الرجال. وقد نشأ عن ذلك عدة مشاكل يعتبرها الباحثون فيه كافية لإثبـات كون القرآن الحالي لا يحتوي جميع الآيات التي نطق بها محمد ، وبعضها

يختلف في القراءة واللفظ والمعنى. ويقولون بعبارة أخرى: إنه من المستحيل أن يكون القرآن الحالي حاويا لجميع ما أنزل، إذ من المؤكد أنه ذهب منه جانب ليس بقليل، وأنسى منه جانب آخر، قال ابن عمر: " لا يقولن أحدكم قد أخذت القرآن كله. قد ذهب منه كثير. ولكن ليقل: قد أخذت ما ظهر منه" . فهذا يثبت أن القرآن الحالي لا يتضمن جميع ما كان مسطورا في اللوح المحفوظ. ولا هو طبق ما نطقت به شفتا محمد، سيما أن في آيات عديدة منه اختلافات مدهشة، ولا يعلم نصها الصحيح أحد " اهـ .

الجواب : وننقض هذه الشبهة بما يأتي :

أولا : إن كتابة القرآن على الحجارة والسعف والعظام، وبقاء جانب كبير منه محفوظا في صدور الرجال، لا يلزم منه مشكلة واحدة فضلا عن عدة مشاكل، إنما هو وهم من الأوهام تخيلوه فخالوه، وبدليل أنهم لم يذكروا سندهم فيما ذهبوا إليه من هذا الشطط .

ثانيا : إن الحجارة وسعف النخل والعظام التي كتب عليها بعض آيات القرآن لم تكن بحيث يمكن أن يتخيل أولئك الطاعنون أو يخيلوا إلى الناس أنها لا تصلح للكتابة عليها، بل كانت العرب لبداوتها ولبعدها عن وسائل الحضارة والعمران، تصطفي من أنواع الحجارة الموفورة عندها نوعا رقيقا يكون كالصحيفة يصلح للكتابة وللبقاء، أشبه ما نراه اليوم من الكتابة الجميلة المنقوشة على صفحات مصنوعة مما نسميه (الجبس) . وكذلك سعف النخل يكشطون الخوص عنه، ويكتبون في الجزء العريض منه بعد أن يصقلوه ويهذبوه فيكون أشبه بالصحيفة. وقل مثل هذا في العظام، بدليل أن الروايات الواردة في ذلك نصت على نوع خاص منه

وهو عظام الأكتاف، وذلك لأنها عريضة رقيقة ومصقولة صالحة للكتابة عليها بسهولة.

ثالثا : إن استنتاجهم من هذا كون القرآن الحالي لا يحتوي جميع الآيات التي نطق بها محمد، استنتاج معكوس، وفهم منكوس، لأن كتابة القرآن وحفظه في آن واحد في صدور آلاف مؤلفة من الخلق ، أدعى إلى بقاء ذلك القرآن، وأدل على أنه لم تفلت منه كلمة ولا حرف. كيف وأحد الأمرين من الكتابة والحفظ كاف في هذه الثقة؟ فما بالك إذا كان القرآن كله مكتوبا بخطوط أشخاص كثيرين، ومحفوظا في صدرو جماعات كثيرين !.

رابعا : قولهم: " وبعضها يختلف في القراءة واللفظ والمعنى" إن أردوا به الطعن في تعدد القراءات واختلاف وجوه الأداء ففيما جاء في نزول القرآن على سبعة أحرف ما يكفيك في الرد عليهم ،وإن أرادوا به شيئا آخر فعليهم البيان. وحسبك أن تعرف أن اختلاف حروف القرآن أمر تقتضيه الحكمة، ويوجبه عموم الدعوة الإسلامية. خصوصا لمن شافههم الرسول ﷺ ، وهم على اختلاف قبائلهم ، وتنوع لهجاتهم، وتباين وجوه نطقهم، عرب تؤلف بينهم العروبة الواحدة، ويجمعهم اللسان العربي العام. فأي عيب على القرآن إذا اختلفت حروف أدائه، وكيفيات النطق بكلماته، ليسع القبائل العربية جميعا، وليتسنى لها تلاوة ألفاظه، وتفهم معانيه؟ ولئلا يقول أحد منهم: لو جاء القرآن بلغتنا لكان لنا معه شأن،

ولأتينا بمثله، وعارضنا بلاغته! ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [1].

خامسا: قولهم إنه من المستحيل أن يكون القرآن الحالي حاويا لجميع ما أنزل إلخ، كلام مجرد من السند والحجة، لا يستحق الرد، فإن استندوا فيه إلى ما سبق فقد استندوا إلى أوهن من بيت العنكبوت ، وقد عرفت وجوه الوهن التي فيه. وإن استندوا إلى ما ذكروه بعد مما نسبوه لابن عمر، فقد زادوا الطين بلة؛ لأن هذه النسبة إلى ابن عمر نسبة خاطئة كاذبة، وعلى فرض صحتها فهي موقوفة وليست بمرفوعة إلى النبي ﷺ ، وعلى فرض رفعها فهي معارضة للأدلة القاطعة المتوافرة في تواتر القرآن وسلامته من التغيير والزيادة والنقصان، ومعارض القاطع ساقط مهما كانت قيمة سنده في خبر الواحد.

سادسا: إن نهايتهم التي ختموا بها هذه الشبهة أقبح من بدايتهم، لأنهم رتبوها على تلك الأكاذيب والمهاترات، ثم زادوا فيها اتهاما جديدا مجردا من السند والحجة أيضا، وهو أن في آيات عديدة من القرآن اختلافات مدهشة، ولا يعلم نصها الصحيح أحد، وهكذا خرجوا من اتهام إلى اتهام، واحتجوا بكذب على كذب، وهانت عليهم كرامتهم وعقولهم، فقالوا ما شاء لهم الهوى والتعصب إلى هذا الحد، وأنت خبير بأن القرآن الحالي وصل إلينا محفوظا من كل عبث كما نطق به الرسول ﷺ وكما

---

[1] يوسف : ٢١.

خطه الله تعالى بقلمه في لوحه. ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [1].

أما زعمهم أن فيه اختلافات مدهشة، فمن المعلوم أنه في نزول القرآن على سبعة أحرف مدى اختلاف وجوه القراءات وحكمته، وأنه لا يؤدي إلى تخاذل وتناقض حتى يكون مدهشا.

وأما نصوص القرآن الصحيحة فقد علمها وحفظها جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب في كل طبقة من طبقات الأمة. من لدن رسول الله ﷺ إلى اليوم .

فادعاء هؤلاء الجهلة الدجالين أنه لا يعلم نصوص القرآن الصحيحة أحد، ادعاء مفضوح، وكذب مكشوف.

قال صاحب مسلم الثبوت – وهو من أشهر الكتب في أصول الفقه الإسلامي – : " ما نقل آحادا فليس بقرآن قطعا، ولم يعرف في هذا خلاف لواحد من أهل المذاهب. والدليل على ذلك أن القرآن مما تتوافر الدواعي على نقله لتضمنه التحدي، ولأنه أصل الأحكام باعتبار المعنى واللفظ جميعا، ولذلك علم جهد الصحابة في حفظه بالتواتر القاطع، وكل ما تتوافر الدواعي على نقله ينقل متواترا عادة، فوجوده ملزم التواتر عند الكل عادة، فإذا انتفى اللازم وهو التواتر انتفى الملزوم قطعا. والمنقول آحادا ليس متواترا فليس قرآنا " اهـ بتصرف قليل .

خط منيع من خطوط ادفاع عن الكتاب والسنة أو الدواعي والعوامل التي توافرت في الصحابة حتى استظهروا القرآن والحديث النبوي وتثبتوا إن

---

(1) فصلت : ٤١، ٤٢.

الناظر في الشبهات السالفة وأمثالها، يبدو له في وضوح أن القوم يحاولون الطعن في القرآن عن طريق النيل من الصحابة فطورا يقولون: إن الصحابة حين جمع القرآن لم يكونوا يستظهرونه، وإن الذين استظهروه منهم ماتوا قبل جمعه واستشهدوا، وطورا يقولون : إن الصحابة لم يتثبتوا في جمع القرآن ، بل حطبوا فيه بليل، وزادوا فيه ونقصوا منه ما شاءوا.[1].

* * *

---

(١) انظر في هذا المقام : مناهل العرفان ج١ ص ٢٧٥.

المبحث الثامن عشر

دفع شبهات حول الرسم المصحفي

<u>شبه مردودة أثيرت حول رسم المصحف</u>

قلنا: إن القرآن هدف أول للملحدين والمبشـرين والمستشـرقين، والتشكيك فيه من أيّة زاوية مقصد لهم كبير، وقد أثاروا شبها حول رسم المصحف، بنوها عن روايات وآثار واهية.

ورغم أن إثارة هذه الشبهات والتعرض لها، هو ـ فـي رأيـي ـ يرفع من شأنها وقيمتها وقد يحدث وهما في النفوس الجاهلة الضـعيفة، وهو هدف الدساسين، رغم هذه العقيدة أرى لزامـا علـى أن أعرضـها لطالب العلم المثقف المشتغل بالقرآن، حتى يكون على بصيرة منها، كـيلا تفجأه في يوم من الأيام فلا يسعفه الجواب.

<u>الشبهة الأولى : ـ</u>

قالوا : روى عن عثمان أنه حين عرض عليـه المصـحف قـال: أحسنتم وأجملتم، إن في القرآن لحنا ستقيمه العرب بألسنتها.

وقالوا : روى عن عكرمة أنه قال: لما كتبت المصاحف عرضـت على عثمان، فوجد فيها حروفا من اللحن؛ فقال: لا تغيروها ، فإن العرب ستغيرها، أو قال: ستعربها بألسنتها، لو كان الكاتب من ثقيف، والمملـي من هذيل لم توجد فيه هذه الحروف.

فإذا كان هذا اعتراف عثمان في مصحفه، فكيف يكون موضع ثقة وإجماع؟

والجواب ما قاله الألوسي في تفسيره: إن ذلك لم يصح عن عثمان أصلا.

الشبهة الثانية : ـ

قالوا : روى عن سعيد بن جبير أنه كان يقرأ قوله تعالى: ﴿لَكِـنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَـوْمِ الْـآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[1] فلما أتى على قوله ﴿والمقيمين الصلاة﴾ قال: هو من لحن الكُتَّاب.

والجواب عن هذه الشبهة نفس الجواب عن الشبهة السابقة، وخصوصـا أن ابن جبير كان يقرأ بقراءة النصب وهي مخرجة على أن النصب علـى المدح، ولو كان الأثر صحيحا لقرأ برفع المقيمين، وهي قراءة صحيحة.

الشبهة الثالثة : ـ

قالوا : روى عن ابن عباس في قوله تعـالى ﴿حَتَّـى تَسْتَأْنِسُـوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ﴾[2]أنه قـال: إن الكاتب أخطـأ ، والصواب "حتى تستأذنوا ".

والجواب : ما قاله أبو حيان: إن من روى عن ابن عباس أنه قـال ذلـك فهو طاعن في الإسلام ، ملحد في الدين، وابن عباس برئ من ذلك القول.

الشبهة الرابعة : ـ

قالوا: روى عن ابن عباس في كتاب الدر المنثور أنه قرأ أفلم يتبين الذين آمنوا أن لو يشـاء الله لهدى الناس جميعا " فقيـل له: إنها في

---

(1) النساء :١٦٢

(2) النور : ٢٧.

المصحف ﴿ أَفَلَمْ يَيْئَسِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [١] فقال: أظن الكاتب كتبها وهو ناعس.

والجواب : ما قاله أبو حيان أيضا، قال: بل هو قول ملحد زنديق.

وقال الزمخشري: ونحن ممن لا يصدق هذا في كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

الشبهة الخامسة : ـ

قالوا: روى عن ابن عباس أيضا أنه كان يقول في قوله تعالى: ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ [٢] إنما هي "ووصى ربك" التزقت الواو بالصاد، فقرأ الناس " وقضى ربك" ولو نزلت على القضاء ما أشرك أحد.

والجواب:

أنها رواية دساس رخيص، لأن ابن عباس نفسه كان يقرأ : ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ ﴾.

الشبهة السادسة : ـ

قالوا: روى عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ [٣] أنه قال: هي خطأ من الكاتب، هو أعظم من أن يكون نوره مثل المشكاة، إنما هي "مثل نور المؤمن كمشكاة " .

والجواب: أنها كذبة مفضوحة، لأنه لم ينقل عن أحد من القراء أن ابن عباس قرأ " مثل نور المؤمن كمشكاة ".

---

(١) الرعد : ٣١ .

(٢) الإسراء : ٢٣.

(٣) النور : ٣٥.

الشبهة السابعة : ـــ

يقولون: روى عن هشام بن عروة عن أبيه أنه قال: سألت عائشة عن لحن القرآن، عن قوله تعالى : ﴿ إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ ﴾ [1] وعن قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ ﴾ [2] فقالت: يا ابـــن أخي. هذا من عمل الكتاب. قد أخطأوا في الكتاب.

والجواب:

قال أبو حيان: لا يصح ذلك عن عائشـــة. وقـــال الزمخشـــري: لا يلتفت إلى ما زعموا من وقوع خطأ في خط المصحف.اهــ.

وتأويل الآيات عربية مشروح في كتب النحو[3]. والله أعلم .

* * *

---

(1) طه : ٦٣.

(2) المائدة : ٦٩.

(3) انظر اللالئ الحسان في علوم القرآن ص ٨٧ ، وانظر مناهل العرفان ج ١ ص ٣٨٦.

المبحث التاسع عشر
دفع شبهات حول محكم القرآن ومتشابهه

الشبهة الأولى ودفعها : ـ

نقل السيوطي عن بعضهم أنه قال: " إن قيل: ما الحكمة في إنزال المتشابه ممن أراد لعباده البيان والهدى ؟.

فالجواب:

(قلنا) إن كان (أي المتشابه) مما يمكن علمه فله فوائد: منها الحث للعلماء على النظر الموجب للعلم بغوامضه والبحث عن دقائقه، فإن استدعاء الهمم لمعرفة ذلك من أعظم القرب . ومنها ظهور التفاضل وتفاوت الدرجات، إذ لو كان كله محكما لا يحتاج إلى تأويل ونظر لاستوت منازل الخلق، ولم يظهر فضل العالم على غيره. وإن كان (أي المتشابه) مما لا يمكن علمه (أي بأن استأثر الله به) فله فوائد: منها ابتلاء العباد بالوقوف عنده والتوقف فيه والتفويض والتسليم، والتعبد بالاشتغال به من جهة التلاوة كالمنسوخ وإن لم يجز العمل بما فيه، وإقامة الحجة عليهم، لأنه لما نزل بلسانهم ولغتهم؛ وعجزوا عن الوقوف على معناه مع بلاغتهم وأفهامهم، دل على أنه نزل من عند الله ؛ وأنه هو الذي أعجزهم عن الوقوف" اهـ.

ونسترعي نظرك هنا إلى ما أسلفناه في الحكم الماضية مما هو مذكور فى مكانه ، ثم إلى ما ذكره ابن اللبان في مقدمة كتابه: (رد الآيات المتشابهات إلى الآيات المحكمات) إذ قال ما خلاصته: "ليس في الوجود فاعل إلا الله ، وأفعال العباد منسوبة الوجود إليه تعالى بلا شريك ولا

معين فهي في الحقيقة فعله، وله بها عليهم الحجة ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ .[1]

ومن المعلوم أن أفعال العباد لابد فيها من توسط الجوارح مع أنها منسوبة إليه تعالى وبذلك يعلم أن لصفاته تعالى في تجلياتها مظهرين : مظهر عبادي منسوب لعباده ، وهو الصور والجوارح الجثمانية. ومظهر حقيقي منسوب إليه، وقد أجرى عليه أسماء المظاهر العبادية المنسوبة لعباده، على سبيل التقريب لأفهامهم والتأنيس لقلوبهم. ولقد نبه في كتابه تعالى على القسمين وأنه منزه عن الجوارح في الحالين فنبه على الأول بقوله: ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾ [2] فهذا يفيد أن كل ما يظهر على أيدي العباد فهو منسوب إليه تعالى . ونبه على الثاني بقوله فيما أخبر عنه نبيه ﷺ في صحيح مسلم: " ولا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه: فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها" . وقد حقق الله ذلك لنبيه ﷺ بقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ﴾ [3] وبقوله: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ [4] وبهذا يفهم ما جاء من الجوارح منسوبا إليه تعالى، فلا يفهم من نسبتها إليه تشبيه ولا تجسيم . ولكن الغرض من ذلك التقريب للأفهام، والتأنيس للقلوب. والواجب سلوكه إنما هو رد المتشابه إلى المحكم على القواعد اللغوية، وعلى مواضعات العرب

---

(1) الأنبياء : ٢٣

(2) التوبة : ١٤.

(3) الفتح : ١٠.

(4) الأنفال : ١٧.

وعلى ما كان يفهمه الصحابة والتابعون من الكتاب والسنة" اهـ ما أردنا نقله.

الشبة الثانية ودفعها : ـ

نقل السيوطي أيضا عن الإمام فخر الدين الرازي أنه قال: "من الملحدة من طعن في القرآن لأجل اشتماله على المتشابهات وقال: إنكم تقولون إن تكاليف الخلق مرتبطة بهذا القرآن إلى قيام الساعة، ثم إنا نراه بحيث يتمسك به صاحب كل مذهب على مذهبه، فالجبري متمسك بآيات الجبر، كقوله تعالى:﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ [1]، والقدري يقول: هذا مذهب الكفار بدليل أنه تعالى حكى عنهم ذلك في معرض الذم في قوله :﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ ﴾[2] ، وفي موضع آخر ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ [3] ومنكر الرؤية متمسك بقوله تعالى ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ [4]ومثبت الجهة متمسك بقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾[5] ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ [6] والثاني متمسك بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [7] ثم يسمى كل واحد الآيات الموافقة لمذهبه محكمة، والآيات المخالفة

---

(1) الإسراء : ٤٦.

(2) فصلت : ٥.

(3) البقرة : ٨٨.

(4) الأنعام : ١٠٣ ـ يظهر أن هنا سقطا لعله هكذا : ومثبت الرؤيا متمسك بقوله تعالى : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾.

(5) النحل : ٥٠.

(6) طه : ٥.

(7) الشورى : ١١ .

متشابهة، وإنما آل في ترجيح بعضها على بعض إلى ترجيحـــات خفيـــة ووجوه ضعيفة. فكيف يليق بالحكيم أن يجعل الكتاب الذي هو المرجــوع إليه في كل الدين إلى يوم القيامة هكذا ؟

والجواب:

إن العلماء ذكروا لوقوع المتشابه فيه فوائد: منها أنه يوجب مزيد المشقة في الوصول إلى المراد، وزيادة المشقة توجب مزيد الثواب إلـــى آخر ما نقلناه عنه فيما سبق من بيـــان حكـــم الله ولأســـراره فـــي ذكـــر المتشابهات فاجعلها على بال منك في رفع هذه الشبهة، وأضف إليها مـــا نقلناه آنفا عن ابن اللبان، وما بسطناه في دفع الشبهات السالفة، وارجـــع إلى ما كتبناه في مثل هذا المقام بالمبحث الســـابع مـــن كتابنـــا "مناهـــل العرفان".

الشبهة الثالثة ودفعها : ــ

قال السيوطي في كتابه "الإتقان" : أورد بعضهم سؤالا وهو أنه هل للمحكم مزية على المتشابه أو لا ؟ فإن قلتم بالثاني فهو خلاف الإجماع ، وإلا فقد نقضتم أصلكم في أن جميع كلامه سبحانه ســـواء، وإنـــه منـــزل بالحكمة.

وأجاب أبو عبد الله النكر باذي بأن المحكم كالمتشابه مـــن وجـــه ويخالفه من وجه فيتفقان في أن الاستدلال بهما لا يمكن إلا بعـــد معرفـــة حكمة الواضع، وأنه لا يختار القبيح، ويختلفان في أن المحكم بوضع اللغة لا يحتمل إلا الوجه الواحد فمن سمعه أمكنه أن يستدل بـــه فـــي الحـــال، والمتشابه يحتاج إلى فكرة، ونظر ليحمله علـــى الوجـــه المطـــابق، ولأن

المحكم أصل والعلم بالأصل أسبق. ولأن المحكم يعلم مفصلا والمتشابه لا يعلم إلا مجملا اهـ.

الجواب:

أقول: ويمكن دفع هذه الشبهة بوجه أقرب ، وهو أن المحكم له مزية على المتشابه، لأنه بنص القرآن هو أم الكتاب على ما سلف بيانه والاعتراض بأن هذا ينقض الأصل المجمع عليه وهو أن جميع كلامه سبحانه سواء، وأنه منزل بالحكمة: الاعتراض بهذا ساقط من أساسه لأن المساواة بين كلام الله إنما هي في خصائص القرآن العامة، ككونه منزلا على النبي ـ ﷺ ـ بالحق وبالحكمة وكونه متعبدا بتلاوته وتحدى بأقصر سورة منه، ومكتوبا في المصاحف، ومنقولا بالتواتر ، ومحرما حمله ومسه على الجنب ونحو ذلك. والمساواة في هذه الخصائص لا تنافي ذلك الامتياز الذي امتازت به المحكمات. وكيف يتصور التنافي على حين أن كلا من المحكم والمتشابه له حكَمُهُ وله مزاياه ؟ فمزية المحكم أنه أم الكتاب إليه ترد المتشابهات، ومزية المتشابه أنه محك الاختبار والابتلاء، ومجال التسابق والاجتهاد، إلى غير ذلك من الفوائد التي عرفتها. ثم كيف يتصور هذا التنافي والقرآن كله مختلف باختلاف موضوعاته وأحواله ، فمنه عقائد وأحكام، وأوامر ونواه، وعبادات وقصص وتنبؤات ، ووعد ووعيد، وناسخ ومنسوخ، وهلم جرّ مما يستنفد ذكره وقتا طويلا. ولا ريب أن كل نوع من هذه الأنواع له مزيته أو خاصته التي غاير بها الآخر، وإن اشترك الجميع بعد ذلك في أنها كلها أجزاء للقرآن ، متساوية في القرآنية وخصائصها العامة.

وخلاصة هذا الجواب : أن امتياز المحكم على المتشابه في أمور، ومساواته إياه في أمور أخرى، فلا تناقض ولا تعارض، كما أن كل عضو من أعضاء جسم الإنسان له مزيته وخاصته التي صار بها عضوا، والكل بعد ذلك يساوي الآخر في أنه جزء للإنسان في خصائصه العامة من حسن وحياة[١].

* * *

---

(١) انظر في هذا المقام مناهل العرفان ج٢ ص ٢٩٧ ط الثالثة ، والإتقان في علوم القرآن للسيوطي ج٢ النوع الثالث والأربعون ص ١٢ مطبعة دار الفكر — بيروت — لبنان .

المبحث العشرون

دفع زعم المشتبهين على القرآن من أن فيه أخطاء لغوية

الشبهة وردها : ـ

١ـ قولهم في سورة المائدة : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى ﴾ [١].

* وكان يجب أن ينصب المعطوف على اسم "إن" فيقول "والصابئين" .

* ونحن نقول لهم : إن للعلماء في هذه الآية رأيين هما:

الأول: إذا اعتبرنا الواو عاطفة في ﴿والصابئون﴾ يكون ﴿الصابئون﴾ معطوفا على محل اسم إن ﴿الذين﴾ قبل دخول إن عليها فيكون التقدير الذين آمنوا والذين هادوا (مبتدأ) والصابئون معطوف عليها بالرفع.

الثاني: إذا اعتبرنا الواو استئنافية فيكون الكلام مستأنفا في ﴿والصابئون﴾ وليس للعطف والصابئون مبتدأ مرفوع بالواو، لأنه جمع مذكر سالم .

٢ـ قولهم في سورة البقرة : ﴿ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾[٢].

---

[١] المائدة ٦٩.

[٢] البقرة : ١٢٤.

* وكان يجب أن يرفع الفاعل فيقول : (الظالمون).

* ونحن نرد فنقول: إن لفظة "عهدي" هي الفاعل مرفوع بضمة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة الإضافة و "الظالمين" مفعول به، وتقدير الكلام "لا يبلغ عهدي الظالمين " .

٣ـ قولهم في تذكير خبر الاسم المؤنث :

جاء في سورة الأعراف: ﴿ إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [١].

* وكان يجب أن يتبع خبر إن اسمها في التأنيث فيقول: قريبة.

* ونحن نقول: للعلماء في هذه الآية رأيان:

الأول: أن قريب على وزن فعيل يستوي فيه التذكير والتأنيث.

الثاني: أن اسم إن محذوف ، وأقيم المضاف إليه مقامه، والتقدير إن وقت رحمة الله قريب من المحسنين فحذف المضاف (وقت) وأقيم المضاف إليه مقامه وهي رحمة الله.

٤ـ قولهم في تأنيث العدد وجمع المعدود: جاء في سورة الأعراف: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ﴾[٢].

* وكان يجب أن يُذكّر العدد ويأتي بمفرد المعدود فيقول: "اثنى عشر سبطا" .

---

[١] الأعراف : ٥٦.

[٢] الأعراف : ١٦٠.

* ونحن نقول لهم: " أسباطا " معناها جماعـات ، فهـي مؤنثـة ومتفقة مع العدد المؤنث الذي هو اثنتى عشرة

٥ــ قولهم في جمع الضمير العائد على المثنى:

جاء في سورة الحج : ﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾ [١]

* وكان يجب أن يثني الضمير العائد على المثنى فيقول: "خصمان اختصما في ربهما" .

* ونحن نرد عليهم بقولنا : "خصمان " أي : جماعتان أي : تـدل على الجمع كما نقول فريقان . فهل هما مثنى أم جمع كثير، جمـع كثيـر طبعا، فأرجع الضمير اختصموا على معنى الجمع في "خصمان" و له نظير مشابه في القرآن الكريم كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا ....﴾ [٢].

٦ــ قولهم في الآيتين باسم الموصول العائد على الجمع مفـردا:

جاء في سورة التوبة : ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا ﴾ [٣].

* وكان يجب أن يجمع اسم الموصول العائد على ضـمير الجمـع فيقول : " خضتم كالذين خاضوا " .

* ونحن نرد عليهم بقولنا : إن قوله تعالى (كالذي) ليس عائـدا على (خضتم) بل تقديره كالفعل الذي خاضوا فيه.

٧ــ قولهم في جزم الفعل المعطوف على المنصوب:

---

[١] الحج : ١٩. [٢] الحجرات : ٩.

[٣] التوبة : ٦٩. [٤] المنافقون : ١٠.

جاء في سورة المنافقون: ﴿ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [1]

* وكان يجب أن ينصب الفعل المعطوف على المنصوب "فأصدق وأكون" .

* ونحن نرد عليهم بقولنا : إن للعماء في ذلك رأيين:

الأول: أنه جزم الفعل المعطوف على المنصوب لأنه معطوف على محل الفاء في (فأصدق) ولو لم تكن الفاء موجودة لكان الفعل (أصدق) مجزوما لوقوعه جوابا للتمني في (لولا أخرتني) ويكون التقدير إن أخرتني أصدق وأكن..

الرأي الثاني: لقد ثبتت قراءتها قراءة سبعية متواترة بالنصب بلفظ (وأكون) عطفا على فأصدق وهذه القراءة صحيحة لشيخ العربية أبي عمرو بن العلاء زعيم البصريين في النحو وثالث إمام في القراءات السبعة.

٨ـ قولهم في جعل ضمير العائد على المفرد جمعا:

جاء في سورة البقرة : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [2].

* وكان يجب أن يجعل الضمير العائد على المفرد مفردا، فيقول (استوقد ... ذهب الله بنوره) .

* ونرد عليهم بقولنا : إن الله تعالى يضرب المثل بالرجل الذي استوقد نارا، فلما اشتعلت ذهب الله بنورهم، أي بنور الكفار فهو عائد

---

[1] المنافقون : ١٠

[2] البقرة : ١٧.

على الضمير في (مثلهم) لا على الذي أوقد النار فهذا إنما ضرب الله بـــه المثل فقط ولا يدخل فيهم.

٩ــ قولهم في نصب المعطوف على المرفوع:

جاء في سورة النساء: ﴿ لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْـــمِ مِـــنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُـــونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّـــلَاةَ وَالْمُؤْتُـــونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [١].

* وكان يجب أن يرفع المعطوف علـــى المرفـــوع فيقـــول:(والمقيمـــون الصلاة).

* ونرد على قولهم بقولنا : إن نصب المعطوف الذي هـــو (والمقيمـــين) بفعل محذوف تقديره أخص وأمدح المقيمين بالصلاة، وهو قول ســـيبويه ورجحه أبو جعفر النحاس في إعراب القرآن [٢].

١٠ــ قولهم في نصب المضاف إليه :

جاء في سورة هود: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَـــبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ [٣].

* وكان يجب أن يجر المضاف إليه فيقول: (بعد ضراءٍ)

* ونرد عليهم بقولنا:جر المضاف إليه وهو ضراء بالفتحة نيابـــة عن الكسرة لأنه ممنوع من الصرف، على وزن فعلاء الذي مذكره أفعل.

---

(١) النساء : ١٦٢.

(٢) كذا في كتاب التبيان في إعراب القرآن للعكبري ــ القسم الأول ص ٤٠٧ ــ ط عيسى الحلبي

(٣) هود : ١٠.

١١ـ قولهم في الإتيان بجمع كثرة حيث أريد القلة:

جاء في سورة البقرة : ﴿ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً ﴾[١].

* وكان يجب أن يجمعها جمع قلة حيث إنهم أرادوا القلة فيقول أياما معدودات.

* ونحن نقول لهم : إن جمع التكثير يجوز أن يوصف بمفرد مؤنث أو جمع مؤنث فنقول: أياما معدودة وأياما معدودات، وهذا تفنن في التعبير القرآني، وكل عدد جاء في القرآن فهو من باب جموع القلة، والعرب تقول: هذه جبال راسية، وهذه جبال راسيات، وهذه جمال ماشية، وهذه جمال ماشيات. فوصفوا غير العاقل من جموع التكثير مرة بمفرد المؤنث ومرة بجمع الإناث.

١٢ـ قولهم في الإتيان بجمع قلة حيث أريد الكثرة:

جاء في سورة البقرة : ﴿ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى .... ﴾[٢].

* وكان يجب أن يجمعها جمع كثرة حيث إن المراد جمع كثرة عدته ثلاثون يوما فيقول: "أياما معدودة" .

* ونحن نرد عليهم بقولنا : الإجابة هي إجابة السؤال السابق، إلا أنه يزداد عليه أن كل عدد جاء في القرآن الكريم دون الأربعين فهو من جموع القلة.

١٣ـ قولهم في جمع اسم علم حيث يجب إفراده:

---

[١] البقرة : ٨٠.

[٢] البقرة : ١٨٣ ، ١٨٤.

جاء في سورة الصافات : ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ .... إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾[1].فلماذا قال: (إلياسين) بالجمع عن (إلياس) المفرد؟ فمن الخطأ لغويا تغير اسم العلم حبا في السجع المتكلف.

وجاء في سورة التين : ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ ﴾ [2]

* فلماذا قال : (سينين) بالجمع عن سيناء ؟ .

* ونرد على كيدهم بقولنا : قال ابن جني : العرب تتلاعب بالأسماء الأعجمية تلاعبا ، فياسين وإلياس وإلياسين شئ واحد، والقرآن خاطب العرب بلسانهم، وقال القرطبي من قرأ (سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ) فكأنه جعل اسمه إلياس وياسين ثم سلم على آله، أي : أهل دينه، ومن كان على مذهبه، وعلم أنه إذا سلم على آله من أجله فهو داخل في السلام كما قال تعالى: ﴿ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾[3] فمعلوم أن فرعون داخل مع آله في العذاب فهو معهم. ومن قرأ سلام على إلياسين فكأنه جعله اسما له مثل إبراهيم فيذهب إلى أنه اسم إله.

أما الشق الثانى من السؤال في قوله تعالى : ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ نوضح أن سينين و (سيناء) بالكسرة و (سيناء) بالفتحة كل هذا جاء في القرآن وصفا للجبل الذي فيه شجر مثمر ومبارك، وكل ذلك لغات عند العرب صحيحة، وله نظير في القرآن ﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ ﴾ بالفتحة وفي قراءة (سيناء) بالكسرة .[4]

---

[1] الصافات : ١٢٣ ، ١٢٤ . [2] التين : ١ ــ ٣ . [3] غافر :٤٦

[4] المؤمنون : ٢٠ كذا في القرطبي ج ١٥ ص ١١٨ دار إحياء التراث العربي

١٤ـ قولهم في الإتيان باسم الفاعل بدل المصدر:

جاء في سورة البقرة: ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾ [١].

* والصواب أن يقال : (ولكن البار أن تؤمنوا بالله) لأن البر هو الإيمان لا المؤمن .

*ونرد عليهم بقولنا: ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ ﴾

ليس في العبارة اسم فاعل مما يثبت جهل المعترض جهلا مطبقا وعدم إلمامه باللغة العربية ، وذلك أن قوله تعالى : ﴿ولكن البر من ءامن بالله ... ﴾ الآية . لكن حرف استدراك والبر اسمها منصوب ، وخبرها محذوف تقديره برٌ من آمن فحذف المضاف وهو (بر) وأقيم المضاف إليه مقامه وهو (من آمن) والتقدير .. ولكن البر بر من آمن .

١٥ـ قولهم في نصب المعطوف على المرفوع :جاء في سورة البقرة ﴿ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [٢]

* وكان يجب أن يرفع المعطوف على المرفوع فيقول: (والموفون .... والصابرون).

---

(١) البقرة : ١٧٧.

(٢) البقرة : ١٧٧.

* ونرد على قولهم : (الموفون) معطوفة بالرفع على قوله (من آمن بالله واليوم الآخر) وهي في محل رفع لوقوعه خبر لكن، والتقدير : ولكن البر المؤمنون والموفون بعهدهم ، وأما نصب (والصابرين في البأساء) فمنصوبة بفعل محذوف تقديره: أخص وأمدح الصابرين في البأساء وله نظير في سورة النساء في قوله تعالى: ﴿ لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ ﴾[١] فنصب المقيمين بفعل محذوف تقديره أعني وأمدح وأعظم المقيمين الصلاة ،والعرب تنصب على المدح والذم كأنهم يريدون إفراد الممدوح والمذموم ولا يتبعونه أول الكلام أي : لا يعطفونه على ما قبله .

١٦ـ قولهم في وضع الفعل المضارع بدل الماضي:

جاء في سورة آل عمران : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [٢].

* وكان يجب أن يعتبر المقام الذي يقتضي صيغة الماضي لا صيغة المضارع فيقول: (قال له كن فكان) .

* ونقول لهم : قوله: كن يتعلق بالمستقبل والمستجد فكان الجواب من جنس الفعل (فيكون) أي : في المستقبل.

١٧ـ قولهم في لم يأت بجواب لما :

جاء في سورة يوسف : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾[٣].

---

[١] النساء : ١٦٢

[٢] آل عمران : ٥٩.

[٣] يوسف : ١٥.

* فأين جواب لما ؟ ولو حذف الواو التي قبل أوحينا لاستقام المعنى.

*ونرد على قولهم : اختلف النحاة على قولين :

الأول للبصريين: قالوا : إن جواب (لما) محذوف تقديره فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب (جعلوه فيها)، وهذا هو تقدير الجواب المحذوف.

والثاني: للكوفيين: وهو أن جواب(لما) ﴿ أوحينا إليه ﴾ والواو فيها مقحمة ولها نظائر في القرآن ، فالواو تكون مقحمة مع (لما وحتى) فمثالها في (لما) قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ [1] والتقدير (تله) جواب لما والواو مقحمة أي لتأكيد المعنى، ومثالها مع حتى قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ [2] والتقدير فتحت أبوابها بدون واو وجاءت الواو لتأكيد المعنى، وفي الآية الأخرى ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾[3] بدون واو، أي : إن فتحت جواب حتى، وبدون واو دل على أن الواو مقحمة في غير ذلك لتأكيد المعنى كما في الآية التي معنا في سورة يوسف .

١٨ـ قولهم في الإتيان بتركيب يؤدي إلى اضطراب المعنى:

جاء في سورة الفتح : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾[4]

---

(1) الصافات : ١٠٣.
(2) الزمر : ٧٣.
(3) الزمر : ٧١.
(4) الفتح : ٨ ، ٩ .

* وهنا ترى اضطرابا في المعنى بسبب الالتفات من خطاب محمد إلى خطاب غيره، ولأن الضمير المنصوب في قوله تعزروه وتوقروه عائد على الرسول المذكور آخرا، وفي قوله : تسبحوه عائد على اسم الجلالة المذكور أولا . وهذا ما يقتضيه المعنى، وليس في اللفظ ما يعينه تعيينا يزيل اللبس ، فإن كان القول ﴿ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ عائدا على الرسول يكون كفرا، لأن التسبيح لله فقط، وإن كان القول تعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا عائدا على الله يكون كفرا؛ لأنه تعالى لا يحتاج لمن يعزره ويقويه.

* ونحن نرد عليهم بقولنا :

إن القرآن الكريم معجز وبلاغي بكل ما في الإعجاز والبلاغة ... وهنا في هذه الآية الكريمة لمحة بلاغية فيها إيجاز بعدم تعيين لفظ يخص كل لفظة وهذا من الأسرار البلاغية في القرآن الكريم كما هو معروف في اللغة العربية، فتعيد التعزير والتوقير للرسول ﷺ والتسبيح لله تعالى .

١٩ـ قولهم في تنوين الممنوع من الصرف :

جاء في سورة الإنسان : ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ ﴾ [١] بالتنوين مع أنها لا تنون لامتناعها عن الصرف، إنها على وزن مصابيح.

وجاء في سورة الإنسان ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴾ [٢]

---

[١] الإنسان : ١٥.

[٢] الإنسان : ٤.

* فلماذا قال: سلاسلا بالتنوين مع أنها لا تنون لامتناعها من الصرف؟

* ونقول لهم : إن للتنوين أربع حجج هي:

الأولى : إن الجموع أشبهت الآحاد فجمعت جمع الآحاد فجعلت في جمع الآحاد فصرفت (أي قوارير) جمع قارورة فهي شبيهة بالآحاد لذلك صرفت . و(سلاسلا) جمع سلسلة شبيهة بها فصرفت .

الثانية: حكى عن العرب صرف جميع ما لا يصرف إلا (أفعل منك) و(أظرف منك) تقول: مررت بأظرف منك ولا يصح أبدا صرفها بأظرف منك. فهذا لا يصح.

الثالثة: نَوَّنَ (قواريرا) لأنها رأس آية ورءوس الآي جاءت بالنون كقوله تعالى : (مذكورا ـ سميعاـ بصيرا) بنون في آخره؛ لأن التنوين أصله نون ساكنة تلحق آخر الاسم لفظا وتفارقه خطا ووقفا فنون الأول موافقة لرءوس الآي ، ونون الثاني(قواريرا) لجوار أي : جوار ما قبلها.

الرابعة: جاء التنوين اتباعا لخط المصحف كما في مصحف الإمام ، ولأجل هذا نونه، وحذف الممنوع من الصرف.

٢٠ـ قولهم في تذكير خبر الاسم المؤنث :

جاء في سورة الشورى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ [١]

* فلماذا لم تتبع خبر لعل اسمها في التأنيث فيقول: قريبة؟

---

[١] الشورى : ١٧.

* ونقول لهم : الحمد لله أن المؤلفين هنا يتساءلون بكلمة لماذا ، ولعلهم يريدون أن يفهموا ما غم عليهم، ولم يقولوا كما تعودوا في أنـــه يجـــب. ونشرح لهم أنه قد حذف المضاف وهو وقت وأقيم المضاف إليه مقامـــه وهو الساعة ، والتقدير: لعل وقت الساعة قريب، وهذا من بلاغة القرآن.

٢١ـ قولهم أتى بتوضيح الواضح:

جاء في سورة البقرة : ﴿ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ [١]

* فلماذا لمْ يقل: تلك عشرة مع حذف كلمة (كاملة) تلافيا لإيضاح الواضح؛ لأنه ما يظن العشرة تسعة ؟ . ونرد عليهم بالقول كاملـــة هنـــا ليس فى العدد وإنما فى الثواب والأجر وهى أيضا للتاكيد وليس لتوضـــيح الواضح كما تقول : كتبت بيدى ، فهل يعقل أنك كتبت برجلك ؟

٢٢ـ قولهم في الإتيان بضمير فاعل مع وجود فاعل:

جاء في سورة الأنبياء: ﴿ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾[٢]

* مع حذف ضمير الفاعل في (أسروا) لوجـــود الفاعـــل ظـــاهرا وهـــو (الذين)

* ونرد بقولنا : إن الاعتراض خطأ؛ لأنهم يقولون: أتى بضمير الفاعل مع وجود فاعل ثم يرجعون ويقولون : حذف مـــع أنـــه موجـــود وهـــو واو الجماعة في (أسروا) فهو لم يحذف ، ولفظ (الذين) بيان لضمير الفاعل.

---

[١] البقرة : ١٩٦.

[٢] الأنبياء : ٣.

٢٣ـ قولهم في الالتفات من المخاطب إلى الغائب قبل إتمام المعنى: جاء في سورة يونس : ﴿ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ ﴾ [١]

* فلماذا التفت عن المخاطب إلى الغائب قبل تمام المعنى؟ والأصح أن يستمر على خطاب المخاطب.

* ونقول لهم : في هذه الآية التفات مع الخطاب إلى الغيبة ، والعرب تجيز هذا الالتفات من الخطاب إلى الغيبة ، ومن الغيبة إلى الخطاب، والقرآن نزل بلغة العرب كي يفهموه، قال ابن الأنباري صاحب البيان في إعراف القرآن وصاحب تفسير القرآن المسمى تفسير الأنباري في القرآن قال : وجائز في اللغة أن يرجع من الغيبة إلى الخطاب، ولهذا نظير في القرآن كقوله تعالى: ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا* إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا ﴾ [٢] . فالتفت من الغيبة إلى الخطاب وكان من المفروض أن يقول على حد فهمنا القاصر: إن هذا كان لهم جزاء، ولكنه سبحانه التفت بعد قوله : وسقاهم إلى قوله : إن هذا كان لكم . ولم يقل : لهم.

٢٤ـ قولهم في الإتيان بضمير المفرد للعائد على المثنى : جاء في سورة التوبة : ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾[٣]

---

[١] يونس : ٢٢.

[٢] الإنسان : ٢٢.

[٣] التوبة : ٦٢.

* فلماذا لم يثن الضمير العائد على الاثنين اسم الجلالة ورسوله فيقول: أن يرضوهما ؟

* ونقول لهم : لقد أتى بضمير المفرد (يرضوه) ليعود به على الرسول ليبين لنا أن من يرضى الرسول فقد أرضى الله تعالى، لأنه يحمل أوامر الله ونواهيه كما في قوله تعالى:﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ [1] انتهى[2] .

---

[1] النساء : ٨٠. ـــ

[2] انظر في هذا المقام ١ـــ مشكل القرآن لابن قتيبة موضوع موهم التناقض والاختلاف ص ٦٥ ، ٢ـــ " هل القرآن معصوم ؟ " د/ سامي نجيب ص ١٧٤ ط الأولى ، ٣ـــ حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين المجلس الأعلى ص ١٧٤ ـــ ط الأولى ، ٤ـــ الرد على كتاب " أخطاء إلهية في القرآن الكريم " مجمع البحوث الإسلامية ص ٢١ مطبعة دار السعادة .

المبحث الحادي والعشرون

شبهات على القرآن في هذه القضايا الثلاث

أ ـ الإشراك بالله ب ـ عصيان الملائكة ج ـ عصيان البشر

أ ـ حول موقف القرآن من الشرك بالله :

يوضح القرآن أن الله لا يغفر أن يشرك به ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [1] . ومع ذلك فقد غفر الله لإبراهيم عليه السلام بل جعله نبيا رغم أنه عبد النجوم والشمس والقمر[2]. فما الإجابة ؟ (اهـ).

الرد على الشبهة :

الشرك محبط للعمل: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ * وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [3] ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [4]

والأنبياء والرسل هم صفوة الله من خلقه، يصطفيهم ويستخلصهم، ويصنعهم على عينه، وينزههم حتى قبل البعثة لهم والوحى إليهم عن الأمور التي تخل بجدارتهم للنبوة والرسالة.. ومن ذلك الشرك، الذي لو

---

[1] النساء : ٤٨.

[2] اقرأ في سورة الأنعام الآيات من ٧٦ إلى ٧٨ .

[3] الزمر : ٦٤ ـ ٦٦ .

[4] النساء : ٤٨.

حدث منهم واقترفوه لكان مبررا لغيرهم أن يقترفه ويقع فيه.. ولذلك ، لم يرد في القرآن الكريم ما يقطع بشرك أحد من الأنبياء والرسل قبل بعثته.. بمن في ذلك أبو الأنبياء وخليل الرحمن إبراهيم ﷺ .

أما الآيات التي يشير إليها السؤال.. وهي قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٧٤) وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٨٢) وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾[1].

أما هذه الآيات، فليس فيها دليل على أن إبراهيم ﷺ قد مر بمرحلة شرك، وحاشا لله أن يقع في ذلك، وإنما هي تحكي كيف آتى الله إبراهيم الحجة على قومه.. حجة التوحيد، ودحض الشرك.. فهي حجاج وحوار يسلم فيه إبراهيم جدلا ــ كشأن الحوار ــ بما يشركون ، لينقض

---

(١) الأنعام : ٧٤ ــ ٨٣.

هذا الشرك، ويقيم الحجة على تهاوي ما بـه يحتجـون، وعلـى صـدق التوحيد المركوز في فطرته.. ليخلص من هذا الحوار والحجاج والاحتجاج إلى أن الخيار الوحيد المتبقي ـ بعد هذه الخيارات التي سـقطت ـ هـو التوحيد .. فهو حوار التدرج من توحيد الفطرة إلى توحيد القـائم علـى المنطق والبرهان والاستدلال الذي فند دعاوى وحجج الخصوم والاستدلال اليقيني ﴿ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ وليس فيه انتقال مـن الشـرك إلـى التوحيد.

تلك هي الحقيقة التي رجحها المفسرون.

* فالقرطبي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري [٦٧١هـ ـ ١٢٧٣م] يقول في تفسيره [الجامع لأحكام القـرآن] ـــ مـورد الآراء المختلفة حول هذا الموضوع:

قوله تعالى: ﴿ هَذَا رَبِّي ﴾ اختلف في معناه على أقوال، فقيل: كان هذا منه في مهلة النظر وحال الطفولية وقبل قيام الحجة، وفي تلك الحال لا يكون كفر ولا إيمان.

وقال قوم: هذا لا يصح، وقالوا: غير جـائز أن يكـون لله تعـالى رسول يأتي عليه وقت من الأوقات إلا وهو لله تعالى موحد وبه عـارف، ومن كل معبود سواه برئ. قالوا: وكيف يصح أن يتوهم هذا على عصمه الله وآتاه رشده من قبل، وأراه ملكوته ليكون من الموقنين، ولا يجوز أن يوصف بالخلو من المعرفة، بل عرف الرب أول النظر.. وقـد أخبـر الله تعالى عن إبراهيم أنه قال: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ [١]

---

[١] إبراهيم : ٣٥.

وقال عز وجل:﴿ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [1] أي لم يشرك قط.. لقد قال: ﴿ هَذَا رَبِّي ﴾ على قول قومه، لأنهم كانوا يعبدون الأصنام والشمس والقمر. ونظير هذا قوله تعالى:﴿ أَيْنَ شُرَكَائِيَ ﴾ [2]. وهو جل وعلا واحد لا شريك له، والمعنى: أين شركائي على قولكم..... وقيل: إنما قال: ﴿ هَذَا رَبِّي ﴾ لتقرير الحجة على قومه، فأظهر موافقتهم، فلما أفل النجم قرر الحجة، وقال: ما تغير لا يجوز أن يكون ربا، وكانوا يعظمون النجوم ويعبدونها ويحكمون بها.

ومن أحسنِ ما قيل في هذا ما صح عن ابن عباس أنه قال في قوله ــ عز وجل ــ : ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ [3] قال : كذلك قلب المؤمن يعرف الله عز وجل ، ويستدل عليه بقلبه، فإذا عرفه ازداد نورا على نور، وكذلك إبراهيم عليه السلام ، عرف الله عز وجل بقلبه واستدل عليه بدلائله، فعلم أن له ربا وخالقا. فلما عرفه الله عز وجل بنفسه ازداد معرفة فقال: ﴿ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ ﴾ .

وقيل: هو على معنى الاستفهام والتوبيخ، منكرا لفعلهم، والمعنى: أهذا ربي، أو مثل هذا يكون ربا ؟ ! فحذف الهمزة. وفي التنزيل: ﴿ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴾ [4]. أي أفهم الخالدون؟ .. " [5].

---

(1) الصافات : ٨٤.

(2) القصص : ٧٤.

(3) النور : ٣٥.

(4) الأنبياء : ٣٤.

(5) الجامع لأحكام القرآن ج٧ ص ٢٥ ، ٢٦ ــ طبعة دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ــ القاهرة ١٣٨٧هـ ــ ١٩٦٧م.

* ومع هذا الرأي أيضا الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الخوارزمي [٤٦٧ ـ ٥٣٨ هـ ١٠٧٥ ـ ١١٤٤م] ، صاحب تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل] الذي يقول في تفسير هذه الآيات:

" وكان أبوه آزر وقومه يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب، فأراد أن ينبههم على الخطأ في دينهم، وأن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال، ويعرفهم أن النظر الصحيح مؤد إلى أن شيئا منها لا يصح أن يكون إلها، لقيام دليل الحدوث فيها، وأن وراءها محدثا أحدثها وصانعا صنعها ومدبرا دبر طلوعها وأفولها وانتقالها ومسيرها وسائر أحوالها ".

﴿ هَذَا رَبِّي ﴾ : قول من ينصف خصمه مع علمه بأنه مبطل، فيحكي قوله كما هو غير متعصب لمذهبه، لأن ذلك أدعى إلى الحق وأنجى من الشغب، ثم يكر عليه بعد حكايته فيبطله بالحجة.

﴿ لَا أُحِبُّ الْآَفِلِينَ ﴾ : لا أحب عبادة الأرباب المتغيرين من حال إلى حال، المنتقلين من مكان إلى مكان، المحتدين بستر، فإن ذلك من صفات الأجرام.

﴿ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي ﴾ : تنبيه لقومه على أن من اتخذ القمر إلها وهو نظير الكواكب في الأفول فهو ضال، وأن الهداية إلى الحق بتوفيق الله ولطفه.. ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[1]

---

(١) الكشاف ٢/٣٠ط دار الفكر بدون تاريخ وهي طبعة مصورة عن طبعة طهران انتشارات أفتاب

أي للذي دلت هذه المحدثات عليه وعلى أنه مبتدئها ومبدعها

* وعلى هذا الرأى أيضا من المحدثين ـ الشيخ عبد الوهاب النجار [١٢٧٨ ـ ١٣٦٠هـ ، ١٨٦٢ ـ ١٩٤١م] ـ صاحب كتاب [قصص الأنبياء] الذي يقول: " لقد أتى إبراهيم في الاحتجاج لدينه وتزييف دين قومه بطريقة التدرج في الإلزام أو التدرج في تكوين العقيدة .. " (١)

وذلك هو موقف إبراهيم الخليل عليه السلام من الشرك .. لقد عصمه الله منه .. وإنما هي طريقة في الجدال يتدرج بها مع قومه ،من منطلقاتهم ليصل إلى هدم هذه المنطلقات ، وإلى إقامة الدليل العقلي على عقيدة التوحيد الفطرية المركوزة في القلوب.

ب ـ حول عصيان إبليس :

وهو من الملائكة الذين لا يعصون الله، يؤكد القرآن أنه لا يمكن للملائكة أن تعصي الله [التحريم:٦] ومع ذلك فقد عصى إبليس الذي كان من الملائكة ، كما في الآية [البقرة:٣٤] فأيهما صحيح؟. اهـ.

الرد على الشبهة :

الملائكة مخلوقات مجبولة على طاعة الله وعبادته والتسبيح له وبه.. فهم لا يعصون الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا

---

(١) قصص الأنبياء ص ٨٩٠ طبعة دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ لبنان ، بدون تاريخ للطبع

أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [1].

ومع تقرير هذه الآية أن هؤلاء الملائكة القائمين على النار [لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون] يقرر القرآن الكريم أن إبليس – وهو من الملائكة – في قمة العصيان والعصاة

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾[2]

وهناك إمكانية للجمع بين معاني الآيتين ، وذلك بأن نقول: إن عموم الملائكة لا يعصون الله ـ سبحانه وتعالى ـ فهم مفطورون ومجبولون على الطاعة .. لكن هذا لا ينفي وجود صنف هم الجن ـ ومنهم إبليس ، شملهم القرآن تحت اسم الملائكة ـ كما وصف الملائكة أيضا بأنهم جنة ـ لخفائهم واستتارهم ـ وهذا الصنف من الجن، منهم الطائعون ومنهم العصاة.

وفي تفسير الإمام محمد عبده [١٢٦٥ ـ ١٣٢٣هـ ، ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م] لآية [البقرة : ٣٤] يقول:

" أي سجدوا إلا إبليس ، وهو فرد من أفراد الملائكة، كما يفهم من الآية وأمثالها في القصة، إلا آية الكهف فإنها ناطقة بأنه كان من الجن.. وليس عندنا دليل على أن بين الملائكة والجن فصلا جوهريا يميز أحدهما عن الآخر، وإنما هو اختلاف أصناف، عندما تختلف أوصاف. فالظاهر أن

---

[1] التحريم : ٦.

[2] البقرة : ٣٤.

الجن صنف من الملائكة. وقد أطلق القرآن لفظ الجنة على الملائكة، على رأي جمهور المفسرين في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [1] وعلى الشياطين في آخر سورة الناس" [2].

ونحن نجد هذا الرأي أيضا عند القرطبي - في تفسيره [الجامع لأحكام القرآن] فيقول:

"وقال سعيد بن جبير: إن الجن سبط من الملائكة،خلقوا من نار، وإبليس منهم، وخلق سائر الملائكة من نور .. والملائكة قد تسمى جنا لاستتارها، وفي التنزيل: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا ﴾ وقال الشاعر في ذكر سليمان عليه السلام :

وسخر من جن الملائكة تسعة قياما لديه يعملون بلا أجر [3]

فلا تناقض إذا بين كون الملائكة لا يعصون الله .. وبين عصيان إبليس .. وهو من الجن ، الذين أطلق عليهم اسم الملائكة - فهو مثله كمثل الجن هؤلاء منهم الطائعون ومنهم العصاة.

ج - حول عصيان البشر :

مع أنهم من المخلوقات الطائعة القانتة لله كل المخلوقات في السموات والأرض طائعة وقانتة لله تعالى [الروم : ٢٦] ومع ذلك نجد حالات كثيرة من عدم الطاعة من جانب البشر مثلا : [الحاقة : ١٠] اهـ.

---

[1] الصافات : ١٥٨.

[2] الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ٤ / ١٣٣ وتحقيق د/ محمد عمارة ط دار الشروق ١٤١٤هـ

[3] الجامع لأحكام القرآن ج١ ص ٢٩٤ - ٢٩٥ - مصدر سابق .

الرد على الشبهة :

كل المخلوقات في السموات والأرض، طائعة وقانتة لله ـ سبحانه وتعالى ـ ﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ ﴾[1].

فهم قانتون لله، أي خاضعون ومطيعون لإرادته ـ سبحانه وتعالى ـ ومع ذلك يشهد الواقع ، وتحكي الآيات القرآنية الكثير من حالات العصيان وعدم الطاعة من جانب البشر وذلك من مثل قوله سبحانه : ﴿ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ * فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً ﴾ [2].

ففي هذه الآية وحدها إشارات إلى عصيان فرعون .. وعصيان من سبقه من المؤتفكات ـ أي قرى قوم لوط ـ الذين أخذهم الله أخذة رابية ، أي زائدة في الشدة على غيرها .

بل إن تاريخ الإنسان هو صراع بين أهل العصيان.. حتى إن المأثور النبوي الشريف قد تحدث عن أن كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون.

فكيف يتسق شيوع العصيان في البشر، مع الآية القرآنية التي تحدثت عن أن كل من في السموات والأرض قانتون ـ أي خاضعون ومطيعون لله سبحانه وتعالى ؟

---

[1] الروم : ٢٦.

[2] الحاقة : ٩ ، ١٠ .

إن مفتاح الإجابة عن هذا التساؤل ، هو فهم أنواع الإرادة الإلهية والقضاء الإلهي .. فالله سبحانه لا يريد العصيان، ولا يقضي بالشر .. لكن إرادته وقضاءه نوعان:

١ــ إرادة وقضاء تكويني وحتمي للمخلوقات غير المخيرة.. وذلك مثل القضاء الذي تتحدث عنه الآية : ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ﴾ [١].

﴿ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾[٢]

ففي هذا اللون من الأمر الإلهي والقضاء الرباني تكون المخلوقات غير المختارة مجبولة على القنوت والطاعة والخضوع لله سبحانه وتعالى.

٢ــ إرادة وقضاء معهما تخيير.. وذلك خاص بالإنسان المخير.. المكلف.. المسئول والذي له ــ بسبب هذا التخيير والحرية ــ حساب وجزاء.

وإلى مثل هذا تشير الآيتان: ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾[٣]

فنحن هنا أمام قضاء إلهي، شاء الله سبحانه وتعالى أن يترك للإنسان المخير إزاءه حرية الطاعة والعصيان ليتميز الخبيث من الطيب،

---

[١] فصلت : ١٢.

[٢] البقرة : ١١٧.

[٣] الإسراء : ٢٣ ، ٢٤.

وليكون الجزاء وفق العمل والإرادة والاختيار.. فالإنسان المخير، الذي هداه الله النجدين، له قدرات واستطاعات الطاعة والعصيان.. ولذلك كان من جنس الإنسان المؤمن والكافر، والمطيع والعاصي ومن يبتغي وجه الله ومن يبتغي غير دين الله.. بينما المخلوقات غير المختارة مجبولة على الطاعة والخضوع ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [1]، وقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ [2]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [3].

ففي مخلوقات الله مخلوقات مجبولة على الطاعة والخضوع.. وفي هذه المخلوقات مخيرون، منهم من يطيع ومنهم من يختار العصيان، فيبتغي غير دين الله ! [4].

* * *

---

(1) آل عمران : ٨٣.

(2) الرعد : ١٥.

(3) فصلت : ١١ .

(4) انظر حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين ص ٢٦٨.

المبحث الثاني والعشرون

شبهات حول القرآن في تناقضه في خلق الإنسان والسموات

١ــ هل تناقض القرآن في مادة خلق الإنسان؟ :

يعطي القرآن معلومات مختلفة عن خلق الإنسان.. من ماء مهين (المرسلات:٢٠) من ماء (الأنبياء:٣٠) ... من نطفة (يس:٧٧)... من طين (السجدة:٧).. من علق (العلق:٢)... من حمأ مسنون (الحجر:٢٦) .. ولم يك شيئا (مريم: ٦٧).

فكيف يكون كل ذلك صحيحا في نفس الوقت ؟ اهـ

الرد على الشبهة :

ليس هناك أدنى تناقض بل ولا حتى شبهة تناقض بين ما جاء في القرآن الكريم من معلومات عن خلق الإنسان.. وحتى يتضح ذلك، يلزم أن يكون هناك منهج علمي في رؤية هذه المعلومات، التي جاءت في عديد من آيات القرآن الكريم.. وهذا المنهج العلمي يستلزم جمع هذه الآيات.. والنظر إليها في تكاملها.. مع التمييز بين مرحلة خلق الله للإنسان الأول آدم عليه السلام ومرحلة الخلق لسلالة آدم، التي توالت وتكاثرت بعد خلق حواء، واقترانها بآدم، وحدوث التناسل عن طريق هذا الاقتران والزواج..

* لقد خلق الله ــ سبحانه وتعالى ــ الإنسان الأول ــ آدم ــ فأوجده بعد أن لم يكن موجودا .. أي أنه قد أصبح "شيئا" بعد أن لم يكن "شيئا" موجودا. وإنما كان وجوده فقط في العلم الإلهي.. وهذا هو معنى الآية

الكريمة ﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴾ [1].

* أما مراحل خلق الله ـ سبحانه وتعالى ـ لآدم .. فلقد بدأت بـ [التراب] الذي أضيف إليه [الماء] فصار [طينا] ثم تحول هذا الطين إلى [حمأ] أي أسود منتنا، لأنه تغير ، والمتغير هو [المسنون] .. فلما يبس هذا الطين من غير أن تمسه النار سمى [صلصالا] لأن الصلصال هو الطين اليابس من غير أن تمسه نار، وسمى صلصالا لأنه يصل، أي يصوت، من يبسه أي له صوت ورنين.

وبعد مراحل الخلق هذه ـ التراب.. فالماء.. فالطين.. فالحمأ المسنون .. فالصلصال .. نفخ الله ـ سبحانه وتعالى ـ في "مادة" الخلق هذه من روحه، فغدا هذا المخلوق "إنسانا"هو آدم عليه السلام .

* وعن هذه المراحل تعبر الآيات القرآنية، فتصور تكامل المراحل ـ وليس التعارض المتوهم والموهم ـ فتقول هذه الآية الكريمة: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [2]. فبالتراب كانت البداية ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴾ [3]. وذلك عندما أضيف الماء إلى التراب ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴾ [4] وذلك عندما زالت قوة الماء عن الطين، فأصبح "لازبا" أي جامدا.

---

(1) مريم : ٦٧.

(2) آل عمران : ٥٩.

(3) السجدة : ٧.

(4) الصافات : ١١.

* وفي مرحلة تغير الطين، وإسوداد لونه، ونتن رائحتــه، سُـمي [حمأ مسنونا] ، لأن الحمأ هو الطين الأسود المنتن.. والمســنون هــو المتغير.. بينما الذي ﴿ لم يتسنه﴾ هو الذي لم يتغير.. وعن هذه المرحلة عبرت الآيات: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَـإٍ مَسْـنُونٍ (٢٦) وَالْجَانَّ خَلَقْنَـاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ (٢٧) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَـى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٣٣) قَالَ فَـاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ [1]

تلك هي مراحل خلق الإنسان الأول، توالت فيها وتتابعت وتكاملت معاني المصطلحات : التراب.. والماء.. والطين.. والحمـأ المســنون .. والصلصال .. دونما أية شبهة للتعارض أو التناقض.

* وكذلك الحال والمنهاج مع المصـطلحات التـي وردت بالآيـات القرآنية التي تحدثت عن خلق سلالة آدم عليه السلام .

فكما تدرج خلق الإنسان الأول آدم من التراب إلى الطــين.. الـى الحمأ المسنون .. إلى الصلصال .. حتى نفخ الله فيه من روحه.. كذلك تدرج خلق السلالة والذرية بدءا من [النطفة] ــ التي هي الماء الصـ[illegible]

---

(١) الحجر : الآيات : ٢٦ ــ ٣٥. ، وانظر معاني المصطلحات الواردة في هذه الآيـات في الراغـب الأصفهاني أبو القاسم حسين بن محمد " المفردات في غريب القرآن " طباعة دار التحرير ــ القـاهرة ١٩٩١م ، ولسان العرب لابن منظور طبعة دار المعارف ــ القاهرة ؛ وبحث في تفسير سورة الـرحمن رسالة دكتوراه د/ جمعة علي عبد القادر ص ٢١٢ .

ـ ويعبر بها عن ماء الرجل [المنى] .. إلى [العلقة] التي هـي الـدم الجامد ، الذي يكون منه الولد، لأنه يعلق ويتعلـق بجـدار الـرحم إلـى [المضغة] وهي قطعة اللحم التي لم تنضج، والمماثلة لما يمضغ بـالفم.. إلى [العظام] .. إلى [اللحم] الذي يكسو العظام.. إلى [الخلق الآخـر] الذي أصبح بقدرة الله في أحسن تقويم [1].

ومن الآيات التي تحدثت عن توالي وتكامل هذه المراحل في خلـق وتكوين نسل الإنسان الأول وسلالته، قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَـا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُـمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ [2].

وقوله سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُـمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَـرَ فَتَبَـارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [3].

* وإذا كانت [النطفة] هي ماء الرجل.. فإنها عندما تختلط بمـاء المرأة ، توصف بأنها [أمشاج] ـ أي مختلطة ـ كما جاء في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [4].

---

[1] انظر في معاني هذه المصطلحات " المفردات في غريب القرآن " مصدر سابق .

[2] الحج : ٥.

[3] المؤمنون : ١٢ ـ ١٤.

[4] الإنسان : ٢.

* كما توصف هذه [النطفة] بأنها [ماء مهين] لقلتـــه وضـــعفه.. وإلى ذلك تشير الآيات الكريمة: ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْـــقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴾ [1]. ﴿ أَلَـمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (٢١) إِلَى قَدَرٍ مَعْلُــومٍ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴾ [2].

* وكذلك، وصفت [النطفة] ــ أي ماء الرجل ــ بأنه [دافق] لتدفقه واندفاعه .. كما جاء في الآية الكريمة ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ [3].

هكذا عبر القرآن الكريم عن مراحل الخلق.. خلق الإنسان الأول .. وخلق سلالات وذريات هذا الإنسان..

وهكذا قامت مراحل الخلق، ومصطلحات هذه المراحل، شواهد على الإعجاز العلمي للقرآن الكريم. عندما جاء العلم الحديث ليصدق على هذه المراحل ومصطلحاتها، حتى لقد انبهر بذلك علماء عظـــام فاهتـــدوا إلـــى الإسلام.

فكيف يجوز ــ بعد ذلك ومعه ــ أن يتحدث إنســـان عـــن وجـــود تناقضات بين هذه المصطلحات .. لقد صدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ أَفَلَـــا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [4]

---

[1] السجدة : ٧ ، ٨ .

[2] المرسلات : ٢٠ ــ ٢٣.

[3] الطارق : ٥ ــ ٧.

[4] النساء : ٨٢.

٢ ـ حول مدة خلق السموات والأرض :

توضح كثير من سور القرآن أن السموات والأرض قد خلقت في ستة أيام. وهنا مشكلتان:

الأولى: إنه من الثابت علميا أن خلق السموات والأرض قد استغرق بلايين السنين .

الثانية: إنه في التعبير القرآني نفسه كانت مدة الخلق ثمانية أيام بدلا من ستة [فصلت : ٩ ـ ١٢].

فكيف يمكن التوفيق بين هذه الآيات ؟ اهـ .

الرد على الشبهة :

في كثير من السور القرآنية تتحدث آيات كثيرة عن خلق الله سبحانه وتعالى السموات والأرض وتقدير ما فيهما في ستة أيام .. ومن هذه الآيات : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾[١].

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾[٢].

﴿ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾[٣].

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾[٤].

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾[٥].

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾[٦].

---

[١] الأعراف : ٥٤ ، يونس : ٣.

[٢] هود : ٧.

[٣] الفرقان :٥٩.

[٤] السجدة : ٤.

[٥] ق : ٣٨. [٦] الحديد : ٤.

* وليس هناك تعارض بين تحديد زمن الخلق للسموات والأرض في ستة أيام، وبين ما يراه العلم من استغراق ذلك الخلق بلايين السنين، ذلك أن المدى الزمني، " لليوم" عند الله ، سبحانه وتعالى ليس هو المدى الزمني " لليوم" في العرف والتقويم الذي تعارف عليه الإنسان في هذه الحياة الدنيا. وفي القرآن الكريم آيات شاهدة على ذلك منها :

﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [١].

فبعض اليوم، في حساب الإنسان ـ هنا ـ بلغ مائة عام.. أي قرابة سبعٍ وثلاثين ألف يوم ! وكذلك الحال في قصة أهل الكهف.. فما حسبوه يوما أو بعض يوم قد بلغ ثلاثمائة عام بالتقويم الشمسي وثلثمائة وتسعة أعوام بالتقويم القمري.. ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ [٢]، ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (٢٥) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ [٣].

---

(١) البقرة : ٢٥٩.

(٢) الكهف : ١٩.

(٣) الكهف : ٢٥ ـ ٢٦.

* وكذلك الحال يوم ينفخ في الصور ــ يوم البعث ــ يحسب بعض المجرمين أن مكثهم في الدنيا لم يتجاوز عشر ليال.. بينما يحسب آخرون منهم أن مكثهم لم يتعد اليوم الواحد: ﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (١٠٢) يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا (١٠٣) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾ [1].

* أما عند الله ، سبحانه وتعالى فإن لمصطلح "اليوم" مدى لا يعلم حقيقة طوله وأمده إلا هو : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [2].

والآية لا تحدده بألف سنة مما نعد نحن في تقويمنا .. وإنما تستخدم أداة التشبيه ــ الكاف ــ (كألف) ليظل المدى غير معلوم لنا في هذه الحياة .. وغير ممكن التحديد بوحداتنا نحن في القياس الزمني.

فيوم الدين ــ الجزاء ــ .. وأيام الله .. والأيام الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض .. مداها ــ بمقاييس أيامنا نحن ــ لا يعلمها إلا الله ، سبحانه وتعالى ..

* ثم إن ما اكتشفه العلم من سرعات للصوت .. وسرعات للضوء .. وزمن للضوء ــ سنة ضوئية ــ يجعل تفاوت واختلاف المفاهيم والمقاييس لمصطلح "اليوم" أمرا مقررا ومألوفا.

هذا عن المشكلة الأولى من مشكلتي السؤال ..

---

(١) طه : ١٠٢ ــ ١٠٤.

(٢) الحج : ٤٧.

أما المشكلة الثانية ـ من مشكلتي السؤال ـ والخاصة بحديث بعض الآيات القرآنية عن أن الخلق للسموات والأرض قد يفهم على أنه قد استغرق ثمانية أيام، وليس ستة أيام .. وهي أيام سورة فصلت : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [١].

هذه "المشكلة" لا وجود لها!.. فليس هناك تناقض ولا تفاوت بين المدة الزمنية التي جاءت في هذه الآيات وبين الآيات الأخرى التي ورد فيها تحديد الأيام الستة..

ففي هذه الآيات ـ من سورة فصلت ـ نجد أن الله سبحانه وتعالى يخبرنا بأنه : ﴿ خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ .

ثم ﴿ جَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ﴾ في تمام ﴿ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ .. أي في يومين آخرين يضافان إلى اليومين اللذين خلق فيهما الأرض، فيكون المجموع أربعة أيام.. وليس واردا أن يكون خلق الرواسي وتقدير الأقوات قد استغرق أربعة أيام..

ولعل الشبهة ـ التي جاءت في السؤال ـ قد أتت من هنا .. أي من توهم إضافة أربعة إلى اليومين اللذين خلقت فيهما الأرض، فيكون

---

(١) فصلت : ٩ ـ ١٢.

المجموع ستة .. وإذا أضيف إليها اليومان اللذان خلقت فيهما السماء ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ يكون المجموع ثمانية أيام ، وليس ستة أيام .. لكن إزالة هذه الشبهة متحققة بإزالة هذا الوهم.. فالأرض خلقت في يومين..وخلق الرواسي وتقدير الأقوات قد استغرق ما تمم اليومين أربعة أيام.. أي استغرق هو الآخر يومين.. ثم استغرق خلق السموات السبع يومين .. فكان المجموع ستة أيام من أيام الله ، سبحانه وتعالى.

ولقد نبه المفسرون على هذه الحقيقة ـ المزيلة لهذا الوهم ـ فقال القرطبي : " ﴿ في أربعة أيام ﴾ . ومثاله قول القائل: خرجت من البصرة إلى بغداد في عشرة أيام وإلى الكوفة في خمسة عشر يوما، أي في تتمة خمسة عشر يوما" [1].

وقال الزمخشري :

﴿ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ فذلكة [2] لمدة خلق الأرض وما فيها، كأنه قال: كل ذلك في أربعة أيام كاملة مستوية بلا زيادة ولا نقصان.. وقال الزجاج : في تتمة أربعة أيام، يريد بالتتمة اليومين"[3].

فهذه الآيات ـ من سورة فصلت ـ تؤكد هي الأخرى ـ على أن خلق السموات والأرض إنما تم في ستة أيام .. ومن ثم فلا تناقض بين

---

[1] الجامع لأحكام القرآن ج ١٥ ص ٣٤٣ مصدر سابق .

[2] الفذلكة جلة ما فصل وخلاصته .

[3] الكشاف ج٣ ص ٤٤٤ مصدر سابق .

آيات القرآن ولا تفاوت في مدة الخلق الإلهي للسموات والأرض .. وحاشا أن يكون شئ من ذلك في الذكر الحكيم [1].

* * *

[1] انظر " حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين " ص ٢٦٣ ــ ٢٨٠ ، وتفسير سورة فصلت د/ جمعة علي عبد القادر ــ " بحث يقتضيه المقام " ص ٢٨ ط : الأولى .

المبحث الثالث والعشرون
دفع شبهات القسيسين عن القرآن
كما جاءت في كتاب إظهار الحق

الشبهة الأولى :

يوجد في القرآن أن الهداية والضلال من جانب الله تعالى، وأن الجنة مشتملة على الأنهار والحور والقصور، وأن الجهاد على الكفار مأمور به ؛
وهذه المضامين قبيحة تدل على أن القرآن ليس كلام الله ، وهذه الشبهة أيضا من أقوى شبههم قلما تخلو رسالة من رسائلهم تكون في رد أهل الإسلام لا توجد فيها هذه الشبهة ، ولهم في بيانها على قدر اختلاف أذهانهم تقريرات عجيبة يتحير الناظر من تعصباتهم بعد ملاحظة هذه التقريرات.

الجواب :

أقول : في الجواب عن الأمر الأول إنه قد وقع في مواضع من أسفارهم المقدسة أمثال هذا المضمون فيلزم عليهم أن يقولوا أن أسفارهم المقدسة ليست من جانب الله يقينا، وإني أنقل بعض الآيات عنها ليظهر الحال للناظر: الآية الحادية والعشرون من الإصحاح الرابع من سفر الخروج هكذا : " وقال له الرب وهو راجع إلى مصر انظر جميع العجائب التي وضعتها بيدك أعملها قدام فرعون فأنا أقسى قلبه فلا يطلق الشعب ".

ثم قول الله في الآية الثالثة من الإصحاح السابع من سفر الخروج هكذا : " أني أقسي قلب فرعون وأكثر آياتي وعجائبي في أرض مصر".

وفي الإصحاح العاشر من سفر الخروج هكذا : ١ " وقال الرب لموسى ادخل عند فرعون لأني قسيت قلبه وقلوب عبيده لكي أصنع به آياتي هذه" ٢٠ " وقسى الرب قلب فرعون ولم يطلق بني إسرائيل " ٢٧ " فقسى الرب قلب فرعون ولم يشأ أن يرسلهم " . وفي الآية العاشرة من الإصحاح الحادي عشر من سفر الخروج هكذا : "وقسى الرب قلب فرعون فلم يرسل بني إسرائيل من أرضه" فظهر من هذه الآيات أن الله كان قد قسى قلوب فرعون وعبيده لتكثير معجزات موسى عليه السلام في أرض مصر.

والآية الرابعة من الإصحاح التاسع والعشرين من سفر الاستثناء هكذا : "ولم يعطكم الرب قلبا فهيما ولا عيونا تنظرون بها ولا آذانا تسمعون بها حتى اليوم" .

والآية العاشرة من الإصحاح السادس من سفر أشعياء هكذا: "اعم قلب هذا الشعب وثقل آذانه وغمض عيونه لئلا يبصر بعينه ويسمع بأذنه ويفهم بقلبه ويتوب فأشفيه" .

والآية الثامنة من الإصحاح الحادي عشر من الرسالة الرومية هكذا: " كما هو مكتوب أعطاهم الله روح سبات وعيونا لا يبصرون بها وآذانا لا يسمعون بها حتى اليوم" .

وفي الإصحاح الثاني عشر من إنجيل يوحنا هكذا : "لم يقدروا أن يؤمنوا لأن أشعياء قال أيضا قد عمى عيونهم وأغلظ قلوبهم لئلا يبصروا بعيونهم ويشعروا بقلوبهم ويرجعوا فأشفيهم" فعلم من التوراة وسفر أشعياء والإنجيل أن الله أعمى عيون بني إسرائيل وأغلظ قلوبهم وأثقل آذانهم لئلا يتوبوا فيشفيهم فلذلك لا يبصرون الحق ولا يفكرون فيه ولا يسمعونه، ولا يزيد معنى ختم الله على القلوب والسمع على هذا.

والآية السابعة عشرة من الإصحاح الثالث والستين من سفر أشعياء في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٦٧١ وسنة ١٨٣١ وسنة ١٨٤٤ هكذا : "لماذا أضللتنا يا رب عن طرقك ؟ أقسيت قلوبنا أن لا نخشاك ؟ فالتفت بسبب عبيدك سبط ميراثك".

والآية التاسعة من الإصحاح الرابع عشر من سفر حزقيال في التراجم المسطورة هكذا : " والنبي إذ ضل وتكلم بكلام فأنا الرب أضللت ذلك النبي وأمد يدي عليه وأهلكه من بين شعبي إسرائيل " فوقع في كلام أشعياء صراحة: " أضللتنا يا رب وأقسيت قلوبنا " وفي كلام حزقيال : "أنا الرب أضللت ذلك النبي".

وفي الإصحاح الثاني والعشرين من سفر الملوك الأول هكذا: ١٩ " ثم قال ميخا أيضا من أجل هذا فاسمع قول الرب: رأيت الرب جالسا على كرسيه وجميع أجناد السماء قياما حوله عن يمينه وعن شماله" ٢٠ " فقال الرب من يخادع أخاب ملك إسرائيل فيصعد ليسقط وأموت جلعاد وقال بعضهم قولا وقال بعضهم قولا آخر" ٢١ " فخرج روح وقام قدام الرب وقال أنا أخدعه فقال له الرب بماذا" ؟ ٢٢ " فقال أنا أخرج فأكون روح ضلالة في أفواه جميع أنبيائه، فقال له الرب تخدع وتقدر على ذلك اخرج وافعل هكذا " ٢٣ " والآن قد جعل الرب روح ضلالة في أفواه جميع أنبيائك ــ وكانوا نحو أربعمائة ــ هؤلاء والرب قال : عليك بالشر" وهذه الرواية صريحة في أن الله تعالى يجلس على كرسيه وينعقد عنده محفل المشاورة للاغواء والخداع، كما ينعقد ــ مجلس البرلمان ــ في لندن لأجل بعض أمور السلطنة فيحضر جميع أجناد السماء، وبعد المشاورة يرسل روح الضلالة فيقع هذا الروح في الأفواه ويضل الناس. فانظر أيها

اللبيب إذا كان الله وأجناد السماء يريدون إغواء الإنسان فكيف ينجو الإنسان الضعيف؟ وههنا عجب آخر وهو أن الله شاور وأرسل روح الضلالة بعد المشاورة ليخدع أخاب فكيف أظهر ميخا الرسول سر محفل الشورى ونبه أخاب عليه؟ .

وفي الإصحاح الثاني من الرسالة الثانية إلى أهل تسالونيكي هكذا: ١١ " ولأجل هذا ـ أي لعدم قبولهم محبة الحق ـ سيرسل إليهم عمل الضلال حتى يصدقوا الكذب" ٣٤ " لكي يدان جميع الذين لم يصدقوا الحق بل سروا بالاثم" فقديسهم ينادي أن الله يرسل إلى الهالكين عمل الضلال أولا فيصدقون الكذب فيدينهم ، ولما فرغ المسيح ﷺ من توبيخ المدن التي لم يتب أهلها قال: " أحمدك أيها الأب رب السماء والأرض لأنك أخفيت هذه عن الحكماء والفهماء وأعلنتها للأطفال ، نعم أيها الأب لأن هكذا صارت المسرة أمامك" كما هو مصرح به في الإصحاح الحادي عشر من إنجيل متى، فالمسيح ﷺ يصرح بأن الله أخفى الحق عن الحكماء . وأظهره للأطفال ويحمد على هذا الأمر ويقول وكان رضا الله هكذا، والآية السابعة من الإصحاح الخامس والأربعين من سفر أشعياء في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٦٧١ وسنة ١٨٣١ هكذا : " المصور النور والخالق الظلمة الصانع السلام والخالق الشر أنا الرب الصانع هذه جميعها"

وفي الترجمة الفارسية المطبوعة سنة ١٨٣٨ هكذا : "سازنده نور وافر يننده تاريكي منم صلح دهنده وظاهر كننده شر منكه خداو ندم ابن

همه أشيار بوجود مي آرام" [1] وفي الآية الثامنة والثلاثين من الإصحاح الثالث من مراثي ارمياء هكذا: "أمن فم الرب لا يخرج الشر والخير" ؟ وفي الترجمة الفارسية المطبوعة سنة ١٨٣٨: " آيا خير وشر زادهان خدا صادر نمي شود" [2] والاستفهام انكاري والمراد أن الخير والشر كلاهما يصدران عن الله تعالى. وفي الآية الثانية عشرة من الإصحاح الأول من سفر ميخا في التراجم المذكورة هكذا : " فإن الشر نزل من قبل الرب إلى باب أورشليم ".

وفي الترجمة الفارسية المطبوعة سنة ١٨٣٨ : " أما هربدي بردر وازه أورشليم أزخد أوندنازل شد" [3] فظهر أن خالق الشر هو الله تعالى كما هو خالق الخير. وفي الإصحاح الثامن من الرسالة الرومية هكذا : ٢٩ " لأن الذين سبق فعرفهم. سبق فعينهم ليكونوا مشابهين صورة ابنه ليكون هو بكرا بين اخوة كثيرين " ٣٠ " والذين سبق فعينهم فهؤلاء دعاهم أيضا .. الخ" وفي الإصحاح التاسع من الرسالة المذكورة : ١١ " لأنهما وهما لم يولدا بعد ولا فعلا خيرا أو شرا لكي يثبت قصد الله حسب الاختيار ليس من الأعمال بل من الذي يدعو " ١٢ " قيل لها إن الكبير يستعبد للصغير " ١٣ " كما هو مكتوب: أحببت يعقوب، وأبغضت عيسو"

---

(١) النص الفارسي : " بديد أورنده ء نور وافر يننده ء ظلمت صانع سلامتي وافر يننده ء بدي من يهوه صانع همه أين جيزها هستم " اهـ.

(٢) النص الفارسي : " أيا ازفرمان حضرت أعلي هم بدي ، وهم نيكوئي صادر غيشود " اهـ .

(٣) نص الآية :" زيراكه ساكنه : ماروت بجهة نيكوئي درد زه ميكشد جونكه بلا از جانب خدا وند بدروازهء أورشليم فرود امده است " اهـ. والترجمة من سنة ١٩٧٠ هكذا : " لأن الساكنة في ماروت اغتمت لأجل خيراتها لأن شرا قد نزل من عند الرب إلى باب أورشليم " (ميخا ١ : ١٢)

١٤ "فماذا تقول؟ ألعل عند الله ظلما ؟ حاشا ؟ ١٥ "لأنه يقول لموسى ارحم من أرحم وأتراءف على من أتراءف" ١٦ " فإذن ليس لمن يشاء ولا لمن يسعى بل الله الذي يرحم" ١٧ "لأنه يقول الكتاب لفرعون: إني لهذا بعينه أقمتك لكي أظهر فيك قوتي، ولكي ينادي باسمي في كل الأرض" ١٨ "فلماذا هو يرحم من يشاء ويقسي من يشاء " ١٩ " فستقول لي : لماذا يلوم بعد لأن من يقاوم مشيئته" ؟ ٢٠ " بل من أنت أيها الإنسان الذي تجاوب الله ؟ ألعل الجبلة تقول لجابلها لماذا صنعتني هكذا " ٢١ "أم ليس للخزاف لسلطان على الطين أن يصنع من كتلة واحدة إناء للكرامة وآخر للهوان" فهذه العبارة من قديسهم كافية لإثبات القدر، وكون الهداية والضلال من جانبه. ولنعم ما قال أشعياء ﷺ في الآية التاسعة من الإصحاح الخامس والأربعين من سفره : "ويل لمن يخاصم جابله. خزف بين أخزاف الأرض. هل يقول الطين لجابله: ماذا تصنع؟ أو يقول : عملك ليس له يدان" ؛

وبالنظر إلى هذه الآيات لعل أمام فرقة البروتستنت " لوثر" مال إلى الجبر كما يدل عليه ظاهر كلامه. ذكر في الصفحة ٢٧٧ من المجلد التاسع من كاثوليك هرلد أقوال الإمام الممدوح فأنقل عنها قولين:١ "طبع الإنسان كالفرس ان ركبه الله يمشي كما يريد الله وإن ركبه الشيطان يمشي كما يمشي الشيطان ، وهو لا يختار راكبا من نفسه بل يجتهد الركبان في الوصول إليه وأيا منهم يحصله يتسلط عليه" ٢ "إذا وجد أمر في الأسفار المقدسة بأن افعلوا هذا الأمر فافهموا أن هذه الأسفار تأمر بعدم فعل هذا الأمر الحسن لأنك لا تقدر على فعله" إنتهى. فالظاهر من كلامه أنه يعتقد بالجبر. وقال القسيس "طامس أنكلس الكاثوليكي" في الصفحة ٣٣ من

كتابه المسمى بـ "مرآة الصدق" المطبوع سنة ١٨٥١ طاعنا على فرقة البروتستنت هكذا ؟ .

"وعاظهم القدماء علموهم هذه الأقوال المكروهة ": ١ " أن الله موجد العصيان" ٢ "وأن الإنسان ليس مختارا على أن يجتنب عن الاثم" ٣ "وأن العمل على الوصايا العشرة غير ممكن" ٤ "وأن الكبائر وإن كانت عظيمة لا توصل الإنسان إلى النقص في نظر الله" ٥ " وأن الإيمان فقط ينجي الإنسان لأننا ندان بالإيمان فقط وهذا التعليم أنفع وتعليم مملوء بالطمأنينة " ٦ "وأن أب اصلاح الدين ـ يعني لوثر ـ قال آمنوا فقط واعلموا يقينا أنه يحصل لكم النجاة بلا مشقة الصوم وبلا مؤنة التقوى وبلا مشقة الاعتراف وبلا مشقة الأمور الحسنة ولكم نجاة نفيسة بلا شبهة كما للمسيح نفسه أذنبوا بالجرأة التامة أذنبوا وآمنوا فقط وينجيكم الإيمان وان ابتليتم في يوم واحد ألف مرة بالزنا أو القتل آمنوا فقط أنا أقول إن إيمانكم ينجيكم " انتهى،

فظهر أن ما قال علماء البروتستنت في الأمر الأول في حق القرآن مردود بلا شبهة مخالف لكتبهم المقدسة ، ولقول إمامهم. ولا يلزم من خلق الشر أن يكون الله شريرا كما لا يلزم من خلقه السواد والبياض وغيرهما من الأعراض أن يكون أسود أو أبيض ، والحكمة في خلق الشر هي الحكمة من خلق الشيطان الذي هو أصل الشرور ورأس المفاسد مع علم الله الأزلي بأن الشيطان يصدر عنه كذا وكذا ، والحكمة من خلق الشهوة والحرص في طبع الإنسان مع علمه الأزلي بما يترتب عليهما في كل فرد من أفراد الإنسان وكما كان الله قادرا على أن لا يخلق الشيطان أو يخلقه ولا يعطيه القدرة على الإغراء ويمنعه عن الشر، ومع ذلك خلق ولم

يمنعه عن الشر لحكمة ما، فكذلك قادر على أن لا يخلق الشر ولكنه في خلقه له حكمة ما[1].

وأما الجواب على الأمر الثاني فهو:

أنه لا قبح في كون الجنة مشتملة على الحور والقصور وسائر النعيم عند العقل، ولا يقول أهل الإسلام إن لذات الجنة مقصورة على اللذات الجسمانية فقط كما يقول علماء البروتستنت غلطا أن تغليطا للعوام، بل يعتقدون بنص القرآن أن الجنة تشتمل على اللذات الروحانية والجسمانية، والأولى أفضل من الثانية ويحصل كلا النوعين للمؤمنين.

قال الله في سورة التوبة: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ

---

[1] مع وجود آيات الجبر والإكراه في التوراة وفي الإنجيل توجد آيات الحرية والاختيار في التوراة وفي الإنجيل، فهل يعد ذلك من قبيل التناقض والاختلاف ؟ يوجد فيهما أن الله خالق كل شئ ، خالق الخير وخالق الشر . ويوجد فيهما أن الله منح الحرية للناس ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حي عن بينة فما تفسير ذلك؟

من عادة بني إسرائيل أن ينسبوا إلى الله تعالى كل فعل يقع في هذا الكون . لأن الله مصدر الكون ومن فيه. فيقولون : أطعمنا الله وسقانا ، وإن كان المطعم المباشر والساقي سيد لعبده مثلا يقولون هذا باعتبار أن السيد والعبد والطعام والشراب من الله . وإن كان الفعل المباشر قد يستطيع أن لا يفعله لأن الله منحه حرية كما جاء في سفر التثنية على لسان الله = =: " تعالى ان هذه الوصية التي أوصيتك بها اليوم ليست عسرة عليك ، ولا بعيدة منك . ليست هي في السماء حتى نقول : من يصعد لأجلنا إلى السماء ويأخذها لنا ويسمعنا إياها لنعمل بها. ولا هي في عبر البحر حتى نقول من يعبر لأجلنا البحر ويأخذها لنا ويسمعنا إياها لنعمل بها : بل الكلمة قريبة منك جدا في فمك . وفي قلبك لتعمل بها " (تثنية ٣٠ : ١١ ـــ ١٤) ولقد شاع بين اليهود زمن المسيح عيسى عليه السلام قول الفريسيين أن الإنسان مسير لا مخير . فوبخ المسيح علماء الفريسيين وسخر منهم كما هو واضح من إنجيل برنابا (انظر كتابنا : الله وصفاته في اليهودية والنصرانية والإسلام) .

وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [1] فقوله ورضوان من الله ـ الآية ـ معناد أن رضوانا من الله أكبر منزلة من كل ما سلف ذكره من الجنات والأنهار والمساكن الطيبة وهذا القول يدل على أن أفضل ما يعطي الله في الجنة هي اللذات الروحانية وان كان يعطي اللذات الجسمانية أيضا. ولذلك قال ذلك هو الفوز العظيم، لأن الإنسان مخلوق من جوهرين لطيف علوي روحاني وكثيف سفلي جسماني، وانضم إليهما حصول سعادة وشقاوة، فإذا حصلت الخيرات الجسمانية وانضم إليها حصول السعادات الروحانية، كان الروح فائزا بالسعادات اللائقة به والجسد واصلا إلى السعادات اللائقة به، ولا شك أن ذلك هو الفوز العظيم، وإن قال علماء البروتستنت إن اجتماعهما أيضا في الجنة قبيح في عقولنا. أقول لهم لا تضطربوا فإنه لن يحصل لكم إن شاء الله ،

ومن المعروف :أن الإنجيل عندنا عبارة عما أنزل على عيسى عليه السلام فقط، فلو وجد في قول من الأقوال المسيحية ما يخالف ظاهره حكم القرآن، فمع قطع النظر عن أنه مروي برواية الآحاد، وعن أن مخالفة أسفارهم المقدسة لا تضر القرآن ، أقول إن ذلك القول يكون مؤولا البتة، وكون أهل الجنة كالملائكة في زعمهم لا ينافي الأكل والشرب على حكم أسفارهم ، ألا يرون أن الملائكة الثلاثة الذين ظهروا لإبراهيم وأحضر لهم إبراهيم عليه السلام عجلا حنيذا وسمنا ولبنا أكلوا هذه الأشياء كما صرح به في الإصحاح الثامن عشر من سفر التكوين، وأن الملكين اللذين جاءا إلى لوط عليه السلام وصنع لهما وليمة وخبزا فطيرا كما صرح به في الإصحاح

---

(1) التوبة : ٧٢.

التاسع عشر من سفر التكوين، والعجب أنهم لما اعترفوا بالحشر الجسماني فأي استبعاد في اللذات الجسمانية؟ نعم لو كانوا منكرين للحشر مطلقا كمشركي العرب، أو كانوا منكرين للحشر الجسماني ومعترفين بالحشر الروحاني كأتباع أرسطو لكان لاستبعادهم وجه بحسب الظاهر [1].

وعندهم تجسد الله وما انفك عنه الأكل والشرب وسائر اللوازم الجسدانية باعتبار أنه إنسان، ولما لم يكن عيسى عليه السلام مرتاضا مثل يحيى في الاجتناب عن الأطعمة النفيسة وشرب الخمر كان المفسرون يطعنون عليه بأنه أكول وشريب خمر كما هو مصرح به في الإصحاح الحادي عشر من إنجيل متى. وعندنا هذا الطعن مردود لكننا نقول إنه لا شك أن عيسى عليه السلام باعتبار الجسمية كان إنسانا فقط، فكما أن الأطعمة النفيسة وشرب الخمر ما كانا مانعين في حقه عليه السلام عن اللذات الروحانية مع كونه في هذه الدار الدنيا بل كان على حضرته غلبة الأحكام الروحانية، فكذلك اللذات الجسمانية لا تكون مانعة عن اللذات الروحانية لأهل الجنة مع كونهم في النشأة الأخرى.

---

[1] النصارى لا يعترفون بالحشر الجسماني كما يقول المؤلف، بل يعترفون بالحشر الروحاني فقط — انظر الإصحاح ١٥ من كورنثوس الأولى.

الشبهة الثانية :

إن القرآن لا يوجد فيه ما يقتضيه الروح ويتمناه.

والجواب:

إن ما يقتضيه الروح ويتمناه أمران: الاعتقادات الكاملة والأعمال الصالحة، والقرآن مشتمل على بيان كلا النوعين على أكمل وجه كما عرفت في جواب الشبهة الأولى، ولا يلزم من عدم بعض الأمور التي هي مقتضيات الروح على زعم علماء البروتستنت نقصان القرآن كما لا يلزم نقصان التوراة والإنجيل والقرآن من عدم الأمر الذي هو مقتضى الروح على زعم علماء مشركي الهند من البراهمة، كما سمعت منهم أنهم يقولون إن ذبح الحيوان لأجل الأكل والتلذذ خلاف مقتضى الروح وغير مستحسن عند العقل جدا، ولا يتصور أن تحصل الإباحة فيه من جانب الله، فالكتاب المشتمل عليه لا يكون من جانب الله [1]

* * *

[1] انظر في هذا المقام كتاب " إظهار الحق لرحمة الله الهندي " ج ٢ ص ١١٣ ـــ مطبعة دار التراث العربي ط : الثانية .

المبحث الرابع والعشرون

القرآن يتناقض في حديثه عن بني إسرائيل

وفيه ثلاثة مطالب

المطلب الأول: وحي الشيطان

المطلب الثاني :حي أم ميت

المطلب الثالث : متى كان الذبح

وتحت عنوان : "وحي الشيطان" توجد فريتان :

إحداهما: الثناء على بني إسرائيل في آيات من الذكر الحكيم، وشجبهم والتشنيع عليهم في آيات أخرى،

والثانية : قصة الغرانيق وما جاء في القرآن من الآيات التي تدعمها وتشد أزرها،

أ- وحول الفرية الأولى قال المشتبه جاء في سورة "البقرة" قوله:

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (1)

وفي سورة "السجدة" قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٣) وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾(2) وآيات أخرى في مثل معنى هاتين الآيتين من سورة الدخان، والجاثية ،

---

(1) البقرة : ٤٧.

(2) السجدة : ٢٣ ــ ٢٤.

وعقب قائلا: "هذه تعهدات وإقرارات إلهية في منتهى الوضوح والصراحة.. على أن الله تعالى قد فضل بني إسرائيل على علم ويقين من لدنه تعالى على العالمين .. وأعطاهم الكتاب والحكم والنبوة وجعل منهم الأئمة والأولياء لهداية بني البشر.. ولكننا بعد ذلك كله نجد أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد نقض عهده الصريح الذي مر بنا، وغيره الكثير جدا بقرآننا المجيد .. فيقول في سورة "الجمعة، آية ٦" : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا ﴾ - أي اليهود أو بني إسرائيل - ﴿ إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

والجواب هو :

إن بني إسرائيل كغيرهم من سائر الأمم ليسوا سواء في استحقاقهم للمدح والذم.

فمن انقاد منهم لله وأطاع رسله وأنبياءه والتزم السبيل القويم والصراط المستقيم فهو جدير بتزكية الله له وثنائه عليه وإشادته بعمله الصالح، وهذا الفريق هو الذي نزلت فيه الآيات التي ذكرها المشتبه. وأضيف إليها قوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ [1].

وعلى العكس من ذلك من سفك الدماء وقتل الأنبياء ونشر الفساد ودوخ العباد، فإن هذا الفريق حقيق بشجب الله له ولعنه إياه ولومه لعمله الطالح ، وفيه نزلت آية الجمعة التي ذكرها المشتبه فلا تناقض في القرآن إذا ، ولا آيات يحق له ولا لغيره أن يقول عنها إنها من وحي الشيطان،

---

[1] الأعراف : ١٥٩.

بل القرآن كله من وحي الرحمن. ولو أنه قرأ أسفار العهدين القديم والجديد ما استطاع أن يزعم أن بني إسرائيل كانوا جميعا أخيارا، ولا أنهم كانوا جميعا أشرارا ، وإنما كان فيهم المحسن والمجرم، والمهتدي والضال، وحسبه في هذا قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [1]

وندع هذه الفرية إلى حين ، وننتقل إلى

<u>الفرية الثانية وهي:</u>

ب ـ أكذوبة الغرانيق ، إن السبب في ذلك هو عدم أمانتهم لأقوال الله، إذ دل على ذلك فيما ورد بالآية السابقة "رقم ٥" حيث قال المشتبه: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾[2] ولكن مهلا . فقد ورد في عقيدتنا الإسلامية ما هو أشر وألعن من ذلك ، إذ أن الرسول نفسه لم يكن أمينا لأقوال الله ، وكذب بآياته ـ سبحانه وتعالى ـ فقد كتب لنا عظماء المؤرخين المسلمين ومفسري القرآن أمثال ابن إسحاق وابن هشام والطبري ويحيي وجلال الدين السيوطي والبيضاوي وكثيرون غيرهم، كتبوا هذه القصة الحقيقية التالية فقالوا : " قدم نفر من

---

(١) آل عمران : ٧٥.

(٢) الجمعة : ٥.

مهاجري الحبشة حين قرأ محمد ﷺ سورة النجم قوله تعالى : ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ حتى بلغ ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى﴾[1] ألقى الشيطان في أمنيته ، أي تلاوته " تلك الغرانيق العلى. وإن شفاعتهن لترتجى" ، فلما ختم السورة سجد ﷺ وسجد معه المشركون لتوهمهم أنه ذكر آلهتهم بالخير، وفشا ذلك بالناس، وأظهره الشيطان حتى بلغ أرض الحبشة ومن بها من المسلمين مثل عثمان بن مظعون وأصحابه، وتحدثوا أن أهل مكة قد أسلموا كلهم وصلوا معه ﷺ. وقد أمن المسلمون بمكة وأقبلوا سراعا من الحبشة .

والجواب:

إن قصة الغرانيق هذه التي أثارها المشتبهون قصة منحولة وضعها الزنادقة في العصر العباسي، وتبناها المستشرقون، ومنهم السير (وليم موير) ، ليشككوا الناس في القرآن العظيم ويوحوا إليهم أن الشيطان قد يلقي فيه ما ليس منه ، والنبي ﷺ لا يدري إلا بعد أن يكون الشيطان قد بلغ الهدف وحقق الغاية . والدليل على أن هذه القصة لا أصل لها أنها لم ترد إلا في بعض كتب التاريخ والتفسير ، ولم يخرجها من رجال الحديث أحد كما يقرر البيهقي، وحتى ابن إسحاق نفسه الذي نسبت إليه فإنه قد أنكرها وقال: إنها من وضع الزنادقة، والروايات التي نقلها المؤرخون والمفسرون في شأنها مختلفة ومتناقضة ، والروايات إذا تناقضت تساقطت ولم تعد لها قيمة في البحوث الجادة والنصوص الموثقة.

---

[1] سورة النجم الآيات : من ١ ـ ٢٠.

وحجة أخرى : وهي أن العرب لم يعرفوا الغرانيق إلا علـى أنهـا طيور مائية بيضاء أو سودا،ولم ترد على أنها ضمن آلهتهم لا في شـعر ولا في نثر، فكيف يلقيها الشيطان على لسان النبي ﷺ على أنهـا هـي اللات والعزى ومناة ؟ !! ويجعل لها شفاعة عند الله؟! أضف إلـى هـذا وذاك أن سورة النجم من بدايتها حتى نهايتها تلفظ هذه القصة وترفضـها كما يرفض الجسم الإنساني العضو الأجنبي الذي يزرع فيه، فإن الذي يقرأ هذه السورة يرى أنها تنعى على المشـركين شـركهم وتفنـد أفكـارهم وحججهم، وتكذبهم تكذيبا قاطعا فيما يقولونه في آلهتهم فـي ادعـائهم أنها بنات الله تقول لهم :

﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴾ [1] أي جـائرة، وإن آلهتكم التي تتحدثون عنها ليست إلا أسماء سميتموها أنتم وآبـاؤكم مـا أنزل الله بها من سلطان ، إنكم تهيمون في ظنونكم بعد ما جاءكم الهـدى من ربكم على لسان نبيكم المرسل إليكم. وهذه هي الآيات التي نزلت بعد آيتي الغرانيق مباشرة: ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِـيزَى (٢٢) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى. ﴾ [2]

فبالله عليك يا رجل يامن تشتبه على القرآن : أهـذا مـدح لـلات والعزى ومناة أم ذم؟! وهل يتفق هذا وما ألقاه الشيطان على لسان محمد ﷺ وهو قوله : ﴿ تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى ﴾ ؟ ! وأين

---

[1] النجم : ٢١ ــ ٢٢

[2] النجم : ٢١ ــ ٢٦.

كان الحضور من قريش حتى يسجدوا لسجود محمد ﷺ لأنهم سمعوا منه ما يرضيهم في آلهتهم ؟ ! أليسوا عربا يفهمون ما يقرع آذانهم من مدح أو ذم ؟ ! ! أليسوا هم الذين ألحوا عليه أن يلتقي وإياهم في وسط الطريق فيعبد إلههم شهرا ويعبدون إلهه شهرا، فجاء الرد القاطع يقطع آمالهم ويدحض رجاءهم ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[1] .

فإن قال المشتبه: فلماذا رجع المهاجرون من الحبشة ولم يكن قد مضى عليهم فيها غير ثلاثة أشهر كانوا فيها موضع تقدير النجاشي وتوقيره إن لم تكن قصة الغرانيق هذه حقيقية ؟

فالجواب:

إن رجوعهم قد كان لسببين، أحدهما: إسلام عمر وحمزة وكثير غيرهما من أبناء القبائل الكبيرة في مكة الذين لم تكن قبائلهم تسمح بالاعتداء عليهم حتى ولو كانوا على غير دينهم. والسبب الثاني: هو الثورة التي نشبت على النجاشي في الحبشة؛ فإن هذين السببين جعلا المهاجرين يشعرون بأن الحال في مكة قد تغير، وأن محمدا ﷺ وأصحابه قد صاروا ذوي بأس وقوة، فحنوا إلى وطنهم ورغبوا في العودة إلى أهليهم وإخوانهم ليزيدوهم قوة إلى قوتهم..

والآن وقد تبين كذب هذه القصة وأنها من وضع الزنادقة ، وأن المستشرقين ومن إليهم من أمثال المشتبه أشبه ما يكونون بأصحاب

---

(١) سورة الكافرون .

سراب بقيعة يحسبونه ماء حتى إذا جاءوه لم يجدوه شيئا. أما المشتبه فلا أجد له من الأمثال إلا قول القائل: "تمخض الجمل فولد فأرا " .

تبقى الآيات التي ساقها أصحاب الغرانيق وساقها معهم المشتبه ، وهي قوله تعالى في سورة الحج : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [1] وقوله في سورة الإسراء : ﴿ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا * إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾[2] ، والآية الأولى وهي قوله: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ... ﴾ إلخ ليس المراد منها ما ذكره المشتبه من أن الشيطان يلقى في قراءة النبي ما يشاء فينسخه الله ثم يحكم آياته، وإنما المراد – والله أعلم – هو أنه ما من نبي ولا رسول إلا وله شياطين ، بعضهم من الإنس وبعضهم من الجن، ومهمة أولئك وهؤلاء زرع الشك والكفر في أقوام الرسل والأنبياء حتى يعارضوهم ويصدوا الناس عنهم، فيمحوا الله كيد هؤلاء الشياطين ويحكم آياته في أنفس هؤلاء المتشككين فيؤمنون بها ويعملون على الترغيب فيها.

وفي سورة الأنعام ما يؤيد هذا التفسير ويؤكده، قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾[3] ،

---

[1] الحج : ٥٢.

[2] الاسراء: ٧٤ ، ٧٥

[3] الانعام : ١١٢

وإذا فهذه الآية التي ساقها المشتبه ليست نصا في قصة الغرانيق كما يدعي، وقد جاء في التفسير الوسيط وغيره أن هذه الآية قد نزلت في طريق هجرة النبي ﷺ من مكة إلى المدينة، ومعنى هذا أنها لا صلة لها بقصة الغرانيق.. إذ لا يعقل أن يبرر القرآن وقوع هذه القصة بعد حدوثها بسنين [1].

تبقى آية الإسراء وهي قوله تعالى: ﴿ ولولا أن ثبتناك ...﴾ إلى آخره، وتفسيرها شئ وما أورده المشتبه فيها شئ آخر، فإن "لولا" كما يقول النحاة حرف امتناع لوجود، والمعنى على هذا الأساس – والله أعلم – .. لقد امتنع ارتكانك إلى المشركين لوجود تثبيتنا لك، إذ لو حدث منك ميل إليهم لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا . وقصة الغرانيق تدل على وقوع الفعل .. وهو جريان ما ألقى الشيطان على لسان النبي ﷺ وهو ما لم يتحقق ، وعليه فلا يمكن أن تكون هذه الآية والتي قبلها قد نزلت في قصة الغرانيق . وقد جاء في التفسير الوسيط وغيره أن نزولها قد كان من أجل ضغط قريش على النبي ﷺ أن يجعل للأغنياء مجلسا لا يقربه الفقراء، أو أن السبب هو أن وفد ثقيف طلبوا من النبي ﷺ أن يرجئ إسلامهم سنة حتى يستمتعوا بآلهتهم وما يقدم إليها من الهدايا، ويجعل أرضهم حراما كما هو الحال بالنسبة لمكة [2]

---

(1) كذا ، ١– في التفسير الوسيط ، مجمع البحوث الإسلامية ، مجلد ٦ ص ١٢٤٢ ، الطبعة الأولى،
٢– وانظر في هذا المقام عن الدخيل في قصة الغرانيق ، كتاب بعنوان " الدخيل بين الدراسة المنهجية والنماذج التطبيقية " د/ جمعة علي عبد القادر ص ٢٣٩ ، ط الأولى ، مطبعة رشوان .

(2) كذا في التفسير الوسيط مجمع البحوث الإسلامية – مجلد ٥ ص ٧٨٨.

وعلى هذا الأساس فلا يترتب على آيات النجم والإسراء والحج ما رتبه المشتبه من أن الرسول لم يكن أمينا لأقوال الله وكذب بآياته . فهل يستحق أن نطبق عليه القاعدة التي طبقها القرآن على بني إسرائيل .. فنقول له : " إن زعمت أنك رسول الله من دون الناس فتمن الموت إن كنت صادقا " ؟ ! اللهم لا .. ثم لا .. ثم لا ، فإن المشتبه قد بنى حكمه هذا على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين .

المطلب الثاني : حي أم ميت :

وتحت عنوان "حي أم ميت " ساق المشتبه سبع آيات منها قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ [1] وقوله سبحانه : ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ (٦٤) وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴾[2]

وقوله عز وجل: ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ﴾ [3].

وعقب في سفاهة قائلا: (في كل ما مر بنا يؤكد لنا الله ــ جل وعلا ــ في عدة سور أنه قد أغرق فرعون وجنوده جميعا، ولكنه لمزيد الحزن والكمد نراه ــ سبحانه وتعالى ــ يعود فيكذب نفسه بنفسه على طول الخط، وينقض ما قاله بقول مختلف تماما فيقول: ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ [4].

فقل لي بالله عليك رعاك الله وأبقاك .. أي القصتين نصدق؟ إغراق الله فرعون وقومه جميعا.. أم إنقاذ الله له وحده من الغرق؟ ! وأي

---

(1) البقرة : ٥٠.

(2) الشعراء : ٦٣ ــ ٦٦.

(3) الزخرف : ٥٥ ــ ٥٦.

(4) يونس : ٩٠ ــ ٩٢.

القصتين هو الوحي الحقيقي.. وأيهما هي وحى الشيطان لنبينا محمد ﷺ ضمن ما كان يلقيه إليه حتى أثناء تلقيه الوحي من جبريل ؟

والجواب:

إن فهم المشتبه السقيم لهذه الآيات هو الذي من وحى الشيطان؛ فإن الآيات التي ذكرها بما فيها آية يونس تقرر أن موسى وقومه قد جاوزوا البحر سالمين، وأن فرعون وجنده قد غرقوا أجمعين، لكن فرعون لما أطبق عليه البحر وأنشب الغرق أظفاره فيه وأصبح قاب قوسين أو أدنى من فراق هذه الحياة هتف قائلا : آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين . ولأن هذا الإيمان لم تعد له قيمة لأنه حدث وهو يعاني سكرات الموت، فإن الله تعالى أراد أن يجعله عظة وعبرة .. فأمر البحر فلفظ جثته على الشاطئ بعد أن فاضت روحه غرقا ، كما فاضت أرواح جنده ، وانطوى البحر على أسلحتهم وأجسامهم. فكان إلقاء البحر جثة فرعون وحدها دون جثث جنده آية للسالفين والآخرين.

وقد اختلف المؤرخون في فرعون موسى أهو رمسيس أو منفتاح .. وجثتا هذين الفرعونين باقيتان حتى الآن .

فليت شعري.. هل فهم المشتبه أن الآيات التي ساقها في شأن عبور موسى وقومه البحر وغرق فرعون وجنده فيه، ولفظ البحر لجثة فرعون وحده ، إنما تصور قصة واحدة لا قصتين، وأن الذي نجا من فرعون هو الجسم وحده بعد أن مات غرقا، وليس الجسم والروح معا، وأن الآيات التي ساقها بما فيها آية يونس من وحى الرحمن، وأن تعقيبه النزق هو الذي من وحى الشيطان؟ ! !

المطلب الثالث : متى كان الذبح :

وتحت عنوان: " متى كان الذبح" ساق المشتبه آيات من القـرآن الكريم منها قوله تعالى في سورة القصص: ﴿ نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ [١]

ومنها قوله سبحانه ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾[٢]

وأردف يقول في حماقة كما هي عادته: " مما تقدم يؤكد لنا الوحى القرآني أن قتل الذكور واستحياء الإناث كان معمولا به قبل أن يولد موسى .. بينما في مكان آخر من القرآن ذاته يؤكد لنا الوحى أن قتل الذكور واستحياء الإناث حدث بعد ذهاب موسى من قبل الله إلى فرعون ومرتبط به .. فقد جاء في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٢٣) إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾[٣] ، و يقول: ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ

---

(١) القصص : ٣ ـــ ٦.

(٢) البقرة : ٤٩.

(٣) غافر : ٢٣ ـــ ٢٥.

قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾[1] .

فما رأيك في هذا التناقض المعيب المخزي يا من تجيبني ؟

وجوابه هو :

إن بني إسرائيل لما كثروا في مصر خافهم فراعينها وتوقعوا منهم ما هم له أهل من البغي والغدر والتطلع إلى السلطان والحكم، وظهر هذا الخوف على أحد هؤلاء الفراعنة في صورة أحلام مزعجة ورؤى مخيفة، فقص ذلك على الكهنة ـ وهم يومئذ أولو العلم والمعرفة ـ فتأولوا هذه الرؤى على أن رجلا من بني إسرائيل سيغتصب ملك هذا الفرعون ويستل عرشه، وأشاروا عليه أن يذبح منهم الذكور ويبقى على النساء ليقمن بالخدمة في القصور والمنازل، وعلى الفور نفذ هذا الفرعون ما أشير عليه به، فكانت إذا وضعت إحدى نساء بني إسرائيل مولودا ذكرا أبلغت القوابل عنه فقتل على الفور.. ومضى على ذلك زمانا، ثم خشى الملأ من قوم فرعون أن يقضى على الذكور من هذا الشعب، وقد كانوا يقومون بأعمال السخرة في البناء والنحت وغيرهما فتتوقف هذه المصالح، فأشاروا على فرعون أن يكون القتل عاما والعفو عاما، فلما كان ما كان من موسى وامرأة فرعون الذي لم يقبل العفو عن موسى وحسب وإنما قبل أن يتخذه ولدا .. أخذت فكرة الذبح تتمحي شيئا فشيئا حتى كف عنه الفراعنة تماما، وبقى الحال على ذلك حتى بعث الله موسى وأخاه هارون إلى فرعون وطلبا منه السماح لهما بالخروج من مصر

---

(1) الأعراف : ١٢٧.

ومعهما بنو إسرائيل .. هنا عاد الخوف يهدد فرعون ويحذره من موسى وقومه ويؤكد له أنه سيكون له معه يوم عظيم، وعرض فرعون على الملأ من قومه هذا الشعور فظاهروه عليه ووافقوه فيه وقالوا له :

﴿ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ﴾[1] وأجاب فرعون ﴿ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾[2] ، وبلغ هذا القرار بني إسرائيل فاصطكت أسنانهم وارتعدت مفاصلهم ، ورأى موسى منهم ذلك، وخشى أن ينصرفوا عنه وينأوا عن دينه فقال لهم مهدئا ومطمئنا : ﴿ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[3] . لكنهم لم يطمئنوا إلى هذا النصح وهذا الوعد كليهما منه، فقالوا له: ﴿ أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [4]

وواضح من هذه الإلماحة التاريخية أن الذبح الذي كان من الفراعنة لبني إسرائيل قد مر عبر مراحل أربع: كان عاما ودائما في كل مولود ذكر، ثم خفف فطبق عاما وترك عاما، ثم ألغى تماما بعد تبني فرعون وامرأته لموسى ، ثم عاد ليطبق على من أطاع موسى من بني إسرائيل دون من عصاه من قارون وأمثاله الذين آووا إلى فرعون وانضووا تحت لوائه .

---

[1] الأعراف : ١٢٧.

[2] الأعراف : ١٢٧.

[3] الأعراف : ١٢٨.

[4] الأعراف : ١٢٩.

فأين التناقض المعيب المخزي الذي يزعمه الرجل؟ ! إذا كان ثمة تناقض ــ كما يدعي ــ فهو في جهله وضحالة معرفته وإنكاره من ثوابت التاريخ وحقائقه ما يعرفه الطلاب في المراحل الجامعية وما دونها [١].

* * *

[١] راجع في ذلك كتاب : " الرد على كتاب أخطاء إلهية في القرآن الكريم" مجمع البحوث الإسلامية ص ٣٢ ــ مطبعة دار السعادة

ملاحظة : هذا الكتاب الذي نقلت منه هذه الشبه الثلاث كان ردا على من صوب هــذه الأخطــاء وغيرها للقرآن الكريم ، دون أن يذكر اسمه ، تولى مجمع البحوث الرد على ما جاء في هذا الكتاب .

المبحث الخامس والعشرون
ما جاء في القرآن من شبه حول
يوسف عليه السلام وتفضيل بعض الأنبياء على بعض

الشبهة الأولى : حكاية يوسف :

وتحت عنوان "حكاية يوسف" قال المشتبه: (جاء في "سورة يوسف قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ..... وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ .... وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا...... ﴾ [1]

وعقب في سفاهة ــ كما هي العادة ــ فقال المشتبه استمع إلى هذا العجب العجاب بعد أن أقر القرآن بأنهما همّا ببعضهما.. وأنت تعلم ما معنى أن يهم رجل بامرأة وتهم هي به، وماذا تكون النتيجة الحتمية من وراء ذلك .. !! نرى القرآن يتراجع عن هذا الرأى وعاد يصحح هذا الخطأ المريب.. فاستمع يا من تجيبني إلى ما جاء بنفس سورة يوسف قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ* قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾ ،

﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ ،

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ

---

[1] يوسف : الآيات : ٢١ ــ ٢٤.

نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾[1].

فبماذا تفتي لنا في هذا التناقض العجيب المذهل يا من تجيبني ..
كيف يقول الوحى بأنهما هما ببعضهما وكان هو ميالا لها حيث إنه قد هم بها.. ثم يقر الوحى أنه كان من البداية وحتى النهاية مستعصما خائفا لله كاعتراف امرأة العزيز وصديقاتها؟!

والجواب:

إن الرجل المشتبه لو كان له حظ ـ ولو قليل ـ من معرفة العربية وعلومها ما أثار هذه الشبهة التي هي كمضغ الماء، فإن القرآن قد ذكر في بداية هذه القصة أن امرأة العزيز قد شغفها حب يوسف حتى شغلها عن كل شئ إلا تلبية دواعي الجنس ونوازع الشهوة، فراودته عن نفسه، أي أرادته، وغلقت الأبواب، ودعته إلى المتع حيث لا تراهما عين ولا يطلع على حالهما رقيب، ورفض يوسف تلبية رغبة امرأة العزيز واعتبرها خيانة لسيده واعتداء على حقه الذي لا ينبغي أن يشاركه فيه أحد... ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ والظلم هنا معناه غمط حق الغير والاعتداء عليه، وكبر على امرأة العزيز وهي الملكة المطاعة أن يأبى عبدها أن يجيبها إلى ما تريده منه، ولمست من أعماق فؤادها أنه يطعنها في أغلى شئ عندها وأعزه وهو حسنها وجمالها، وأرادت أن تنال ما تصبو إليه منه مهما كان الثمن، فأقبلت عليه وألقت بنفسها بين ذراعيه، ولولا حفظ الله له وإيثاره لطهارته لبادلها هما بهم، لكنه دفعها عنه وأسرع لدى الباب ملتمسا النجاة من هذا الخطر

---

[1] سورة يوسف : الآيات ٣١ ، ٣٢ ، ٥١، ٢٣

الذي تأباه عليه عبوديته لربه وإخلاصه له، ومعنى هذا أن يوسف قد رفض إجابة امرأة العزيز إلى ما كانت تريده منه وكان سلبيا معها مرتين.. أولاهما: قبل همها به ، والثانية : بعده. وهذا ما قررته امرأة العزيز مرتين .. الأولى : أمام النسوة اللاتي دعتهن إلى بيتها، والثانية : أمام الملك عندما دعاها هي وصواحبها اللاتي شهدن مائدتها وخاطبهن قائلا: ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾" [١].

وواضح من الآيات التي ساقها الرجل في هذه القصة أن مراودة امرأة العزيز ليوسف قد كانت من جانب واحد — وهو جانبها هي — وإذا فهي على غير بابها مثلها مثل المماطلة والمداولة . وواضح منها كذلك أن " لولا" في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ حرف امتناع لوجود، ومعنى هذا أن الهم قد كان من جانب امرأة العزيز وحدها، أما يوسف فإنه لم يهم بها أصلا، ومعنى الآية: ولقد همت به ولولا أنه رأى برهان ربه لهم بها، أضف إلى هاتين الحقيقتين حقيقة ثالثة وهي: أن يوسف قد كان سلبيا تماما مع امرأة العزيز فقد رفض الانصياع لها مرتين ، إحداهما قبل همها به، والثانية بعده..

فليت شعري.. ألا يزال الرجل على رأيه في تناقض القرآن في عرضه لهذه القصة؟ أم أن فكره الساذج وضحالة معرفته بلغة العرب هو

---

[١] يوسف : ٥١ — ٥٢ .

الذي جعله يسقط في هذه الشبهة بل في هذه الهوة التي لا قرار لها سوى الدرك الأسفل من النار وبئس المصير؟!! [1].

الشبهة الثانية: تفضيل أم لا:

وتحت عنوان " تفضيل أم لا " ساق المشتبه قوله تعالى: ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا ﴾.. إلى قوله تعالى: ﴿ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ .. إلى قوله تعالى: ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾[2]

وأردف يقول: (وبجانب هذا الإيضاح والإقرار الإلهي على أنه ــ جل شأنه ــ لا يفرق بين الأنبياء والرسل .. ويأمر نبينا محمدا وتابعيه أن يؤمنوا بهذا الحق الواضح الصريح.. نراه ــ سبحانه وتعالى ــ يتراجع عن هذا التشريع العادل .. ويقر بما يخالف هذا على طول الخط وينقضه نقضا معيبا فيقول: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾[3] ويقول:﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا(٥٤) وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴾ [4].

ويعلق على هاتين الآيتين فيقول في حق كل من الإسلام والنبي ﷺ من

---

[1] راجع في هذا المقام ما جاء من دخيل في قصة يوسف عليه السلام من كتاب : الدخيل بين الدراسة المنهجية والنماذج التطبيقية د/ جمعة علي عبد القادر ص ٢٢٣ ط : الأولى .

[2] البقرة : ١٣٦ و ٢٨٥ .

[3] البقرة : ٢٥٣.

[4] الإسراء : ٥٥.

النيل والإساءة ما يتفق وما جبل عليه من قلة الفهم وسوء الخلق وشدة الحقد والكمد مشنعا كما هي عادته ، وما لاحظه من التناقض الشائن والتضاد العجيب في القرآن الكريم.

والجواب هو:

إن التناقض في عقله السقيم وليس في القرآن العظيم، فإن عدم التفريق بين الرسل إنما هو في الإيمان، وأن تفاضلهم وارتفاع بعضهم على بعض إنما هو بحسب ما ألقى الله الذي أرسلهم على عواتقهم من المهام .. فأولو العزم من الرسل ليسوا كغيرهم ممن لا يخلع عليهم هذا الوصف، ومن أرسل إلى قومه خاصة ليس كمن أرسل إلى الناس كافة، وإذا كنا نحن نراعي هذا في الوظائف الدنيوية فلا نسوي في القدر والمنزلة بين القائد الكبير والضابط الصغير فإن الله مع رسله في ذلك أولى، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾[١]، ويقول عز من قائل: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ... ﴾[٢] ، ففي الآية الأولى حث على عدم التفريق بين الرسل في الإيمان، وفي الثانية بيان لتفاضلهم في القدر وتفاوتهم في المنزلة والمكانة تبعا للمهام التي يحملونها والأعباء التي ينهضون بها.

---

[١] النساء : ١٥٠ ، ١٥١.

[٢] البقرة : ٢٥٣.

فأين التناقض الفاضح.. وأين التعارض المشين ؟ !!! وأين التراجع المخجل من الله الذي لا يتجرأ على القول به إلا الملحدون.. ألا يخجل الرجل من نفسه ؟ ! .. ألا يحس أنه قد ظلم نفسه وهو يطلق لها العنان لتقول ما تشتهي من غير فكر ولا روية؟

أفإن سوى الله تعالى بين رسله في وجوب الإيمان بهم وفاضل بينهم تبعا للمهام التي ألقاها على عواتقهم يكون متناقضا تناقضا قبيحا.. ألا يقوم هذا دليلا ساطعا وحجة قاطعة على جهل قائله وضآلة عقله وسوء نظره وفكره ؟ !. والله يقول فيه وفي أمثاله: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ " [1]

---

[1] الأعراف : ١٧٩ ــ انظر هاتين الشبهتين في كتاب " الرد على كتاب أخطاء إلهية في القرآن الكريم " ص ٦٣.

المبحث السادس والعشرون

دفع ما اشتُبِه به على القرآن حول النبي والإسلام

وفيه أربعة مطالب

المطلب الاول : لمن جاء ياترى.

المطلب الثاني :الرسول نذير بغير نبوة ولامعجزة .

المطلب الثالث :حرية أم إكراه .

المطلب الرابع : سلام أم لا سلام .

المطلب الأول

الشبهة الأولى : لمن جاء يا ترى :

وتحت عنوان "لمن جاء يا ترى" ساق المشتبه على القرآن آيات منها قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾[١]، وقوله سبحانه: ﴿ وكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾[٢] وآيات أخرى منها قوله سبحانه: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [٣] وقوله عز وجل : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ [٤] وقوله: ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ﴾ [٥].

---

[١] إبراهيم : ٤.

[٢] الشورى : ٧.

[٣] الفرقان : ١.

[٤] الشعراء : ١٩٨ ، ١٩٩.

[٥] سبأ : ٢٨.

وقوله: ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾[1]

وقال: إن الآيات الأولى تقرر أن محمدا ﷺ قد أرسل إلى العرب وحدهم ، وهذا هو الحق الذي يشهد له القرآن نفسه في قوله: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ ﴾ [2] وقوله: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ [3] وعلى العكس من ذلك تماما ما تقرره الآيات الثانية، وهو أن محمدا ﷺ قد أرسل إلى الناس كافة بل إلى الإنس والجن جميعا، فإن القرآن حتى الآن لم يترجم إلى اللغات العالمية قاطبة. فكيف يُدعى إلى الإيمان به من لم يترجم إلى لغتهم، وحتى الشعوب الإسلامية غير العربية فإنها قد أرغمت على الإيمان به من غير فهم له بقوة السيف الذي نشر به الإسلام أصحاب محمد الأولون ؟ .

<u>والجواب هو:</u>

إن الرجل المشتبه فاته أن رسالات الله تعالى إلى البشر نوعان: خاصة وعامة، وأن رسائل الرسل جميعا ما خلا محمدا ﷺ من النوع الأول، وفيهم يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾،[4] وأن رسالة محمد ﷺ وحدها من النوع الثاني وفيها يقول الله عز وجل: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [5]

---

[1] آل عمران : ٨٥.

[2] الروم : ٢٢.

[3] الشورى : ٨.

[4] إبراهيم : ٤

[5] سبأ : ٢٨

ويقول: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ [1] ، وقد أوضح النبي ﷺ هذا الفرق بينه وبين غيره من الرسل فقال: " كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة" [2].

فإن قال المشتبه : فكيف تفسر قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [3] فإن هذه الآية صريحة في أن محمدا ﷺ قد أرسل إلى جماعة بعينها وهي أهل مكة وما حولها من القرى ؟

فالجواب:

إن هذه الآية خالية تماما من أدوات القصر التي يستعملها العرب إذا أرادوا حصر موصوف في صفة، أو صفة في موصوف... فهل قال الله تعالى: لتنذر أم القرى ومن حولها دون غيرها .. أو وحدهما.. أو دون ما سواهما ؟ وحيث إن شيئا من ذلك لم يكن فمن أين جاء القصر يا ترى؟ إلا أن يكون من الجهل الفاضح والسطحية التي لا حد لها بالعربية وأساليبها !!

وإن تعجب فعجب ما كتبه المشتبه من قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾[4] وهو أن الله تعالى لو نزل القرآن على بعض الأعاجم ما آمنوا به لأنهم لا يفهمونه، وهذا هو الجهل بعينه، والصواب الذي لا مندوحة عنه هو أن

---

(١) الأنبياء : ١٠٧.

(٢) هذا الحديث مروي عن جابر ، كما جاء في الصحيحين ، كذا في تفسير ابن كثير ج٣ ص ٥٣٩.

(٣) الشورى : ٧.

(٤) الشعراء : ١٩٨ ، ١٩٩.

الله تعالى لو نزل هذا القرآن المعجز في فصاحته وبلاغته على رجل من الأعاجم فقرأه على أهل مكة كما يقرأونه ما آمنوا به رغم الإعجاز الواضح في القراءة والمقروء معا..

وأشد ضعفا من فهم المشتبه لهذه الآية ما فهمه من قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [1]وهو أن الله تعالى لم يرسل رسولا إلى الناس كافة لأنه لم يشأ أن يكون البشر كلهم أمة واحدة فتؤمن به وتذعن لتعاليمه !! ولست أدري ولا المنجم يدري .. كيف يلزم من إرسال الرسول ــ حتى ولو كانت رسالته خاصة ــ أن يؤمن به قومه كافة حتى يلزم من عموم رسالة محمد ﷺ أن يكون الناس جميعا أمة واحدة تذعن له وتنقاد لدينه ؟

يبقى سؤال قد يجوس خلال بال المشتبه ، وهو: لماذا أنزل الله القرآن عربيا ؟ ؟ !

<u>وجوابه:</u>

لأن محمدا ﷺ عربي، وقومه الأدنون منه عرب، ولابد لقيام أية دعوة من أن تؤمن بها جماعة ثم تتولى نقلها إلى غيرها ونشرها في سواها، ولهذا كان إقناع العرب بالإسلام وكتابه لابد وأن يتم أولا، ثم يكون الإبلاغ والنشر في غيرهم بعد ذلك، وهذا هو ما كان .. فقد أعلن محمد ﷺ أنه مرسل من ربه وأن برهانه على صدقه هو القرآن ، وهو يتحداهم أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله أو بسورة واحدة من سوره الطوال أو القصار، وأمام عجزهم ــ وهم أمراء الفصاحة وفرسان

---

[1] الشورى : ٨.

البلاغة ــ تأكدوا أنه من عند الله فانقادوا للنبي ﷺ ودخلوا في دينه، وعملوا على نشر هذا الدين في غيرهم من الأمم والشعوب.

وقد كذب الرجل فيما يدعيه من أن الله تعالى قد شرع الإسلام للعرب وحدهم، ثم رجع عن هذا التشريع إلى تشريع آخر وهو أن الإسلام للعالمين كافة.. وقد شاء الله أن يفضح جهله.. لأن الآيتين اللتين استدل بهما على هذا العدول وهما قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾[1] ، وقوله: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[2]، مكيتان " أي نزلتا في مكة قبل أن يكون للإسلام قوة أو دولة".. ومعنى هذا أن الله تعالى أمر محمدا ﷺ أن ينذر أم القرى ومن حولها في الوقت نفسه الذي أعلن فيه أنه أرسله إلى الناس كافة بشيرا ونذيرا. وإذا فليس ثمة تشريعان كما يدعي المشتبه ، بل تشريع واحد !! .

وأعود إلى الرجل وأسأله : إذا كان كل نبي قد أرسل بلسان قومه ولغتهم وأن هذا هو الحق الذي لا معدل عنه كما يدعي لوجب على المسيحيين في الشرق والغرب ما خلا بني إسرائيل الارتداد عن المسيحية فورا؛ لأن موسى وعيسى وما بينهما من أبناء يعقوب قد أرسلوا إلى بني إسرائيل وبلسانهم العبري، ولم يرسلوا إلى غيرهم ... فكيف إذا يدخل الأمريكيون والأوروبيون والقبط وغيرهم في المسيحية وهي لم تشرع لهم لأنهم ليسوا من بني إسرائيل لا جنسا ولا لغة ؟ ! . فإن قال: إن هذه

---

(1) الفرقان : ١.

(2) سبأ : ٢٨.

الديانة عامة وتشمل بني إسرائيل وغيرهم، قلت : كيف.. وقد قــرر مــن قبل أنه ما أرسل رسول إلا بلسان قومه، وأن هذا هو الحــق والعــدل.. أليس هذا تناقضا شائنا واضطرابا عجيبا ؟ ! ألا يستحي الرجل من جهلــه وسوء نيته ؟ ! .

المطلب الثاني

الشبهة الثانية: الرسول نذير بغير نبوة ولا معجزة :

وتحت عنوان : " الرسول نذير بغيــر نبــوة ولا معجــزة" ســاق المشتبه آيات كثيرة جاء فيها أن المشركين طلبوا من النبي ﷺ أن يسير فيهم سيرة الأنبياء الذين سبقوه فيجيبهم إلــى مــا يطلبونــه منــه مــن المعجزات التي تؤيد ما يدعيه من أنه مرسل إليهم من قبــل الله تعــالى، وأنهم على استعداد تام للانقياد له والدخول في دينه إذا هو أجابهم إلى ما يريدونه منه. ومن الآيات التي ساقها في هذا المجال قولــه تعــالى فــي سورة الإسراء : ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًــا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ ﴾[1] ، وقوله سبحانه : ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦) لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧) مَــا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ ﴾ [2]

---

(١) الإسراء : ٩٠ ــ ٩٣.

(٢) الحجر : ٦ ــ ٨ .

وقوله عز وجل: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١) وقوله ــ تباركت أسماؤه ــ : ﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ .... ﴾(٢) إلى آخره. وبدلا من أن يجيب النبي ﷺ قومه إلى ما أرادوه منه راح يسوق عددا من التعلات ، منها : أنه بشر لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعا ولا ضرا، ومنها أنه نذير والله على كل شئ وكيل، ومنها أنه إذا أجابهم إلى ما يريدونه منه لا يؤمنون به، وحينئذ ينزل عليهم من العذاب ما نزل بأمثالهم ممن كذبوا رسلهم وعصوا أنبياءهم وهو لا يريد استئصالهم وإراحة الأرض منهم لأنه ﷺ لا يزال طامعا في إيمانهم راغبا في هدايتهم ... إلى غير ذلك من التعلات التي لا تنتهي إلا إلى حقيقة واحدة وهي أن النبي ﷺ قد عجز عن الإتيان بمعجزة تثبت ما يدعيه من أنه أحد الرسل الذين بعثهم الله تعالى إلى الناس، وإنما هو نذير لم يرق بعد إلى هذا المقام الكبير.

وقد عقب الرجل المشتبه على هذا الهراء ــ كما هي عادته ــ بما يفضح غيظه ويظهر لؤمه وحقده، فقال بعد كلام هزيل: (فمن جميع ما مر بنا يتأكد لنا تأكيدا قاطعا منيعا.. أن رسولنا المصطفى أشرف المرسلين وخاتم النبيين قد جاء بشيرا نذيرا مبينا لا أكثر ولا أقل ... ولا يملك شيئا مما كان يملكه الأنبياء الذين قبله من سلطة على التنبؤ بأمور ستحدث في

---

(١) الأنعام : ١٠٩.

(٢) الأنعام : ٥٠.

المستقبل.. ثم حدثت فعلا في الوقت المعين لها من الله تعالى، كما أنه لا يقوى على عمل المعجزات ولم يفعل معجزة واحدة .. فقل لي بالله عليك يا من تجيبني ما هو رأيك بمنتهى الصراحة وحكم الضمير الحي في هؤلاء الذين يسمون أنفسهم علماء ويؤلفون ملايين الكتب التي ينسبون فيها المعجزات الباهرات للرسول الكريم دون أن يصنع واحدة منها طبقا لما أقره القرآن الكريم نفسه كما مر بنا ؟! هل يستخف هؤلاء العلماء بعقول القراء من المسلمين البسطاء الذين وجدوا في الإسلام بالوراثة لتحميلهم ذنوبا لا قبل لهم بعذابها الرهيب في أبدية لا نهاية لها .. !! ألا ترى معي أن الحقيقة هي أن هؤلاء العلماء لا يؤمنون في قرارة نفوسهم بصدق القرآن ولا صحة الإسلام .. والمسألة برمتها ما هي إلا السعي للحصول بأقل مجهود على هذه المراكز المرموقة والشهرة الذائعة والرزق الواسع وحياة الرفاهية الميسورة مع تعظيم السواد الأعظم من عديمي المعرفة لهم ؟) .

والجواب:

إن المعجزة هي الدليل القاطع على صدق الرسل وأنهم مبلغون عن المولى – عز وجل – وأنه ما من رسول إلا وتحداه قومه وكذبوه، فكانت المعجزة هي الحجة التي تخرس ألسنتهم وتفضح كذبهم، وتؤكد أن أصحابها هم رسل الله تعالى حقا وصدقا، ولأن الرسل الذين بعثهم الله تعالى قبل محمد ﷺ كانت رسالاتهم خاصة ومقصورة على أقوامهم فإن الله تعالى جعل معجزة كل منهم مؤقتة تعيش ما عاش وتموت إذا مات، وذلك كانقلاب عصا موسى حية، وإبراء عيسى للأكمه والأبرص... إلخ ، فإن أحدا من اليهود والمسيحيين لا يستطيع إثبات أية معجزة من هذه

المعجزات أمام من يخالفه، لموت نبيها من جهة وعدم إثبات صحة الكتاب الذي نزل عليه من جهة ثانية، وعلى العكس من ذلك معجزات محمد ﷺ فإن الله تعالى أيده منها بمثل ما أيد به الرسل السابقين عليه، وذلك مثل انشقاق القمر ، وحنين الجذع، وتسبيح الحصى بين أصابعه، وإخبار ذراع الشاة المشوية له بأنها مسمومة ... إلى آخره، ولأن هذا النوع من المعجزات مؤقت ولا سبيل إلى إثباته بالنسبة للمخالف الذي لا يؤمن إلا بما هو موجود ومحسوس ، ولأن رسالة محمد ﷺ ليست خاصة مثل رسالات من قبله من الرسل، وإنما هي رسالة عامة تدوم ما دامت السموات والأرض وتنتظم العرب والعجم والإنس والجن كافة، فإن الله تعالى قد خصه دون غيره بمعجزة دائمة تتحدى الثقلين في كل زمان ومكان، وهي القرآن العظيم، وليقرأ المشتبه إذا شاء قوله تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[1] ، وقوله سبحانه: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾[2]، وقوله عز من قائل: ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾[3].

وواضح من هذه الآيات الثلاث أن الله تعالى تحدى الثقلين كافة والعرب منهم خاصة ــ وهم أمراء البلاغة وفرسان الفصاحة ــ أن يأتوا بمثل القرآن فعجزوا فتحداهم أن يأتوا بعشر سور من مثل سوره فذلوا

---

(1) الإسراء : ٨٨.

(2) هود : ١٣.

(3) البقرة : ٢٣.

وقُهروا فتحداهم أن يأتوا بسورة واحدة من مثل سوره الطوال أو القصار فأحنوا الرءوس وطأطأوا الهامات، وأعلنوا أن أسفله لمغدق وأن أعلاه لمثمر وأنه يعلو ولا يعلى عليه – وما هو بقول بشر – فأية معجزة يريدها الرجل بعد هذه المعجزة الخالدة ؟ .. وأي دليل أقوى وأبقى على صدق محمد ﷺ في دعوى الرسالة والنبوة من هذا الدليل ؟ !

ألا يخجل من نفسه وهو يدعي كذبا أن محمدا ﷺ قد طلب منه قومه أن يأتيهم بمعجزة تدل على أنه قد أعطى النبوة والرسالة فلم يستطع إلى ذلك سبيلا ؟ !

وننتقل إلى الآيات التي ساقها المشتبه وقدم لها وعقب عليها بما سمح له به أدبه الجم من الهراء الذي لا يؤيد حقا ولا يواجه باطلا، ونقول: أي حاجة إلى مطالبة النبي ﷺ بمعجزات تدل على صدقه ومعجزته الدائمة – وهي القرآن – لا تزال تتحداهم وتدمغ عقولهم وألسنتهم بالوهن والقصور؟! وإلى هذا المعنى يشير الله – عز وجل – في قوله : ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ [1] والمعنى أن المشركين يريدون من النبي ﷺ آية من ربه تؤيده وتدعم ادعاءه أنه مرسل من الله سبحانه ، ألا يكفيهم القرآن الذي بين لهم ما في الصحف الأولى من أخبار الرسل وأنباء الأنبياء ، ثم ما الدليل على أن النبي ﷺ إذا أجابهم إلى ما أرادوه منه أن ينقادوا له ويدخلوا في دينه ، والقرآن شاهد حق على أنهم لا يزالون على الكفر والعناد؟ فالواقع إذا يكذبهم ويدحض هذا الادعاء منهم.

---

(1) طه : ١٣٣.

وهب أنه سبحانه أجابهم إلى ما أرادوا فأنزل عليهم الملائكة في صورهم الحقيقية ، أيمكن أن تتحمل طبائعهم رؤيتها؟! إن الملائكة لو واجهوهم لم يلبثوا على ظهر هذه الأرض ولا لحظة واحدة ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ (٨) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ [١] والمعنى أن الهوة واسعة بين طبيعة البشر وطبيعة الملك، وأن الأولى لا تصمد لمواجهة الثانية، فلو أنزل الله ملكا في صورته الحقيقية لهلك الناس الذين أنزل إليهم فورا من غير انتظار، ولا سبيل إلى بقائهم على قيد الحياة إلا إذا نزل الملك في صورة رجل، فلو أجاب الله المشركين إلى هذا الطلب لما بقي منهم أحد، فتذهب الحكمة في إرسال محمد ﷺ وجعل رسالته عامة ودائمة للعرب والعجم والإنس والجن على السواء، ولو أنزله الله في صورة رجل لكذبوه، وأنكروا ملائكته وحينئذ لا يكون ثمة فرق بين إنزاله في صورة بشر وإرسال رسول من بني آدم بادئ ذي بدء.

ومن الآيات التي أوردها في الاستدلال على نفي الرسالة والنبوة عن محمد ﷺ قوله تعالى : ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ إلى آخره [٢] وقد نزل مثلها تماما في حق نبي الله نوح، وهي الآية الحادية والثلاثون من سورة هود، فإذا نفت الآية الأولى النبوة عن محمد ﷺ لأنه ليست لديه خزائن الله ولا يعلم الغيب ولا يقول إنه ملك فإن الآية الثانية تنفيها عن نوح أيضا، وما أظن أن

---

(١) الأنعام : ٨ ، ٩.

(٢) الأنعام : ٥٠.

الرجل يقول هذا في حق نوح، لأنه لا يعاديه ولا يتلمس التهم والافتراءات لتكذيبه وصرف الناس عن دينه، وإذا تبين أن المشركين لم يكونوا جادين في طلب ما أرادوه من النبي ﷺ من الآيات وأنها سوف لا تدفعهم إلى الإيمان مثلها في هذا مثل القرآن ، وأن بعض ما طلبوه يستلزم الفناء والاستئصال ثبت أن إعراض النبي ﷺ عنهم وعدم إجابتهم إلى مطالبهم هو الحق الذي لا جدال فيه ولا معدل عنه إلى غيره ...

أما نبوة محمد ﷺ ورسالته فبرهانها القرآن الذي كان – وما زال – يتحدى المتشككين والمرتابين .

وأقول للمشتبه المنصف الذي يمجد المسيحية واليهودية ولا يفتأ يثني عليهما ما واتته الفرصة : إن القرآن وحده هو الذي يثبت معجزات موسى وعيسى وغيرهما من الرسل، ولولاه لعجز أصحاب هذه الملل أن يثبتوا شيئا منها، بل إنهم لعاجزون عن أن يثبتوا وجود المسيح نفسه فضلا عن آياته ومعجزاته لانقطاع الأسانيد وانعدام الوثائق ، وما طرأ على أسفار العهدين القديم والجديد من التحريف والتغيير، ثم إننا لا نسلم أن محمدا ﷺ لم يتنبأ بالمغيبات ولم تكن له منها نبوءة واحدة كما يزعم المشتبه ، فقد جاء في سورة الروم قوله تعالى: ﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴾[1] فقد أثبتت هذه الآيات أن الصراع الذي كان بين الفرس والروم ستميل كفته إلى الروم بعد هزيمتهم المشاهدة، وسينتصرون على أعدائهم انتصارا حاسما في بضع سنين بعد

---

[1] الروم : ٢ ـ ٤.

نزول هذه الآيات، وقد تم ذلك فعلا، أليست هذه نبوءة غيبية لا يوازيها التنبؤ بما كان يجري في بيوت بعض بني إسرائيل من الأكل والشرب وما يدخرونه فيها من أشياء ؟ !!

والآن وقد تبين أن النبي ﷺ أقام المعجزة الدائمة على صدق رسالته ونبوته، وأن هذه المعجزة هي التي تثبت معجزات الأنبياء والرسل السابقين، وأن السبب في أن النبي ﷺ لم يجب المشركين إلى الآيات التي أرادوها منه هو عدم الجدية في طلبها، وتوقع عدم الإيمان بها ، وأن بعضهم ينزل عليه عذاب الاستئصال حتما فضلا عن أنه لا ضرورة لها، وأن بعض الأنبياء قد رددوا ما ردده محمد ﷺ وأن المشتبه قد اعترف بأنه ﷺ بشير ونذير ومبين ، وهذه هي وظائف النبي التي ليس له سواها، ولا يمكن تحقق النبوة بدونها.

ترى هل كف المشتبه عن ادعائه وأنصف في قضائه ولم يبق لديه شك في أن القرآن يغلب ولا يغلب ويقهر ولا يقهر؟ ! أم ما يزال يساوره الشك فيه ويطمعه الهوى في النيل منه والافتئات عليه ؟ !

وقد كان المظنون أن يقف هو وأمثاله إلى جانب القرآن العظيم يؤيدونه ويتصدون لأعدائه، لأنه وحده هو الذي يثبت نبوة موسى وعيسى وغيرهما من أنبياء بني إسرائيل، ويسجل الآيات التي أتوا بها برهانا على أنهم رسل الله تعالى وأنبياؤه حقا وصدقا أمام العلمانيين والوجوديين والشيوعيين وغيرهم من الطوائف الضالة والجماعات المنحرفة ، لأن القرآن العظيم هو وحده الكتاب القطعي الثبوت والنزول من قبل المولى سبحانه، والذي لم يشُبه ولن يشوبه ما شاب الكتب السابقة عليه من التحريف والتغيير والحذف والزيادة، ولكن الرجل وأمثاله من التعصب

والانحياز بحيث يريدون أن يطفئوا النور الذي يضــئ لهــم ، ويجحــدوا الحجة التي تثبت نبوة أنبيائهم والتي لولاها لا يستطيعون أن يقنعوا غيــر المسلمين أن لهم أنبياء وأنهم قد أيدوا من الله تعالى بآيــات ومعجــزات تشهد لهم وتهتف بصدقهم وكذب أعدائهم. وفي غباء هذا المشتبه وأمثاله يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ [1]

---

[1] الأنفال : ٢٢ ، ٢٣.

المطلب الثالث:

الشبهة الثالثة : حرية أم إكراه :

وتحت عنوان "حرية أم إكراه" ساق المشتبه آيات تقرر أن الناس أحرارا في عقائدهم لا يكرهون على دين ولا يرغمون على ملة أو نحلة ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ " سورة البقرة ، آية : ٢٥٦" . وأخرى تقرر عكس ذلك تماما في زعمه، فهي تدعو إلى القتال وتأمر النبي ﷺ أن يحرض المؤمنين عليه: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [1]

ويتساءل المشتبه وقد أسكره الشعور بالانتصار: أي التشريعين من وحى الله تعالى .. وأيهما من وحى الشيطان؟ !

وجوابه:

إن هذين النوعين من الآيات ليسا تشريعين مختلفين، وإنما هما وجهان لتشريع واحد، مفاده: أن المسلمين لا ينبغي أن يكرهوا أحدا على الدخول في دينهم، وفي الوقت نفسه لا ينبغي عليهم أن يعاملوا أصدقاءهم وأعداءهم معاملة واحدة فيسالموهم جميعا أو يقاتلوهم جميعا وإنما ينبغي عليهم أن يسالموا من سالمهم فيبروهم ويقسطوا إليهم ، ويحاربوا من حاربهم فيقاتلوهم ويطاردوهم ويقعدوا لهم كل مرصد حتى يقهروهم ويسلبوهم القدرة على مناوأتهم ووضع المصاعب والعقبات في طريقهم ﴿ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ

---

(١) التوبة : ٢٩.

تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [١]

فهاتان الآيتان المتعاقبتان من سورة الممتحنة توضحان شريعة الإسلام ، بالنسبة لغير المعتنقين له والداخلين تحت لوائه، فتقرر الأولى أنه لا إكراه في اعتناق الإسلام فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، هذا بالنسبة للذين لا يناصبونه العداء ولا يعملون على إطفاء نوره والصد عن سبيله، أما الذين يقاتلونه ويعترضون طريق دعوته ويظاهرون غيرهم على تخضيد شوكته وتوهين قوته.. هؤلاء الأعداء لا يصلح معهم غير الحرب والضرب، وهو ما تقرره الآية الثانية ﴿ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ وهذا هو التشريع الذي يتناسب وكرامة الإنسان من جهة وهو الذي يتناسب وواقع الحياة من جهة ثانية، فليس من المعقول ولا من المقبول أن أعطى الحرية لمن يسلبني إياها وأن أهب الحياة لمن يهيئ لي الموت، وقديما قالت أسفار العهد الجديد : " من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر، ومن نازعك الكساء فأعطه الرداء" فلم يصغ أصحابها لها ولا طبقوا هذه الوصية منهم لأنها تتعارض وكرامة الإنسان من جهة وتتنافى وواقع الحياة من جهة أخرى. والمعارك الطاحنة التي كانت ولا تزال تدور رحاها بين بعضهم وبعض تؤكد أن هذه الوصية في واد وأن أصحابها كافة في واد آخر.

---

(١) الممتحنة : ٨ ، ٩ .

وأعود إلى المشتبه وأقول له: ماذا كان يريد من المسلمين أن يفعلوه مع أعدائهم .. أكان يريد أن يغمدوا سيوفهم ويكفوا رماحهم ويتركوا أعداءهم يغصبون أرضهم ويهتكون عرضهم ويستأصلون أموالهم وأولادهم وهم قيام ينظرون ؟ ! إنهم لو فعلوا ذلك لقال المشتبه في حقهم ألا إنهم ضعفاء جبناء لا يستحقون العيش، ولا تستقيم بوجودهم الحياة، ولا يصدق عليهم إلا قول القائل:

ما قيمة الليث في الأصفاد معتقلا

تبيت تلعنه الأنياب والظفر

تبقى الجزية التي يطلبها الإسلام من أهل الكتاب ليظلوا على عقيدتهم وممارسة طقوسهم تحت ألوية المسلمين ورayاتهم. وسببها: أن الإسلام إنما يستهدف منها ظهور خضوع هؤلاء الناس لسلطانه واختيارهم العدول عن قتاله ومظاهرة غيرهم عليه، وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾[1] .

وعلة أخرى وهي أن الإسلام يعفي أهل الكتاب هؤلاء بعد قبولهم لدفع الجزية من الدفاع عن أنفسهم، ويتيح لهم الاستمتاع بالخدمات التي يتيحها لأبنائه وهي كثيرة تنتظم جوانب الحياة كافة.. ويعطيهم الأمان على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، ويدفع عنهم كل من يعتدي عليه وهم تحت لوائه، فالجزية من الجزاء، والمجازاة تفيد الأخذ والعطاء في عدالة لا يعرفها غير الإسلام وتشريعاته.

---

[1] التوبة : ٢٩

ترى .. هل فهم المشتبه أنه لا تناقض ولا تضارب بين الآيات التي ساقها .. فإن الإسلام لا يكره أحدا على الدخول فيه، وفي الوقت ذاته لا يسمح لأحد أن يعتدي على أتباعه ولا أن يمس أراضيه ؟ ! وما أظنه الآن إلا خجل من تعليقاته الشاذة التي كرهت ذكرها لما فيها من السفه والإسفاف، فليرجع إليها إن شاء في مظانها من الشبه السابقة .

المطلب الرابع:

<u>الشبهة الرابعة : سلام أم لا سلام :</u>

وتحت عنوان : " سلام أم لا سلام " يسوق الرجل المشتبه على القرآن قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾[1] وقوله سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾[2] وبعد تعليقه السئ عليهما كما هي العادة يسوق قوله عز وجل: ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ ﴾[3] ويعلق عليها هي الأخرى في وقاحة وسوء خلق، فيقول: (فماذا تقول في ذلك يا من تجيبني ... هل يستطيع الإنسان أن يصدق بسهولة بأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يمكن أن يقع في مثل هذا التناقض المخجل ؟)

<u>والجواب:</u>

إن التناقض لا وجود له بين هذه الآيات، فالله يطلب من المسلمين أن يجيبوا الأعداء إلى السلم إذا هم طلبوه، وألا يخالف بعضهم بعضا في دخوله والانقياد له. والله يأمر المسلمين في الوقت نفسه والمعركة دائرة بينهم وبين أعدائهم أن لا يطلبوه منهم ابتداء، لأن ذلك يعتبر دعوة إلى الاستسلام، وليس إلى السلم، والاستسلام تخاذل وضعف يطمع فيهم الأعداء ويزيدهم تحمسا لقتالهم حتى يبيدوهم ويستأصلوا خضراءهم، وفي هذا يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا

---

(1) الأنفال : ٦١.

(2) البقرة : ٢٠٨.

(3) محمد : ٣٥.

زَحفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ (١٥) وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [١] فطلب السلم من العدو والمعركة دائرة تخاذل وجبن لا يتفق وما ينبغي أن يكون عليه المسلمون من صولة وشوكة.

فأين التناقض ؟ والجهة كما يرى الرجل منفكة فالآيتان الأولى والثانية تحضان على السلام وترغبان فيه إذا كان العدو هو الطالب له ، وكانت المعركة لم تنشب بعد، والآية الثالثة تنهى عنه إذا كانت المعركة دائرة، وكان العدو مستمرا في القتال ولم يدع إلى السلام ؟ !!

ترى .. هل فهم الرجل هذه الحقيقة ؟ ! .. أم أنه سيظل على موقفه من إيثار الضلال على الهدى والباطل على الحق؟ ![٢].

* * *

(١) الأنفال : ١٥ ، ١٦.

(٢) راجع الحديث عن هذه الشبهات كما جاء في كتاب " الرد على كتاب أخطاء إلهية " ص ٧٥ ، ٨٧ ، ١١٢.

المبحث السابع والعشرون

شبهة الرتق والفتق وسورة الأنبياء

الرتق المفتوق :

وتحت عنوان هذه الشبهة "الرتق المفتوق" قال المشتبه على القرآن : جاء في قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[1] وفي قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (١٥) وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴾[2] ..

﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴾[3] هذا هو نظام الخليقة المذهل سواء في السموات أو في الأرض ، فقد زين الخالق السموات بالبروج والنجوم والأفلاك، كما جعل في الأرض من النظم التي لا تحصى مما يتمشى بعض الشئ مع المكتشفات العلمية، لكن الوحى يأتينا بعد ذلك بأمور عجيبة تكاد تندرج تحت خرافات الأميين الجهلاء المضحكة، ولربما لا تصدقني وهذا كلام المشتبه ، ولكنني أقدم لك الدليل فاستمع لما أقول .

فقد جاء في قوله تعالى: ﴿ أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما ﴾[4]،

---

[1] البقرة : ٢٩.

[2] الحجر : ١٤ ــ ١٦.

[3] الحجر : ١٩.   [4] الأنبياء : ٣٠.

ويقول العلامة الطبري إمام أئمة التفسير إنهما "كانتا رتقا " أي ملتصقتين ففصل بينهما [1] . وفي "سورة الحج يقول تعالى : ﴿ ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض ﴾[2] .. فقل لي يا سيدي هل يطابق هذا الوصف الغريب الوارد بالآيات الأخيرة ما جاء عن نظام الخليقة الإعجازي المذهل الذي ورد بالآيات الأولى التي سبقتها؟! وهل حقا أن السماء والأرض كانتا رتقا كلوحين من خشب أو زجاج ملتصقين ثم فصلهما الخالق عن بعضهما إلى لوحين ، وهو يمسك اللوح الأعلى أي السماء كي لا تقع على اللوح الأسفل أي الأرض؟. وهل يعترف العلم الثابت الدقيقي بهذه التخاريف المضحكة وتصدقها أنت ؟ وأي سماء من السبع يتكلم عنها هنا حيث فصل بينها وبين الأرض ؟ ! وهل يقصد الفراغ الجوي المحيط بالكرة الأرضية والذي تسبح فيه بقية الكواكب أيضا؟ ! هذا الفراغ الجوي نطلق عليه مجازا "سماء" فهل العلم يؤكد أن هذا الفراغ الجوي كان ملتصقا بالأرض وفصل الله ـ سبحانه وتعالى ـ بينهما ؟ ! وكيف يفصل بين الفراغ والأرض وهما لا يتحدان من الأساس ؟ وكيف يمنع الله سقوط الفراغ على الأرض وهي تدور حول نفسها وحول الشمس في هذا الفراغ بعينه ؟

أرجوك باركك الله أن لا تبخل على بردك السريع لأن عقلي يكاد ينفجر من هول هذه الصدمة التي لا أستطيع أن أتخلص منها.

---

[1] عن هامش التفسير بمصحف القادسية لابن صمادح الأندلسي

[2] الحج : ٦٥.

الجواب :

واضح من هذا الكلام أن المشتبه قد ساق أربع آيات ، فأثنى على اثنتين منهن وقرر أنهما متفقتان وما توصل إليه العلم الحديث، وشجب الاثنتين الأخيرتين لما فيهما من التخاريف المضحكة التي لا تتفق ، وأن الكتاب الذي يشتمل عليهما وحى الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والآيتان الأوليان اللتان أطراهما المشتبه هما: " آية البقرة، وآية ا لحجر"، أما الأخريان فهما "آية الأنبياء، وآية الحج" ، وقد اعترض عليهما من وجوه .. أحدها: إن الرتق والفتق معناهما أن السموات والأرض كانتا رتقا ــ أي كلوحين من زجاج أو خشب ــ ففتقهما الله ، أي فصل أحدهما عن الآخر . والثاني: إمساك الله للسماء حتى لا تقع على الأرض، فإن كان المقصود من السماء هو الفضاء الذي تسبح فيه الكواكب فكيف يمكن ذلك والأرض تسبح فيه أيضا ؟ وكيف يفصل بين الأرض وهذا الفضاء وهما لا يتحدان أصلا ؟ ! والوجه الثالث هو: ما ساقه من كلام الطبري وغيره من المفسرين على صحة ما قال، من أن القرآن لا يتناقض وما توصل إليه العلم الحديث من الحقائق الثابتة التي لم تعد موضعا للجدال ولا مجالا للقيل والقال، وأنه كثيرا ما يشير إلى حقائق علمية لم يتوصل إليها العلماء في العصر الذي نزل فيه، وإنما توصلوا إلى بعضها في العصور التالية لهذا العصر، وبقيت حقائق أخرى سوف يكشف عنها الإيغال في بحار التطور والتقدم العلمي والعقلي. وفي هذا يقول الحق سبحانه تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) أَلَا إِنَّهُمْ

﴿فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾[1] ولأن الحقائق العلمية التي أومأ إليها القرآن قبل تفتق العقل الإنساني عنها لا تكون من الوضوح بحيث يفهمها المفسرون على حقيقتها فإنهم يختلفون في هذه الإيماءات القرآنية. وكثيرا ما يلجأون إلى التأويل وكثيرا ما يقعون في الوهم والخطأ ، حتى إذا أميط النقاب عن هذه الحقائق وتدبر العلماء هذه الإيماءات لم يساورهم الشك في إعجاز القرآن ، وأنه من لدن خالق هذا الكون وصاحب الحول والطول فيه .

ومن أجل هذا فإن ما يقوله الطبري وغيره في تفسير آي الذكر الحكيم لا يعتبر حجة عليه ولا برهانا لتطرق الخرافات إليه، وإنما هو اجتهاد ، لصاحبه أجر إذا أخطأ ، وأجران إذا أصاب.

وهذه هي نظرة أحد الفلكيين المتخصصين في معنى الآيتين اللتين أثار حولهما هذا الجدل: يقول الله تعالى في كتابه العزيز ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾[2] وهي حقيقة علمية فلكية مسلم بها في عصر العلم، وتتحدث عن نشأة الكون حديثا لا شك فيه؛ إذ أنه يطابقه الرصد والتتبع لما في الكون من أجرام السماء؛ وكذلك تطابقه نظرية الانفجار الأعظم التي لم يصل إليها نظير..

ومجمل القول : إن عملية الرتق تعني تجمع مادة الكون كلها في مكان واحد ثم تفجرت في عملية التفتق إلى جزر كونية عظمى هي المجرات وسط الفراغ الكوني اللانهائي. وهناك ما يسمى فلكيا باسم مادة

---

[1] فصلت : ٥٣ ، ٥٤.

[2] الأنبياء : ٣٠.

ما بين النجوم ، تنتشر عبر الفضاء الكوني بين أجزائه المختلفة من نجوم ومجرات، أما السموات فهي تعني كل ما علانا وارتفع فوق رءوسنا. وكان غلاف الأرض الجوي جزءا من الأرض عندما كانت ملتهبة ثم انفصل عنها واحتفظت به الأرض من حولها بقوة جاذبيتها. والغلاف الجوي يعتبر علميا بمثابة سماء الأرض الأولى، وهو يقدم لأهل الأرض خدمات تكاد لا تحصى منها ما هو معروف للرجل البدائي والله تعالى يقول: ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾[1] ، وهذا السقف يرتفع إلى علو ألف كيلو متر عبر الفضاء الكوني تمسكه الأرض بقوة جاذبيتها كما قدمنا.

وجدير بالذكر أن ما قدمناه هنا هو جزء صغير جدا من الإعجاز العلمي للقرآن الكريم الذي لا يحصى إعجازه.

وواضح من هذا البيان العلمي الدقيق أن ما فهمه المشتبه من آيتي الأنبياء والحج شئ ، وأن ما كشفه هذا المفكر الجليل من الأسرار الكونية التي أودعها المولى سبحانه في القرآن شئ آخر، فالرتق والفتق ليسا كما قرر المشتبه من أن الأرض والسماء كانتا كلوحين من خشب أو من زجاج ففصل الله إحداهما عن الأخرى، وإنما هو حديث عن الانفجار الأعظم، ومعناه أن مادة الكون كلها كانت مجمعة في مكان واحد ثم انفجرت في عملية الفتق إلى جزر كونية عظمى، وأن المقصود من السماء في قوله تعالى: ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾[2] ليس هو ما فهمه من أن السماء هي

---

[1] الأنبياء : ٣٢.

[2] الحج : ٦٥.

الفضاء الذي تسبح فيه الكواكب ومنها الأرض ورتب عليه ما رتب من اشتمال القرآن على الخرافات، وإنما هي الغلاف الجوي الذي يحيط بالأرض والذي كان جزءا منها وهي ملتهبة ثم انفصل عنها واحتفظت به الأرض من حولها بجاذبيتها، وهو يعتبر علميا بمثابة سماء الأرض الأولى، ويقدم لأهل الأرض خدمات تكاد لا تحصى، ويرتفع إلى علو ألف كيلو متر عبر الفضاء الكوني، وفيه يقول المولى سبحانه وتعالى:
﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [١] .. وقد تأتي الأيام ويقدم العلم ما يزيد هذه الحقيقة الكونية وضوحا كما هو وعد الله في قوله : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [٢].

يبقى معنى قوله تعالى : ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [٣] وهو تعبير مجازي بليغ عن الجاذبية الأرضية التي تثبتها في مدارها فلا تحيد عنه ولا تتجاوزه إلى غيره ، وقد عبر المولى سبحانه عن الجاذبية التي أودعها كل كوكب حتى يبقى في فلكه لا يتجاوزه إلى أن يبلغ أجله المقدر لحياته، فقال: ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾[٤] ، وقال

---

(١) الأنبياء : ٣٢.

(٢) فصلت : ٥٣.

(٣) الحج : ٦٥.

(٤) الرعد : ٢.

تعالى: ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾[1] .

فأنت ترى أن القرآن قد أشار في آيتي الأنبياء والحج كلتيهما إلى حقيقة علمية لم تكن معروفة في عصره الذي نزل فيه ولا في العصور التالية له، وإنما اكتشفها العلماء في هذا العصر. أليس هذا دليلا على إعجازه؟ أما ما ذكره المفسرون حولها من الظنون والأوهام فليس عيبا يؤخذ على القرآن ولا على الذين قالوا فيه بقدر ما أتيح لهم من العلم، وإنما العيب في الذين يهاجمونه من أجل هذه الأقوال التي عجز أصحابها عن معرفة الأسرار المودعة في القرآن قبل أن يئين أوانها ويحين زمانها، فهل تكون لدى هذا المشتبه الجرأة التي تجعله يفئ إلى الحق ويشهد أن القرآن هو المعجزة التي تقرر صدق محمد ﷺ على مر الدهور وكر العصور، وأن الخرافة لا تعرف السبيل إليه ولا الاقتراب من ساحته ؟ ؟ [2].

* * *

---

(١) لقمان : ١٠.

(٢) بتصرف من كتاب : " الرد على كتاب أخطاء إلهية " ص ٨.

المبحث الثامن والعشرون
مما اشتبه به القرآن على المرأة والرجل

وفيه مطلبان؛

المطلب الأول : مدة الحمل والرضاعة بالنسبة للمرأة

المطلب الثاني : علاقة الرجل بالمرأة

المطلب الاول :

مدة الحمل والرضاعة بالنسبة للمرأة :

وتحت عنوان: "مدة الحمل والرضاعة " ساق المشتبه ثلاث آيات ، أولاها قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ [1] ،والثانية قوله سبحانه: ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ﴾ [2] والثالثة قوله عز وجل : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾ [3] وعقب على هذه الآيات الثلاث في تهكم لاذع مدعيا أن الله تعالى قد أخطأ في عملية حسابية بسيطة لا يخطئ فيها طلاب المدارس الابتدائية، وبيان ذلك أن مدة الفصال أو الرضاعة حولان كاملان، أي أربعة وعشرون شهرا، فإذا أضيفت إليها مدة الحمل ــ وهي تسعة أشهر ــ كان مجموع المدتين ثلاثة وثلاثين شهرا، لكن الله تعالى لم يقل ذلك وإنما قال:

---

(1) لقمان : ١٤.

(2) البقرة : ٢٣٣.

(3) الأحقاف : ١٥.

﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾ وراح يشنع كما هو دأبه في كل تعقيب.

الجواب:

الحق الذي لا مرية فيه أن الله تعالى لم يقل إن مدة الفصال أو الرضاع حولان كاملان وإنما قال: ﴿ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ﴾ و (في) هنا للظرفية، ومعناها أن الأم أو المرضع لها الاختيار في مدة فطم طفلها ، فإن شاءت أتمتها وإن شاءت لم تتمها. والأمر كذلك بالنسبة لما جاء في الآية الثانية وهي قوله تعالى: ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ﴾، أما من لم يرد فيمكنه الفطم قبل هذه المدة. يبقى قوله سبحانه: ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾ فإن المشتبه يدعي أن مدة الحمل تسعة أشهر قولا واحدا، وهذا خطأ طبي... فإن الجنين قد يولد تاما على رأس ستة أشهر ويعيش، لكنه يكون في حاجة إلى تغذية أكثر مما يولد على رأس تسعة أشهر، ولهذا ألمحت الآية إلى أنه في حاجة إلى الرضاع مدة الفصال كلها ـ وهي أربعة وعشرون شهرا ـ أما الذي يولد على رأس تسعة أشهر فيمكن اختصار المدة الآنفة الذكر بالنسبة له فيكون فصاله اثنين وعشرين شهرا أو أقل، وإذا ثبت طبيا أن أقل مدة للحمل ستة أشهر تبين أن الحساب القرآني هو الصحيح، وأن الخطأ إنما جاء من قصر المشتبه مدة الحمل على تسعة أشهر.

والدليل على صحة ما قررناه من أن أقل مدة للحمل ستة أشهر ما رواه ابن كثير في كتابه تفسير القرآن العظيم من أن امرأة علي عهد عثمان ﷺ ولدت طفلا على رأس ستة أشهر ، فحكم عليها بالرجم ، وبلغ الخبر عليا ﷺ فعارض هذا الحكم وقال لعثمان ﷺ : أما تحفظ

القرآن ؟ قال : بلى، قال: أليس قد جاء فيه قوله تعالى: ﴿ وفصاله في عامين ﴾ وقوله: ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾ قال ﷺ : والله ما فطنت إلى هذا ، وأمر ألا ترجم المرأة . وجاء في ابن كثير كذلك أن مدة فصال الطفل الذي يولد على رأس ستة أشهر حولان كاملان والذي يولد على رأس تسعة أشهر يجوز فطمه بعد اثنين وعشرين شهرا [1] . وقد أشرت إلى الحكمة في هذا الاختلاف، وهي وجه من وجوه الإعجاز في القرآن، على أن الفيصل في هذا هم الأطباء المتخصصون في النساء والولادة، وقد ذكرت الطبيبة العالمة (إيزابل) أن الجنين يولد كاملا إذا لبث في رحم أمه أربعة وعشرين أسبوعا، أي ستة أشهر.

وصفوة القول : إن حساب القرآن الكريم لمدتي الحمل والفصال هو الصحيح، وأن حساب المشتبه هو الخطأ ، وأن السبب في هذا هو جهله بأن الولادة الطبيعية كما تكون على رأس تسعة أشهر تكون على رأس الشهر السادس، وقد كان أكرم له قبل أن يهرف ما هرف به أن يسأل الأطباء عن مدة الحمل الطبيعي، لكن رغبته التي لا حد لها في مناوأة القرآن هي التي جعلته يتورط في هذا الجهل الفاضح ويرتطم في هذا الخطأ المعيب.

وأخرى – لا أدري إذا كان قد عرفها أم أن تسرعه وقصور فهمه قد أسدلا حجابا كثيفا بينه وبينها – وهي : أن ما قرره القرآن من أن أقل مدة للحمل والولادة الطبيعيتين أربعة وعشرون أسبوعا – أي ستة أشهر – منذ أربعة عشر قرنا، والطب وليد يحبو على يديه ورجليه ، وهو نفسه

---

(1) كذا في تفسير ابن كثير ج٤ ص ١٥٧ ط : عيسى الحلبي .

ما قرره الطب والعلم كلاهما، وقد نميا واستغلظا واستويا على سوقيهما بعد ألف وأربعمائة سنة ، أليس هذا هو أحد الأدلة الساطعة والبراهين القاطعة على إعجازه ، وأنه من لدن العليم الخالق الذي لا تخفى عليه خافية ولا تعزب عنه صغيرة ولا كبيرة ؟ ! وصدق الله سبحانه إذ يقول:
﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ ﴾ [١] .

وقد أيد الطبيب الكبير الأستاذ الدكتور إبراهيم جميل بدران عضو المجمع للبحوث الإسلامية أن العلم الحديث يقرر أن أقل مدة للحمل وأدناها القابلة لحياة الجنين بعد الولادة هي ستة أشهر، أما أكثرها ففي قول بعضهم عشرة أشهر أو أكثر. وإن ذلك ـ بالنسبة للحد الأدنى ـ هو رأي الفقهاء المسلمين مما ورد في كتابي المبسوط و السنن الكبرى وقد فسر الشيخ محمد رشيد رضا ذلك المعنى في تفسيره حول قوله تعالى:
﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ﴾ [٢]

---

(١) فصلت : ٥٣ ، ٥٤ .

(٢) كذا في كتاب المبسوط للسرخسي ج٦ / ٤٤ ، وكتاب السنن الكبرى للبيهقي ج٧ / ٤٤٢ ، وتفسير المنار الشيخ محمدعبده تاليف الشيخ محمد رشيد رضا ج٢ / ٣٢٥ (مدة الرضاع)مطبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٢م والايه ٢٣٣ من سورة البقره .

المطلب الثاني : علاقة الرجل بالمرأة : ـ

وتحت عنوان : " علاقة الرجل بالمرأة" ساق المشتبه قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [1] وقوله سبحانه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (٢٠) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [2] ، وقوله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ [3] ، وساق آيات أخرى زعم أنها مخالفة لها وهي قوله: ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ﴾ [4] ، وقوله : ﴿ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾[5] وقوله: ﴿ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [6] وعقب على هذه وتلك في وقاحة ـ كما هي عادته ـ فقال: (لماذا تكون المرأة دائما هي في الأسفل والرجل

---

(1) النساء : ١.

(2) الروم : ٢١.

(3) النحل : ٧٢.

(4) النساء : ٣٤.

(5) النساء : ٣٤.

(6) النساء : ١٢٨.

في القمة مهما كان ناشزا ومعرضا وهاجرا معاشرة زوجته ومتسلطا عليها بالإهانة والضرب والهجر في مضجع الزوجية متى خاف منها نشوزا؟ ! أما هي إذا خافت منه نشوزا وإعراضا يفرض عليها الصلح وهي صاغرة ؟ ! .. وهل يصح أن يسقط الله ـ سبحانه وتعالى ـ في هذا التناقض المخزي ويوحي به إلى نبينا العربي الأمي في قرآننا الكريم، فتراه يقول له تارة بأنه تعالى قد خلق المرأة من كيان الرجل، وجعل بينهما المودة والحب والرحمة والمساواة التامة، وتارة أخرى يقول له إنه تعالى فضل بعضهم على بعض ومنح الرجل السلطة الغاشمة ضد المرأة حتى الإهانة بالضرب وبهجر المضجع ؟ !).

<u>والجواب:</u>

إن الله تعالى لم ينزل على نبيه ﷺ تشريعين متناقضين يمجد أحدهما المرأة ويجعلها فوق السماء ويسئ الآخر إليها ويجعلها في الدرك الأسفل، وإنما نزل عليه تشريعا واحدا لا تناقض فيه ، ولا اضطراب، ويتضمن هذا التشريع الواحد عددا من الحقائق.. إحداها: أن المرأة جزء من كيان الرجل، والثانية: أن الله خلقها كذلك ليسكن الرجل إليها وتكون بينهما المودة والرحمة ، والثالثة: أنه تعالى سوى بينهما في الحقوق والواجبات وجعل للرجل عليها درجة ـ وهي القوامة ـ والسبب الذي من أجله أعطى الرجل هذه القوامة أمران: أحدهما: أنه جعل النفقة لازمة على الرجل ولم يجعلها لازمة على المرأة، والثاني: أنه لم يسو بين الرجل والمرأة تسوية كاملة ـ كما يدعي المشتبه وإنما جعل للرجل عليها درجة كما ذكرنا آنفا، وكيف تكون المساواة بينهما تامة وهي بعض له وجزء

من كيانه كما هو واضح من الآيات الثلاث التي ذكرها أولا ، والجـزء لا يساوي الكل قطعا ؟ !

والسر في هذا التفاضل أن طبيعة الرجل مختلفة عن طبيعة المرأة فهو أقوى منها جسما وأشد تحملا وأقدر على حماية البيت وتـدبير مـا يحتاج إليه.

والدليل على التفاوت بينهما في القوة الجسمية ما تعانيه المرأة في الحمل والفصال كليهما، واقرأ إن شئت قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾ [1]، وقوله: ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ﴾ [2] ، وقبل هذا كله وبعد هـذا كلـه يغشـاها الطمث كل شهر مرة أو أكثر فينال من قوتها ويضعف من قـدرتها علـى مواصلة العمل الذي يتفق وطبيعتها فضلا عن غيره، وقد راعت شـريعة الإسلام منها ذلك فأعفتها من الصلاة أثناء النفاس والطمث، وأعفتها من الصوم أيضا وإن كانت قد أوجبت عليها القضاء إذا توافرت القدرة وانتفى المانع، فكيف إذا تتم المساواة بين الرجل والمرأة وهذه هي حال كل منهما ؟ !! والقوانين السارية في بلادنا وغيرها تراعي هذا التفاوت بين الرجل والمرأة، فتعطي المرأة من الإجازات ما لا تعطيه الرجل، وتراعي ظروف العمل والولادة والإرضاع في اعتراف بحالها وتقدير له .

وننتقل إلى الآيتين اللتين هما موضع النزاع بيننا وبينه وهما قوله تعالى

---

(1) الأحقاف : ١٥.

(2) لقمان : ١٤.

﴿ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ﴾ وقوله: ﴿ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ ، فقد فهم أن الله تعالى أعطى الرجل السلطة الغاشمة ضد المرأة حتى الإهانة بالضرب والهجر في المضجع، وهذا غمط للمرأة وجور عليها وإساءة بالغة إلى آدميتها وإنسانيتها - حسب قوله - وعلى العكس من ذلك تماما كان التشريع بالنسبة للمرأة ، فهو يقرر أنها إذا خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا فعليها وحدها أن تلتمس رضاه وتسعى إلى كسب مودته، فتتنازل له عن حقوقها كلها أو بعضها، كالعدل في المبيت أو التنازل عن النفقة أو المهر .. إلى آخره.

ولا جدال في أن ما فهمه الرجل من الآيتين الأولى والثانية شئ وأن الحق والواقع شئ آخر، فالله تعالى جعل الرجل كما قلنا قواما على المرأة لأنه هو المسئول دونها عن الإنفاق عليها وعلى أولاده منها، وهو القادر على حمايتهما وتدبير شئونهما وتقويم الانحراف الذي قد يكون من أحدهما أو كليهما لأنه راع ، وكل راع مسئول عن رعيته، والله تعالى رسم للزواج منهجا لا يقوم إلا عليه ولا يدوم دون تنفيذه وتطبيقه، ومن دعائم هذا المنهج أن يكون الاختيار سابقا عليه، وأن يكون الدين هو المرجح عند هذا الاختيار دون الجاه والمال والجمال وقد وصى الكتاب والسنة كلاهما الزوج والزوجة بالاحترام المتبادل والمحبة المشتركة التي تدفع كلا منهما إلى رعاية حقوق الآخر رعاية كاملة ، والغض عما يمكن أن يكون بينهما من الهفوات أو الأخطاء غير المتعمدة، وقررت آية القوامة كذلك أن ذات الدين - وهي الصالحة القانتة - هي التي ترعى

بيتها وتحب زوجها وتجعل عش الزوجية في عينيه جنة يهفـو إليهـا إذا بعد، ويجد الأنس والراحة فيها إذا عاد. ومثل هذه المرأة لـيس لزوجهـا عليها سبيل ، وواجبه نحوها أن يبادلها حبا بحب وودا بود، وعلى العكس من ذلك المرأة التي تؤذي زوجها وتترفع عليه وتجعل بيته أكره شئ إليه، ومثل هذه المرأة حث القرآن زوجها على ألا ينتظر حتـى تهـدم عـش الزوجية وتجعله جحيما لا يحتمل ونارا لا تطاق، فإذا توقع منها النشـوز بادر إلى علاجه قبل أن يتفاقم ويصبح من الصعب شفاؤه والإبلال منـه، ولأن تأثير هذا المرض ليس واحدا بالنسبة لسائر النساء، وإنما يختلـف في البعض عن البعض الآخر، فقد وصف الله له ألوانا ثلاثة من العـلاج لمكافحته واستئصاله وإعادة الحياة الزوجية إلى الاستقامة التامة والأنس الدائم .

أحدها الوعظ: وهو مخاطبـة قلـب الزوجـة ومنـاداة شـعورها وتخويفها من ربها القادر على الانتقام منها إذا هي لم ترقبه فـي بيتهـا وزوجها وأولادها ، وعملت على تقويض هذا كله فهدمت البيت وفارقـت الزوج وشتتت الأولاد، وضرب لها الأمثال من الواقع حولها حتى تعدل من سلوكها وتغير من أعمالها. وهذا العلاج له تأثير في مقاومة الاعوجـاج الطارئ والجنوح غير المتطرف.

العلاج الثاني: وهو "الهجر في الفراش" وهـو لا يكـون للنـوع العاطفي من النساء وإنما يكون لمن غرهن الجمال وفتنهن الحسن فرحن يدللن به على أزواجهن، فإذا هجر الرجل امرأته في فراشه فهو يؤكد لها أن ما تدل به لا تأثير له عليه، ولا قيمة له فـي نظـره، فتطـامن مـن كبريائها وتنهى عن صلفها وغرورها وتكف عن ترفعها وشذوذها، فإذا لم

يُجدِ هذان النوعان من العلاج، وكانت الزوجة متبلـدة الشـعور متـوترة العاطفة ، لجأ الزوج إلى اللون الثالث وهو:

الضرب غير الموجع : وليس المقصود منه هنا الألم الذي تظهـر علاماته على الجلد، وإنما هو إعلام الزوجة أنها هوت من سماء الإنسانية إلى حضيض الحيوانية، لأن الحيوان وحده هو الذي يؤثر فيـه الضـرب ويجعله يلبي ما يطلب منه، فالله سبحانه لم يعط الرجل السلطة المطلقـة في ضرب المرأة وهجرها في المضجع تهوينا لشأنها وتحقيـرا لمنزلتهـا كما فهم الرجل المشتبه ، وإنما أعطاه سلطة مؤقتة ومشروطة حفاظا على عش الزوجية، ومنعا لتشتت الذرية فهو كالطبيب الذي يداوي من العلـل ويعالج من الأمراض.

ويأتي دور الآية الثانية وهي قوله تعالى: ﴿ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ وقد فهم المشتبه من هذه الآية ـ كما سبق وأوضحنا ـ أن المرأة إذا خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا سعت إليه وعملـت جاهـدةً علـى رضاه ، فتنازلت له عن حقوقها أو بعضها نحـوه. ولسـت أدري ـ ولا المنجم يدري ـ كيف تفتق ذهنه عن هذا الفهم الخاطئ ؟ ! فلو كـان الله يريد الصلح من جانب واحد وهو جانب الزوجة لقال: "وإن امرأة خافـت من بعلها نشوزا أو إعراضا" فعليها وحدها السعي إلـى صـلحه، لكنـه سبحانه قال : ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ﴾ ، ومعنى هذا أن الصلح ينبغي أن يكون من الجانبين معا. ولما كان الزوج هو المسئول الأول عن بيت الزوجية لأنه هو القوام وهو الراعي ، كان عليه هـو أن يكون البادئ بطلب الصلح ودعوة الزوجـة إليـه، فقـد يكـون نشـوزه

وإعراضه ناشئين عن إسراف امرأته في الغيرة عليه وتوهمها الذي لا حد له في أنه يفضل غيرها عليها، فيحاول ما وسعته المحاولة إقناعها أن وساوسها لا أساس لها، وعلى الزوجة في الوقت نفسه ألا تبقى مستسلمة لغيرتها ، منقادة لوساوسها وهواجسها فتنحل عرى الزوجية وينهدم عشها، بل يجب أن تسهم هي الأخرى في طلب الصلح فتكف عن ملاحقة زوجها واتهامه والتنغيص عليه.

فطلب الصلح إذا ليس من جانب واحد ـ وهو الزوجة ـ وإنما هو من الجانبين كليهما ، والذي يبدأ به ليس هو المرأة وإنما هو الرجل والهدف الذي لا ثاني له هو الحفاظ على عش الزوجية بهيا نقيا لا تعب فيه ولا نصب، ولهذا قال سبحانه: ﴿ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾.

أما ما فهمه المشتبه ، فليس صلحا وإنما هو خضوع وذل..

ترى هل فهم الرجل أن التناقض الذي يتحدث عنه ليس في القرآن العظيم وإنما هو في فهمه السقيم ؟ ! [١]

* * *

---

(١) راجع في ذلك ما رد به الأستاذ الدكتور/ عبد العزيز غنيم على المشتبه ، والذي لم يذكر اسمه ، كما جاء في كتاب " الرد على كتاب أخطاء إلهية في القرآن الكريم " ص ١٠١.

المبحث التاسع والعشرون

شبهة على القرآن كما جاءت في سورة القلم

كيف يكون للإنسان خرطوم ؟ :

وتحت عنوان " هل للإنسان خرطوم" ساق المشتبه الذي سلف ذكر شبهه آنفا هذه الآية: ﴿ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٥) سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴾ [1] وبعد بيان معناهما من تفسير الإمام الطبري[2] عقب ـ كما هي عادته في ازدراء وسفاهة ـ فقال: ألست تؤمن معي بأن العالم كله منذ بدء الخليقة قد درج على تسمية أعضاء الإنسان التي نعلمها جميعا وسيعلمها الذين من بعدنا حتى نهاية العالم.. فنقول مثلا: العين والأنف والأذن واللسان .. إلى آخره، وها هي ذي كتب التفسير وآثار جميع الشعوب ومجلدات العلوم فتشها تفتيشا دقيقا .. تجد أنه لم يرد أي ذكر ولو على سبيل الفكاهة على أن أنف الإنسان كان اسمه الخرطوم !!" .

والجواب:

إن هذه الآية نزلت في الوليد بن المغيرة بعد ما ادعى أن القرآن الكريم أساطير الأولين، وقد خلع الله تعالى عليه تسع صفات وهي قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (١١) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴾ [3]، فلما سمعها لم ينكر منها غير

---

(١) القلم : ١٥ ، ١٦.

(٢) كذا في تفسير الطبري م ١٤ ج ٢٨ ــ ٢٩ ص ٢٨ ط دار الفكر .

(٣) القلم ١٠ــ١٣

واحدة وهي الصفة التاسعة، فإن الزنيم في لغة العرب: الذي ينسب إلى غير أبيه، فذهب إلى أمه وقال لها: إن محمدا وصفني بتسع صفات كلها ظاهرة أعرفها غير التاسعة منها "يعني أنه زنيم" ، فإن لم تصدقيني ضربت عنقك بالسيف، فقالت له: إن أباك كان عنينا ـ أي لا يستطيع معاشرة النساء ـ فخفت على المال فمكنت راعيا من نفسي ، فأنت ابن ذلك الراعي، فلم يعرف أحد من قريش وغيرها أنه ـ أي الوليد ـ ابن زنا حتى نزلت هذه الآية ، فكانت دليلا ساطعا وحجة قاطعة على إعجاز القرآن وأنه منزل من قبل المولى عز وجل.

ونمضي مع الوليد بن المغيرة ونذكر أن الله سبحانه ذكر مساوئه التسع التي تدل على أنه ليس إنسانا مستحقا للتفضيل والتكريم، وإنما هو حيوان مثله كمثل الكلب أو الخنزير بل هو أدنى وأحط، وبدلا من أن يخلع المولى سبحانه وتعالى عليه هذا الوصف صراحة فإنه كنى عنه ليكون الكلام أفصح وأبلغ وأشد تأثيرا في الأنفس والقلوب، فسمى أنفه الذي ـ هو موضع الأنفة منه ـ خرطوما على سبيل المجاز؛ لأن العرب يسمون أنف الفيل والخنزير كذلك، وإمعانا في إذلال هذا الرجل وتحقيره توعده الله تعالى أن يجعل على خرطومه علامة تميزه في الدنيا وتشير إلى ما تورط فيه من جرم ومنقصة، وبعد سنين من نزول هذه الآية وعندما راح المسلمون يقلبون جثث القتلى من الأعداء قبل طرحها في القليب عثروا على الوليد بن المغيرة هذا وقد خطم خرطومه بالسيف جزاء وفاقا على ما قاله في القرآن الكريم، وسوف يبعث يوم القيامة وهذه العلامة على خرطومه إهانة له في الدنيا والآخرة جميعا.

وواضح من هذه الآية التي ساقها المشتبه أنه قد تنبأت بالغيب مرتين :

إحداهما: في كشف حقيقة نسب الوليد بن المغيرة.

والثانية: فيما سيحدث له مستقبلا من أثر السيف على خرطومه..

فليت شعري.. أفهم الرجل أن كلام العرب فيه الحقيقة وفيه المجاز وإذا فإطلاق لفظ (الخرطوم) وهو أنف الفيل والخنزير على أنف الوليد إنما هو من باب الكناية التي هي أجمل وأبلغ وأشد وقعا وأعمق أثرا من الحقيقة ... أما كان أكرم له وأحفظ لماء وجهه أن لا يعرض للقرآن قبل أن تكون لديه أثارة من اللغة التي نزل بها .. ولست أدري.. أيعاب هو على جهله الجسيم ، أم يعاب القرآن الكريم لأنه لم يطوع لغة العرب لتكون على مستوى فهمه السقيم ؟ !

انتهى والله أعلم

* * *

المبحث الثلاثون

شبهة على حفظ القرآن والذكر

وهل الذكر هو كل القرآن أو بعض القرآن ؟

هناك من لا يؤمنون بأن القرآن قد حفظ ، كما تقول الآية الكريمة : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ ، ويقولون : قد يكون الذكر جزءاً من القرآن ، وليس كله. ويستدلون بكلام لعمر بن الخطاب ﷺ بأنه أقسم على أن هناك آية في القرآن تتحدث عن الرجم ـ وهذه الآية غير موجودة ـ وأن غنمه أكلت ورقة من القرآن كانت بيد عائشة ـ رضى الله عنها ـ .." أهـ.

<u>الرد على هذه الشبهة :</u>

وفي الجواب عن هذه الشبهة نسأل :

لماذا بعث الله ـ سبحانه وتعالى ـ الرسل، وأنزل الكتب؟ .

لقد كان ذلك رعاية من الله لخلقه .. ولطفا بهم.. وحتى يكون حسابه لهم ـ كي لا يتساوى المحسن والمسئ ـ وجزاؤه إياهم على أفعالهم عدلا إلهيا خالصا .. ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [1] ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [2]. ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [3].

---

[1] فاطر : ٢٤.

[2] الإسراء : ١٥.

[3] النساء : ١٦٥.

وقبل ختم النبوة والرسالة، كانت مهمة حفظ كُتب الرسالات والشرائع موكولة إلى أمم هذه الرسالات كجزء من التكليف لهم والاختبار لاستقامتهم في هذا التكليف: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [1]،

لكنهم فرطوا في القيام بتكليف الحفظ للكتب بالنسيان حينا وبالتحريف والإخفاء حينا آخر: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣) وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١٤) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [2] .

وعندما كانوا يحرفون هذه الكتب، أو ينسون بعضها ويخفون البعض الآخر، كان الله يبعث رسولا جديدا بكتاب جديد..

---

[1] المائدة : ٤٤.

[2] المائدة : ١٣ ــ ١٦.

أما عندما أراد الله ـ سبحانه وتعالى ـ مع بلوغ الإنسانية سن الرشد ـ ختم النبوات والرسالات بنبوة ورسالة محمد ﷺ ، فكان لابد لحفظ كتاب الشريعة الخاتمة من حافظ لا يجوز عليه الإهمال، ولا يتأتى منه التحريف، ولا يليق به النسيان.. أي كان لابد من الحفظ المعصوم الدائم للكتاب المعجز الخالد، لأن ترك حفظ الكتاب الخاتم للبشر، الذين يجوز عليهم الإهمال والتحريف والنسيان معناه طُرُوّ وحدوث التحريف والضياع لهذا الكتاب، حيث لا وحي سيأتي ولا رسول سيبعث ولا كتاب سينزل.. الأمر الذي لو حدث ـ افتراضا ـ سيضل الناس ولا رعاية لهم ولا حجة عليهم، تجعل من حسابهم وجزائهم عدلا إلهيا مناسبا .

ولذلك ، انتقلت مهمة حفظ الوحى الخاتم ـ القرآن الكريم ـ في الرسالة الخاتمة إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ الذي لا يتخلف حفظه أبدا، بعد أن كانت هذه المهمة في الرسالات السابقة، استحفاظا من الله للناس، أي طلبا منه لهم أن يحفظوا ما أنزل عليهم من الكتاب. فكان الوعد الإلهي المؤكد: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [1].

ولذلك هيأ الله لتدوين القرآن الكريم من كتبة الوحي ما لم يتهيأ لكتاب سابق .. وجعل جمعه وعدا إلهيا وإنجازا ربانيا: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ [2]. فكان الحفظ للقرآن ـ كل القرآن ـ وعدا إلهيا . وإنجازا ربانيا، وذلك حتى تستمر حجة الله على عباده، ويكون حسابه لهم

---

[1] الحجر : ٩.

[2] القيامة : ١٦ ـ ١٩.

عدلا خالصا .

ولم يقل أحد، ولا جائز في العقل ــ فضلا عن النقل ــ أن يقال: إن الذكر ، الذي تعهد الله بحفظه ، هو بعض القرآن ، وليس كل القـــرآن .. لأن ضياع أي جزء من القرآن إنما يعنـــي تخلـــف رعايـــة الله لخلقـــه ، وسقوط حجته على عباده.. ثم إن القرآن لا يقف بالحفظ عنـــدما يطلـــق عليه الذكر، فضلا عن أن مصطلح الذكر إنما يشمل كل القرآن .. تشـــهد على ذلك الآيات الكثيرة في كتاب الله .. فالمراد بالـــذكر القـــرآن .. كـــل القرآن .. والكتاب .. كل الكتاب.. وليس بعضه .. بدليل قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [1]، أي أهـــل الكتـــب السابقة.. والله يشير إلى القرآن والتنزيل ــ أي كل ما نزل به الـــوحى ــ بلفظ الذكر ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ ﴾ [2] ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [3] ، ﴿ وَأَنْزَلْنَـــا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [4] ، ﴿ وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ﴾ [5]، ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِـــينٌ ﴾ [6] ﴿ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ [7]

---

(١) الأنبياء : ٧.

(٢) الأعراف : ٦٩.

(٣) الحجر : ٦.

(٤) النحل : ٤٤.

(٥) الأنبياء : ٥٠.

(٦) يس : ٦٩. (٧) القلم : ٥١ ــ ٥٢.

والذكر هو كل ما جاء به الوحي، فالوحي هو الذكر ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٣) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ [1]. بل إن سياق آية ﴿إنا نحن نزلنا الذكر﴾ شاهد على أن الذكر والقرآن والكتاب هو الوحى

﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ﴾

﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ﴾،

﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾،

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[2].ثم إن القرآن الكريم يؤكد أن الحفظ ، ونفى الشك والريبة إنما هو لكل القرآن ولجميع التنزيل، وليس لبعض القرآن: ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين﴾ [3]

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [4] ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾[5] ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ [6] ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس ﴾ [7] ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴾ [8].

---

(١) الزخرف : ٤٣ ــ ٤٤.

(٢) الحجر : الآيات : ١ ، ٤ ، ٦ ، ٩.

(٣) البقرة : ٢.

(٤) السجدة : ٢.

(٥) البقرة : ١٧٦.

(٦) آل عمران : ٣.

(٧) النساء : ١٠٥.

(٨) المائدة : ٤٨.

﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [1] .. ولو ضاع شئ من هذا الكتـاب أي القرآن والتنزيل لحدث التفريط الذي تنفيه هذه الآية ، ولا انتفت حجة الله على البشر ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٥٥) أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ (١٥٦) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ [2] .. فحجة الله على الناس ــ بعد ختم الوحى القرآن الكريم – تنتفي وتسقط إذا حدث جهل بشـئ مما أنزل في الكتاب – القرآن- : ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ﴾[3] ولو أن القرآن ضاع منه شئ لتخلف وعد الله بتنزيل تبيان كل شئ فيه ، لتتم شهادة الرسول ﷺ على أمته : ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [4] .

وختم النبوة والرسالة ، يعني انتفاء بعث رسول جديـد، ونـزول كتاب جديد .. وحتى تقوم حجة الله على عباده لابد من بقاء القرآن كلـه محفوظا ، ليكون قيما على الناس، أي دائم القيام على هدايتهم وإرشادهم: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (١) قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ

---

[1] الأنعام : ٣٨.

[2] الأنعام : ١٥٥ ــ ١٥٧.

[3] الحجر : ٤.

[4] النحل : ٨٩.

أَجْرًا حَسَنًا ﴾ [1].

وإذا كان الكتاب هو كل القرآن ، فلقد وعد الله سبحانه بأن يحفظه ويورثه للذين اصطفاهم من عباده، بعد أن أنزله على المصطفى من رسله، وجمعه وقرأه : ﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (٣١) ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ [2].

ومن صفات القرآن – كل القرآن – أنه كتاب عزيز، أي منيع ، محفوظ من العبث به وفيه .. وأنه ممتنع عن الإبطال، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، بأي حال من الأحوال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [3] والذكر في هذه الآية هو كل الكتاب، العزيز على أي عبث به وفيه..

ومن صفات القرآن – كل القرآن – أنه كتاب على حكيم ، فوق تطاول المتطاولين، بشرا كانوا أو أزمنة ودهورا: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [4].

ومن صفات القرآن – كل القرآن – أنه في كتاب مكنون: أي مصون ومحفوظ عن اللعب والعبث والتحريف

---

[1] الكهف : ١ – ٢.

[2] فاطر : ٣١ – ٣٢.

[3] فصلت : ٤١ – ٤٢.

[4] الزخرف : ٣ ، ٤ .

﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴾ [١].

ولقد صدق التاريخ على هذا الحفظ الإلهي لهذا القرآن المجيد.. ومن يقرأ تاريخ التوراة ــ حتى ذلك الذي كتبه علماء اليهودية ــ يعلم ما أصابها بعد سنوات من نزولها .. وكيف أعيدت كتابة أسفارها على النحو الذي صنعه "عزرا" وغيره من الأحبار، في صورة مليئة بالتحريف.. ومن يتأمل تناقضات الأناجيل ــ حتى الشهيرة منها ــ والفروق الجوهرية بينها وبين غير الشهيرة ــ من مثل أناجيل "مخطوطات نجع حمادي"، و"مخطوطات البحرالميت" ، " إنجيل برنابا" يعلم ما أصاب الإنجيل بعد سنوات معدودة من بعثة المسيح عليه السلام لكن .. ها هو القرآن الكريم كما نزل به الروح الأمين على قلب الصادق الأمين، لم يتغير فيه حرف ولا رسم ولا حركة ولا غنة ولا مد وقد مضى على نزوله أكثر من أربعة عشر قرنا مرت فيها أمته بأطوار من التراجع والانحطاط ، وفقدت فيها الذاكرة الإسلامية ملايين المخطوطات التي أبادتها غزوات الطغاة ، واندثرت فيها مذاهب وفلسفات .. وظل القرآن الكريم عزيزا منيعا محفوظا بحفظ الله خير الحافظين .. فالتاريخ ــ هو الآخر ــ قد غدا شاهدا على هذا الحفظ الإلهي لكل القرآن الكريم . .

فبرهان العقل ــ المتعلق بختم الرسالة .. وختم الوحى ــ يجعل حفظ القرآن ــ كل القرآن ــ لإقامة الحجة على الناس ــ ضرورة عقلية.

وكذلك النقل المتكرر في القرآن ــ بلفظ القرآن.. والكتاب.. والتنزيل .. والذكر .. ــ شاهد هو الآخر على الحفظ الإلهي لكل حرف

---

[١] الواقعة : ٧٧ ــ ٧٨.

وكل كلمة وكل آية وكل سورة من هذا القرآن .. فهو وحي الله الخاتم .. تعهد سبحانه وتعالى بجمعه وحفظه. وحجة خالدة، كي لا يكون للناس على الله حجة إذا ما ضاع شئ من هذا التنزيل العزيز المنيع الحكيم .

أما بعض المرويات التي يفهم منها البعض شكا في حفظ كل ما نزل على رسول الله ﷺ من القرآن .. فإن منطق العقل ، ومنهاج البحث العلمي، وقواعد نقد النصوص والمرويات ، التي اتفق عليها العلماء والعقلاء من كل الحضارات والفلسفات والأنساق الفكرية .. كلها تؤكد على ضرورة الموازنة بين المتعارض والمتناقض من الروايات .. والأخذ بالمصدر الأوثق عند تعذر الجمع بين المرويات .. فإذا كان لدينا ــ على نحو ما قدمنا ــ شهادة العقل الصريح على أن حفظ القرآن ــ كل القرآن ــ هو ضرورة عقلية ، تقتضيها حقيقة ختم النبوة والرسالة واكتمال الوحى .. وإذا كانت شهادة العقل الصريح هذه مدعومة بنصوص آيات القرآن الكريم ، أي بالمصدر المعجز ، قطعي الدلالة والثبوت .. فهل يكون عاقلا من يترك شهادة العقل الصريح، والنقل المعجز الصحيح، ويلتفت إلى رواية من روايات يعلم الله من رواها ؟ ولماذا رواها ؟ .

إن منطق البحث العلمي، الذي أجمع عليه كل عقلاء الدنيا، في التعامل مع النصوص ، قد حسم هذه القضية التي نرجو أن تكون هذه الإجابة حاسمة للشبهة المثارة حولها .. والله من وراء القصد، منه نلتمس الهداية والحكمة والرشاد .. [1].

---

[1] راجع في هذا المقام : ١ــ حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين ، المجلس الأعلى ص ١٢٥
٢ــ معالم سور القرآن الكريم نظرة جديدة في التفسير الموضوعي ١/ ٢١ ، ط : الأولى ، د/ جمعة علي عبد القادر ، لتعرف أيها القارئ على ما جاء حول أسماء القرآن الكريم .

المبحث الحادي والثلاثون

عظمة القرآن

أخي القارئ بعد هذا التطواف وتلك الرحلة التي عشناها وعايشناها في ثلاثين مبحثا من مباحث هذا الكتاب ، دارت كلها حول الدفاع عن القرآن وهذا ما يذكره أهل الذكر والعلم والفضل تحت عنوان "تخلية" أي أننا ساهمنا فيما مضى من مباحث في تخلية القرآن الكريم عن الشوائب التي ألحقت به قصدا أو بغير قصد من الذين يدسون السم في العسل حول قداسة مصدر المسلمين الأول وهو القرآن الكريم ؛

وغنى عن البيان أن الذي أنزله سبحانه وتعالى هو الذي تولى حفظه كما جاء في قوله تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [1] أقول ومن حفظ الله لكتابه أن قيض له من يدافع عن حياضه ، وبعد هذه التخلية يأتي دور التحلية فيتجلى ذلك في المباحث الثلاثة الآتية، أولها (عظمة القرآن)، وثانيها:(موازنة إن صحت بين الكتاب المحفوظ من قبل من أنزله وبين كتاب حرفه أصحابه بأيديهم). وثالثها:(إحقاق الحق)، وفيه إظهار ما ينبغي أن يكون للقرآن الكريم من عظمة تتناسب مع جلاله.

<u>النموذج الأول من عظمة القرآن :-</u>

القرآن نبع حضاري متجدد يقول رينان: [إن القرآن هو أساس الإسلام، وقد احتفظ بكينونته القديمة بدون أن يعتريه أقل تبديل أو تحريف - وعندما نستمع إلى بعض آياته وما فيها من بلاغة وسحر تأخذنا رجفة

---

(1) الحجر : ٩.

الوله والوجد ــ وبعد أن نتوغل في دراسة روح التشريع التـــي تنطـــوي عليها بعض تلك الآيات الإلهية.. لا يسعنا إلا أن نعظم هذا الكتاب العلوي ونقدسه ــ وقد دلتني تحرياتي العلمية أنه لا صحة مطلقا لما أريد الصاقه بالنبي محمد ﷺ من كذب وافتراء مصدرهما بعـــض المباينـــات العرفيـــة والعادات القومية التي أراد بعض المتحاملين مثل [فولتير] أن يوجهوهـــا إليه .. وهي افتراءات ذميمة وقحة كقولهم : إنه كان يميل إلـــى التســـيد والسيطرة مع أن التاريخ يثبت أمانته وصدقه وتواضعه وأنـــه لا يحمـــل الحقد لأحد وكانت طباعه نبيلة وقلبه طاهرا ــ رقيق الشعور[1]] .

ثم أردف ذلك ببيان أن هذه العصمة تخص القرآن وحده

وعندما نلقي بعض الضوء على كلام رينان نـــرى أنـــه يتضـــمن مجموعة من الحقائق الضخمة التي تؤيد ما نذهب إليه ــ وما قررناه من أن القرآن الكريم وحده هو نبع الحضارة العالمية وذلك لأنـــه أولا وكمـــا يقول [رينان] ــ كتاب علوي يحتفظ بكينونته القديمة ــ تلـــك الكينونـــة التي تجعله قادرا على التأثير في العقول والقلوب..

والتي يظهر أثرها فيمن يقرأ هذا الكتاب الخالد ــ أو يستمع إليـــه إذ تعتريه انتفاضة التأثير ــ ورجفة الوله وهزة الوجد ونشوة الفرح وذلك تبعا لآياته التي تتورع على الوعد بالجنة والوعيـــد بالنـــار.. أو وصـــف أحوال الأمم وتاريخ الدول وأوضاع الرسل مع أقوامهم وصراع الحق مع الباطل.. كل ذلك يتتابع في مد متلاحق.. ويرمي بأمواجـــه فـــي الـــنفس الإنسانية فتتحرك معه انقباضا وانبساطا..

---

(١) من كتاب " بين الحضارات والديانات " لطه مدور ص ١٢٦ ــ ١٢٧.

[ورينان] يؤكد ــ أن تلك الخاصية مقصورة على القــرآن الكــريم وحده من بين سائر الكتب المنزلة ــ لأنه كتاب قد سـلم مــن التحريــف والدس .. واحتفظ بنقائه وصفائه ومقدرته على التــأثير أمــا نصــوص التوراة والإنجيل فقد تحولت إلى نغمات سمجة ثقيلة تتردد كالتراتيم فــي الكنائس والبيع بعيدة عن أي تأثير.. فاترة باردة لا تــورث خشــية، ولا تحدث أثرا .. !!

ولا شك أن المنهج الحضاري يفتقر إلى كتاب ثابت المنهج، قــوي التأثير حتى يندفع الناس به بناة لصرح الحضارات على تقــوى مــن الله ورضوان.

والخاصية الثانية : وهي حضارية ــ تكمن في روح التشريع التي ينطوي عليها الكتاب الكريم .. ففيه من النصوص الحية المتجددة ما يلائم روح التطور وما يدفع بعجلة التقدم إلى الأمام وإنها لتشــريعات تتنــاول الحياة كلها ولا تترك شأنا من شئونها.. وهذه الخاصية التي يتميــز بهــا الفقه الإسلامي من حيث نماؤه ــ ومقدرته على الاستيعاب والشمول. لأنه يستقي الأحكام من كتاب يفيض بروح التشــريع، للعبــادات والمعــاملات والعقائد، ونظم الحكم وأساليب المجتمع وفلسفة الأخلاق.. فهو بهذا نظام متكامل للحياة الإنسانية يرسي قواعدها على أسس ســليمة.. ويخصــب العلوم والمعارف التي تستمد منه ــ وتؤخذ عنه فهو يخصب الفقه ويمده بالأحكام .. وهو يخصب علم الكلام ويزخره بالعقيدة الصالحة وما شــئت من معرفة حقيقية بالله ورسله واليوم الآخر .. وهو يثري علوم الاجتماع بما يمدها به من قوانين الحكم ــ ونظام الحياة ــ وســير الحضــارات ..

ويمر التاريخ بأحوال الأمم القديمة وما أصابها من قوة أو ضعف وكـذلك سائر المعارف الأخرى..

إنه بذلك محيط زاخر بالمعارف السديدة ــ والعلوم الصحيحة.. وقد تمكن بناة النهضة القرآنية من تأسيس علوم ومعارف كلها تستقي من نبع القرآن وتأخذ عنه.

ولكن يبقى بعد ذلك.. أن نؤكد بأن هذه الخاصية تجعل منه أساسا للعلوم والمعارف وتجعله قادرا على العطاء السخي للحيـاة مـن جميـع نواحيها .. تؤكد العلاقة بين هذا الكتاب الخالد وبين الحياة فهو يمنحهـا القوانين ــ والمثل الأخلاقية .. ووسائل التقدم والنهوض ويعكس عليهـا الجلال والجمال .. ويمضي بها على طريق الهداية والخير ويصب بكل ما فيه من هداية ومعرفة في محيطها الكبير فتزكو وتسمو وتتقدم.

ويوم يسود نظامه ــ وتطبق أحكامه .. ويوم تعز الحيـاة عنـه.. تضل وتميد ويلعب بها الهوى والشيطان..

فقيمة هذا الكتاب الخالد تكمن في تطبيقه ليكـون نظـام الحيـاة المتكامل.. يعبد به الله وتحارب به الجيوش ــ وتحكم به الجماعة وتساس به الأمور كلها ..

هذه الخاصية التشريعية التي يشير إليها [رينان] لا توجد في كتاب آخر.. ولا تتوفر إلا في القرآن .. فهو كتاب الحياة ــ ومستودع الحكمـة ــ ومستقر المعرفة .. ونظام السياسة والاجتماع.. كتاب العلم النافع الذي يثير العقل ويحركه.. لينطلق جوابا في ملكوت السموات والأرض ..(من

حكم به عدل ــ ومن عمل به أجر ــ ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم) [1]..

وما دام القرآن هو كلمة الله الأخيرة ، فهو يربط الناس بالتطور حتى لا تقف عجلة التاريخ فحضارة القرآن خصبة ولابد تمضي كما صورنا مع ركب الحياة السائر ملبية حاجات البشر متجاوبة مع أهدافهم مستوعبة لمشكلاتهم .. تجد لكل مشكلة طارئة حلا موفقا ولكل سؤال جوابا سديدا .. فلا تجمد أمام ما ترد به الأعصار والأمصار من مسائل جديدة.. لم تكن في العهد الأول للإسلام .. بل تقيس الحاضر على الماضي ــ وتلحق الفرع بالأصل ــ وتنظر في علة الحكم التي تشملها.. وتجتهد كذلك في الأقضية والأحكام.

وبهذا يأخذ التشريع الإسلامي سمته الحضاري ويبسط سلطانه على الحياة فلا تتفلت منه ــ أو تلوذ عنه لأنه يلاحقها ملاحقة متطورة ويصدر عليها الأحكام الملائمة وما أجمل أن تتعانق روح التشريع مع قضايا الحياة .. فتمضي الحياة كلها مسددة الخطا كريمة الأهداف لأنها تخضع لله ــ وتحكم بشرعه.. وما أقبح أن يلعب الشيطان بالناس فيضلهم عن شرع الله ودينه فيحكمون بغير ما أنزل الله ــ وكتاب الله بين ظهرانيهم !!.

وهكذا يجب أن تتألق حضارتنا في رحاب القرآن وفي جو الإيمان لتزدهر وتتأنق.. وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ــ وبذلك تضمن التجدد

---

[1] من حديث شريف رواه الحارث الاعور كذا في الترمذي بشرح الاحوذي ج ٨ باب ما جاء في فضل القرآن ص ٢١٨ ت / عبد الرحمن محمد عثمان ط النصر الحديثه ــ الرياض ــ المملكه العربيه السعوديه .

وتمضي في طريق النماء المتصاعد مع آمال البشر ــ وتقدم الحياة .
وينبض قلبها دائما بنبض الحياة ويخفق فؤادها بآمالها ويطرد سيرها على طريقها فتكون حضارة مؤمنة ربانية ــ حضارة الرقي المادي والروحي معا .

ولا يمكن لهذه الحضارة أن تجف أو تذوي أو يجف نبتها إلا حين تنفصل عن كتابها الخالد .. وما هي إلا أن ترتبط به فتجري فيها دورة الحياة ويعود إليها النماء والازدهار ــ والحيوية والنبض ــ وبهذا تظل قادرة على مواجهة التحديات الحضارية الأخرى عبر القرون لأنها مزودة بما يكفل لها القوة والقدرة والصمود والاستمرار والتجدد ــ وسيظل القرآن يمد تلك الحضارة بالإيمان لتضئ جوانب الحياة بالأمل والخير والحق والعدل والسلام وكل المعاني الطيبة والقيم النبيلة .. حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

النموذج الثاني :

(من عجائب هذا المنهج والمبرز لعظمة القرآن) :

من استعراضنا السابق ــ للآثار العجيبة التي تركها المنهج الإلهي في عقائد القوم .. ومعارفهم وعلومهم نستطيع أن نقطع ــ بأنه لا يتصور في عقل بشرــ أن يتم هذا التحول في حياة القوم ــ بل في العالم بأسره إلا بمنهج الله الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى .. وإلا بقيادة النبي العظيم الذي طبق المنهج بكل الحزم.. والصدق والثقة والإيمان .. ولذا تمت كلمة ربك صدقا وعدلا فكان من آثار هذا المنهج مجتمع متناسق القوي والملكات على النحو الذي شرحنا من قبل وكان أن انتضحت

القرائح العربية الخصبة انتفاضة الأرض حين يجوثها غيث السماء .. فتنبت من أفانين الزهر والنبات ما لا يدخل تحت حصر ــ وتعطي من يانع الثمار ما يسد حاجة الناس ، كذلك حدث بالنسبة للمواهب العربية حين مازجها هدى الله ..

فقد تحققت كل الكفايات التي كان المجتمع الجديد في حاجة إليها .. و التي كان لابد منها لصنع التقدم!! وتمضي هذه الكفايات ــ مزودة بمنهج ربها ــ حتى تقطع بعيدا في صناعة الحضارة لا تقتصر منها على جانب واحد.. بل تبرع في شتى الجوانب في عالم الأفكار .. وفي عالم الأشياء ، وفي عالم التخطيط والبناء ، ففي هذه الميادين إبداع مثمر خلاق لا يكتفي بسد العوز وإنما يفيض خيره وغيثه على العالم الظامئ إلى قطرة من ماء ..

وتوجد سائر أنواع النشاط الحيوي في هذا المجتمع فالمسلم يعبد الله في المسجد ــ ويحارب العدو في الميدان ، ويصرف السلعة في السوق ، ويحكم بين الناس بالعدل. .

إنه مجتمع العجائب حقا في كل أموره .. ولا غرابة في ذلك فإنه يستقي من نبع الله الطهور !! ولقد كسى العاري ــ وأطعم الجائع ــ وأعطى المحتاج وأوجد العمل لكل قادر ــ وعاقب المنحرف ــ وأقام حدود الله .

مجتمع حل التناقضات الموجودة في داخله بكلمة الله وروح الإسلام . وكان الرسول حريصا كل الحرص على أن يحتفظ لهذا المجتمع بكل ضمانات الوحدة ــ وأن يقتلع جذور الجاهلية الأولى فكان لا يفتأ يردد

" ليس منا من دعا إلى عصبية وليس منا من مات على عصبية "[1]

وعن جابر بن عبد الله قال :

"(كنا في غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار فقال الأنصاري : يا للأنصار !!

وقال المهاجري: يا للمهاجرين !! فقال النبي ﷺ "دعوها فإنها منتنة" [2] ، لقد أوشكت الحرب الأهلية أن تقوم بين المهاجرين والأنصار ، ولكن الرسول الذي يريد الوحدة لقومه .. يردعهم على صنيعهم .. ويبين لهم أن العصبية منتنة .. أي قذرة لأنها قد ماتت مع الجاهلية الأولى .. وهكذا أغلق الرسول كل الأبواب في وجه كل خلاف أو عصبية أو جهالة. وهكذا ماتت العصبية أو كادت .. وتناسقت القوى البناءة لتصنع مجتمع الإيمان..

وكان أصحاب رسول الله أشبه شئ بباقة زهر نضير ـ لكل زهرة عطر .. وكانوا كالحلقة المفرغة في الفضل ـ وكانوا نماذج حية في حسن الطاعة والاقتداء.

وبذا قامت حضارتهم على سواعد الرجال العظماء .. فكانت قوية الدعائم شامخة البناء ..

يقول رينان : [إن بعض الأديان قد أسستها أيدي النساء، ولكن الإسلام قام على سواعد رجال أولي عزم كمحمد ﷺ يعرف فيه كل منصف أنه قدسي الأهداف ـ أنه دين الحزم والجد، دين البساطة

---

[1] رواه أبو داود .

[2] رواه البخاري .

والمساواة والحرية والعدل] ورغم تعدد الأجناس والأمم والعناصر التي دخلت رحاب هذا الدين فإنه قد استطاع أن يستوعب خصائصها – وأن يفجر ملكاتها – وأن يصهرها في بوتقة وأن يصوغها صياغة رائعة .. تعطي من أنفس ما تملك للحياة كلها – وليس لجنس أو عنصر أو أمة ، وأصبحوا جميعا بنعمة الله إخوانا ..

ولم يقل واحد من هؤلاء أنا فارسي، أو رومي، أو حبشي ، لأن أساس التفاضل في الإسلام هو التقوى التي تستقر في القلوب والضمائر .. ولا تتغير الأجناس ولا تتلون بتلون البشرة ..

ولهذا ساد بلال وعمار وصهيب في هذه الدولة الجديدة .. وأصبحوا رسل حضارة للعالم بأسره .. وفجر الإسلام مواهبهم فأعطت الحياة علما وخيرا وإيمانا وعدلا وكرامة !!

إن هذا المجتمع الطيب قد أعطى من نفسه أكثر مما طلب منه، ووصفه الحق تبارك وتعالى بقوله : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [1] " .

إنه مجتمع الإيثار لا الأثرة فقد أعطى من غير أوامر انطلاقا من الإيمان والعقيدة ولهذا جاءت الآية واصفة لا آمرة وهذا من عجائب المنهج الرباني [2].

* * *

---

[1] الحشر : ٩.

[2] راجع تفصيل ذلك في كتاب " قيم حضارية في القرآن الكريم – توفيق محمد سبع – ج ٢ ص ٧٥، ١٣٥ – الطبعة الثانية – دار المنار .

المبحث الثاني والثلاثون

المقارنة الحقيقية بين القرآن والإنجيل

قصدنا من إيراد هذا المبحث وكما نوهنا بذلك في المبحث السابق هو إبراز عظمة القرآن وعظمة القرآن إنما تتجلى فيما يأتي من أمور :

م	القرآن والإسلام	الأناجيل والمسيحية
١	القرآن واحد أنزله الله على رسوله محمد ﷺ وهو ما بأيدينا حتى تقوم الساعة .	الأناجيل ، أربعة أناجيل تم اختيارها من مائة ونيف إنجيلا بعد رفع المسيح بـ ٣٢٥ عاما، واستبعدت باقي الأناجيل وتم الزيادة والحذف كثيرا.
٢	توفى رسول الله وقد ظهر الإسلام كدين خاتم في كل شبه الجزيرة العربية وبعض البلدان خارجها.	رفع المسيح عليه السلام ولم يدخل المسيحية سوى بعض قرى إسرائيل، إلا أن بولس كثر ترحاله وأعلن مسيحية لم يناد بها المسيح.
٣	القرآن كتاب موثوق السند ومتواتر منذ بداية الرسالة وحتى الآن وبنفس اللغة.	فقد إنجيل عيسى وخرجت مذكرات الرسل تروي قصصا عن الدين النصراني واعتبروها مقدسة

		بالرغم من فقد سندها ولا وجـود لنصوص أصلية حتـى المتواجـد بين أيدينا لا تتفق فيه طبعة مـع أخرى.
٤	ثبـات أصـول الشـريعة الإسلامية منذ بدء الرسـالة وحتى الآن.	تغير في الشريعة وإبطال بـولس لناموس عيسى وموسى، وإدخال شريعة لم يقل بها أحد من قبله.
٥	أنزل القـرآن علـى مـن يملكون مفاتيح اللغة العربية ويملكون ناصيتها.	تعددت لغات الأناجيل من آراميـة وسريانية وعبرية ولـم تعـرف توكيدا لغتها الأصلية عدا إنجيـل لوقا الذي كتب باليونانية .
٦	أصول الشريعة محددة ولـم تتغير إلا بـأمر مـن الله أو الرسول فـلا اجتهـاد مـع النص.	أصول الشريعة تعددت وتنوعـت والبعض ألغى الكثير منها.
٧	لـم يقـدس الإسـلام أي صحابي ولم يقـدس حتـى الرسول نفسه ﷺ .	قدسـوا المسـيح والحـواريين واعتبروا تابعي التـابعين أنبيـاء يوحى إليهم.

٨	الله وحده هو الغافر للذنوب ولا وسيط بينه وبين عباده	رئيس الكنيسة أو من ينوبون عنه يملكون غفران الذنوب (الخلاص).
٩	يعترف المسلمون بكل الأنبياء وكتبهم السابقين على الإسلام وهذا من أساس العقيدة الإسلامية.	لم يعترف النصارى بمحمد ولا برسالته وطعنوا في القرآن.
١٠	الله واحد لا شريك له ولا ولد له ولا والد ليس كمثله شئ.	الله ثلاثة عند النصارى وإن اختلف المضمون أو المذهب .

هذا قليل من كثير تتسع له مجلدات ومجلدات ...

ونطرح ذلك على القائل بعدم عصمة القرآن : أفبعد هذا تدعون أن القرآن غير معصوم؟ .

فوربي إنه معصوم حقا، وهو لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وإن ما تقولونه هو الباطل، فدعكم وما تزعمون، ولا تقولوا ما نتبع إلا آباءنا الأولين فهم لن يغنوا عنكم شيئا.

وأقول لكل مسلم قد يوقعه سوء حظه في براثن التنصير: إن كتابك حق، ورسولك حق، ودينك حق، ولتحمد الله بكرة وعشيا أنك مسلم ، ولتحمده كثيرا كثيرا أن إلهك إله واحد، فتقول: الحمد لله أنك إله واحد لا شريك لك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

* * *

المبحث الثالث والثلاثون

والمتمم بمشيئة الله تعالى مباحث هذا الكتاب

إحقاق الحق [1]

وبعد ، فلست أثني على القرآن الكريم إلا بما يشهد بـه التـاريخ وتثني به عليه الأجيال، ولست أنحله من الفضائل إلا ما يقوم الدليل عليه.

إن هذا الكتاب الكريم قبس من نور الله — ونفحة من نفحاتـه — وسر من أسراره، ولم تظفر بمثله أمة من الأمم إلا الأمة الإسلامية — ولم تأت به نحلة من النحل إلا الديانة المحمدية ، وهذا الكتاب ليس مثل كتـب الأخلاق التي وضعها الفلاسـفة المتقـدمون — كجمهوريـة أفلاطـون ، وأخلاق أرسطوطاليس — وكتاب السياسة لـه ولا كتـب الأخـلاق التـي وضعها فلاسفة الغرب — وليس مثله أيضا كتـب الـديانات السـالفة — كالإنجيل والتوراة والزبور — لأن كل أولئك لم تؤثر في أممها أثـره فـي أمته — ولم تفعل في شعوبها فعله في شعبه وفي سائر الشعوب التي دانت له ، لعمري إن هو إلا الأكسير الذي يبحث عنه الفلاسفة وعلماء الكيمياء — إن قصارى هذا الأكسير أن يحيل النحاس ذهبا — أما القرآن فهو يحيل النفس الإنسانية الخبيثة إلى نفس طاهرة علوية — وليس يفعل ذلك فـي فرد بل في شعوب وأمم — ويبدل من الجهل علما، ومن الرذيلة فضـيلة، ويجعل الشعب الذي لا يصلح للاجتماع ولا لأن يعيش أفراده مـع بعـض شعبا اجتماعيا، من خير الشعوب الاجتماعية، وينصبهم على الدنيا سادة،

---

(1) كذا في بحث بعنوان : " تفسير سورة الرحمن" رسالة دكتوراه د/ جمعة علي عبـد القـادر ، ص ١١٣.

ومعلمين ومهذبين، وساسة عادلين، وليس يفعل ذلك في الزمن الطويـل، وعلى الطريق المعروف الطبيعي، بل هو يفعله في الزمن القصير المـدى الذي لا يكفي لتهذيب فرد، بل للأمة بأسرها، مثله في ذلك مثل ما يتخيله علماء الكيمياء من فعل أكسير الذهب الذي يحيل النحاس إلى ذهب وشيك سريعا وهو لا يستحيل إلى ذهب بفعل الطبيعة إلا في آلاف السنين وهـو مدفون تحت الأرض تصهره حرارة قوية في باطنها، وآية ذلك أن العرب كانوا قوما متوحشين في جزيرتهم يأكل بعضهم بعضا كالوحوش الكاسرة والذئاب الهائمة ، كانت الحروب تقوم بين القبيلة والقبيلة فتمكث عشرات السنين حتى تباد القبيلتان، وكان لا يأمن الرجـل أن يسـير فـي طـرق الجزيرة إلا بحلف، أو جوار، أو في شهر حرام، حتى كأن الجزيرة أتـون يأكل من فيها، ولا يصلح أحد للقرار عليها، وكان العرب مع ذلـك علـى أخلاق فظة وعادات قبيحة فكانوا يئـدون البنـات، ويهتكـون الحرمـات ويعبدون الأصنام، وتستعبدهم الأوهام وتملكهم الخرافـات ، فأرسـل الله محمدا ﷺ بذلك الكتاب الكريم الذي قال الله فيه: ﴿ اللَّـهُ نَـزَّلَ أَحْسَـنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [1]ـ فتقص طباعهم الوبيلـة ـ وأبطـل عاداتهم المحكمة وصهر نفوسهم فأزال خبثها ورزائلها ـ وعادت نفوسا كريمة ، لا تعلق بها رزيلة ، ولا تشوبها فاحشة ، وأرسل هـؤلاء البـدو الجفاة على العالم القديم المتعفن البالي يعلمونـه ويهذبونـه، ويثقفونـه ويحكمونه فيقيمون عدل الله في أرضه وقسطاسه في خلقه، وهذه معجزة

---

(1) الزمر : ٢٣.

اجتماعية لم يشهد لمثلها التاريخ .

إن المرء قد يعجزه أن يهذب ابنه وهو حريص على ذلك، مشتغل به ، مقصور عليه، وربما عجز بعض فلاسفة الأخلاق والاجتماع أن يصلح أسرته ، وأن يسوس بيته فتنشز عليه زوجه ويشذ عنه ولده، وتأبى عليه أخلاق ورثوها أن تلين في يده ، وعادات اكتسبوها أن تستحيل كما يريد .

أما محمد بن عبد الله ﷺ فقد قام في الدنيا وحيدا فريدا، الناس كلهم فريق، وهو وحده فريق ، لا ناصر ينصره، ولا ولي في الأرض يؤيده، وليس بيده من أسباب القوة والغلب والسيطرة والسلطان شئ، ولم يكن بيده إلا آيات من ذلك الكتاب، تتنزل من السماء مفرقة، ويرسلها الله منجمة ، ما هذه الآيات؟، وما هذه السور؟ أي قوة تجثم وراءها؟ وأي قدرة تستتر خلفها؟ وأي سر من أسرار الكون تحمله في ضميرها؟ إنها تحمل أعظم قوة في الوجود حتى كأنها القدر، وتشتمل على سر خفي لا يعلم من أمره إلا أنه فوق القوى والقدر، فما أرادت من الوجود شيئا إلا كان كلمح البصر قالت للطباع الوحشية النافرة حولي فحالت، وللقلوب المتحجرة ليني فلانت، وللرزائل النفسية زولي فزالت، ولهذا المجتمع البدوي الذي كان شرا كله، كن خيرا كلك فكان، وكانوا قوما متعادين متباغضين، فزالت العداوة والبغضاء، وكانت قلوبهم مختلفة، وأهواؤهم متنافرة، فألف بين هذه القلوب وجمع هذه الأهواء مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ

قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [1] كانوا قوما يعدو بعضهم على بعض، فأصبحوا يدفعون العدوان عن العالم، وكانوا قوما من شُذاذ الإنسانية ، فأصبحوا قاعدة، وكان لا يستفيد منهم الوجود إلا شرا.. فأصبحوا أجدى الناس فائدة، وكانوا أعداء لأنفسهم وللإنسانية، فأصبحوا أحب الناس للناس ، وأرأف الأمم بالأمم ، وأعدل الشعوب بين الشعوب وكل ذلك في عمر قصير ـ وزمن وجيز ـ يقصر عن أن تراض فيه نفس واحدة .

كان "رستم" إذا رأى المسلمين يجتمعون للصلاة، يقول: ـ أكل عمر كبدي يعلم الكلاب الآداب ـ[2] ليأكل الغيظ كبدك ما شاء، ولتمحقك الضيغينة محقا، فقد قضى الله ولا راد لما قضى ، أن يتعلم هؤلاء الآداب والسياسة والاجتماع والفضائل والأخلاق والعلوم والفنون، وأذن أن تقلب طباعهم، وتحول أخلاقهم، ويكونوا سادة الدنيا، وزينة الأرض، وجمال العالم، بما أحكم لهم من أسباب، وما أنزل إليهم من آيات الكتاب، هكذا فعل القرآن في القديم، وهكذا يفعل في الحديث لو عنى الناس به اليوم، كما عنى به أسلافهم بالأمس، ولو عكفوا على درسه والبحث فيه، واستخراج العبر منه، ولو تخلقوا بأخلاقه وتربوا على آدابه، واستيقنوا بيقينه، ومكنوا لإيمانه حتى يستولى على نفوسهم، فلا تنبعث الجوارح إلا على مقتضى هذا الإيمان .

---

(1) الأنفال : ٦٣.

(2) انظر : نقض مطاعن في القرآن " ص ١٣٢، محمد أحمد عرفة ، تعليق السيد/ رشيد رضا ط : الأولى . مطبعة المنار المصرية .

لو كان هذا الكتاب عند أمة غيرنا لجعلوه ورد الناسك، وكتاب المشرع، وصحيفة الأخلاقي، وقانون الاجتماعي، وأداب السياسي ونموذج البياني.

ولكان كل شئ عندهم، فيستدلون به على كل شئ ، ولكنه منى بنا فلم نعرف له قدره ، كما يجب، ولم نحفل به كما ينبغي، والشئ لا يعطيك خيره إلا على قدر احتفالك به، وإجلالك إياه، ومعرفتك بقدره، واستبصارك بخيره.

أضاعوني وأي فتى أضاعو .. ليوم كريهة وسداد ثغر

كان سلفنا الصالح يعلمون ما في القرآن من خير، وكانوا يرونه هاديا مرشدا إذ توفروا عليه، ولذلك كان هجيرهم القراءة فيه، والتدبر لمعانيه، وكانوا يكرهون أن يشغلهم عنه شاغل، حتى حديث رسول الله ﷺ.

فعن قرظة بن كعب ﷺ قال: لما سيرنا عمر ﷺ إلى العراق مشى معنا عمر وقال: أتدرون لم شيعتكم ـ قالوا نعم مكرمة لنا ـ قال؟ ومع ذلك فإنكم تأتون أهل قرية لهم دوي بالقرآن كدوي النحل، فلا تصدوهم بالأحاديث فتشغلوهم، جردوا القرآن، وأولوا الرواية عن الرسول. وأنا شريككم، فلما قدم قرظة قالوا حدثنا، فقال: نهانا عمر)[1].

قرأت الأمم الأخرى تاريخ القرآن ومبدأ الإسلام وعرفت للقرآن فضله في إنهاض المسلمين ، وعلم علماء الاجتماع منهم ورجال السياسة

---

(١) أخرجه ابن سعد ، كذا في كنز العمال للمتقي الهندي ج٢ باب فضائل القرآن مطلقا من مسند عمر ، ص ١٨٣ أفعال. مؤسسة الرساله ط ١٩٧٩ م .

ورجال التبشير أن المسلمين لو عادوا إلى الاستيقان به والتخلق بأخلاقه والتأدب بآدابه، وتحليل حلاله، وتحريم حرامه لعاد إليهم مجـدهم الأول، فسلطوا عليه المبشرين وصنائع المبشرين لينالوا منـه، وينفـروا عنـه ويرمونه بكل كريهة ليبعد أبناء المسلمين عنه، فيبعد عنهم الخير، بقـدر بعدهم عنه، هذا هو السر فيما تراه من حملات لا تتناهى علـى القـرآن الكريم .

ألا قد بلغت اللهم فاشهد ، ألا قد دللت المسلمين على الثغرة التـي ينحدر منها إليهم أعداؤهم ليتقوها، اللهم فاشهد، ألا قد دللتهم على سـر عظمتهم ، وسبب مجدهم ليسلكوا السبيل إليه ، اللهم فاشـهد . ألا قـد أزحت الستار عن أعدائهم فأريتهم إياهم. وخناجرهم مغمدة في صـدرهم. وأيديهم ملوثة بدمائهم وأفواههم فاغرة إليهم. وأضراسهم وأنيابهم تنهش في لحومهم وأكبادهم. اللهم فاشهد ألا قد بلغت اللهم فاشهد .

* * *

الخاتمة

وبعد أن عشنا مع مباحث هذا الكتاب التي بلغت ثلاثة وثلاثين مبحثا ، من الطبعي أن ينقدح في ذهن القارئ سؤال مهم وهو : هل القرآن معصوم من خطأ المخطئين وزيغ الضالين المضلين ؟ والجواب وبكل تأكيد : "نعم القرآن معصوم" وهذا هو ما يلمسه القارئ في خاتمة هذا الكتاب .

اعلم عزيزي القارئ مسلما كان أو غير مسلم أن القرآن الكريم كان دائما مستهدفا من فرق شتى سواء من الملل الأخرى أو المستشرقين أو أصحاب الفكر الإلحادي ، وقد دأبت هذه الفرق على الطعن والتشكيك فيه، بل إن هناك مقولات عديدة تدلنا على ما تخبئه صدور الكثير منهم ، فمنهم من أعلن عن رأيه في تبجح وغطرسة مثلما قال اللورد كرومر: إن القرآن هو المسئول عن تأخر مصر في مضمار الحضارة الحديثة ، ولن يفلح الشرق ما لم يرفع الحجاب عن المرأة ويغطي به القرآن [١].

ويقول الأب أرنست رينان ــ أحد القساوسة الفرنسيين ــ " إن الشرط الأساسي لكي تنتشر الحضارة الأوربية هو هدم ذلك الشئ الشديد السامية (القرآن) أي : هدم السلطة الإلهية للإسلام ، وهنا تكمن الحرب الخالدة، الحرب التي لن تتوقف إلا عندما يموت آخر أبناء إسماعيل [٢] من الفقر أو أن يتم دفعه رعبا إلى أعماق الصحراء [٣]

---

(١) كتاب مصر الحديثة ــ اللورد كرومر .

(٢) يتصدر الأب أرنست رينان أنَّ انحسار الإسلام في العرب فقط ، المؤلف .

(٣) كتاب حياة يسوع أرنست رينان : د/ زينب عبد العزيز .

إنهم يحقدون على كل ما هو مرتبط بالإسلام حتى الجامع الأزهر لم يسلم من بجاحتهم، فيخرج سلامة موسى صارخا: الجامع الأزهر يبث فينا ثقافة القرون المظلمة، وإذا كانت الرابطة الدينية سخافة فإن الجامعة الدينية وقاحة [1].

نعم إلى هذا الحد. إنني أشبه الإسلام بمجرة كواكب بداخل مركزها شمس ترسل بنورها فتغمر هذه الكواكب بالنور، والقرآن هو هذه الشمس التي تبث النور والحياة، وهم يعتقدون أنهم يستطيعون أو يخيل لهم أن يستطيعوا أن يطفئوا نور هذه الشمس. ويعلن القس (جان كلود باور) عام ١٩٩١ الحائز على جائزة نوبل!! قائلا: " إنه لابد من إعادة صياغة القرآن خلال عقد أو اثنين بمفاهيم عصرية أو على الإسلام أن يختفي" وصدق الله في قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ [2].

هم يريدون تحويل المسلمين إلى أشباه مسلمين، وأكاد أتلمس بيدي يقينا أن هؤلاء يدركون أن القرآن هو حق، وأنهم على باطل، ويريدون أن نترك هذا الحق ونتبع باطلهم: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا ﴾ [3].

---

(١) الإسلام ، أنور الجندي .

(٢) التوبة : ٣٢.

(٣) الكهف : ٥٦.

وأقول : إن عصمة هذا الكتاب الكريم تولاها الله لرسوله - ﷺ - في القرآن في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [1].

أفبعد هذا يشكون في أن أي مسلم يشك ولو في فكره،

إن مهمتنا ليس في حفظ هذا القرآن ، لأن الله قد تولى حفظه، وإن الذي يعنينا من كتابنا هذا هو نوعية المسلم الذي لا يملك من أمر دينه العلم الكافي الذي يحصنه ويغذي عقيدته، فيكون له حصنا منيعا ضد هذه الشرذمة.

يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [2]

أقول : إنهم وإن كانوا قد فشلوا في تغيير النص المحفوظ من قبل الله ، فلا أقل من محاولات دؤوبة في إثارة الشكوك في المعاني، أو التأويل : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [3]

وإذا كانت حركة التنصير تستهدف جذب الإسلام ككل بحيث تصبح الذراري المسلمة نصرانية أو يهودية الوجه واللسان وأن يقوموا بتغيير

---

(١) الحجر : ٩.

(٢) فصلت : ٤١ - ٤٣.

(٣) فصلت : ٢٦.

عقله وقلبه وخلقه ودينه وربما يصبح نصراني الكيان والفكر، وإن لم يصبح نصراني الاسم .

إن هذه التوجهات لا تمل ولا تكل ونحن لا نهاجمهم في شخوصهم ولكننا نهاجم فكرا ونرد على أسئلة يطرحونها على مسلم فلا يملك لها إجابة فتكون لهم النصرة المزيفة .

إن القرآن وكما هو معلوم لدينا معجزة الرسول ﷺ وقد أنزلت الآيات المبينة والمتحدية بهذا الإعجاز لكل البشر على مر الزمان وحتى قيام الساعة وجاء التحدي في ثلاث وقفات متدرجة.

يقول ابن كثير [1] : إن الله تعالى تحداهم ودعاهم إن كانوا صادقين في دعواهم أنه من عند محمد فليعارضوه بنظير ما جاء به وحده وليستعينوا بمن شاءوا ، وأخبروا أنهم لا يقدرون على ذلك ولا سبيل لهم إليه، فقال تعالى: ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [2].

ثم تقاصر معهم إلى عشرة سور منه فقال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [3]

ثم تقاصر مرة ثانية فقال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾[4].

---

(1) تفسير ابن كثير ج١ ص ٥٩.

(2) الإسراء : ٨٨.

(3) هود : ١٣.

(4) يونس : ٣٨.

وهكذا جاء التحدي ، وهكذا جاء الإعجاز بأن يأتي أحد من البشر بمثله أو حتى بسورة واحدة، ومن يملك من البشر أن يقف أمام هذا التحدي.

ثم نأتي للإعجاز الآخر، والذي هو في مثل الإعجاز اللغوي. وهو أمية الرسول ﷺ ، فإذا التقى إعجاز اللغة مع هذه الأمية كانت المعجزة كاملة متكاملة بكل المقاييس ، وهي ليست بقوة معجزات موسى عليه السلام أو عيسى ؛ لأن معجزات موسى وعيسى في الرأي هو شئ مخالف للناموس، فمثلا إذا حول موسى العصا إلى ثعبان يلتهم ثعابين السحرة، كان هذا مخالفا للناموس الطبيعي، لأن ما أتى به موسى من معجزات لا يأتي به أحد حتى السحرة: ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾[1] .

فلو تمعنا هذه الآية لوجدنا أن السحرة لم يخالفوا الناموس في تحويل ما بأيديهم إلى ثعابين إنما خيل إليهم أنها تسعى، وهؤلاء السحرة يعلمون حقيقة أنهم لا يستطيعون مخالفة الناموس أو خرق طبيعة الأشياء ، إلا أن مخالفة هذا الناموس وخرق طبيعة الأشياء جاءت على يد موسى بمشيئة الله .

﴿ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [2]

هنا أدرك السحرة الواقع، فهم يعلمون ويدركون أن هذا ليس بسحر جاء

---

(١) طه : ٦٦.

(٢) طه : ٦٩.

به موسى بل معجزة، والمعجزة لا تأتي من بشر فكان رد فعلهم الطبيعي: ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ (١)

ثم هدد فرعون السحرة أن يرجعوا وتوعدهم ولكن أين التهديد والوعيد لمن أيقن ورأى المعجزة : ﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ (٢)

تلك كانت معجزة خولفت فيها الطبيعة فتحولت العصا إلى ثعبان كبير.

وهو نفس ما جاء به عيسى ﷺ : ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي ﴾ (٣).

معجزات بإذن الله وهي معجزات وآيات أجراها الله على يد موسى وعيسى فخولفت فيها الطبيعة فماذا عن معجزة رسولنا – ﷺ – القرآن الكريم – كتاب كتب بلغة عربية ، أنزله المولى سبحانه بين الناس فيفهمونه ويفهمون لغته،أناس كانوا يملكون اللغة، وشعرها ونثرها، ولهم معلقاتهم على الكعبة قبل البعثة، بل إن أسواق العرب كانت تشهد صولاتهم وجولاتهم في اللغة، وتقام الندوات بلسان عربي مبين يتناول فيه الشعر من فحول شعراء العرب.

---

(١) طه : ٧٠.

(٢) طه : ٧٢.

(٣) المائدة : ١١٠.

ثم جاء الإعجاز ، رجل منهم لم يقل شعرا أو ينظمه ولا حتى نثرا، بل وتكتمل المعجزة أنه أمي لا يقرأ ولا يكتب ويفاجئ الجمع أن هذا الرجل الأمي قد أوحى إليه كتاب بلغتهم التي يملكونها وتحدى هذا القرآن أقطاب اللغة وفحولها عندهم، وكما سبق القول فها هو عتبة بن ربيعة يذهب مندوبا عن قريش ليجادل الرسول ﷺ ويعرض عليه الملك والمال والسلطان، فيقول له الرسول ﷺ : " فرغت؟ " قال عتبة : نعم، قال الرسول ﷺ :

" بسم الله الرحمن الرحيم حم (١) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾. إلى أن بلغ قول الله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾[1].

فقال عتبة: حسبك، ورجع إلى قريش فقالوا: ما وراءك؟ قال: ما تركت شيئا أرى أنكم تعرضونه إلا عرضته عليه، قالوا: فهل أجابك ؟ قال: نعم. ثم قال: والذي نصبها بنيه ما فهمت شيئا مما قال غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود. قالوا: ويلك يكلمك الرجل بالعربية لا تدري ما قال؟ قال: لا والله ما فهمت شيئا مما قال غير ذكر الصاعقة [2].

هذا هو الإعجاز .. الإعجاز في قول أحد أقطاب الشرك: "والله إن لقوله الذي يقوله حلاوة، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه، وإنه ليحطم ما تحته".

---

(١) فصلت : ١ ــ ١٣.

(٢) البداية والنهاية ــ ابن كثير . ج٣ /ص ٦٨ ب/ مجادلة المشركين رسول الله ﷺ وإقامة الحجة الدامغة عليهم ط الفجاله بالقاهرة ــ ت محمد عبدالعزيز النجار .

شهادة من هذه ؟ شهادة الوليد بن المغيرة، أحد أقطاب الشـرك .

إنه يعترف بالإعجاز، إن الله تعالى تحدى البشر جميعا حاضرا ومستقبلا: ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُـوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَـنْ تَفْعَلُـوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [١].

قمة التحدي الجازم والحسم بعدم الفعل مستقبلا ﴿ ولن تفعلوا ﴾ .

أما إعجاز الرسول فكونه لا يقرأ ولا يكتب، ولا يعلم من الشعر أو النثر أو حتى اللغة ودروبها. فالتقى إعجاز القرآن مع أمية الرسـول ﷺ في وسط من يملكون اللغة العربية. وجاء الاختلاف بين معجـزة موسـى وعيسى لأنهما لم يملكوا أسبابها، بل جاءت بالمشيئة الإلهية على يـدهم، ولم يكن قومهما يملكون أسبابها وحتى عندما ادعى السحرة أنهم يملكون أسباب السحر قال الله لموسى :

﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَـفْ مَـا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [٢]

إنهم في الحقيقة لا يملكون الأسباب، بل ادعـوا أنهـم يملكونهـا فأعجزهم الله، أما معجزة الرسول الكريم ﷺ فهي هذا القرآن الذي جاء وسط قوم يملكون أسباب اللغة ويعرفون ناصيتها، فتحداهم الله أن يـأتوا بسورة من مثله ، ولكن هيهات، ويتساءلون بعـد ذلـك : هـل القـرآن معصوم؟ .

---

[١] البقرة : ٢٣ ـــ ٢٤.

[٢] طه : ٦٨ ـــ ٦٩.

إننا ندرك حقيقة أن كل كتبهم حرفت ولا مصدر لها، وندرك المعاناة، لأن اعتراف علماء اليهود والنصارى بذلك ليس هينا عليهم، لذا فقد أرادوا أن يزرعوا الشك في القرآن أو يزرعوا أنه كتبه بشر.

إن البشر يصيب ويخطئ أما إن كان منزلا من عند الله فبالطبع لا مجال للتشكيك فيه، وإنجيل عيسى فُقد أو أُفقد عمدا، وأنا أميل لهذا، لأسباب كثيرة ومتعددة وهو ما حدث للنصارى بعد رفع السيد المسيح على يد اليهود ثم زرعهم لبولس وتغييره الكامل لما جاء به إنجيل عيسى والأسباب معروفة هو عدم علو دين جديد على اليهودية. كان لابد من تخريبه من الداخل، فأفقد إنجيل عيسى وأقحموا من ادعى القداسة وأنه جاء بعد رؤيته ليسوع، وقد نجح اليهود في ذلك إلى أبعد الحدود وادعت النصارى بعدم وجود إنجيل أنزل على عيسى، إلا أن القرآن المعصوم أنبأنا بهذا: ﴿ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ [1].

ربما يخرج علماء النصارى فيقولون : البينات لا تعني الإنجيل وربما بينات شفوية علمها له الروح القدس. فنقول لهم: أنبأنا الله سبحانه وتعالى في القرآن المعصوم: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [2].

فيخرج منهم من يقول: إن كلمة إنجيل في هذه الآية لا تعني أيضا كتابا ؛ لأن المعاجم العربية تقول: إن كلمة إنجيل كلمة يونانية معناها

---

(١) البقرة : ٨٧.

(٢) المائدة : ٦٨.

البشارة فهي في هذه الآية تعني البشارة أيضا. فنقول لهم: إن هذا القرآن المعصوم أثبت بما لا يدع مجالا للشك أو التأويل في آيتين كاملتين يؤكد ما كتبته أناجيلهم . ألم يقل إنجيل متى: " لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ما جئت لأنقض بل لأكمل " [1].

ولوقا: " ولكن زوال السماء والأرض أيسر من أن تسقط نقطة واحدة من الناموس " [2] . هذا قولكم في أناجيلكم.

فجاء القرآن ليثبت هذا ويثبت أنه حقا معصوم :

﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (٤٦) وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [3]

الحق واضح وضوح الشمس، جاء عيسى بعد موسى ولم ينقض أو يلغي شريعته، بل جاء مصدقا لها وآتاه الله كتاب الإنجيل فيه الهدى والنور، لذلك على أهل الإنجيل أن يحكموا بما أنزل (من النزول) فيه، ومن لم يحكم بهذا فهو من الفاسقين.

صدق الله العظيم ، وصدق حقا هذا القرآن المعصوم.

هذا والحمد لله رب العالمين ، والله من وراء القصد .

وصلي الله وسلم وبارك على من أنزل عليه قوله:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾

---

(1) متى ـ إصحاح ١٧. (2) لوقا ـ إصحاح ١٦ ـ ١٧. (3) المائدة : ٤٦ ـ ٤٧.

غراس وثمـــار

قصدنا من هذا العنوان أن نبرز للقارئ ما خلصنا إليه من قضايا ظهـرت لنا من خلال مباحث هذا الكتاب وإن شئت فقل بلغة العصـر نتـائج هـذا العمل .

وبعد فقد ظهر للقارئ الكريم على طول هذا العمل أن هؤلاء المشـتبهين علي القرءان ليس لهم منهج يعتمدون عليه إلا المغالطة وتلبـيس الحـق بالباطل وظهر كذلك إعجاز كتاب الله عز وجل، هذا الكتاب المحفوظ بحفظ الله المعصوم من الخطأ ، وصدق الله إذ يقول: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [1].

أهم النـتائج

١ــ رد الشبهات علم من علوم القرآن يحتاج إلى مزيد اهتمـام مـن الباحثين.

٢ــ رد الشبهات منهج قرآني وضع القرآن ضـوابطه، وقـدم نمـاذج كثيرة عليه ، وكذلك اهتمت السنة برد الشبهات ورسمت منهجا في ذلك.

٣ــ رد الشبهات من أهم الدوافع لبيان إعجاز القرآن .

٤ــ رد الشبهات كان الدافع الأول لنشأة علم الكلام .

٥ــ رد الشبهات من العلوم البينية التي تساعد علـى إعـادة الـدورة الدموية للعلوم الإسلامية صياغة عصرية توافق مشكلات العصر.

---

(١) الحجر : ٩

٦ـ رد الشبهات مجال تطبيقي جيد لقواعد العلوم الإسلامية التي ذكرت في كتب العلماء ؛ بل والتي هي مخزونة في أم رءوسهم.

٧ـ في دراسة الشبهات والرد عليها استنباط مناهج جديدة وضوابط للفهم البشري للقرآن الكريم.

٨ـ تسلك الإرساليات التبشيرية وسائل متعددة في خداع المسلمين ، وتشكيكهم في دينهم ، ولعل أخطرها تلك المطبوعات التي مظهرها ملفت للانتباه إذ توحي بأن الكتاب إسلامي، وأن الأقوال التي فيه مصدرها القرآن والسنة ؛ فهي تلوي أعناق النصوص.

٩ـ القرآن معصوم في نقله، وفي بيانه منسجم مع العقل.

١٠ـ هذه الشبهات راجعة في معظمها إلى المشتبه ، وأخلاقه العلمية، وتحيزه، وثقافته الضحلة عن الإسلام.

١١ـ التحيز للمعتقدات السابقة، وترك الموضوعية، والدخول إلى البحث بنتائج، والترصد والتصيد، وترك روح البحث العلمي النزيه سمة المشتبهين عموما.

١٢ـ القرآن الكريم كلام الله ـ عز وجل ـ المعصوم من وقوع الخلل والخطأ ، وكلام المفسرين الذي هو جهد بشري عرضة للصواب والخطأ ، فالتفسير هو مقاربات بشرية لفهم المعاني القرآنية. وهومتأثر بعوامل الزمان والمكان والثقافة، وكتاب الله ـ عز وجل ـ فوق المكان والأشخاص والأقوال والنظم والأحداث.

١٣ـ يتضح من التعامل مع المدعي المشتبه وغيره أن العقلية النصرانية تتميز بإيمانها بالخرافات التي لا يمكن للعقل تصديقها، وليس أدل على ذلك من الكتاب المقدس، وما فيه من قصص

أسطوري لا يقبله العقل، ولكنهم يقدسونه، وذلك فإن آباء الكتبة الأول كانوا يحذرون على الشعوب الإطلاع على الكتاب المقدس، كما حرموا ترجمة الكتاب إلى لغات أخرى فترة من الزمن .

١٤ـ القصص القرآني مشتمل على حيثيات وملابسات دقيقة هي في غاية الإعجاز ، وفي الدلالة على تنزيله من حكيم خبير؛ فهي تشتمل على حيثيات الثبوت.

١٥ـ إن العقلية الغربية بما درجت عليه من إنكار الخالق والرسالة والوحي، واعتماد المادة مصدرا للمعرفة لا يمكن أن تأتي بنتائج صحيحة في تاريخ الأنبياء للشرقيين.

١٦ـ ليس التاريخ حاكما على القرآن بل محكوم به؛ لأن التاريخ فعل البشر، والقرآن الكريم كلام الله المعصوم.

١٧ـ ليس الكتاب المقدس إذا خالف القرآن في شئ حجة، لما حدث له من انقطاع في السند وتحرف في النقل.

١٨ـ القرآن الكريم معجز فيما وافق فيه الكتاب المقدس، ومعجز فيما خالف فيه الكتاب المقدس.

١٩ـ الدعوى بلا دليل تهمة وهذه سمة كل مشتبه لا يملك أن يقيم دليلا على ما يقول، والدعاوى إذا لم يقيموا عليها بينات فأصحابها أدعياء.

٢٠ـ إن قواعد الإسلام كل متكامل تفهم بأكملها ، ولا يؤخذ منها طرف ويترك الباقي.

وبعــــــــد

فإني من خلال هذه الإطلالة مع هذا العمل الذي سبقت مباحثه والتي تحمل في طياتها رداً بل ردوداً على ما اشتبه على القرآن الكريم أقول:

بدا لي أن هناك عدوانا كبيرا على الإسلام، ولذا وجب على علمـــاء هــذه الأمة المختارة أن يقفوا في وجـــــه هذا العدوان ، وهذا الوقوف يتضمن ما يأتي من أمور وتوصيات:

١ـ إعداد جيل من الباحثين يستطيع الرد على شبهات المشتبهين على القرآن الكـــريم ســـواء؛ مـــنهم المبشـــرين أو المستشـــرقين أو المستغربين إذ يقصدون أن يدكوا حقائق الإسلام الكلية، والثوابت التي لابد من وضوحها.

٢ـ استيعاب كبار العلماء لهذه القضايا والتأليف فيها وتدريسها لسائر المسلمين حتى يدركوا عصرهم، ويعلموا ما يجــب علـــيهم تجـــاه دينهم .

٣ـ إنشاء عمل جماعي منظم يقوم بالرد على هؤلاء وبيـــان صـــورة الإسلام الناصعة والصحيحة .

٤ـ التنظير لعلم رد الشبهات وهو من علوم القـــرآن ببيـــان مبادئـــه وقواعده وضوابطه ومسائله والمؤلفات التي وضعت فيـــه قـــديما وحديثا .

٥ـ وضع استراتيجية لرد الشبهات وبيان حقـــائق الإســـلام بصـــورة واضحة، وبيان مراحل العمل فيها ، وسمات كل مرحلة ، وإســـناد العمل في كل مرحلة لفريق من الباحثين.

٦ــ التنظير لفكر ضوابط التفسير، وهو علم يضع الضوابط التي تحكم الذهن البشري في فهم القرآن الكريم .

٧ــ التنبيه لأهمية الحوار مع الآخر، وكشف ما لديه من معلومات عن الإسلام وتصويب الخطأ منها ، وبيان أدب هذا الجواب وضوابطه .

بمثل هذه الأشياء والتي سبق استعراضها نكون قد قمنا بما ينبغي صنيعه لأفضل كتاب أنزله الله على أعظم نبي ، والقرآن الكريم سوف يظل كما هو حيث أراد الله له .

والله من وراء القصد .

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

انتهيت بتوفيق الله تعالى من إعداد هذا الكتاب في يوم السبت ٢١ جمادي الأولى ١٤٢٧هـ الموافق ١٧ يونية ٢٠٠٦م.

القاهرة ــ الأميرية ــ ٢ ش ربيع جودة من شارع التحرير

المؤلف

أ.د/ جمعة علي عبد القادر

التعريف بالمؤلف وكتبه

مؤلف هذا الكتاب

اسمه : جمعة علي عبد القادر يرجع ميلاده إلى سنة تسع وأربعين وتسعمائة وألف، من مواليد قرية طملاي، من قرى محافظة المنوفية من الله عليه بنعمة البصيرة وهو في العام السادس لميلاده، أهلته هذه النعمة لأن يتعلم القرآن الكريم فيحفظه بتوفيق الله وهو ابن سبع، وجوده على رواية حفص، وأراد الالتحاق بالمعهد الأزهري إلا أنه كان في هذا الوقت صغيرا فكان هذا دافعا له لأن يضيف إلى تجويده للقرآن رواية أخرى وهي ورش.

ولما بلغ عمره دون الثانية عشرة بقليل التحق بالمعهد الأزهري. وكان من الموفقين في دراسته ، وحصل على شهادة الابتدائية الأزهرية، التي سميت فيما بعد بالإعدادية ولا يحصل على هذه الشهادة إلا من درس بالمعاهد الأزهرية أربع سنوات، وواصل السير في هذا المعهد الأزهري حتى حصل على الثانوية الأزهرية، وكانت مدة الدراسة في هذا القسم الثانوي خمس سنوات، ووقتها كانت التجربة الأولى في أن يؤدي المكفوفون امتحاناتهم تحريريا في كل المواد تقريبا، وقد حظى بتوفيق الله سبحانه وتعالى، وكان الأول على مكفوفي هذا المعهد.

فحصل على شهادة الثانوية سنة تسع وستين وتسعمائة وألف من معهد منوف الديني، وحقق الله له ما كان يرجوه، وهو أن يكون من الطلاب الذين ينتسبون إلى كلية أصيلة لها قصب السبق في جامعة الأزهر، إنها كلية أصول الدين، وعندما التحق بهذه الكلية العتيقة نعم

أيضا بتوفيق الله سبحانه وتعالى فحصل على شـهادة الإجـازة العاليـة (الليسانس) من قسم التفسير وعلوم القرآن سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة وألف، وفي هذا التاريخ كان لا مفر وقتها من أن يعمل خريجـوا أصـول الدين بوزارة الأوقاف كأئمة وخطباء وهذه نعمة يحظى بها من تخرج من كلية أصول الدين لا سيما إذا كان حقل الدعوة الذي يعمل به يتناسب مـع حياة الداعي، ونظرا لأن الدعوة إلى الله الشأن فيها أنها جهاد تحتاج من الداعي إلى صبر وجلد ومثابرة، فقد تم تعيينه في قرية نائية عن العمران وقد عمل بها إماما وخطيبا، وحظى بإعجاب من يصلون خلفه ويستمعون إلى خطبه.

وقد كان يرغب في أن يواصل دراسته بالدراسات العليا لا سـيما وأن تقديراته بكلية أصول الدين كانت بمرتبة "جيـد جـدا" وبعـد عملـه بالأوقاف قرابة شهر واحد حظى بأن يكون من المكلفين من قبـل كليـة أصول الدين بالعمل فيها معيدا، وواصل الدراسة من جديد فحصـل علـى شهادة الماجستير سنة خمس وسبعين وتسعمائة وألف وكان التقدير أيضا "جيد جدا" ، وبالجهد الدؤوب والمكابدة في سبيل تحصيل العلـم لا سـيما لرجل له هذه الظروف الخاصة أمل أن يحقـق الله لـه الأمـل المنشـود فيحصل على شهادة الدكتوراة بمرتبة الشرف الثانية، تحـت عنـوان: [تفسير سورة الرحمن] وكان ذلك سنة ثمان وسبعين وتسعمائة وألـف، ومن يمن الطالع أن ليلة مناقشة هذه الرسالة اتفقت قضاء وقدرا مع ليلة القدر من شهر رمضان.

ولم يقف جهد الباحث في هذا الميدان على الحصول على الدكتوراه وإنما مواصلة البحث ومواكبة العلم كانت سببا في حصوله على درجـة "

أستاذ مساعد " سنة أربع وثمانين وتسعمائة وألف ، وكان وقتها يعمل بكلية البنات بالمدينة المنورة كمعار لها من قبل جامعة الأزهر، وها هو الآن يعترف بالجميل للكلية التي خرجته فيعمل بها أستاذا بعد أن حصل على درجة الأستاذية سنة تسع وثمانين وتسعمائة وألف والأمل في الله كبير أن يمنحه مزيدا من التقدم.

ثم عمل الأستاذ المذكور بكلية آداب البنات بالدمام - المملكة العربية السعودية كأستاذ بقسم الدراسات الإسلامية بها، طيلة ست سنوات في صدر التسعينيات، ومن بين الأعمال العلمية التي شارك فيها إشرافه على رسالة الماجستير في القسم السالف الذكر وهي بعنوان :
[أسماء سور القرآن الكريم وعلاقة الاسم فيها بالمسمى] مع تحقيق المسألة فيما قيل في فضلها.

كما ناقش رسالة لنيل درجة الدكتوراة وكانت بعنوان: [إسماعيل وإسحاق ـ عليهما السلام ـ بين القرآن الكريم والعهد القديم] وها هو الآن يؤدي رسالته في جامعة الأزهر.

قصدنا من هذا العرض السريع التعريف بالمؤلف حتى يعرف كل باحث أن الجد والاجتهاد هما سببان لنيل المطالب، وما أجمل قول القائل:

ومن طلب العلوم بغير كد   سيدركها إذا شاب الغراب

ولن يشيب الغراب، ولن تحصل العلوم إلا بالصبر عليها بشرط أن ينعم الباحث بتوفيق الله سبحانه وتعالى بعد أخذه بالأسباب، فهناك فرق بين التوكل والتواكل، هكذا تعلمنا من الأزهر الشريف الذي نرفع أكف الضراعة إلى الله سبحانه وتعالى لأجله أن يصونه من المشككين في مكانته ومنزلته، كما أدعو الله عز وجل، أن يبارك فيمن ساعدني منذ

بدايتي حتى صرت رجلا من الذين ينتسبون إلى جامعة الأزهر الشريف، وأخص بالذكر والدي الذين وقفا بجواري في أيام كانت عصيبة حالكة لولا لطف الله اللطيف، كذلك أدعو بالرحمة لمن كان سببا في أن أكون من أهل القرآن معلمي الأول، كذلك أدعو الله عز وجل لكل معلم أمدني بكلمة راجيا من الله أن ينعم على الجميع بتوفيقه ورحمته.

* * *

كتب للمؤلف

ونظرا لأن طبيعة عمل المؤلف وميدان تخصصه دراسة القرآن الكريم ومدارسة قضاياه ، كان منهاجه في هذا الخصوص دائرا بين تفسير القرآن الكريم وقضاياه التي ينتظمها علم مدون تحت عنوان علوم القرآن جاءت كتبه ومؤلفاته في هذا الإطار وكانت كتبه في مادة تفسير القرآن تتسم بالمنهجية التي اكتسبها من تعليمه بالأزهر، فهو عندما يقف أمام نص قرآني فإنما يعني فيه بالتفسير التحليلي وهذا التفسير التحليلي من طرقه الكشف عن مفردات النص وإبراز ما فيه من لغة، وبلاغة، ومناسبة، واستنباط أحكام، هذا المسلك الذي ترسمه يجده القارئ بارزا في هذه المؤلفات.

أولا : التفسير

١ــ الأفنان في تفسير سورة آل عمران .. جزء أول.

٢ــ الأفنان في تفسير سورة آل عمران .. جزء ثاني.

٣ــ الأضواء في تفسير سورة النساء .. جزء أول .

٤ــ الأضواء في تفسير سورة النساء .. جزء ثاني.

٥ــ الإيضاح والبيان في تفسير سورة البقرة.

٦ــ الإيضاح والبيان في تفسير سورة الشورى.

٧ــ تفسير سورة غافر.

٨ــ تفسير سورة فصلت .

٩ــ " س و ج " في تفسير سورة الأعراف.

١٠ـ الإتحاف في تفسير سورة الأعراف.

١١ـ تفسير سورة الرحمن.

١٢ـ شرح الصدور في تفسير سورة النور.

ثانيا: وفي الجانب الثاني

ويقصد به ما دونه المؤلف وكتب عنه في علوم القرآن، كانت للمؤلف كتب وأبحاث منها

١٣ـ فيض الرحمن في علوم القرآن.

١٤ـ أساس البنيان في علوم القرآن.

١٥ـ بحث بعنوان: "المحكم والمتشابه في القرآن".

١٦ـ زاد الراغبين في مناهج المفسرين.

١٧ـ بحث بعنوان " الله يتجلى في خلق الإنسان".

١٨ـ بحث بعنوان "ترجمة القرآن الكريم ودراسة قضاياه".

١٩ـ كتاب جلال الفكر في التفسير الموضوعي لآيات من الذكر، وهو كتاب يتضمن جملة من المباحث في التفسير الموضوعي لكتاب الله ـ عز وجل ـ .

٢٠ـ معالم سور القرآن الكريم وإتحافات درره ، نظرة جديدة في التفسير الموضوعي، مجلدان . وهو يتضمن تفسيرا موضوعيا للقرآن الكريم سورة سورة .

٢١ـ مع هؤلاء الأعلام والأحرف المقطعة .

٢٢ـ الدخيل بين الدراسة المنهجية والنماذج التطبيقية .

٢٣ـ الكتاب الماثل بين يدي القارئ، وهو [دفع شبهات المفترين حول القرآن الكريم] ، وللمؤلف ثلاثة أبحاث أخرى بموسوعة آل البيت بدولة الكويت .

أ ـ سلمان الفارس ﷺ

ب ـ خباب بن الأرت ﷺ

ج ـ زينب بنت علي رضى الله عنهما .

والمؤلف إذ يقدم هذه النماذج من مؤلفاته للقراء يسأل الله عز وجل الأجر على تحصيل العلم ، كما يسأله التوفيق لطلبة العلم وقرائه .

والله من وراء القصد .

* * *

من أعمال المؤلف العلمية

هذا وللمؤلف أعماله العلمية التي تتصل برسائل الجامعة، بين إشـراف ومناقشة .

فقد أشرف وناقش عددا من الرسائل، حصل من خلالها أصـحابها على مرتبة الماجستير أو الدكتوراه، وها هي رسائل الدكتوراه والماجستير التي أشرف عليها وناقشها.

أولا : رسائل الدكتوراة

١ـ القرآن والتفسير في شبه جزيرة ماليزيا منذ أوائل هذا القرن إلـى الآن " عرض وتحليل" .

٢ـ التيسير في علم التفسير، للإمام الفقيه عمر بن محمد بـن أحمد النسفي السمرقندي، المتوفى سنة ٥٣٧هـ "دراسة وتحقيق مـن أول سورة النور إلى آخر سورة الزمر" مجلدان.

٣ـ حمكا وجهوده في تفسير القرآن الكريم بأندونيسيا في كتابه الأزهر

٤ـ التيسير في علم التفسير للإمام عمـر النسـفي المتـوفى سـنة ٥٣٧هـ " تحقيق ودراسة من أول سورة الفاتحة إلى قوله تعالى: ﴿ تلك الرسل ﴾ من سورة البقرة . جزءان .

٥ـ الدخيل في تفسير التبيان للطوسي ، من أول الفاتحـة إلـى آخـر النساء .

٦ـ الدخيل والإسرائيليات في تفسير الإمام محمد بن جرير الطبـري ، من الجزء ١٢ إلى الجزء ١٥ [ثلاثة أجزاء].

٧- الدخيل في تفسير فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير للشيخ محمد بن علي الشوكاني من سورة الأنعام إلى آخر سورة الإسراء .

٨- التفسير والمفسرون في غرب إفريقيا .

٩- العلامة أبو السعود ومنهجه في التفسير.

١٠- عيون التفاسير للفضلاء السماسير، للإمام شهاب الدين أحمد بن محمود السيواسي ، من أول سورة سبأ، حتى سورة الناس.

١١- الدخيل في تفسير الإمام القرطبي، من أول سورة ص، حتى سورة الناس .

١٢- حاشية الحافظ السيوطي على تفسير البيضاوي، من أول سورة آل عمران ، حتى آخر سورة الأعراف .

١٣- الدخيل في تفسير الدر المنثور للسيوطي ، من أول سورة الفاتحة ، حتى قوله تعالى : ﴿ أفتطمعون ﴾ من سورة البقرة.

١٤- الدخيل في تفسير ابن أبي حاتم ، من أول الجزء الثاني والعشرين ، حتى الجزء الرابع والعشرين .

١٥- التأويل لدى السبئية وأشباههم .

١٦- الدخيل في تفسير البغوي ، من أول الفاتحة إلى آخر الكهف.

١٧- إسماعيل وإسحاق في القرآن الكريم والعهد القديم.

١٨- الدخيل في تفسير الإمام القرطبي، من أول سورة يس، إلى آخر سورة الناس.

١٩- شبهات المبشرين حول القرآن الكريم وعلومه رد على المائة والأربعين شبهة الأخيرة من كتاب " هل القرآن معصوم؟ ".

٢٠ـ منهج القاضي شهاب الخفاجي وآراؤه في التفسير من خلال حاشيته على تفسير القاضي البيضاوي المسماة "عناية القاضي وكفاية الراضي" .

٢١ـ تفسير القرآن الكريم ، لعبد الحليم حسن وآخرين ، " دراسة منهجية وتعريب للجزء الأول من القرآن الكريم" .

وغيرها من الرسائل التي لما تكتمل بعد، بل هي قيد الدراسة.

ثانيا : رسائل الماجستير:

١ـ الدخيل في تفسير الطبري المسمى " جامع البيان من تأويل آي القرآن " لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، الجزء الثالث والرابع.

٢ـ آيات النداء في القرآن " دارسة موضوعية" .

٣ـ سيدنا أيوب ﷺ في ضوء القرآن الكريم والتوراة والإنجيل.

٤ـ كتاب "المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز " لشهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي، المعروف بأبي شامة ، المتوفى سنة ٦٦٥هـ " تحقيق ودراسة " .

٥ـ تفسير آيات الصيام .

٦ـ منزلة العمل في الإسلام كما يصورها القرآن الكريم .

٧ـ هود وصالح في القرآن الكريم .

٨ـ دراسة وتحقيق لمخطوطة أبي الليث السمرقندي المتوفى سنة ٣٧٣هـ من أول سورة الذاريات حتى نهايات سورة الناس.

٩ـ التيسير في علم التفسير للإمام أبي حفص النسفي ، المتوفى سنة ٥٣٧هـ " تحقيق ودراسة " من أول سورة الواقعة إلى آخر سورة المرسلات .

١٠ـ ذكر الله عز وجل في القرآن الكريم .

١١ـ منهج الإسلام في إصلاح الأسرة في ضوء سورة النساء "دراسة مقارنة بالقانون الأندونيسي" .

١٢ـ البركة والزيادة في ضوء القرآن الكريم .

١٣ـ أسماء سور القرآن وعلاقة الاسم فيها بالمسـمى ، مـع تحقيـق المسألة فيما قيل في فضلها .

١٤ـ الرد على مائة شبهة من كتاب [هل القرآن معصوم ؟] .

١٥ـ تحقيق ودراسة للجزء العشرين والحادي والعشرين مـن تفسـير الحافظ الهكاري .

١٦ـ السر القدسي في تفسير آية الكرسي.

١٧ـ البشرى في القرآن الكريم .

١٨ـ تفسير السمرقندي من أول سورة الذاريات حتى آخر سورة الناس

وهناك رسائل أخرى قيد الإشراف والمناقشة .

والله نسأل أن يوفقنا من خلال ما عرضنا إلى خير طريق وأقوم سبيل .

والله من وراء القصد .

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلـى آلـه وصـحبه وسلم.

أ٠د/ جمعة علي عبد القادر

رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن

كلية أصول الدين جامعة الأزهر. القاهرة

عضو اللجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة

فهرس

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
٢٠٠٦/١٧٥٠٣
مطبعة رشوان

